لجنة التأليف والترجمة والنشر

أسباب الحرب العالمية

بعد فاجعة سيراجيفو

بقلم

سيدني برادشو فى
SIDNEY BRADSHAW FAY
أستاذ التاريخ الاوربى الحديث بجامعة هارفارد

نقله عن الأنجليزية

محمود ابراهيم الدسوقى

الجزء الثانى

الأسباب المباشرة للحرب

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر

لجنة التأليف والترجمة والنشر



بقلم

سيدنى برادشو فيه

SIDNEY BRADSHAW FAY

أستاذ التاريخ الاوربى الحديث بجامعة هارفارد.

نقله عن الانجليزية

محمود ابراهيم الدسوقى

الجزء الثانى

الأسباب المباشرة للحرب

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر

فهرس الكتاب

الجزء الثانى

الفصل الأول

صفحة

الغراندوق فرانتس فردينـاند ٣
فرانتس فرديناند والجيش ٧
آراء فرانتس فرديناند السياسية ١٢
زواج فرانتس فرديناند ١٦
اجتماع كونوبشت : الخرافة والواقع ١٩
نزهة سيراجيفو ٢٤

الفصل الثانى

مؤامرة القتل ٢٩
افشاءات جديدة ٣٢
نارودنا أودبرانا ٤٢
اليـد السوداء ٤٩
الحركة الثورية فى البوسنـه ٥٢
اعداد المؤامرة فى بلغراد ٥٩
رحلة القتلة ٦١
جريمة الاغتيال ٦٣

الفصل الثالث

تبعة جريمة سيراجيفو ٦٧
بواعث القتـلة ٦٧

صفحة

المسيو باشتش ونارودنا أودبرانا ٧٠
اهمال صربيا فى القبض على الشركاء ٧٣
هل حذرت صربيا النمسا ؟ ٧٥

الفصل الرابع

أسطورة مجلس بوتسدام ٨٦
الأشخاص الذين قيل انهم ٨٩
موقف الأمبراطور من التمهل ٩٣
الأسباب الحقيقية للتمهل ٩٤
النتيجة ٩٤

الفصل الخامس

اعداد البلاغ النمسوى النهائى ٩٧
الأمبراطور فرانسوا جوزيف ١٠٠
برنامج تيزا السلمى ١٠١
برشتولد يطلب مساعدة ألمانيا ١٠٧
محادثات بوتسدام فى ٥ و٦ يوليه ١٠٩
استنتاجات عن موقف ألمانيا ١٢١
مجهودات برشتولد لتحويل تيزا ١٢٦
تقرير ويزنر ١٣٥
تحويل تيزا ١٣٦
سعى النمسا لخديعة أوربا ١٣٨
صوغ البلاغ نهائياً ١٤٢
النمسا لا تأبه بنصيحة ألمانيا ١٤٦
مبلغ علم ألمانيا بالبلاغ النهائى ١٥٠
البلاغ النهائى ١٥٧

صفحة

الفصل السادس

الخطر الروسى ١٦٢
زيارة بوانكاريه الروسيا ١٦٣
خطة سازونوف ١٧٠
التكهن بالحرب ١٧٨
الفترة السابقة للحرب ١٨١
المفاوضات والاستعدادات ١٨٨
خلاصة الخطر الروسى ١٩١

الفصل السابع

الرد الصربى ١٩٥
صوغ الرد الصربى ١٩٨
موضوع الرد الصربى ٢٠٥
انقطاع العلاقات السياسية بين النمسا وصربيا ٢٠٩

الفصل الثامن

اقتراحات للمحافظة على السلام ٢١٢
مركز انجلتره المسيطر ٢١٤
اقتراح غراى للمحادثات المباشرة ٢١٨
اقتراح غراى للتوسط ٢٢٢
اقتراح غراى عقد مؤتمر للسفراء ٢٢٦
المحادثات المباشرة بين فينا وسان بطرسبورغ ٢٣٧

الفصل التاسع

مساعى ألمانيا المتأخرة ٢٤٢
شكوك ألمانيا فى مسألة الحصر ٢٤٣

صفحة

نصيحة ألمانيا للنمسا ٢٤٥
اعلان النمسا الحرب على صربيا ٢٥٣
برقيات ويللى ونيكى ٢٥٧
ضغط بيتمان على فينا ٢٦١

الفصل العاشر

التعبئة الروسية ٢٦٧
اعلان باليلوج تأييد فرنسا ٢٦٩
نبأ اعلان النمسا الحرب ٢٧١
رضاء القيصر بالتعبئة العامة ٢٧٣
الغاء القيصر لأمر التعبئة العامة ٢٧٩
الأمر بالتعبئة الروسية العامة ٢٨٢

الفصل الحادى عشر

التعبئة واعلان الحرب ٢٩١
فرنسا والانسحاب عشرة كيلو مترات ٢٩١
الأسطول البريطانى وانذار ألمانيا ٢٩٨
بيتمان ومولتكه ٣٠٢
التعبئة النمسوية العامة ٣١٢
« الخطر المهدد بالحرب » فى ألمانيا ٣١٥
التعبئة فى فرنسا وألمانيا ٣٢٠
انجلترا وبلجيكا ٣٢٣

الفصل الثانى عشر

الختام ٣٣٢

أسباب الحرب العالميه

الفصل الأول

الغراندوق فرانتس فرديناند

الغراندوق فرانتس فرديناند الذى أصبح وريثاً لعرش النمسا عقب وفاة والده كارل لودفيج فى سنة ١٨٩٦، شخصية ظلت فى الحياة وفى الممات من أغمض الشخصيات السياسية . حتى النمسويين أنفسهم كانت آراؤهم متضاربة فيما كانوا يفترضونه من أغراض أبى الهول هذا ونفوذه . فكان الكثيرون منهم يعدونه زعيما للعسكريين النمسويين تواقا الى « حرب مانعة » يشهرها على ايطاليا أو صربيا : وكان غيرهم يعتقد أن حظه من النفوذ فى السياسة النمسوية كان ضئيلا ؛ وغير هؤلاء وأولئك نفر كانوا يذهبون حتى الى اعتباره من دعاة السلام . ومثل هـــذا التباين فى الرأى يتناول نظرته الى السياسة الداخلية ، فقد كان الاعتقاد الشائع أنه يكره المجريين ويحب السلافيين حتى لقد نسب اليه أنه كان يعتزم تحوير الملكية بالاعتراف للقوميات السلافية بنفس الكيان السياسى الذى كان يستمتع به الألمان فى النمسا والمجريون فى المجر . ذلك أنهم كانوا يظنونه محبذاً لنظام اتحادى ثلاثى يحل فى الملكية محل النظام الثنائى . بيد أن الصربيين المتعصبين كانوا مع ذلك يبغضونه بغضاً أعمى ، إذ كانوا يعدونه عدوا لدودا ومضطهدا نافذ الكلمة ، وينظرون اليه نظرتهم الى رجل يصح أن يقتل لمصلحة صربيا الكبرى . وعند ما كان قتلة سيراجيفو يحاكمون فى شهر اكتوبر ١٩١٤ أعلن شابرينوفيتش ملقى القنبلة ، فى جلاء ، أن وريث العرش « كان رجل عمل . وقد علمت أن

فى البالبلاتس عصبة تريد فتح صربيا تسمى حزب الحرب يرؤسها وريث العرش فاعتقدت أنى أنتقم منهم جميعا إذ أنتقم منه ».

وأكد برنسيب الذى أطلق الرصاصات المشئومة قائلا فى تحد «إنى لست آسفا مطلقا على آنى أزلت عقبة من طريقنا، فقد كان ألمانيا، وكان عدوا لسلافي الجنوب» كذلك الروسيون كانوا يعدونه عدوا من حسن حظ القيصر أن خلصته جريمة سيراجيفو منه.» وليست الصحف وحدها بل المجتمع أيضاً كنت تسمع فيه عن الغراندوق القتيل أحكاما فى غير مصلحته مصحوبة بالقول بأن الروسيا تخلصت بفقده من عدو لدود، وهو ما رواه السفير الألمانى فى بطرسبورغ. أما أمبراطور ألمانيا فقد علق من جهة أخرى على تقرير سفيره فى هامش من تلك الهوامش التى كان يعرب فيها صراحة عن أفكاره وما يقع فى نفسه بادىء الرأى قال «. إن الغراندوق كان للروسيا خير صديق فقد أراد أن يبعث عصبة البراطرة الثلاثة»

على أن خطل الرأى وتضاربه فى الغراندوق وهو على قيد الحياة لم يكن شيئا مذكورا الى جانب ماذاع عنه عقب وفاته فقد قيل إنه كان يتآمر على خلع عمه. وأنه كان يعمل على تفكيك المملكة الثنائية بالتواطؤ مع الأمبراطور غليوم على الاستيلاء على بولونيا والبندقية وخلق دولتين يحكمهما ولداه نهائيا بينما تضم النمسا الجرمانية الى الأمبراطورية الألمانية مكافأة للأمبراطور غليوم. وقد لمح تلميحا غامضا الى أن ميتة الغراندوق المحزنة إنما كانت بتدبير ضباط نمسويين أرادوا أن يحولوا دون تحقيق هذه المشروعات المريبة أو على الأقل أن يلقوا تبعة موته على صربيا لتكون لهم حجة يتذرعون بها لأهلاك هذه المملكة المجاورة. وهنالك اشاعات أخرى راجت بأن مقتل الغراندوق يرجع الى أنه بصفة كونه كاثوليكيا رومانيا كان يضع التدابير لمهاجمة ايطاليا واعادة السلطة الزمنية الى البابا. وقد وقف كاتب ألمانى ذائع الصيت نصف فصل من كتاب ليدلل على أن الماسونيين

الاسكوتلنديين قرروا موته واستخدموا لهذا الغرض محفل بلغراد الماسونى. أراجيف واشاعات متضاربة أين منها حقيقة هذا الرجل المستسر الذى كان موته بمثابة شرارة أضرمت النار فى أوربا ؟

ولد فرانتس فرديناند أمير النمسا وإست فى ١٨ ديسمبر ١٨٦٣ وهو أكبر أولاد كارل لودفيج شقيق الأمبراطور فرنسوا جوزيف . ماتت أمه وهو طفل وكانت مصابة بالسل فعنيت به زوج أبيه بعد ذاك وكانت برتغالية ، وكانت بارة به ، ولم يكن فى صباه يظن أن سيكون حقا وريثا للعرش حتى مات رودلف ولى العهد فى مايرلنج سنة ١٨٨٩ تلك الميتة الأليمة فخلف فرانسو جوزيف بلاعقب ذكر . وفرانتس فرديناند إذ ذاك لم يدرب تدريبا خاصا على أمور السياسة بل كان ككل الغراندوقات النمسويين فى الجيش يسير فى حياته سيرة عسكرية . ولم تكن صحته يوما ما على ما يرام ولعل هذا لأن والدته أورثته استعدادا للسل فكان هذا الاستعداد يهدده أحيانا حتى كان كثيرا ماينفق أشهرا فى بريونى أوميرامار على شواطىء الأدرياتيك الدافئة مما أثار اهتمامه بأن يكون للنمسا أسطول . وكان أحيانا أخرى ينتجع الصحة فى هواء سويسره الجاف فى دافوس أو يقوم برحلة حول الأرض تستغرق عشرة أشهر كما فعل فى ١٨٩٢ — ١٨٩٣ . وفى ربيع ١٩١٤ المشئوم كان هنالك من يتنبأون بأن الأمبراطور الفانى وهو فى الرابعة والثمانين قد يعمر ويموت ابن أخيه الذى جاوز الخمسين .

والظاهر أن توعك فرانتس فرديناند الرئوى أثر بعض الشيء فى حياته وخلقه فلم يلطف مزاجه بل جعله يعتقد أن الأقدار لم تنصفه ، وقوى فيه الميل الى تجنب حياة المجتمع . وقد اشتد عليه المرض فعجل الكثيرون وخاصة المتصلون بالبلاط بهجره عيانا لما أن لاح لهم أنه من غير المنتظر أن يرقى العرش ، فصعب هذا من خلقه ولم يكن بطبيعته دمثا ، وزاد من ارتيابه في المحيطين به وازدياد احتقارا لبني الانسان على وجه عام . . وقد كان سقمه

سبباً لأن يزداد تصميمه على التغلب على مايصادفه من العقبات قوة على قوته ، ولأن يعد نفسه لمهمة الحكم فى أملاك هابسبورغ فتعلم لغات الأمم التى كان ينتظر أن يحكمها يوما وتلقى على العلماء العلم فى فروع بعينها من المعرفة .

ومذ بات للغراندوق أسرة يعنى بها أصبح ينفق جانبا كبيرا من كل سنة فى ضيعته فى كونوبشت حيث أنشأ مزرعة تعد أنموذجا فى المزارع كانت تدر عليه الخير الوفير . وهذا التصميم منه على أن يعيش ربما كان السبب لبلوغه تلك الصحة القوية التى كان يستمتع بها فى سنيه الأخيرة . لكنه لم يقلع عن الابتعاد عن المجتمع وعن الجمهور . وفى الواقع أنه لم يكن له أصدقاء حميمون ، ولم يحاول أن يكون له مثل هؤلاء الأصدقاء . وليس أدل على هذا الاعتزال من ملاحظة أبداها مرة لكونرادفون هوتسندورف فقد كانا يتناقشان فى اى القواعد أنسب لترقية ضباط الجيش فقال رئيس هيئة أركان الحرب إنه يميل الى احسان الظن بالناس حتى يتبين له النقيض ، وأنه من ثم كان يتسرع أحيانا فى ترقية الضباط الجديدين . فرد عليه الغراندوق بقوله : ان آراءنا على طرفى نقيض . فأنت ترى الجميع فى مبدأ أمرهم ملائكة فلا تلبث أن تجرب من ناحيتهم ما لا يسرك . أما أنا فأنظر الى من أقابله أول مرة نظرتى الى شخص حقير وانتظر حتى أتبين منه ما يبرر إحسان الظن به ، وهذا من الغراندوق غير خليق أن يجعل له أصدقاء ، واليه يرجع بعض السبب فى ذلك القيل والقال المنطوى على العداء والوقيعة والذى كان يذاع من حوله وحول زوجته فى فينا ويملأ الأسماع حتى تسرب ولابس كثيرا مما كان يقال عنه فى بلدان دول الوفاق . بيد أن الأصدقاء القليلين الذين اصطفاهم والذين كانوا يرونه جالساً على الأرض يداعب أطفاله ككتبة سره وكالأمبراطور غليوم كانوا يخلصون له و يتفانون فى مودته .

فرانتس فردیناند والجیش

كان أهم ما عنى به فرانتس فرديناند فى الحياة بجانب ولعه بالصيد وجمع النفائس والاشتغال بالزراعة ، الجيش والبحرية وزوجه وأولاده . ففى سنة ١٩٠٦ أخذ يزداد نفوذه المباشر على الجيش بتعيين الصاغ بروش ياورا له وكان رجلا فطنا وضابطا قديرا تواقا الى الاستزادة من نفوذه ونفوذ الغراندوق فى الشئون العسكرية . وقد وفق بعد معارضة طويلة الى أن يصبح للغراندوق مجلس حربى خاص به يشبه مجلس الامبراطور . فباتت من ذلك الحين كافة الوثائق العسكرية الهامة وتقارير الملحقين العسكريين تكتب من صور يتلقى منها فرانتس فرديناند واحدة فى نفس الوقت الذى يتلقى فيه الامبراطور نسخته ليصبح ابن الأخ والعم على علم واحد بتلك الشئون. وفى الواقع سرعان ما أصبح اشتراكه الفعلى فى الاصلاحات والتنظيمات العسكرية أكثر من اشتراك الامبراطور نفسه فاتسع مجلسه الحربى وأصبح بعد أن كان مؤلفا من اثنين يضم أربعة عشر شخصا — أى أقل من مجلس الامبراطور باثنين . وفى هذا دلالة على مبلغ نشاطه .

وكان فرانتس فرديناند يعتبر الجيش النمسوى المجرى أداة سياسية قوية لها فى توحيد الصفوف ومناهضة العناصر العاملة على التفريق فى المملكة الثنائية مالها من شأن فى الدفاع عن هذه المملكة فى حالة قيام حرب مع دولة أجنبية . فكان يريد أن تكون لغة القيادة وهى الألمانية لغة على الأقل لكل الضباط على أن يكون الضباط الذين يقودون الايات غير ألمانية ملمين باللغة التى يتكلمها من هم تحت إمرتهم من الجنود . وقد كان من أهم أغراضه أن يقوى الجيش ويزداد عدده . وهو غرض ترجع اليه عداوته للسياسيين المجريين الذين أبوا أن يوافقوا على الاعتمادات العسكرية التى طلبها وأصروا على أن تكون المجرية لغة القيادة فى النصف المجرى للجيش .

وأهم خطوة خطاها فرانتس فرديناند فى مساعيه القوية لتحسين حال الجيش إصراره فى سنة ١٩٠٦ على تعيين رئيس جديد لهيئة أركان الحرب . إذ كان الرئيس الى ذلك الحين رجلا يعده الخبراء غير لائق مطلقا للمركز الذى يشغله وقد كان الرئيس بك مع ذلك ضابطا شريفا مستقيما وشخصية سهلة تستمتع بقسط من حب الشعب ، استبقاه الأمبراطور رئيسا لهيئة أركان الحرب العامة أربعا وعشرين سنة لما كان بينهما من ثقة ومودة متبادلة . ولم يكن أحد يجرؤ أن يلح فى طلب احالته على المعاش حتى حثه فرانتس فرديناند على تعيين غيره فرضخ الأمبراطور آخر الأمر وخلفه كونراد فون هوتزندورف فى نوفمبر سنة ١٩٠٦ .

واتفق أن جاء تعيين كونراد فى أكبر منصب فى الجيش النمسوى فى وقت حدث فيه تغيير فى وزارة الخارجية إذ عين الارستقراطى الطموح البارون ايرنتال محل البولونى الهياب الكونت جولوشوفسكى فدخلت بذلك سياسة النمسا فى عهد جديد . وكان هذا العهد فاتحة نشاط فى الشئون الخارجية أكثر انطواءا من غيره على العدوان وعدم المبالاة . فقد تولى زمام الأمور رجال كانوا يحسون أن النمسا تتفكك تدريجا وانهم يجب ان يستميتوا فى آخر لحظة فى سبيل السعى لانعاش الجسم السياسى ببث حياة نضيرة وقوة جديدة فيه ، وبوقف عوامل الانحلال الناشئة من الاطماع الحادة التى تحدو القوميات المحكومة. وكان يقال إن النمسا تبلى كتركيا ،وأن هابسبورج لا السلطان العثمانى هو الان « رجل أوربا المريض » فكان كونراد وايرنتال الطبيبين اللذين كان عليهما أن يجربا مع مريضهما مقويا يقيه الفناء ؛ لكن الطبيبين كانا لسوء حظ الرجل المريض يختلفان أساسـيا فى الآراء ووصف الدواء ، وكان حظ كل منهما من حب الآخر قليلا كحظ الأخصائيين من حب بعضهم البعض إذ هم وقوف على رأس المريض.

لم يكن تعيين كونراد رئيسا لهيئة اركان الحرب — ذلك التعيين الذى

حض عليه وريث العرش وأقره الأمبراطور — أمرا مرضيا لفرنسوا جوزيف على الأطلاق فقد ألفى العاهل الشيخ نفسه مكرها من كونراد على احداث تغييرات وادخال اصلاحات جمة فى الجيش القديم الذى كان يفخر به كل الفخر لطول ما حارب على رأسه وكثرة ما قاده بنفسه. وقد جاء كونراد يحض على أن تكون مناورات الجيش أقرب الى حالة الحرب وأن يعجل بانتهاز الفرصة للدخول فى «حرب مانعة» مع ايطاليا وصربيا. وكان كونراد إذ يحض على ذلك تحدوه ثقة وثابة بالنفس حتى لاحظ الأمبراطور الشيخ عليه فى عيد ميلاده سنة ١٩٠٦ ولم يكن قد انقضى شهر على تعيين كونراد: «انه منظم لا يقر له قرار ورجل تنقصه الخبرة. وهذا ظاهر فى كل شىء تتناوله يده التى لا تلوح لى مبشرة بالخير».

ولقد كان من شأن نفور الأمبراطور من النظام الجديد أن أخذ على مر الأيام يبتعد عن الجيش الذى شب معه. وكان ذلك من الأشياء التى زادت الأمبراطور فى سنيه الأخيرة وحدة على وحدته واكتئابا على اكتئابه وهو الذى لم يبلغ مبلغه منهما أحد من آل هابسبورغ. وكانت لكونراد سياسة فى إدارة المناورات السنوية الكبرى «فى ظروف مماثلة لحالة الحرب الفعلية» دون عناية بوضع الخطط وبلاغاية سوى تربية الضباط على الأقدام والاعتماد على النفس، فعادت هذه السياسة فى الغالب بأوخم العواقب إذ كان همه كله موجها الى الهجوم السريع يضطر الجنود الى الزحف الطويل فلا يلبثون أن تنهك قواهم ويتماكهم الأعياء فلا يصلون الى غرضهم الاوهم يلهثون، مضطربين، قد نال منهم التعب والجوع فليست فيهم حاسة يقظة حتى لملكهم وأمبراطورهم. وقد كان فرانسوا جوزيف ينتقل فى الميدان راكبا فيأخذ بصره منظر مئات من الجنود ملقين فى الخنادق على امتداد الطريق مضنين من التعب أو يرى الفرسان والمدافع مبعثرة فى ميادين سقطت فيها الخيل من فرط الأعياء. ولقد أثر فى الأمبراطور الشيخ ذلك الذى رآه تأثيرا أليما

ولم يتمالك نفسه من التصريح بما يمضه حين زار أمبراطور ألمانيا عام ١٩٠٩ واستعرض أحد آلاياته وهو يمر به فى نظام تام. فقد التفت فرنسوا جوزيف الى أحد ضباطه وقال بحدة : « لماذا يستحيل عندنا مثل هذا ؟ » ولما هز الضابط كتفيه استطرد الأمبراطور فى مرارة « أجل ، إن مثل هذا الاستعراض لا يمكن حتى أن أحلم به بعد إذ باتت التمرينات المقلوبة ديدناً لنا » .

وفى الواقع لقد فرق كونراد بين الأمبراطور والجيش وكف فرانسوا جوزيف بعد سنة ١٩٠٩ عن الاهتمام بالمناورات التى كانت من مباهج حياته . وقد ترك ابن أخيه يمثله فيها ؛ وبهذه الصفة كان ذهاب فرانتس فرديناند الى سيراجيفو عام ١٩١٤ ليحضر مناورات فيلقين من الجيش .

لقد كان من بين الأسباب التى جعلت علاقة الأمبراطور بوريث عرشه فاترة كونه هو الذى اختار كونراد وحصل على تعيينه ثم ظل بعد ذلك وثيق العلاقات به . كذلك كان هذا من بين الأسباب التى جعلت الاعتقاد عاما وخاصة بين أعداء النمسا بأن فرانتس فرديناند يشاطر كونراد أراءه العسكرية تلك الآراء التى كان كونراد يسرف فى إذاعتها بالأحاديث وينشرها فى المقاهى . على أنه من الخطأ اعتبار فرانتس فرديناند من أنصار العسكرية النمسوية أو انه كان يرى رأى رئيس اركان الحرب فى المناورات المجهدة والحروب المانعة والسياسية الخارجية العدوانية . فأنه مما لا شك فيه أن الغراندوق كان يستهجن تلك القسوة التى لابست مناورات الجيش المضنية وأنه كان يستخدم نفوذه فى تلطيفها . ولما اشتدت الأزمة بين النمسا وصربيا من جراء ضم البوسنه والهرسك وأخذ كل منهما يستعد للحرب كان وريث العرش إذ ذاك أكثر حيطة وحذرا فعارض العسكريين النمسويين الذين كانوا يحبذون الحرب العاجلة مع صربيا وهى ما كانت خليقة أن تجرهم الى محاربة الروسيا أيضاً .

ولما نشبت الحرب البلقانية الأولى وباتت العناصر العسكرية التى تعمل

للجامعة السلافية تهدد النمسا ، حض كونراد كعادته على مناقشة صربيا الحساب بصفة نهائية ولو حارب فى سبيل ذلك الروسيا . بيد أن فرانتس فرديناند عارض فى ذلك كل المعارضة وأصر على تخفيض القوى النمسوية محافظة على السلام . وقد قال للملحق الألمانى العسكرى إن حربا مع الروسيا « خرق لا يعادله خرق » وأبدى له معارضته أيضا فى محاربة صربيا وأنه يرى مشاكل النمسا الداخلية أجدر بالعناية من المشاكل الخارجية .

وعقب ذلك بشهر بعث فرانتس فرديناند سكرتيره الأمين الكولونل باردولف الى كونراد يحذره ويطلب اليه الكف عن التأثير فى برشتولد لمصلحة الحرب . فجاء رد كونراد على ذلك دليلا على خطل الاعتقاد العام الذى كان مستفيضا بأن أمبراطور ألمانيا يظاهر عدوان النمسا فى البلقان . قال : « بودى لو تفادى الغراندوق من أن يكون لأمبراطور ألمانيا مثل هذا التأثير عليه . فقد منعنا فى سنة ١٩٠٩ وهو يغل يدنا الآن أيضا . . . . وفى اعتقادى أن الألمان لا يكترثون لمصالحنا ومع ذلك يتعين علينا أن نحسب حسابهم . إن ألمانيا تستخدمنا فى هدوء بينما هى خير منا حالا من حيث مناعة جانبها من ناحية فرنسا التى هى أكبر ما تخشاه ، وستضحى بنا فى آخر الأمر . . . »

ولما تحدت صربيا والجبل الأسود الدول فى سنة ١٩١٣ برفضهما إحترام حدود البانيا التى أقرها مؤتمر لندن حض كونراد إذ ذاك على وجوب قيام النمسا بعمل حربى للدفاع عن البانيا . فابدى برشتولد ترددا فتحدث كونراد عندئذ الى فورجاخ « فوافقه فورجاخ على أن خير ما يفعل هو التدخل الحازم لكنه عديم الرجاء فى امكان تنفيذ ذلك . فالأمبراطور ووريث عرشه معارضان وبرشتولد لن يضطرهما اليه » .

وعلى أن فرانتس فرديناند لم يكن يميل الى ايطاليا بل كان يكرهها ، ويسىء الظن بنياتها كثيرا لأسباب منها نفاق الديبلوماسي الايطالية ، فقد أبى

أن يعضد كونراد فى مجهوداته المتكررة التى كان يبذلها لشهر حرب مانعة على ايطاليا فى سنة ١٩٠٧ م فى ١٩١١ يوم كانت ايطاليا مشتبكة مع تركيا فى قتال .

من ثم يتبين أن فرانتس فرديناند لم يكن ، كما ظن فيه ، من أنصار عسكريى النمسا المغالين فى الأقدام على الشر . فقد كانت هذه اسطورة انتشرت واستفاضت بعد أن وقعت الحرب بزمن طويل . وقد كتب البارون تسيلاس الذى عين فى أثينا وزيرا مفوضا للنمسا فى ديسمبر ١٩١٣ — والبارون مجرى حر الرأى — قال : « دعانى الغراندوق فرانتس فرديناند قبل سفرى بيومين الى زيارته فباحثنى إذ ذاك فى الحالة الدولية بحذافيرها . وقد لاح لى انه كعمه الأمبراطور من دعاة السلام وانه يرغب فى محالفة الروسيا . وهو يعتبر تحقيق أمانى سلافيي الجنوب فى حيز المملكة أمرا ممكنا فيما بعد وينتقد سياسة تيزا التى تجعل تحسن العلاقات بصربيا ورومانيا مستحيلا » . ولم يكن ببعيد أن يستخدم فرانتس فرديناند نفوذه وسلطته لكبح جماح كونراد وبرشتولد فى سياستهما الجنونية التى أفضت الى الحرب العالمية لو أنه كان حيا فى يوليه ١٩١٤

آراء فرانتس فرديناند السياسية

كان فرانتس فرديناند متفقا فى الرأى مع عمه فيما يتعلق بالشئون الخارجية واعتبار المحالفة الثنائية مع المانيا حجر الزاوية فى السياسة النمسوية . وهذه العقيدة كان يقويها احترامه الشخصى العظيم لغليوم الثانى الذى اكتسب وده بما أظهره من حكمة وكياسة حيال قرينة الغراندوق . وقد سعى فرانتس فرديناند لتقوية روابط الولاء والتحالف مع رومانيا وأثر فى نفسه ونفس زوجته ما لقياه فى زيارتهما للملك كارول وكارمن سلفا فى يوليه ١٩٠٩ حين أعجبا ايما إعجاب ببساطة المعيشة التى كانت الأسرة الرومانية الملكية تعيشها

فى قصرها الصيفى بسينايا ، وكانت تختلف كل الأختلاف عن جو الرسميات الجاف والبلاط الخانق فى فينا . كذلك كان للود الخالص الذى أظهرته ملكة رومانيا حيال زوجته الكونتس حين دعتها الى الركوب معها وقدمت لها الشاى فى بيت قروى خاوى ، أثر طيب فى نفسه حتى ظل يذكر هذه الزيارة طويلا ويعدها من أسعد الزيارات التى أداها فى حياته .

ولم يكن ارتياب الغراندوق فى نيات إيطاليا بالغا الى حد أن يرى من سداد الرأى كشف ما كان يظن من خيانتها للمحالفة الثلاثية بحرب مانعه . فهو على النقيض من ذلك أراد أن يبقى مع ايطاليا فى سلام وأن يحافظ على العلاقات المتينة بها بقدر الأمكان

وكان فرانتس فرديناند يريد أن تكون العلاقات بالروسيا مدعمة بالتفاهم الودى . وكان يعجب بحكم الروسيا الاتوقراطى لأنه أوتوقراطى بطبعه حتى أخذت الحرب اليابانية الروسية وثورة سنة ١٩٠٥ الروسية تزعزعان عرش القيصر فتبددت أوهامه فى ثبات نيقولا الثانى . أما الفرنسيون فكان يكرههم ، وعلى النقيض من ذلك احترامه لبريطانيا العظمى حتى لقد راجت الاشاعات يوما بانه قد يتزوج من البرنسيس مارى .

هذه هى الآراء التى نسبها الى فرانتس فرديناند فيما يتعلق بالشئون الخارجية أناس يعرفونه وليس ثمة ما يدعو الى الشك فى صحتها .

أما آراؤه فى مشاكل القوميات الداخلة فى أمبراطورية آل هابسبورج فلا يمكن الكلام عنها بمثل هذا اليقين . وقد كان اعتقاد اولئك الذين كانوا على اتصال وثيق به أمثال الصائغ بروش وسكرتيره الخاص نيكتش بول هو أنه لو كان الغراندوق جلس على العرش لكان أنقذ القوميات المضطهدة وحاول وضع نظام اتحادى ثلاثى للمالكية يحل محل النظام الثنائى . وهذا هو الرأى الذى أعربت عنه كافة تأبينات النمسويين والألمان للغراندوق فيما عدا صحيفة الفوسيشه تسايتونج .

وفرانتس فرديناند وان كان محافظا فى كثير من الاعتبارات فان مما لا شك فيه انه كانت له صفات خلقية تدل على أنه الرجل الذى كان خليقاً أن ينظم المملكة من جديد . فهو لم يكن يرى المحافظة على سنة من السنن لمجرد أنها دامت زمنا طويلا . بل كان على النقيض من ذلك يتطلع الى المستقبل أكثر من رجوعه الى الماضى وكان يميل الى الاصلاح وفاقا للحديث أكثر من ميله إلى الاحتفاظ بالقديم . وكلما كانت له سلطة فى شىء أظهر مقدرة فى الأخذ بالحديث وادخال التحسين على ما يجد من ترتيبات . وكان يعال صبره مع سكرتيريه اذا لبث على مكتبه شىء أكثر من أربع وعشرين ساعة دون بت . وهو فى هذا كله على النقيض من عمه الشيخ . فأن فرنسوا جوزيف كان « ملكا بعناية الله » وفاقا للتقاليد القديمة . حكم أو أراد ان يحكم حكم رب البيت فى ذويه . ومن اكبر اخطائه إصراره على ان يعالج بنفسه كل أمر دقيق . وقد بلغ من اشتغاله بهذه الشئون الصغيرة ان ذهنه لم يتسع لأدراك مصالح الأمبراطورية الواسعة . وقد كان ميالا الى الماضى يعيش فيه اكثر من نزوعه الى المستقبل والتطلع اليه . وهذا دأب المسنين . وكان مغاليا فى نزعته المحافظة مترددا فى احداث اى تغيير فى الأداة الهابسبورجية القديمة حتى بعد لفته الى مزايا الأخذ بالأساليب الحديثة .

كان فرانتس فرديناند أكثر من الامبراطور ادراكا للأستياء العنيف بين القوميات المحكومة فى الامبراطورية . وكانت له مزية ذات قيمة عظيمة إذا تحلى بها حاكم ، وهى أنه كان على استعداد ورغبة فى معرفة الحقائق مهما كانت مؤلمة . وعلى أنه كان عنيف المزاج فقد كان من يرتاب فى أنه يحاول إخفاء الحقيقة عنه أكثر تعرضاً لغضبه ممن ينبئه بحقائق لاتسر . وكان معنيا بقراءة صحف المعارضة مما جعله تام الاطلاع على الشعور العام بين التشك والترانسلفانيين والكرواتيين والصرب الذين تضمهم المملكة الثنائية ، مدركا الخطر الذى يؤاتيه من ناحيتهم إذا لم يفعل شيئاً يكتسب به رضاهم . وقد كان

استهجانه الشديد لسياسة الاضطهاد التى كان الحكام من الأعيان المجريين يجرون عليها فى المجر، معروفاً مشهوراً، حتى أخذته الأحزاب المجرية والألمانية الكبيرة النفوذ بأنه يميل الى محاباة القوميات الصغيرة فجاء هذا التقريع منهم تنويها بحكمته ورغبته فى الإنصاف، على حين كان فرنسوا جوزيف يختلف عنه فى هذا، فكان الأمبراطور الشيخ نزوعا الى الاجراءات الناقصة والتراضى. وقد استمسك الأمبراطوار نفسه بالتسوية النمسوية المجرية فى ١٨٦٧ فلم يقبل تعديلها فى حين كان فرانتس فرديناند يعتبر نظام الأمبراطورية الثنائى غلطة أسيفه لأن التطبيق أظهر أن هذا النظام خول أعيان المجر سلطة واسعة. ومن ثم كان استعداده لأن يستبدل بنظام ١٨٦٧ الثنائى نظاما ثلاثيا بمجرد توليه العرش. فقد توفر على بحث مسألة تحوير النظام الدستورى على قواعد إتحادية ودرس المقترحات التى قدمها كتاب نمسويون شهيرون أمثال لاماش وتتسنر وشتاينأكر واستمع باهتمام زائد الى أراء الاستاذ ز. و. برجس من جامعة كولومبيا فى النظام الاتحادى الامريكى وكان الأستاذ برجس قد لبى الدعوة الى العودة الى فينا لتقديم معلومات أخرى عن الموضوع وأوشك أن يبحر الى أوربا ليفعل ذلك لما أن بلغه خبر مقتل الغراندوق.

ومن الادلة غير ذلك على ما كان ينتويه فرانتس فرديناند من اصلاحات دستورية ترمى الى انتقاص سلطة الاعيان المجريين واكساب القوميات الصغيرة حقوقا سياسية، مشروعات المقترحات المختلفة التى نشرت من أوراقه. غير ان الذى يتناوله الشك هو هل انتهى فرانتس فرديناند من بحثه الى قرار نهائى بالشكل الذى كان ينبغى ان يتخذه تحوير نظام الأمبراطورية. كذلك من المسائل التى ستلبث طى التاريخ بلا جواب ما اذا كان فرانتس فرديناند يشرع فى استبدال النظام الثلاثى بالنظام الثنائى لو كان تولى العرش، وهل لو كان تولى العرش وشرع فى ذلك أكان التوفيق يكون حليفه؟

اما الذى لا يتناوله الشك هو ان الجميع كانوا ينسبون اليه خططا واسعة

النطاق لاعادة تنظيم المملكة الثنائية وتقويتها . وقد كان الخوف مما كان يمكن ان يفعله عاملا من العوامل التى حملت بعض الصربيين المتعصبين على تبييت اغتياله والتآمر على قتله . وهذا الخوف بعينه هو الذى جعل كثيرين من موظفى فينا وبودابست يتنفسون الصعداء حين علموا بنبأ سيراجيفو .

زواج فرانتس فرديناند

لقد كان لزواج الغراندوق تأثير فى حياته من أشأم التأثيرات . فقد أشيع فى فينا فى أوائل السنوات العشر الأخيرة للقرن التاسع عشر أنه مهتم بالغراندوقة مارى كريستين كبرى بنات الغراندوق فريدريك والغراندوقة ايزابلا إذ كان يتردد عليهم فى برسبورج ويزورهم أحيانا مرتين فى الاسبوع حتى جعل والدا الغراندوقة يمنيان نفسيهما بصيرورة ابنتهما أمبراطورة يوما من الأيام. لكن فرانتس فرديناند كان فى الحقيقة متيما بحب وصيفة من وصيفات الأسرة هى الكونتس صوفيا خوتك . وكانت إمرأة جميلة فخورة ممشوقة ذات عينين براقتين وخطوات متزنة . وكانت تنتمى الى أسرة تشيكية قديمة عضها الفقر بنابه . فظل حبهما سنة تقريبا طى الخفاء لايشتبه بوجوده احد. فأذا غاب أحدهما عن الآخر تبادل واياه الرسائل كل اسبوع على يد ضابط أمين من ضباط الغراندوق . ثم حلت الكارثة ؛ إذ بينما الغراندوق عقب شوط تنس فى برسبورج يبدل ثيابه نسى ساعته فذهب بها خادم الى الغراندوقة ايزابللا وإذ هى تفتح مخبأها طمعا فى أن تجد صورة ابنتها وجدت صورة وصيفتها . وهنا يسع المرء أن يتصور شعور أم خابت آمالها ! فقد طردت الكونتس يلحقها العار وحتمت عليها مغادرة البيت فى نفس الليلة .

وأخذت السنة السوء فى عاصمة النمسا تلغ بشدة لكن فرانتس فرديناند بما عرف من عزمه وعناده أعلن أنه سيتزوج منها ، فعارضه جميع أقربائه من آل هابسبورج قائلين إنها ليست أميرة ولا هى تنتمى الى بيت مالك .

أما الأمبراطور الشيخ فرنسوا جوزيف فكان إعلان ابن أخيه عزمه هذا بمثابة ضربة مزعجة له ، وعار يشين أسرته . وكأنما جاءت هذه الصدمة قطرة أخيرة فى كأس مرارته وأحزان عائلته ؛ فقديما قتل أخوه مكسيمليان بالرصاص على جدار بالمكسيك وجنت زوجة مكسيمليان حزنا عليه ؛ وإبنه الوحيد رودلف قضى نحبه عنفا فى ظروف تكتنفها الريب ـ لايدرى هل انتحر أو قتل ؛ وزوجته الأمبراطورة اليصابات قتلها فوضى ايطالى فى سنة ١٩٠٠ . ولويس أمير بفاريا ، ابن شقيق زوجته ، المعتوه ، خنق متعقبه وهو هارب من القيم عليه وهلك كلاهما غرقا فى بحيرة شتارنبرجر ؛ وابن أخيه الأصغر أوتو شقيق فرانتس فردينـاند قد سبب للأمبراطور الشيخ صدمات متتابعة وآذاه فى شعوره بالكرامة والأخلاق الفاضلة بمايسلكه فى حياته المتهتكة وبما انتابه من مرض من جرائها . والآن يصر وريثه على تحدى التقاليد الأوربية والآداب الأسبانية بزواجه من كونتس فقيرة لايبعد أن تكون فى دمها شائبة جنون . لقد سمع الامبراطور يتمتم : « أما كان ينبغى أن أعفى من هذا ؟ »

لقد لبث فرنسوا جوزيف يعارض بتاتا فى الزواج عدة أشهر ، لكنه لما رأى أن هذه المعارضة لاتزيد ابن أخيه إلا عناداً وأن فرانتس فرديناند ليكونن أسرع الى النزول عن العرش منه الى التخلى عن المرأة التى يحبها ، وافق هذا الشيخ المستمسك بالتقاليد نهائياً على نوع من التراضى ، يقع بموجبه الزواج على أن يكون زواجا لايكسب الزوجة أو أولادها حقاً فى شىء ما سوى شرعية الزواج . وميلاد الاولاد . وقطع فرانتس فرديناند العهد على نفسه بذلك يوم ٢٨ يونيه ١٩٠٠ فى حضرة الامبراطوار والغراندوقات وكبار رجال الحكومة وقت تسجيل إعلان الزواج .

وقد كان هذا التنازل سبباً لابتئاسه ومرارته فى الايام التالية إذ حرم أعز الناس لديه من الحقوق ومظاهر الشرف التى كانت ستصبح لهم لولا قيود القانون الاقطاعى والآداب الأسبانية ! ٢٨ يونيه ! ياله من يوم مشئوم ! فأنه

فى يوم ٢٨ يونيه آخر لأربع عشرة سنة خلين جمع مسدس القاتل الذى لم يميز بين ميلاد وآخر ، بالموت بين مخلوقين ظلت على حياتهما الزوجية سحابة قائمة من ذلك العقد . ٢٨ يونيه ! ولتسع عشرة سنة خلت من ذلك التاريخ على ذكرى تنازل الغراندوق أمضيت معاهدة فرساى التى سجلت النتائج المحزنة لتلك الحرب التى جاء موت الغراندوق مناسبة مباشرة لنشوبها !

ورفعت مرتبة الكونتس خوتك عقب الزواج إذ تفضل عليها فرانسوا جوزيف بلقب دوقة هوهنبرج ومع ذلك فقد كانت تعتبر من حيث مركزها أقل من أصغر دوقة فكانت لا تعرف للهناء طعما حتى لقد قيل إنها أسرت إلى صديق حميم قبل موتها بعام أنها قد ، ابتاعت العظمة بثمن غال ، وكثيراً ما كان أعضاء الأسرة الأمبراطورية يتعمدون تحقيرها بقسوة، حتى استفاضت الأحاديث بما كان يقع من مناظر عنيفة بين فرانتس فرديناند وأقربائه من جراء الاستخفافات التى كانت تلحق زوجه . وأخيراً ضاق وريث العرش ودوقة هوهنبرج ذرعا بما كان يقع ، فآثرا الابتعاد عن مراسم البلاط بتاتا .

وعلى قدر امتعاض فرانتس فرديناند وتألمه مما كانت زوجه تلقى فى فينا من الاستخفاف والمقاطعة كان عرفانه بجميل الامبرطور غليوم وموقفه الكريم حيالها . وهذا يفسر نوعا ما تلك العلاقات الوثيقة التى كانت قائمة بين أمبراطور الالمان والغراندوق بخاصة فى السنوات التى سبقت الحرب . وقد أثر فى نفس فرانتس فرديناند ما لقيه فى برلين أثناء زيارته اياها لأول مرة ، وأسره الامبراطور كما أسر كثيرين غيره بلطفه ومبالغته فى ارضائه ؛ وقدقضى معه الامبراطور فى شهر نوفمبر سنة ١٩٠٨ يومين كاملين يصطادان فى إيكارتساو على نهر الدانوب فازدادت صلاتهما متانة . ودعى الغراندوق الى بوتسدام بعد ذلك بعام وكانت الدعوة له ولدوقة هوهنبرج على السواء ، فقوبلت هناك بكل المظاهر اللائقة بدوقة ، ولقيت هى وزوجها من لباقة القيصر وكياسته ماظهرت معه آداب فينا المنطوية على الضغينة على طرفى نقيض.

فقد كانت دوقة هوهنبرج فى ولائم عشاء البلاط النمسوى ترغم على الجلوس فى أسفل المائدة بعيدة جدا عن زوجها ودون الدوقات النمسويات جميعا، أما فى بوتسدام فكانت الولائم تبسط على موائد صغيرة عديدة تفاديا من اقامتها على مائدة واحدة طويلة فيجلس دون الدوقة من هم أسمى منها مقاما . وهكذا كان امبرأطور المانيا وامبراطورتها يجاسان مع الغراندوق وزوجه على مائدة ويجلس بقية الضيوف على مائدة مماثلة لها . وبهذه الطريقة لم تكن تخلق سوابق أو يمكن ان يقال إن البلاط الألمانى قدم الدوقة على أية من أميرات البيت المالك . ولم يفت امبراطور المانيا فى زياراته التى تلت لفينا أن يزور دوقه هوهنبرج شخصيا وأن يظهر نحوها كل احترام . فمثل هذا المسلك كان من شأنه أن يفعم قلب الغراندوق بالشكر وأن يجعل العلاقات بين الرجلين أحدهما بالاخر أكثر متانة وزياراتهما أكثر وقوعا . فكان كلما ذهب الامبراطور الى كورفو عنى الغراندوق بملاقاته وحشد الاسطول النمسوى لتحيته او دعاه لزيارته فى بريونى او ميرمار . وقد حدث مرة عند تبادل هذه الزيارات ان دعى الامبراطور الى فيللا فرانتس فرديناند الجميلة فى كونوبشت من أعمال بوهيميا فى ١٢ يونية سنة ١٩١٤ .

اجتماع كونوبشت : الخرافة والواقع

كان اجتماع كونوبشت فى رواية الصحف النمسوية الرسمية مسألة شخصية القصد منها أن يرى الامبراطور ورد الغراندوق العجيب فى أوج نضرته . وكانت فلاحة البساتين والجنائن من بين الأشياء التى ولع بها الغراندوق فى الواقع فأنه لما اشترى ضيعة كونوبشت فى سنة ١٨٨٦ وقف تفكيره عليها سنوات وأنفق فى سبيلها مبالغ طائلة ريع لها خدمه حتى جعلها روضة من أبدع رياض أوربا . وكان فرانتس فرديناند يعرف فى كونوبشت كل شجرة

وكل دغل. وكانت حياض الازهار ترتب وفاق أوامره بالضبط ؛ أما الورد فكان متعته الخاصة وكانت العناية به ولعه الخاص . ولما كان الاميرال فون ترپتس قد صحب الأمبراطور غليوم الى كونوپشت وجاءها برشتولد وزير الخارجية النمسوية عقب مغادرة الأمبراطور اياها بيوم فقد ارتابت بعض الصحف على الأثر فى هذا الاجتماع فجعلت تزعم أنه كان لشئون أهم من مجرد رؤية الورد . ولم تنقض بضعة أسابيع على مقتل الغراندوق والحوادث الخفية المتصلة بموته ودفنه حتى راجت الاشاعات متلاحقة متضاربة عن وجود « ميثاق » تمت المؤامرة عليه فى كونوپشت وكان سببا للحرب العالمية . لذلك كان من الخير أن نحاول اكتناه امر هذا الاجتماع وان نعالج الاشاعات التى راجت من حوله .

ذكر المستر ويكهام ستيد مكاتب التيمس اللندنى الذى استند فى روايته الى مبلغ لم يذكر اسمه لكن « من شأن مركزه وسوابقه أن تدعو الى تمحيص أقواله أن امبراطور المانيا بأظهار التفاته نحو زوج الغراندوق فرانتس فرديناند كان يعمل على كسب مودة فرديناند وحسن ظنه فى سبيل أغراض سياسية ظهرت آثارها فى ميثاق كونوپشت . وقد أراد المستر ستيد حملنا على أن نصدق « أن أمبراطور ألمانيا نشر أمام الغراندوق فرانتس فرديناند أفقا فخما وبسط لعينيه خطة عظيمة تعده فى الحاضر بمملكتين واسعتين فى شرق أوربا ووسطها لولديه مكسمليان وارنست » ولتحقيق ذلك اتفق على أن تثار الروسيا الى حرب تدخلها ألمانيا والنمسا مستعدين ، وتضرب فرنسا بضع ضربات قوية تبدلها من قوتها ضعفا وذلك دون أن يخشى جانب انجلتره إذ حيدتها أمر مؤكد. ونتيجة حرب كهذه هى تغيير وجه أوربا فتعاد مملكة بولونيا القديمة ومعها ليتوانيا وأوكرانيا من بحر البلطيق الى البحر الأسود وتكون ميراثا لفرانتس فرديناند تنتقل بعده الى أكبر أولاده . أما أصغر أولاده فيخص تحت ارشاد والده بمملكة جديدة تتألف من بوهيميا والمجر ويوجوسلافيا وتتضمن صربيا ودلماسيا وسالونيك . تلقاء ذلك رأى فرانتس فرديناند ، على رواية مستر ستيد ـ

نفسه خيال تيجان عظيمة معروضة على ولديه وألفت صوفيا خوتك نفسها أما للملوك . أما الأمبراطور غليوم فكان عليه أن يقدم لدولة بولنده الجديدة جزءا من بوزن وأن يعوض نفسه من ذلك دولة جديدة تتألف من النمسا الألمانية وتريستا تدخل ضمن الأمبراطورية الألمانية ويحكمها فى دائرتها الغراندوق شارل فرنسوا جوزيف ابن أخى فرانتس فرديناند ، وبذا تحصل ألمانيا على منفذ مشتهى الى بحر الأدرياتيك وتتسع بما تضمه الى نفسها من دولة جديدة تعادل بفاريا فى أهميتها . هذا الى محالفة عسكرية اقتصادية تعقد بين أمبراطورية ألمانيا المكبرة ومملكة بولنده المعادة ودولة بوهيميا والمجر ويوجوسلافيا الجديدة . فتصبح ألمانيا بمثابة الحكم الفصل فى أوربا تشرف على البلقان وعلى طريق الشرق .

هـذا ما يقول المستر ويكهام ستيد إنه شروط الاتفاق . وهو يظن أن خبره اتصل بالأسرة الأمبراطورية النمسوية وان فى هـذا تفسيرا للطريقة المزرية التى دفن بها فرانتس فرديناند وزوجه دون احتفال بعـد مقتلهما فى سيراجيفو . وهو يشير من طرف خفى الى أن البلاط النمسوى مثقل بالاشتراك فى جريمة القتل ثم يذهب فى المبالغة أو التشهير بطائفة من الظروف على نحو صحفى مثير ليعتقد القارىء بأن مقتل الغراندوق انما كان بتواطؤ موظفين نمسويين ، وأن صربيا غير مسئولة بحال من الأحوال .

وبعد أن وصف المستر ستيد حقارة الترتيبات التى عملت لدفن الزوجين القتيلين ذهب فى الاتهام الى القول بأن المعلن أولا كان « أن أمبراطور ألمانيا سيسير فى الجنازة لكنه فى ٢ يوليه أعلن فى برلين أن انحرافا خفيفاً ألم بالأمبراطور جعله يعدل عن السفر الى فينا ، مع أنه كان يستقبل فى ذلك اليوم كالمعتاد . » يشير ضمنا الى أن فينا بعثت الى أمبراطور ألمانيا وبقية الملوك تصرفهم عن حضور الجنازة والى أن هذا دليل جديد على أن موت الغراندوق كان بفعل موظفين نمسويين لأنه كان يدبر فى كونوبشت تقسيم أراضى هابسبورج ليقدم

الى ولديه تيجانا . والواقع أن عدم حضور الأمبراطور الجنازة لم يكن امتثالا لأية ايماءة من جانب ولاة الأمور فى فينا بزعم أن هؤلاء أرادوا أن يحرموا الغراندوق وزوجه من مظاهر الشرف حتى بعد موته . انما كان تخلفه عن الذهاب الى فينا لأن القنصل الألمانى فى سيراجيفو بعث يحذر بأن الصربيين قد يعتدون على حياته ولأن المستشار الأمبراطورى أبى أن يحمل تبعة السماح للامبراطور بالمخاطرة بحياته بالذهاب الى فينا ؛ الأمر الذى ذكره بيتمان هلفيج فى تلغرافه الى السفير الألمانى فى فينا بتاريخ ٢ يوليه وهو الذى كلفه فيه أن يعلن أن السبب فى تخلف الأمبراطور غليوم هو انحراف صحته قليلا ، أما السبب الحقيقى فبلغه للامبراطور فرنسوا جوزيف وحده .

كذلك كل الظروف الأخرى التى بنى عليها المستر ستيد نظرية تواطؤ النمسا سنوضحها فيما يلى بكل بساطة وبما لا يخرج عن الامور الطبيعية ونورد لك أسبابها التى تختلف كل الاختلاف عن المسألة المتقدمة وتقل عنها إثارة للعواطف .

فالواقع أنه ليس هنالك أى ظل من دليل على أن الغراندوق كان يتآمر فى كونوبشت أو أن موظفين نمسويين تآمروا على حياته .

ومن حسن حظ الحقيقة أن قد نشرت أخيراً وثائق تروى ما وقع فى كونوبشت رواية دقيقة جديرة بالتصديق وتجعل جميع الباحثين الجادين يرون فى نظرية المستر ستيد الغريبة مجرد دعاية من دعايات الحرب . وإحدى هذه الوثائق تقرير رسمى كان البارون ترويتلر الوزير الذى كان يرافق غليوم الثانى فى كونوبشت قد بعثه الى وزارة الخارجية الالمانية فى اليوم التالى للمقابلة . وهذا التقرير يسرد المحادثات التى دارت بين غليوم الثانى وفرانتس فرديناند سرداً وافيا . فقد تناولا أولا حالة البلقان بمناسبة برقية مزعجة كانت قد وردت من أثينا وجاء فيها أن اليونانيين دعوا الاحتياطى البحرى لأنهم كما أشيع إذ ذاك عنهم كانوا يبيتون اعتداء على تركيا . وقد اتفق فرانتس فرديناند وضيفه

على أن يجسا نبض كارول ملك رومانيا ليريا هل يستخدم نفوذه لمصلحة السلام والمحافظة على الحالة الراهنة كما عينتها معاهدة بوخارست وأعرب كلاهما عن كراهيته لفرديناند ملك بلغاريا واسترسل فرانتس فرديناند يبدى شكوكه وإرتيابه فى نيات إيطاليا وخاصة حيال ألبانيا . وقد اجتهد أمبراطور ألمانيا فى تبديد شكوكه وأمل أنه حين يجتمع فرانتس فرديناند بملك إيطاليا فى المناورات الألمانية المعتاد إجراؤها فى أواخر السنة ، تتاح فرصة لتحسين العلاقات الشخصية الودية بين فيكتور عمانوئيل ووريث عرش هابسبورج

وكان الموضوع الأساسى فى محادثات كونوبشت هو نفس الموضوع الذى دار فى فينا قبل ذلك بثلاثة أشهر بين غليوم الثانى وفرنسوا جوزيف ـ أى يتناول سياسة النمسا الداخلية بمناسبة المعاملة التى كان الرومانيون فى ترانسلفانيا يلقونها على يدى « تيزا » ، وتأثيرها الخطر فى الشعور العام فى مملكة رومانيا . وكان كلاهما يستهجن هذه المعاملة ويرى غليوم الثانى أنها خليقة بأن تعرض المحالفة الثلاثية للخطر .

أما اصطحاب أمبراطور ألمانيا للأميرال فون تربتس الى كونوبشت فأمر سبب فى الواقع بضع ملاحظات وساعد على نشر تلك الأسطورة القائلة بأن أموراً عظيمة كانت تدبر هناك . غير أن حضور تربتس الى كونوبشت يفسره تفسيرا كافياً ما أكده وزير خارجية ألمانيا فون ياجو أخيراً من اهتمام الغراندوق بانشاء البحرية النمسوية وإعادة تنظيمها . كذلك يمكن أن يفسره ما كان يساور أمبراطور ألمانيا ووزارة الخارجية الألمانية من القلق العظيم بسبب الأشاعات التى راجت إذ ذاك عن وجود اتفاق بحرى بين الروسيا وانجلتره وهو ما كان بالفعل تدور عليه المناقشة فى ذلك الحين . فقد كانت فرنسا والروسيا قد عززتا الاتفاق الحربى الخاص بالمحالفة الثنائية باتفاق بحرى مماثل له فى ربيع سنة ١٩١٢ . وفى نوفمبر من تلك السنة حصلت فرنسا من السير إدوارد غراي على وعد كتابى بأن يواصل الخبراء البحريون والعسكريون

الفرنسيون والانجليز مشاوراتهم توقعا لأمكان نشوب حرب . فوضعت البحرية البريطانية والفرنسية ترتيباً جديداً جعل الفرنسيين يزيدون قواهم فى البحر الأبيض المتوسط لحماية المصالح البريطانية والفرنسية فى تلك المنطقة ، كما جعل الانجليز من ناحيتهم يركزون أسطولهم فى بحر الشمال لحماية شاطىء فرنسا الشمالى من اعتداء ألمانيا . وأخيراً فى سنة ١٩١٤ اجتهد بوانكاريه وايزفولسكى وسازونوف فى اتخاذ التدابير لعقد اتفاق بحرى بين انجلتره والروسيا يجمع بين القوى البحرية للوفاق الثلاثى ويوجهها ضد ألمانيا . فمن الطبيعى أن يتوق الامبراطور الى مشاورة فرانتس فرديناند فى شأن هذه المفاوضات وفى الوسائل التى تدفع ماكانا يريانه « تطويقاً » بحريا ، إن أمكن .

ولعل أهم نتيجة لاجتماع كونوبشت مع ذلك هى التأثير الذى تركته هذه المقابلة فى نفسية الامبراطور. ومن ثم كان لمقتل الغراندوق أشد وقع على طبيعته الوثابة السريعة الانفعال بخاصة وهو يرى أن الذى ذهب ضحية الجريمة صديق كان لبضعة أيام خلت يزوره فى بيته تلك الزيارة المنطوية على المودة الخالصة . وقد جاءت طلقات مسدس سيراجيفو على أثر مشهد الورد فى كونوبشت فكان هذا أدعى الى أن يتعاظم فى نفسه الرعب الذى كان يتملكه من كل إرهاب . وهكذا أصبح يتمثل صربيا مغارة للقتلة فلم يتردد فى إطلاق يد الكونت برشتولد فى اتخاذ أية اجراءات تراها فينا مناسبة مع صربيا . وهذا منه عمل خلو من الحكمة وهو الذى كان الى ما قبل الحادثة يصد النمسا عن اتيان عمل ما ضد صربيا ينطوى على التسرع .

نزهة سيراجيفو

قبل ذهاب الغراندوق الى البوسنة وسيراجيفو فى يونيه سنة ١٩١٤ ببضعة أشهر استقر الرأى على أن يقوم فرانتس فرديناند بتلك النزهة المشئومة إذ حادث كونراد فى شأنها أثناء مناورات الجيش النمسوى فى بوهيميا وبحثها فى

فى فينا مع حاكم البوسنة الجنرال بوتيوريك عقب ذلك . وقد قال هذا الجنرال إن الغراندوق كان يقصد من زيارة البوسنه باعتباره وريثا للعرش الى حضور مناورات الفيلقين الخامس عشر والسادس عشر وانتهاز هذه الفرصة لأحضار قرينته معه . وهذا الحديث يدل على الغرض الثلاثى من هذه الزيارة و يفسر التفاصيل المتعلقة بها والتى كانت الى حد ما تخالف المعتاد .

فقد كان من المرغوب فيه جدا من الوجهة السياسية أن يظهر عضو من الأسرة الأمبراطورية فى الأقليمين اللذين كانا قد ضما قبل ذلك الحين بزمن وجيز. فأنه لم يكن خيرا من تلك الزيارات الرسمية التى يقوم بها أمراء منبهاً لشعور الولاء ومقويا إياه فى أنفس فلاحى أوروبا البسطاء الذين كانوا الى ما قبل الحرب العالمية يكنون للملكية احتراما عميقا ويحسون نحو حاكمهم ولاءاً توارثوا الشعور به على مر الايام . والفلاح البسيط يعشق مظاهر الامارة ويحب أن يرى حاكمه وأن يجد فيه انسانا من لحم ودم مثله يمشى ويركب ويأكل ثلاث أكلات مرئية كل يوم . وبمجرد سماعه إياه يتكلم كان خليقا أن يجدد الآصرة البشرية التى تجعلهم مشتركين فى التفاهم والمصالح . وقد كان هذا فى التاريخ هكذا منذ هنرى الرابع وفريدريك الأكبر فى الماضى والبرنس أوف ويلز فى الوقت الحاضر . وبهذه المثابة زار فرنسوا جوزيف البوسنه فى سنة ١٩١٠ وقد حض البارون موسولين فى سنة ١٩١٣ على أن يظهر فرانتس فرديناند فى كرواتيا ليزداد أهلها معرفة به ، وأن يقوم هناك أعضاء أسرة هابسبورج بزيارات طويلة ليحبطوا بزياراتهم دعاية المهيجين السياسيين بين الفلاحين الموالين وقد يكون لهذا الرأى بعض العلاقة بما قرره الغراندوق بعد ذلك من زيارة البوسنه والهرسك . فان هذه الزيارة كان يراد بها تقوية العناصر الرومانية الكاثوليكية وغيرها من العناصر الموالية وإفساد الدعاية الثورية التى كان اليوجوسلافيون يقومون بها والهياج الذى كان الصربيون يبثونه فى سبيل انشاء دولة صربية كبرى . وهذه هى الناحية السياسية لهذه النزهة وهى تفسر بعض

الشيء السبب الذى من اجله لم يشأ فرانتس فرديناند أن يكون فى ركابه حرس كثيرون من الجنود ورجال البوليس لحمايته بل آثر أن يركب حيث شاء على حريته وفى سيارة مكشوفة. وقد استاء فى سنة ١٩٠٩ عند ما اخترق المجر لزيارة الملك كارول من الطريقة التى اتبعها ولاة الأمور المدنيون إذ ضربوا نطاقا من البوليس حول محطات السكك الحديدية وابعدوا عنه جموع الفلاحين الذين أتوا لتلويح قبعاتهم ومناديلهم تحية للغراندوق وزوجه.

وقد كان الغرض الأساسى لهذه النزهة مع ذلك هو أن يحضر الغراندوق مناورات الفيلقين الخامس عشر والسادس عشر اللذين كانا معسكرين فى البوسنه. وهو باعتباره مفتشا عاما للجيش كان ينوب عن الأمبراطور فى مثل هذه المناورات فى السنوات الأخيرة. وقد اعتاد الكتاب المعادون للنمسا أن يعتبروا هذه المناورات « نوعا من التجربة لعمليات حربية مقبلة ضد صربيا ». ويقول المستر جوفا نوفتش وزير صربيا فى فينا « لقد كانت الخطة ان تجرى المناورات فى الأقليم الواقع بين سيراجيفو وروما نيجه وهان بيزيزاك (شرقى سيراجيفو) أى قبالة الحدود الصربية. وهذه المناورات بالخطة التى وضعت بها كان يراد بها صربيا بطبيعة الحال... وكان مقدرا ان تجرى على الدرين فى البوسنه تجاه صربيا » وهذه تأكيدات لا ظل فيها للحقيقة. فان مقتضيات الحرب مع صربيا كان قد نص عليها بطريقة تختلف عن هذه الطريقة فى خطة كونراد الموسومة بالتعبئة « ب » (والمقصود البلقان). وهذه الخطة لم تكن تشتمل على فيلقين مرابطين بانتظام فى البوسنة بل على خمسة فيالق غيرهما يؤلف مجموعها نصف الجيش بأسرها. وكانت ترمى الى هجوم مباشر على الدرين القائم حدا فاصلا بين البوسنة وصربيا. وقد وضع هذه الخطة بحذافيرها كونراد وهيئة أركان حربه وكانت ككل خطط هيئات أركان الحرب الخاصة بالتعبئة فى كل البلدان جاهزة ينتفع بها عند الحاجة. لكن مناورات البوسنة التى كان الغراندوق سيتفقدها

كانت تتألف من فيلقين فقط ولم تكن سوى جزء من التدريب المعتاد . فلم تكن لها علاقة بأية استعدادات حربية ظاهرة بل كان الغرض الأساسى منها تمرين قوى كثيرة تتنقــــل فى أرض وعرة متباينة . كذلك لم تكن المناورات لتجرى فى رومانيجه شرقى سيراجيفو على الدرين « قبالة صربيا بالضبط » كما يقول المسيو جوفانوفتش . فقد جرت هذه المناورات على النقيض من ذلك على بعد ٣٠ كيلو متراً من جنوب سيراجيفو الغربى فى إقليم تارسين . ولم يكن يراد بها بحال من الأحوال أى اعتداء نظرى على صربيا بل كان يقصد بها على العكس من ذلك الى حماية سيراجيفو من الأعتداء عليها من الغرب من ناحية الأدرياتيك . وقد كان قصد الغراندوق من السفر الى سيراجيفو عن طريق فيومه وبحر الأدرياتيك ثم ركوب السكة الحديدية عن طريق ميتكوفيك وموستار أن يعرف المنطقة المواجهة للبوسنة بعيدا عن صربيا بقدر الأمكان . وقد كانت زوجه مضطرة الى قطع الطريق كله من فينا بالسكة الحديدية عن طريق بودابست ولم تلتق به الا فى إلزرة على مقربة من سيراجيفو . والظاهر أن الأمبراطور لم يعارض بالمرة فى اشتراكها فى تلك النزهة عندما عرض عليه الغراندوق المسألة فى ٤ يونيه .

ويلوح أن الغراندوق شرع فى هذه النزهة شعوراً منه بالواجب أكثر منه رغبة فى انتهاز الفرصة لكى تستقبل زوجته الى جانبه بالمظاهر الملكية . وقد كان يشك فى الأسابيع الأخيرة فى إمكان ذهابه بالمرة مراعاة لصحته ونظرا لحرارة الجو . وقد بحث المسألة مع الأمبراطور فقال له : « افعل مابدا لك » ، وأبدى سكرتيره الخاص ملاحظات دلت على أن فرانتس فرديناند لم يكن متحمساً للرحلة ، وقال « إن القول بأن الغراندوق أراد من نزهته الى البوسنه أن يكون سفره محوطا بمظاهر الفخفخة محض اختلاق . »

وفى اليوم السادس والعشرين من شهر يونيه وكان يوم جمعه ركب فرانتس فرديناند وقرينته فى عصره الى سيراجيفو عقب عودته من مناورات اليوم ،

لشراء بعض الأشياء من أسواقها . وكان فرديناند عصر ذلك اليوم مرتديا بذلته الرسمية فعرفه الجمهور أينما مر به وهتف له هتافا يدل على الولاء . وقد ازدحم الطريق بالناس ازدحاماً تعذر معه على الضباط المرافقين له أن يفسحوه له من حانوت لآخر . فلو أنه كانت هنالك « عصبة من القتلة » تتربص للقضاء عليه ، لكانت الفرصة إذ ذاك سانحة ليس أصلح منها . لكن الزيارة انقضت بسلام وعاد الغراندوق وقرينته الى إلزره مسرورين من المدينة ومن الاسلوب الذى استقبلا به .

وفى صباح الأحد أبرق الغراندوق الى أطفاله فى كلومتر يقول « إن بابا وماما بخير وإنهما ينتظران رؤيتهم ثانية يوم الثلاثاء » وكانت هذه البرقية آخر ما كتب .

الفصل الثانى

مؤامرة القتل

إن السبب المباشر للحرب العالمية هو مقتل الغراندوق النمسوى فى سيراجيفو، فلو أن هذه الجريمة لم تقع لما كان فى صيف سنة ١٩١٤ حرب نمسوية صربية أو حرب عالمية . فانه على الرغم من التوتر الذى كان يزداد على مر الأيام بين المحالفة الثلاثية والوفاق الثلاثى كان الراجح ان تنجح الديبلوماسى الأوربية فى الحيلولة أشهرا بل سنين دون وقوع حرب كان الساسة أجمعون يتكهنون بأنها سوف تكون فظيعة لا نظير لرعبها ، وكانت قوى فرنسا والروسيا تعمل على ان تكون فى سنة ١٩١٧ اكثر استعدادا لهامنها فى سنة ١٩١٤. فقتل الغراندوق أشعل نارا ما كانت لتشتعل كما اشتعلت وربما لم تكن اشتعلت أبدا . فمن الأهمية إذن أن نتحرى أصول المؤامرة التى وقع الغراندوق فريستها وأن نعين المسئولية عن العمل الذى كانت له هذه العواقب المخيفة التى زعزعت العالم .

ما تفاصيل مؤامرة سيراجيفو ؟ وما البواعث التى حدت القتله ؟ ومن كانوا محرضيهم أو شركاءهم ؟ هذه أسئلة غامضة صعبة ظلت اكثر استسرارا وتحيرا من أغلب المشاكل التى تمت الى أسباب الحرب المباشرة بصلة . وقد صرف بعض المؤرخين المحترمين اهتماما قليلا اليها بالنسبة لما وجهوه من الالتفات الى غيرها ، وراج من الاشاعات الخيالية والتشويهات الملحة الناشئة عن البغضاء والدعاية الحربية فى هذا الموضوع اكثر مما راج عن أى موضوع من مواضيع تلك الأيام المحزنة التى أشعلت فى اوربا النـــار . ولهذا أسباب عدة . فالمؤرخون كانوا مشغولين بالمسئولية النسبية للدول

العظمى ، والمعلومات المستقاة من مصادر صربية لم تكن جد ضئيلة فحسب بل كانت مكونة من تأكيدات متناقضة . وسبب آخر هوان البلاغ النمسوى النهائى الذى ارسل الى صربيا والملف الذى قدم الى الدول محتويا نتائج تحقيق النمسا فى مقتل سيراجيفو ومسوغا تقديم هذا البلاغ اشتملا على رأى النمسا الرسمى فى المؤامرة — ذلك الرأى الذى القى تبعة الجريمة على عاتق المهيجين الصربيين الذين كانوا يدعون الى تأسيس « صربيا الكبرى » وبخاصة أعمال الجمعية الوطنية الصربية المعروفة باسم « نارودنا اودبرانا » تلك الأعمال المخربة . لكن هذا الرأى لم يصادف ابداً كثيرا من الثقة لدى اغلب الناس فى دول الوفاق او البلدان المحايدة . فالتحقيق الذى جرى فى سيراجيفو كان يجرى بالضرورة على عجل وكان يدور فى السر وفى جو من التكتم التام . ولذا جاء الملف الذى قدم الى الدول عبارة عن ترتيق عمل على عجل . ولما كان هذا الملف لم يصل الى الدول الا بعد ان اخذت تظن بالنمسا الظنون وتشتبه فى انها منطوية على نية الحرب ضد صربيا مهما يكن من امر ، فقد كان ساسة اوربا قد ساورتهم بالفعل المخاوف من حرب اوربية عامة حتى لم يكن لديهم متسع من الوقت للالتفات الجدى الى ما كانوا يشتبهون فى انه اتهامات مخترعه . ولم تكن إذ ذاك قد بارحت أذهانهم ذكرى محاكمات أجرام وفريدينج المخزية التى ضبط فيها الموظفون النمسويون يستخدمون وثائق مزورة سعيا منهم الى الصاق التهم بالعاطفين على القضية الصربية . أما كان إذن يصح ان يكون ملف سنة ١٩١٤ من هذا النوع المزرى ؟ وهكذا كان المتحاملون على دول الوسط ميالين الى ان يسدلوا على ملف برشتولد أستار النسيان او يرمقوه بالسخرية ، وان يتقبلوا بدلا منه نفى الحكومة الصربية البات لتهم النمسا وتأكيدها الجازم بأنها ليست مدانة بالاشتراك فى الجريمة بحال من الاحوال

وأخيراً فى نوفمبر سنة ١٩١٤ قدم القتلة والمشتبه فيهم الى محاكمة رسمية فى

سيراجيفو ونشر فى برلين فى سنة ١٩١٨ تقرير مختصر باللغة الكرواتية عن الجانب المهم فى هذه المحاكمة وترجم الى اللغة الالمانية . وهذا التقرير وثيقة بشرية ممتعة حافلة بالحزن والمطارب ، بالأشجان والفكاهة . ويلوح منها أن المحاكمة كانت تامة عادلة وأقل تكتما من التحقيق الابتدائى الذى سبقها فى يوليه . وقد حضرها الى جانب المتهمين الاثنين والعشرين وأكثر من مائة شاهد وجنود عديدين والموظفين القضائيين أنفسهم — نقول حضرها إلى جانب هؤلاء جمهور قليل مختار دخل الى قاعة المحكمة الصغيرة المزدحمة المكتظة بمن فيها . وقد وقف القاضى الجلسة عدة مرات خمس دقائق لتغيير هوائها وطلب مرتين الى شخصين يتكلمان بصوت خافت أن يرفعا صوتهما لأن المحاكمة « علنية وأنا والباقون نريد أن نسمع ما تقول »

وهذا التقرير عن المحاكمة يلقى أيضا ضوءا قيما على الاستعدادات الغامضة التى قامت داخل صربيا وانتهت بجريمة القتل. ومع ذلك فيلوح ان هذا التقرير لم يلق خارج المانيا شيئا من الألتفات الجدى وهذا راجع بعض الشىء الى أن المانيا كانت أوان نشره فى ١٩١٨ مقطوعة الصلة بكثير من نواحى العالم. ويرجع كذلك الى ان ما خلقته الحرب من البغضاء والعمى عن الحقائق كان من شأنه أن يترك فى الأذهان أن هذا التقرير مزور أو « مجرد دعاية » حتى ذلك المؤرخ الممتاز السير تشارلس أومان كان يرى « أن جميع الشهادات ملفقة وأن محاضر المحكمة قد مسخت الى درجة أنه لا سبيل الى تصديق اية كلمة فيها . » ومع ذلك فان ما وجهته النمسا الى صربيا من تهم أيدتها الشهادات التى أديت أثناء المحاكمة كان فيما يتعلق بمسؤلية صربيا دون الواقع وهو ما سوف نتبينه بعد . وهكذا ظلت الحقيقة فى مؤامرة سيراجيفو عشر سنوات تقريبا مجهولة محفوفة بالاسرار إذ كان نصيب الادلة النمسوية الاهمال أو التكذيب او السخرية ، فى حين كان الكتاب الصربيون حريصين على ان لا ينشروا شيئا يتضارب وموقف البراءة المثلومة الذى اتخذته حكومتهم فى سنة ١٩١٤

إفشاءات جديدة

فى خمس السنوات الأخيرة أذاع الصربيون مؤلفات عديدة يلوح أن البواعث التى حدت اليها مختلفة . فمنها ما يبغى صاحبه به وجه الحقيقة رجاء أن تنسخ العدالة ما وقع من الظلم ، ومنها ما ينطوى على نزعات حزبية ومنها وهو الغريب حقا ، ما يزعم صاحبه به شرفا موهوما لنفسه لأنه كان من بين الذين دبروا مقتل الغراندوق . ومقتل الغراندوق أسفر فى الختام عن تأسيس المملكة اليوجوسلافية « المجيدة . »

وأول ما يلفت الانظار من هذه المؤلفات خارج حدود يوجوسلافيا ما كتبه ستانوجه ستانوجيفتش أستاذ التاريخ المعروف فى بلغراد . فهو لا يشير الى المراجع التى استقى منها مؤلفه لكنه كما يقول فى مقدمة كتابه جمع معلوماته رأساً من بعض المتآمرين الباقين على قيد الحياة ممن يعرفهم . وهو يلقى تبعة الجريمة على زعيم جمعية سرية ثورية صربية معروفة بأسم اليد السوداء ، كانت مؤلفة من عصبة قوية من الضباط العسكريين دبروا فيما مضى ونفذوا مقتل الملك اسكندر والملكة دراجا فى سنة ١٩٠٣ وقاموا من ذلك الحين بدور مشئوم فى سياسة صربيا الداخلية وعلاقاتها الخارجية . ومنظمها فى سنة ١٩١٤ وزعيمها والروح المحرك فيها لم يكن سوى الكولونل دراجوتين ديمتريفتش رئيس مصلحة المخابرات فى هيئة أركان حرب الصرب العامة .

واليك ما يقول الاستاذ ستانوجيفتش عن هذا المتآمر الأكبر الذى أعدمه حزب باشتش فى سنة ١٩١٧ وأصبح بعد ذلك بطلا فى أعين فريق كبير من الشعب الصربى :

« رجل ذو مواهب ، مثقف ، شجاع ، شريف ، كثير الطموح ، عظيم الهمة ، دؤوب العمل ، متكلم يقنع سامعيه . ذلك هو دراجوتين ديمتريفتش الذى كان ذا نفوذ خارق على من حوله وخاصة رفقائه وصغار الضباط الذين

كانوا جميعاً دونه شعوراً وقوة خلق . وقد كان تدليله دائماً وافيا مقنعاً يفهم كيف يصور الشرور بسائط تافهةوأخطر المشاريع بريئاً لاشية فيه . وهو الى ذلك منظم مبدع وضع كل شيء في يده، لا يعرف حتى أخلص أصدقائه ما يكون في نيته الا ساعة العمل. لكن دراجوتين ديمتريفتش كان أيضاً مغروراً جداً يغالى في التصنع . ولأنه كثير الأطماع كان يؤثر العمل الخفى ويحب أن يعرف عنه الناس انه يزاول مثل هذا العمل وأن كل شيء لا يقوم عليه سواه ، لا يفهم الحياة السياسية أو قيودها فهما واضحاً ولا يرى أمامه الا الغرض الذى يسعى اليه يقصد اليه على الفور دون تردد أو مبالاة بالعواقب ، محب للاخطار والمغامرة ميال الى الاجتماعات السرية والأعمال الخفية ، متوثب مخاطر مولع على الدوام بتدبير المؤامرات وجرائم القتل . وقد كان في سنة ١٩٠٣ بين كبار من بيتوا المؤامرة على حياة الملك اسكندر. وفي سنة ١٩١١ بعث من يغتال امبراطور النمسا أو وريث عرشه. وفي فبراير ١٩١٤ تواطأ مع اللجنة البلغارية الثورية على قتل فرديناند ملك بلغاريا.وفي سنة ١٩١٤ أخذ على عاتقه تنظيم مؤامرة سيراجيفو على ولى عهد النمسا فرانتس فرديناند . وفي سنة ١٩١٦ أرسل بعضهم الى كورفو لاغتيال الملك قسطنطين اليونانى . وفي هذه السنة عينها كان على ما يظهر يحاول الاتصال بالعدو ويدبر مؤامرة على البرنس اسكندر ولى عهد صربيا حينذاك ، فحكم عليه بالاعدام من جراء ذلك ورمى بالرصاص في سالونيك سنة ١٩١٧ »

وقد مضى ستانوجيفتش يصف بالتفصيل كيف ساعد هذا الضابط المنتسب الى هيئة اركان الحرب العامة على تنظيم المؤامرة في بلغراد وكيف كان يزود شبان البوسنه بالقنابل والمسدسات التى استعملت بالفعل في حادث سيراجيفو لكن الباعث على جريمة ديمتريفتش يدل في رأيه على بساطة القلب إذ يقول «انه لما سمع ديمتريفتش فوق الذى سمع من الأشاعات الأخرى ان الغراندوق النمسوى آت ليدير المناورات في صربيا اقتنع كل الاقتناع بأن النمسا

والمجر تبيت هجوماً على صربيا فقر رأيه بعد طول التفكير على أن قتل فرانتس فرديناند يحول دون وقوع الاعتداء بل يمنع الحرب ذاتها »

لم يمض على هذه الاذاعات بضعة أشهر وهي التي ذهبت الى أبعد مما ذهبت اليه اتهامات النمسويين في سنة ١٩١٤ حتى نشر صحفي يوجوسلافي يدعى بوريفوجه يفتتش رسالة ممتعة أوضح فيها نشأة الحركة الارهابية الجديدة التي بثت بين شباب البوسنه « شريعة الاغتيال » في السنوات العشر السابقة للحرب . . والرسالة تلقي بنوع خاص شيئاً من النور على كيفية تنفيذ المؤامرة في سيراجيفو أكثر مما توضح ما تم من الاستعداد لها في بلغراد . وقد كان يفتتش أحد شهود محاكمة القتلة في سنة ١٩١٤ فسلم إذ ذاك صراحة بأنه كان يكتب في صحف سيراجيفو . . وانه عضو في جمعية شباب صربيا التي كانت تزكي نار الوطنية الصربية في البوسنه. بل لقد سلم بأنه كان يكاتب كبار القتلة حيناً بعد حين لكنه انكر بشدة انه كان يعلم شيئاً عن مؤامرة مقتل الغراندوق وأمكنه أن يقنع القضاه ببراءته . تلك كانت شهادته في سنة ١٩١٤ أما في سنة ١٩٢٤ عندما اصبحت حياته في مأمن من أيدي البوليس النمسوي وآماله في الوحدة اليوجوسلافية محققة كنتيجة لتلك الجريمة وللحرب العالمية ، فقد أعلن انه كان يعلم كل شيء عن المؤامرة. بل هو قد وصف وصفاً شائقاً كيف قضى ليلة السبت ومساء الجريمة في صحبة برنسيب الذي اطلق رصاصاته المميتة في اليوم التالي ، وزعم انه لا أقل من عشرة كمن كانت تتربص للغراندوق وأنه لو كانت رصاصة برنسيب أخطأت فرانتس فرديناند كما أخطأته قنبلة شارينوفتش لما كان أفلت من غيرها مما أعد لاغتياله ولما كان غادر سيراجيفو حيا بحال من الاحوال

وأعظم تلك الافشاءات وقعا وأكثرها ضجة وشأناً ما أذاعه المسيو لجو باجوفانوفتش، لأنه موظف صربي ممتاز كان في يوليه سنة ١٩١٤ وزيراً للمعارف في وزارة باشتش. فقد اصدر روسي بمناسبة الاحتفال بمرور عشر سنوات على نشوب الحرب العظمى كتاباً في صيف ١٩١٤ ضمنه مقالات

وجيزة لبعض كبار الصربيين تحت عنوان « دم الجامعة السلافية » وكان المقال الافتتاحي معنوناً «بعد فيدوف دان سنة ١٩١٤ » وبتوقيع جوفانوفتش؛ أفشى فيه كل شيء بغتة وبصورة غير مألوفة بالمرة واعترف كما يعترف بأمر عادي لا غرابة فيه بما كان المسيو باشتش والحكومة الصربية يخفيانه عدة سنين قال:

كنت عند نشوب الحرب العظمى وزيراً للمعارف فى وزارة المسيو نيقولا باشتش . وقد كتبت أخيراً بعض ما وعته الذاكرة وسطره القلم عن حوادث تلك الأيام . وأنى أقتطف منها للمناسبة الراهنة بضعة مقتطفات لأن الوقت لم يئن بعد لأفشاء كل شيء . لست أذكر جيداً أكان فى أواخر مايو أم اوائل يونية يوم قال المسيو باشتش لنا (فقد تداول فى هذه الشئون بتوسع اكثر مع ستوجان بروتتش وزير الداخلية إذ ذاك . بيد انه قال لبقيتنا هذا الشيء الكثير :) إن بعض الاشخاص يستعدون للذهاب الى سيراجيفو لقتل فرانتس فرديناند الذى يتوجه اليها فى يوم عيد القديس فيتوس وكانت هذه المؤامرة كما أخبرونى بعد ذلك من عمل جماعة سرية فى بلغراد ومن تدبيرها مع بعض طلبة البوسنه والهرسك المعروفين بغيرتهم الوطنية . وقد نصح المسيو باشتش ومعه بقيتنا بأن تصدر تعليمات الى سلطات الحدود لتمنع من اجتيازها فريق الشبان الذين كانوا قد بارحوا بلغراد فعلا لهذا الغرض فوافق ستوجان بيد ان « سلطات » الحدود نفسها كانت تنتمى الى هذه الجماعة فلم تنفذ تعليمات ستوجان بل كتبت اليه (كما علمنا بعد ذاك) ان التعليمات وصلت اليها متأخرة لأن الشبان كانوا قد اجتازوا الحدود

من هذا يتضح أن أعضاء الوزارة الصربيه كانوا يعلمون بالمؤامرة قبل وقوع الجريمة بشهر تقريبا وأنهم لم يتخذوا أية اجراآت فعالة لمنعها . فالحكومة الصربية والحالة هذه مجرمة بأهمالها . وهذا أقل ما يقال . فهى بعد ان لم تقض فى المهد على تلك المؤامرة التى دبرها فى عاصمة بلادها أحد ضباطها المنتمين الى هيئة أركان الحرب العامة وبعد أن لم تمنع الشبان من اجتياز الحدود الى البوسنه ، اما لان بروتتش لم يعط تعلماته فى حينها واما وهو الارجح لأن « سلطات الحدود » كانت تنتمى الى « جمعية اليد السوداء »، بعد هذا الذى ذكرناه كان يجب ان تشعر السلطات النمسوية بالأمر وتنهى اليها اسماء المجرمين مع جميع التفصيلات الأخرى التى كانت خليقة ان تفضى الى القبض عليهم وإحباط مؤامرتهم . لكن المسيو باشتش ووزارته لم يفعلوا شيئا من هذا ، مع انه كان على الحكومة الصربية بعد أن وقعت الجريمة أن

تقوم بتحريات وافية عن الجمعيات السرية المشتبه فيها في صربيا وتقبض على جميع الذين ساعدوا على تدبير المؤامرة أو تنفيذها . لكنها بدلا من ان تفعل هذا عمدت الى طمس معالمها وأنكرت كل علم بها أملا فى ألا تستطيع النمسا اكتشاف تواطئها. ولا عجب بعد ذلك ان يستشعر المسيو جوفانوفتش قلقاً شديداً عند ما سمع بالنبأ المشئوم عصر يوم الأحد الموافق ٢٨ يونيه وهو فى بيته الريفى مع انه كان مثقل الضمير عالما بالجريمة قبل وقوعها . ولم يكن هذا منه أسفا لما حدث ولكن خوفا من العواقب وخشية ملأته بالأفكار المرعبة قال :

فى الساعة الخامسة بعد الظهر أبلغنى موظف بقلم المطبوعات تليفونيا نبأ ما حدث فى سيراجيفو فى صباح اليوم . ومع انى كنت عارفا ما كان يعد هناك فأنى أحسست حين أمسكت بالسماعة كأن إنسانا عاجلنى بضربة على غرة ثم أخذ القلق الشديد يستحوذ علىّ بعد ذلك حين تأكد الخبر من مصادر أخرى .

لم أكن أشك لحظة فى أن النمسا والمجر ستتذرع بهذا الظرف لأعلان الحرب على صربيا وقد رأيت ان مركز حكومتنا وبلادنا حيال الدول الأخرى سيصبح الآن من كل وجهة أحرج مما كان عقب ٢٩ مايو ١٩٠٣ وأسوء منه يوم كان النزاع قائما بيننا وبين فينا وبودابست. كنت أخشى ان يشعر ملوك أوربا أنهم هدف لرصاصات برنسيب فيحولوا وجوههم عنا وتقرهم على ذلك العناصر الملكية والمحافظة فى بلادهم . وحتى اذا لم يصل الأمر الى هذا الحد فمن ذا كان عسيا ان يدافع عنا. وكنت أعرف أنه لا فرنسا ولا الروسيا بطبيعة الحال تستطيعان ان تقيسا نفسيهما بالمانيا وحليفتها على الداتوب لأن استعداداتهما ما كانت لتكمل قبل سنة ١٩١٧ وهذا بنوع خاص كان يملأنى قلقا ورعبا . . . . . .

لقد جاء يزورنى اذ ذاك صديق شاب هو الماجور ن . وكان قلقا لكنه لم يكن يتملكه اليأس كما كان يتملكنى فنفضت على سمعه مخاوفى دون ان أحاول اخفاء او تفكيرا . فقال لى من فوره بلهجته التى اعتادها فى مثل هذه الظروف : فى لطف وهدوء والمام حقيقى، قال: ياعزيزى الوزير اظن الأمر لا يستلزم اليأس مطلقا فلتهاجمنا النمسا والمجر اذا شاءت ! فلا بد من ذلك إن عاجلا وإن آجلا والآونة الراهنة ليست باللحظة غير الملائمة جداً لتسوية الحساب بيد انه ليس فى وسعنا نحن ان نختار اللحظة الملائمة . واذا اختارتها النمسا فهى وشأنها ! وقد تفضى فى النهاية الى ضررنا ولكن من يعلم . فقد تكون الخاتمة غير ذلك »

هذه الكلمات التى تدل من الماجور ن . على ان الدوائر الصربية العسكرية لم تكن تنظر الى الأمر تلك النظرة السوداء بل كانت تحدوها الثقة لما تلقته من

التأكيدات بحماية الروسيا « أثابت الى رشدى » على قول المسيو جوفانوفتش « وقد كان من حسن الحظ ان حملت الينا صحف بطرسبورغ أول الانباء الطيبة وكان فى امكاننا ان نفترض مقدما أن آراءها تعبر عن الحكومة ، اذ جعلت هذه الصحف تدفع عنا تهم النمسا والمجر وتصرح بأن الروسيا لن تنكرنا أو تتخلى عنا وأن أصدقاء الروسيا سيحذون حذوها . وهكذا كان »

من ذلك يتضح أن المسيو جوفانوفتش أطمأن باله فلم تعد تخيفه فكرة الأعتداء على صربيا وإمكان وقوع حرب أوربية، ورأى فى « اضطهادات الصربيين فى البوسنة وفى لهجة الصحف النمسوية العنيفة ظرفا صالحا قد يقلب الرأى الأوربى على النمسا . على أن زملاءه كانوا يعتقدون بأمكان اجتناب الحرب . ولتوقعهم عجز فينا عن اثبات أية صلة بين صربيا الرسمية والفعلة التى ارتكبت على الملجاكا) النهر الذى يخترق سيراجيفو والذى اغتيل الغراندوق بجواره) تقرر أن تسدل الأستار على كل شيء وأن يتظاهروا بأن الأمر لا يعنيهم وانهم من وزره أبرياء ، وان يتصنعوا الحزن ويحاولوا استرضاء البلاد التى قتل من أبنائها زوجان ملكيان بأرخص ما يستطاع من ثمن . قال المسيو جوفانوفتش :

لم تقصر الحكومة كما هو معروف فى فعل كل ما من شأنه أن يرى أصدقاءها وبقية العالم اننا بعيدون كل البعد عن متآمرى سيراجيفو . فأعطى ستوجان أوامره فى نفس المساء الذى علم فيه مافعله برنسيب بأن يمنع بوليس بلغراد الموسيقى والغناء وكل وسائل اللهو فى المحال العامة. وتعطل كل شيء وكانت الحالة أشبه بحداد رسمى. وأعرب المسيو باشتش لحكومة فينا عن أسفه للخسارة التى منيت بها دولة مجاورة عظمى وأعلن مقته الجريمة نفسها . ومثل الحكومة وزراء عديدون فى الصلاة التى أقيمت فى كنيسة المفوضية فى ٢٠ يونيه (٣ يوليه) يوم تشييع جنازة وريث العرش وزوجه القتيلين فى فينا . وكنت من بين هؤلاء الوزراء أحب أن أظهر انه حتى أنا ، من كان يصح أن يظن فيه أكثر من أى وزير آخر انه يقر فعلة برنسيب موافق على النقيض من ذلك كل الموافقة على ما كانت حكومتنا تفعله . وعلى كل فان هذا الظرف والفترة الوجيزة التى قضيناها فى الكنيسة كان كله يضايقنى فقد شعرت بانى وسط أعداء لايريدون سلاما منا » .

ياله من بحث فى نفسية ضمير مجرم ! يعلم وزير المعارف بالمؤامرة قبل وقوعها بشهر ولا يفعل شيئاً فعالا لاحباطها ، ويزعجه فى مبدأ الأمر احتمال عزلة صربيا والاعتداء عليها ثم يحدوه الرجاء فى إمكان إخفاء الحقيقة ، ثم هو مع ذلك كله يذهب الى الكنيسة يتصنع الحداد على الضحية المغتالة طلبا للوقع الحسن الذى يمكن أن يكون لذهابه! لا غرو إذن أنه كان «متضايقا» .

ولقد أقلقت هذه الافشاءات من المسيو جوفانوفتش باحثا انجليزياً وكاتباً ممتعاً فى شئون البلقان ونصيرا شديداً لليوجوسلافيين من عهد طويل هو المستر . ر . و. سيتون واطسون ولم تطاوعه نفسه على تصديقها فأعلن فى سنة ١٩٢٥ أن « المقال كله (مقال جوفانوفتش) مكتوب بشكل لا يدل على عناية بل يدل على بساطة ويثير الذكريات والظاهر أن كاتبه غير شاعر بما تنطوى عليه اعترافاته من شر اذا كان لا بد من شر تصديقها كما هى . . . وعليه فان على بلغراد أن تثبت اما أن المعلومات التى بيدها اكثر غموضاً مما يريد لجوبا جوفانوفتش منا أن نصدقه وإما أنها تنطوى على إنذار كاف بالخطر الذى لم يبلغنا خبره من جهه أخرى . وليست المسألة مما يوقف فيها عند هذا الحد فأن الرأى العام فى أوربا وأمريكا أصبح أكثر اهتماما بمسألة تبعة الحرب العظمى من ذى قبل ، ومن حقه أن يطلب ايضاحا شافياً وافياً من لجوبا جوفانوفتش ورئيسه المسيو باشتش » .

وأعقب ذلك بزمن وجيز أن ذهب المستر سيتون واطسون بشخصه الى صربيا ليطلب هذا الايضاح ، أو بعبارة أخرى ليحمل المسيو جوفانوفتش على هضم كلماته بتكذيبها فى الحال أو تفسيرها تفسيراً ما يذهب بأثرها . فاذا لم يوفق الى ذلك حمل الحكومة الصربية على تطهير سمعتهـــا بأذاعة كل ما تعرفه عن مؤامرة ١٩١٤ لكن الظاهر أنه لم ينجح فى شىء من هـذا كما يدل خطاب مفتوح نشره فى زاجرب أوبزر فى ١٣ مايو ١٩٢٥ وعيل فيه صبره بحق :

انقضى الى الآن أكثر من شهرين منذ رجوت حكومة بلغراد تنويرى فيما يتعلق بتلك التصريحات التى أبداها المسيو لجوبا جوفانوفتش من زمن غير بعيد فى الرسالة المتعلقة بمقتل سيراجيفو (وهنا وجه المستر واطسون سؤالين ماديين فقال : هل يصر المسيو لجوبا جوفانوفتش على قوله بانه فى اواخر مايو او اوائل يونيه قال المسيو باشتش يوما ان اشخاصا بعينهم كانوا يتأهبون للسفر الى سيراجيفو لاغتيال فرانتس فرديناند ؟ وثانياً هل يعنى حقا مايقول اذ يصف كيف تلقى نبأ مقتل سيراجيفو بالتليفون : مع انى كنت عارفا ما كان يعد هناك ؟)

انى أستطيع أن أفهم جيدا الحكمة فى تردد المسيو لجوبا جوفانوفتش فى الأجابة اجابة قاطعة فان انكر فمن عجب ان يكتب رجل دولة مسئول بهذا الأسلوب الطائش ، وان سلم بما قال كان على زميله ورئيس وزارته المسيو باشتش واجب لا يسر وهو ان يتكلم بوضوح وصراحة ويسرد الوقائع على حقيقتها

لم يرد المسيو باشتش والحكومة الصربية على هذا الخطاب الشديد الجلى الذى وجهه المستر سيتون واطسون. بيد أن صحف بلغراد أعلنت أن حكومة بلغراد قررت نشر كتاب أزرق جديد عن أصل الحرب . فكتب المستر سيتون ـ واطسون إذ ذاك خطابا ثانياً الى التيمس بلندن يرجو قراءها ان يتريثوا فى الحكم حتى تنشر تلك الوثائق . لكنه كما سلم فى كتابه الأخير :

مضت ثمانية اشهر دون ان يسمع شىء عن الكتاب الأزرق . والراجح ان الغرض من البلاغ كان مجرد لعبة يراد بها تخفيف النقد حتى تفتر الحملة كلها وتتلاشى . ومن سوء حظ الحكومة اليوجوسلافية انها خفت نفسها بالاسرار بدل لن تظهر براءتها ببيان مفصل عن الحقائق .

لم تلق افشاءات المسيو لجوبا جوفانوفتش بادىء الرأى إلا انتباها قليلا فى صربيا حيث لم ير فيها المطلعون فيما يظهر شيئا جديدا فلا المسيو باشتش ولا غيره فكر فى لومه عليها . وقد انتخب رئيسا للبرلمان وللجنة الانتخابات ورئيسا للجنة التشريعية . لكنه لما عرف أن الاهتمام بها شديد فى انجلترە وأمريكا حيث أخذ الناس ينتبهون الى مدى التبعة التى تحملها صربيا من الحرب أخذ بعض الصحف الصربية يحمل على المسيو جوفانوفتش ويتهمه بالكذب والخيانة . وقد كتب سلسلة مقالات طويلة دفاعا عن نفسه فى مجلة نوفى ريفوت (الحياة الجديدة) أبان فيها وبرر الدور الذى قام به فى تاريخ صربيا فى خلال نيف وثلاثين عاما منذ اليوم الذى جاء فيه الى بلغراد فى سنة

١٨٨١ مهاجرا من الهرسك فقال : « انا لم أفش شيئا بل كتبت ما كان معروفا للجميع فى سنة ١٩١٤ بالضرورة . » وقد يكون هذا صحيحا بالنسبة لصربيا التى كانت تعلم علم اليقين ما فعلته « اليد السوداء » وزعيمها القوى ديمتريفتش ، لكنه لم يكن صحيحا فيما يتعلق ببلاد الحلفاء التى كانت محمولة على الاعتقاد ببراءة صربيا .

واشتدت الحملة فى الصحف الصربية الى درجة ان المسيو باشتش خطب اخيرا فى ٢٥ ابريل ١٩٢٦ فى اجتماع للجنة المنتدى الراديكالى ضد لجوبا جوفانوفتش وحاول اخراج صديقه وزميله السابق من الحزب . وقد جاء فى هذه الخطبة على ما روته صحف صربية مايلى :

لقد سأله بعض المكاتبين الأجانب أكان يعلم بأن وريث عرش النمسا سيقتل فنفى هم هذه الفكرة ورجا المسيوجوفانوفتش أن ينقضها لأنه لم يكن صحيحا انه — أى المسيو باشتش — قال هذا فى اجتماع للوزارة . . وقد انتظر المسيو باشتش تكذيب المسيو جوفانوفتش فتباطأ المسيو جوفانوفتش ولم يصدر تكذيبا فعاد المسيو باشتش يكرر ويصر على انه لم يقل ما نسبه اليه المسيوجوفانوفتش وسأل أيضا زملاءه فى الوزارة « أصدقائى لعلى نسيت انى قلت هذا ؟ » فأكد الجميع انه لم يقل

« ان هذا القول لم ينقض والمسألة قائمة الآن فيجب ان انقضها انا ولست اعرف لماذا قال المسيو لجوباجوفانوفتش ماقال . لكنه لم يقل صدقا .. وقد أقمت الدليل على انى أستطيع أن الزم الصمت . لكنه اذا اراد لجوباجوفانوفتش ان يعمل مستقلا فلينفصل عنا ويعمل مستقلا فهذه غلطة من المسيو جوفانوفتش لاتغتفر »

وقد صرح المسيو لجوبا جوفانوفتش ردا على هذه الحملة بأنه لم يقل أبدا فى رسالته ان المسيو باشتش أدلى بمعلومات بعينها عن الاستعداد لمقتل (الغراندوق) فى اجتماع للوزارة . فقد كان ذلك فى محادثة خاصة . وليقيم الدليل المادى على صدق ما كتب عرض أن يقدم الوثائق والبراهين التى تثبت ذلك لكنه طلب من رئيس الوزارة ووزير الخارجية ان يتحملا تبعة عمله هذا . وكأن هذين الوزيرين المسئولين المسيو اوزونوفتش والمسيو نينتش خشيا أن يفشى أسرار أخرى أكثر إحراجا عن الحكومة التى كانت قائمة فى صربيا فى سنة ١٩١٤ وعن أصل الحرب العالمية فرفضا ما عرض .

والذى يدل على صحة ما أكده المسيو جوفانوفتش من أن المسيو باشتش كان يعلم بالمؤامرة قبل وقوعها هو، بين أدلة أخرى، ما أبانه فى إحدى مقالاته التى كتبها فى سنة ١٩٢٥ من أن أمرا صدر بالفعل لمنع القتلة من الانتقال من بلغراد الى البوسنه فلم ينفذ الأمر لأن خفراء الحدود الصربيين كانوا تابعين لجمعية « اليد السوداء » فلم يصدعوا به ، وهذا ثابت من مفكرة تودوروفتش خفير الحدود وأوراقه التى استولى عليها النمسويون فى أثناء الحرب .

مما تقدم يصح أن نستنتج انه ليس ثمة سبب وجيه يحمل على الشك فى صدق الافشاءات التى أذاعها المسيو جوفانوفتش فى سنة ١٩٢٤. ويلوح مما فعله المسيو اوزونوفتش والمسيو نينتتش إذ تدخلا ليمنعا المسيو جوفانوفتش من تقديم براهينه ، أن هنالك اشياء لا تزال الحكومة الصربية تؤثر إخفاءها . والى أن يقوم الدليل على أن تلك الافشاءات غير صحيحة لا يسع المؤرخين المنصفين الا أن يستخلصوا أن المسيو باشتش وأعضاء الحكومة الصربية كانت لهم معرفة سابقة بمؤامرة القتل لكنهم كانوا يخفونها .

ويقال إن هنالك مجموعة أسرار أخرى تحتويها ألفا وثيقة استولى عليها النمسويون فى بلغراد فى خلال الحرب تتضمن أعمال الدعاية والحركات الثورية التى قامت بها الجمعيتان الصربيتان الوطنيتان المعروفتان بنارودنا أودبرانا واليد السوداء. وقد وجد الكثير من هذه الوثائق فى بيتى المسيو باشتش والمسيو ميلو بافلوفتش أحد زعماء جمعية نارودنا أودبرانا وكشف البحث الدقيق والتنقيب فى التقرير الرسمى الذى صدر عن محاكمة سالونيك المشهورة التى جرت فى سنة ١٩١٧ عن معلومات جديدة كثيرة أذيعت أخيراً. وهذا التقرير الضخم الذى نشر رسميا فى سالونيك سنة ١٩١٨ حظر تداوله بعد ذلك وصودرت نسخه بقدر الأمكان لأنه على ما يظهر يتضمن أدلة كثيرة تقضى على سمعة الحكومة الصربية التى كانت قائمة فى سنة ١٩١٤ .

ويكاد يكون من المستحيل الآن العثور على نسخة منه. لكن بعض الباحثين في الشئون الصربية وأسباب الحرب درسوه فألفوه يحتوى على طائفة كبيرة من المعلومات عن أعمال جمعية اليد السوداء قبل سنة ١٩١٤ وأعمال أعضائها الذين اشتركوا فى التآمر على قتل الغراندوق فرانتس فرديناند.

واستنادا الى هذه المعلومات يصح لنا ان نبين فى شىء من الايجاز كيف دبرت مؤامرة القتل وحيكت خيوطها الأساسية ساردين العوامل الثلاثة التى ساعدت كثيراً عليها. وهذه العوامل هى جمعية نارودنا أودبرانا (الدفاع الوطنى) واليد السوداء والحركة الثورية فى البوسنه.

نارودنا أودبرانا

فى سنى القرن التاسع عشر الستينية والسبعينية اجتمع فى سويسره كثيرون من الثوريين الصربيين حيث كان بعض الروسيين امثال باكونين وكروباتكين وهرتسن يبسطون عليهم نفوذهم. وقد اتخذوا لأنفسهم برنامجا ثوريا يرمى الى اقتراف أعمال فوضية تنطوى على العنف ونشر الفزع. وعلى هؤلاء النفر تقع تبعة ثورة زاجيقار التى سلطت على الملك ميلان فى صربيا سنة ١٨٨٣. وقد باتت نزعة هؤلاء الى الثورة والأخذ فيها بالعنف والقتل ذات تأثير من ذلك الحين على طائفة بعينها من الصربيين. بيد أن الشبان الصربيين الذين كانوا يتلقون العلم فى سويسره لم يكونوا كلهم على هذا الرأى وكان من بين هذا الفريق المسيو نيقولا باشتش الذى كان يؤمن بالتدرج فى تنشئة قوى صربيا الأدبية والمادية كوسيلة للتحرر فى الوقت المناسب وإدماج جميع الصربيين فى دولة قوية على مثال إيطاليا التى انشأت وحدتها فى الجيل السابق مباشرة.

على هذا أسس المسيو باشتش فى صربيا سنة ١٨٨١ الحزب الراديكالى الذى ظل طويلا يحافظ بزعامته المحترمة على صفته الأصلية وإن

كانت طبيعته فى الآونة الراهنـة مما لا يتفق بتاتا والصبغة الراديكالية .
وبرنامج الحزب الراديكالى كما ورد فى أول عدد من أعداد صاموبرافا لسان حاله كان « رفاهية الشعب وحريته فى الداخل واستقلال البلاد واتحادها مع بقية الجامعة الصربية فى الخارج » . وقد أفرد قسم خاص فى هذا البرنامج لتبيان أهمية تنظيم الجيش الصربى وتدريبه ، لـكن البرنامج كان ينص تحت عنوان « السياسة الخارجية » على أنه « يجب أن تنظم فى ميدان التطور الفكرى طريقة لمساعدة الأجزاء المقسمة والخاضعة لحكم الأجنبى من الجامعة الصربية والعمل على إبقاء فكرة الوحدة القومية حية فى الأقاليم الصربية المعرضة من جراء بعدها لنفوذ العناصر الأجنبية . وهذا الى أن يحين الوقت الذى يسع فيه الجيش أن يؤدى هذه المهام » . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن يثير الأنفس فى أقاليم الأمبراطوريتين العثمانيـــة والنمسوية التى يسكنها صربيون حتى تنشب حرب التحرر فى المستقبل فتضمها الى صربيا الـكبرى .

وهاتان الفكرتان السياسيتان وهما أولا أعمال القتل الفردية يقوم بها طلبة أغرار لم تعجم الأيام عودهم مع عصابات عسكرية وثانيا الوصول الى الوحدة القومية بحركة تعد إعدادا حسنا وبحرب تقع فى الوقت المناسب مع تركيا والنمسا يدعو اليهـا الحزب الراديكالى — نقول هاتان الفكرتان السياسيتان كانتا تسودان أذهان الزعماء السياسيين الصربيين حتى تم للفكرة الثانية الظفر بالحرب العالمية . وقد كان زعماء هاتين النزعتين أحيانا على وفاق كما تدل الأغتيالات التى اقترفت فى القصر سنة ١٩٠٣ وأحيانا أخرى متعارضين متنابذين .

فانه سرعان ما أصبح المسيو باشتش والراديكاليون أعداء ألداء للملك ميلان من جراء القسوة والوحشية الدموية التى استعملها مع ثوار زاجيقار انتقاماً منهم ولتهاونه المخزى فى مصالح صربيا القومية وحياته الخاصة المملوءة بالفضائح والتى كان يقضى جانباً كبيراً منها فى فينا يغشى فيها مجتمعات مريبة . ولقد

انتقلت هذه العداوة من بعده لخلفه الملك اسكندر بخاصة عقب زواجه من تلك المرأة الرديئة السمعة التى اصبحت فيما بعد الملكة دراجا . ولما كانت هذه الملكة لم تعقب ولداً اشتبه الكثيرون فى أنها كانت تنوى الحصول على وراثة العرش لأخ من اخوتها . وقد كان الخوف والاشمئزاز من هذه الحال سببا لأن يتحد كثيرون من الراديكاليين وضباط الجيش الثوريين على نظام الحكم القائم . واليك ما كتبه مؤرخ صربى:

« إن ما كان يجرى فى البلاط وخارجه كان يعتبر بحق خزيا للحكومة والامة فلم تكن تمر لحظة حتى تشاع فضائح شنيعة اساءت الى سمعة صربيا والصربيين وجعلتهم مضغة فى الافواه . . . فالمالية كانت فى حالة يرثى لها حتى لبث الموظفون والضباط أشهراً لا يتقاضون مرتبات . وبات كل شىء بزواج الملك اسوء مما كان . ففى كل يوم تغييرات تمليها الاهواء وفضائح نكراء اثارت الجمهور حتى جاءت الحكاية الملفقة عن حمل الملكة ، وغطرسة إخوتها ومسلكهم المثير فزادت الطين بله وأهاجت الجمهور والضباط العسكريين فوق هياجهم . وقد كان من جراء هذا كله ان ثمانين ضابطا وعديدا من المدنيين تآمروا على قتل الملك والملكة واخوتها ، وكان الجانب الأكبر من المتآمرين مؤلفا من ضباط شبان تحدوهم الوطنية المحضة . فقد رأوا بلادهم تتدهور الى الحضيض ويلحقها الخزى تحت حكم ملك ردىء مستهتر فدفعهم اقتناعهم الشديد بوجوب انقاذ الدولة والامة الى فعلة أثيمة اعتقدوا ان واجبهم الوطنى يبررها »

ففى ليلة ١١ يونية ١٩٠٣ اقتحم القصر فجأة هؤلاء القتلة الوطنيون فاغتالوا الملك والملكة وهما قابعان فى مخبىء حذر الموت وأردوا بالرصاص اخوتها وفتكوا بعدة من الوزراء . وكان من بين من دبروا هذه الثورة الوحشية ومن كبار زعمائها يوزباشى صغير فى الجيش يدعى دراجوتين ديمتريفتش تلقى ثلاث رصاصات فى جسمه لازمته بقية حياته ، كما كان من بينهم ملازم

صغير يدعى فوجا تانكوزتش ـ هو الذى أمر بقتل إخوة الملكة . فهذان الاثنان اصبحا فيما بعد زعيمى اليد السوداء يساعدان على تدبير مؤامرة سيراجيفو لقتل الغراندوق النمسوى « كواجب وطنى » آخر

وقد ظل المتآمرون الذين أضرموا ثورة القصر متآخين عقب تلك الليلة المحزنة ـ ليلة عام ١٩٠٣ ـ دفعا لأية ثورة رجعية يمكن أن تقع وحرصا على مصلحتهم الشخصيه ومنفعتهم السياسية . وكانوا يجتمعون مراراً ويتدخلون فى سياسة الاحزاب كلما اعتقدوا أن هنالك مساساً بمصالحهم . لكنه حين استردت البلاد هدوءها ولاح أن النظام الجديد الذى بدأوا هم عهده يقوم على العدل والانصاف ، رأت أنه لم تعد بها حاجة اليهم وأن سلامتها باتت موفورة ؛ وقد كان الراديكاليون والجمهور صابرين على مضض على تدخلهم فى الشئون السياسية فاعتزل العمل هؤلاء المتآمرون العسكريون باعتبار كونهم جماعة منظمة ولبثوا على عزلتهم حتى نشأت أزمة جديدة

وذلك أنه فى سنة ١٩٠٨ فى مساء اليوم الذى أعلنت فيه النمسا ضم البوسنه والهرسك جمع الدكتور ميلوفان ميلوفانوفتش وزير خارجية صربيا إذ ذاك عدة من الوزراء والأعيان من بينهم باشتش ولجوبا ستوجانوفتش والاستاذ لجوبا جوفانوفتش ومحافظ بلغراد وغيرهم لينظروا فيما ينبغى اتخاذه حيال «تحرش» النمسا، فقر رأيهم على أن يدعو المحافظ الى الاجتماع فى اليوم التالى فى قاعة البلدية عدداً أكبر من الصربيين ذوى الصفة التمثيلية كان فى جملتهم المؤرخ ستانوجيفتش . وفى أثناء هذا الاجتماع الذى عقد فى اليوم التالى أسست نارودنا أودبرانا (الدفاع الوطنى) ونيطت بها مهمة هى جمع المتطوعين وتدريبهم وتقوية صربيا بطرق أخرى لأعدادها لحرب مسلحة تمنع بها النمسا من تنفيـــذ برنامج الضم .

وقد كان من شأن الأستياء الذى عم صربيا من خرق النمسا لمعاهدة برلين وضمها بلادا صربية مشتهاة أن ألف بين زعماء الفكرتين اللتين أسلفنا

الأشارة اليهما . وبذا اشتملت جماعة نارودنا أودبرانا فى بدء تأليفها على زعماء سياسيين من الحزب الراديكالى وعلى ضباط عسكريين أمثال ديمتريفتش وتانكوزتش والجنرال بوزو بانكوفتش ، كما اشتملت على مدير مطبعة الحكومة التى لم يكد يوظف بها شابرينوفتش حتى خرج لقتل فرانتس فرديناند، وميلان بريبيشفتش الذى كان أخوه فى مجلس نواب كرواتيا من أشد خصوم النمسا والذى يقال انه تلقى من سيراجيفو فى يوم مقتل الغراندوق وزوجته برقية أشير فيها الى الجريمه اشارة ظاهرة كالقول بأن « كلا الحصانين فرغ منه على مايرام »

وقد ابتدأ تنظيم نارودنا اودبرانا على الأثر وكانت لجنتها المركزية المقيمة فى بلغراد توجه أعمال لجانها فى الاقاليم وقد أسست فى البلدان الكبرى وقسمت ألى أقسام اختص كل منها بعمل يتعلق إما بالثقافة ، أو بالرياضة البدنية أو بجمع الاموال واما ، وهوما وقع فى بعض الحالات ، بأنشاء العلاقات بالاراضى المجاورة . وكان يلى لجان الاقاليم ، لجان أقسام فلجان محلية وفى النهاية « رجال موثوق بهم » « يكون مقامهم فى داخلية البلاد فى أماكن لا لزوم فيها لانشاء لجنة » . . وقد نظمت هذه اللجان وهؤلاء « الرجال الموثوق بهم » فى كل مكان من صربيا بسرعة . وضمت نارودنا اودبرانا الى نفسها الجمعيات الوطنية التى كانت قائمة اذ ذاك وأعانتها ماليا وأخذت فى جمع الكوميتجيين وتدريبهم عل إلقاء القنابل ونسف السكك الحديدية والجسور وما شابه ذلك مما يمكن ان يستخدم فى حرب عصابات تدور رحاها مع النمسا ، وجمعت الاموال وأثارت حفيظة الناس على النمسا بدعاية فعالة من القومية الحارة . ولم تكن أعمالها هذه قاصرة على الرعايا الصربيين فأن المهاجرين البوسنويين كانوا يجمعون كذلك وكانوا يدربون على أعمال تنطوى على الغدر ليقوموا بها فى البوسنه حين يعودون ؛ هذا الى

تزويدهم بالمال . وقد كان جاتشينوفتش زعيم جناح الأرهاب فى الحركة الثورية البوسنوية فى البوسنة متصلا بادىء الأمر بنارودنا أودبرانا اتصالا وثيقاً يعمل لحسابها فى البوسنه وان كان قد انضم بعد ذلك الى اليد السوداء . وقد جعل وفاقاً لأغراضها يحرض فى البوسنة على مؤامرات القتل . وقد اعترف برنسيب قاتل الغراندوق اثناء محاكمته بانضمامه الى نارودنا أودبرانا فى سنة ١٩١٢ وبأنه زود منها بالمال ودرب ككوميتجى

أما فى البوسنة نفسها فأن مثل هذه اللجان وهؤلاء « الرجال الموثوق بهم » كانوا يعبأون ليشكلوا شبكة من الجواسيس وليكونوا بمثابة « نفق » أو ممرات تحت الأرض » يحملون نشرات الدعاية والأسلحة وينقلون المتآمرين عبر الحدود من صربيا الى البوسنه . وهذا أيضاً واضح من تقرير ضابط من ضباط الحدود بعث به الى قائد فيلق درين فضبط النمسويون تقريره ومعه مفكرته وبضع عمليات حسابية فى الاسابيع الأولى للحرب فكان من ذلك دليل مفصل على الطريقة التى أنشىء بها « النفق » فى الأصل يوم قامت أزمة الضم . ولم يكن تقرير هذا الضابط معلوماً لواضعى الدوسيه النمسوى لكنه تلى فى محاكمة اكتوبر ١٩١٤ وأكد صحة ماورد فيه لجوباجوانوفتش بعد تسوية أزمة الضم فى مارس ١٩٠٩ عقب أن تخلت الروسيا عن صربيا واضطرت هذه الى أن تعد بوقف حملة التهييج والمحافظه فى المستقبل على العلاقات الودية مع مملكة هابسبورغ. فتظاهرت نارودنا اودبرانا بالتحول من جمعية للاعتداء والهدم الى جمعية ذات اغراض « ثقافية » موجبة للثناء كالتعليم والرياضة البدنية وتعهد المبادىء القومية . وعلى أن تقريرها الرسمى كان لا يزال يعلن « أن النمسا هى أعدى اعدائنا » فقد تضمن على سبيل التلخيص « أنه بينا تعمل نارودنا أودبرنا وفاقا للظروف بالنظر الى تغير الاحوال فأنها تحافظ على كل العلاقات التى كانت لها وقت اعلان الضم ... وقد كان شعارنا إذ ذاك الحرب وهو الآن العمل . وكانت الاجتماعات والمظاهرات والمتطوعون والأسلحة

والقنابل من مقتضيات الحين الفائت أما الآن فيطلب العمل المستمر الجهيد الذى لا يعتوره كلال ، يطلب لتأدية المهام والواجبات التى لفتنا الانظار اليها بالاستعداد العاجل لقتال بالبندقية والمدفع تأزف ساعته يوما »

ومن جهة أخرى فأنه صحيح أن البلاغ النهائى والملف النمسوى قد هوّلا فى علاقة نارودنا أودبرانا المباشرة بمؤامرة سيراجيفو إذ كان النمسويون يوجهون انتباههم الى أعمال هذه الجمعية وفعالها الأصلية المنطوية على العدوان أكثر مما يلتفتون الى أعمالها الأخيرة المصبوغة بالصبغة الثقافية . وسبب آخر أخص من هذا هو أن النمسويين كانوا يجهلون العمـــــل السرى الذى كانت السلطات الصربية العسكرية تقوم به ففاتهم أن يميزوا تماما بين نارودنا أودبرانا وجمعية « اليد السوداء » . على أنه من الواضح مع ذلك أن نارودنا أودبرانا مضت فى الاحتفاظ « بالأنفاق » وتهريب المنشورات الثورية فى بلغراد الى البوسنه ، وأنها كانت على اتصال دائم « بالرجال الموثوق بهم » الذين استخدمتهم اليد السوداء بعد ذلك والذين ساعدوا بالفعل قتلة الغراندوق على رحلتهم

ونارودنا أودبرانا هى التى كانت توعز الى البوسنويين بالمهاجرة الى بلغراد وتعينهم على ذلك . فساعدت بهذا على تنشىء الحركة الثورية فى البوسنه وتمهيد الطريق لجريمة سيراجيفو . والكيفية التى كان يلتحق بها بهذه الجمعية والاجراءات التى اتخذتها الحكومة الراديكالية لأظهارها بمظهر الجماعة التى تعمل لاغراض « ثقافية » تدل جميعها على ان المسيو باشتش وزملاءه كانوا يعلمون علم اليقين ما كانت تقوم به من الدعاية والجاسوسية وجمع « الرجال الموثوق بهم » على أرض نمسوية حتى بعد سنة ١٩٠٩ ولم يكن المسيو باشتش ليرى فى هذه الجمعية جماعة « ثقافية » بحته لأنه نفسه قال انه بمجرد عودته من بوخارست (فى اغسطس ١٩١٣) نصح لنارودنا اودبرانا بأن لا تشرع فى شىء ضد النمسا لان هذا يكون خطراً . »

اليد السوداء

فى سنة ١٩١٣ كان الخلاف فى الرأى بين الزعماء الراديكاليين السياسيين والضباط العسكريين الذين كانوا يفوقونهم نشاطاً وقلة مبالاة آخذاً فى الظهور مرة أخرى، فالراديكاليون بالنظر إلى موقف الروسيا وإلى الحالة الديبلوماسية التى كانت قائمة إذ ذاك فى أوربا كانوا يرون أن على الصربيين أن يحافظوا على علاقاتهم بالنمسا والمجر على وجه سلمى شريف وأن يقصروا أعمالهم فى الوقت الحاضر على تقوية الدولة للصراع المقبل الذى يحقق غايتهم النهائية وهى انشاء صربيا الكبرى. لكن فريقاً من العصابة العسكرية التى نفذت ثورة القصر فى سنة ١٩٠٣ أحمى من الراديكاليين وأنشط همة تبرم بسياسة الراديكاليين الأكثر اعتدالا لأنه كان يريد «أعمالا»، فعمد بذلك إلى الجمعية القديمة التى كانت قائمة فى سنة ١٩٠٣ فبعثها على صورة جمعية سرية جديدة نعتت فى قانونها الأساسى بجمعية الاتحاد أو الموت لكن الاسم الذى أطلق عليها من الجميع كان «اليد السوداء».

وأجدر المعلومات عن جمعية اليد السوداء بالتصديق موجود فى قوانينها الأساسية ولوائحها الملحقة. وقد نشرت هذه القوانين واللوائح بصورة مشوهة فى التقرير الخاص بمحاكمة سلانيك التى جرت فى سنة ١٩١٨ وأسلفنا اليها الأشارة. فانه فى ذلك الحين المتأخر أرادت الحكومة الصربية أن يعتقد الناس أن اليد السوداء لم تكن سوى جمعية ثورية فى داخل صربيا ترمى إلى قلب سلطة الحزب الراديكالى بل الأسرة المالكة، فحذفت فقرات بعينها تشير إلى أعمال الأرهاب والهدم فى خارج صربيا. لكن المسيو بوجتشفتش تمكن بمعلومات استقاها من عضوين بقيا على قيد الحياة من أعضاء «اليد السوداء» من ايجاد النص الكامل لتلك القوانين واللوائح، فاستطاع أن يثبت شخصية عدد كبير من أعضائها والأرقام السرية التى كانوا يعرفون بها، مظهراً فى جملتهم عدداً كبيراً من الموظفين الملكيين والعسكريين على السواء. ولقد

نص فى المادتين ٢٣ ، ٣٣ على أن واجب كل عضو جديد أن يجلب أعضاء جديدين ويضمنهم بحياته . ولم يكن الأعضاء على العموم يعرف بعضهم أشخاص بعض بل كانوا يعينون بأرقام سرية ولا تعرف اسماءهم إلا اللجنة المركزية . واليك ما جاء فى قوانين هذه الجمعية : « إن مصالح الجمعية فوق كل مصلحة ، وكل عضو يدخل الجمعية يجب ان يدرك انه بعمله هذا يفقد شخصيته ولا ينتظر مجداً أو ربحاً ذاتياً ! » « إذا أصدرت اللجنة المركزية حكما بالأعدام فأول ما يهم هو تنفيذ الحكم بلا تردد . أما طريقة التنفيذ فسيان . » وكان العضو حين يدخل الجمعية يقاد إلى غرفة مظلمة لا يضيئها إلا شمعدان وعلى أرضها مائدة صغيرة عليها غطاء أسود فوقه صليب وخنجر وغدارة . فيقسم الطالب « بالشمس التى تدفئنى والأرض التى تغذينى ، بدم آبائى وبشرفى وحياتى أن أبقى من الآن إلى آخر لحظة من حياتى مخلصاً لقوانين الجمعية وأن أكون على الدوام مستعداً لأن أقوم فى سبيلها بأية تضحية . » ويحمل ختم الجمعيـــة صورة علم منشور وجمجمة وعظمتين متقاطعتين وخنجراً وقنبلة وقارورة سم مكتوباً عليها الاتحاد أو الموت .

وقد كان ملهم هذه الجمعية الفريدة التى كان أولى بها أن تكون فى القرن السادس عشر لا العشرين ، نقول كان ملهمها وزعيمها ذلك الشخص الجسور الكريم ، المعبود ، الساذج ، الخليق بأن ينتمى إلى عصر النهضة والذى أتينا على وصف ستانوجيفتش له ، الكولونل دراجوتين ديمتريفتش رئيس مصلحة المخابرات فى هيئة أركان حرب الجيش الصربى . وكان أكبر مساعد له الماجور فوجا تانكوستتش ، وقد لعب هـذا أيضاً دوراً رئيسياً فى حوادث إغتيال الأسرة المالكة سنة ١٩٠٣ ، ونظم بعد ذلك مدرسة لتخريج الكوميتجى كان يدرب فيها مهاجرى البوسنة الذين يحلون بيلغراد وكان له عليهم تأثير كبير . ويوصف هذا الرجل بالهدوء والدعة فى حياته الخاصة ، وبأن له سيماء المعتزل المتهيب ، لكن له إلى هذا روحاً جافة ، وحشية ، متمردة ، اشتهر كزعيم

للكوميتجى فى مقدونيا بقسوته المتناهية على أتبـــاعه، وبطولته وبسالته وحضور بديهته. وهو بلا ريب رجل شريف ووطنى مستقيم. وقد كان مما يبرر لعينيه كثيراً من أعماله الفظيعة اقتناعه بأنه يؤدى عملا وطنياً.

وعضو آخر فى اليد السوداء هو ميلان سيجانوفتش وكان أكثر استسرارا واستعصاءا على من يريد اكتناهه. وقد جاء فى الأصل بلغراد مهاجرا من البوسنه وخدم تحت إمرة تانكوستش كوميتجيا فى حرب البلقان ضد تركيا. وفى سنة ١٩١٤ اشتغل موظفا صغيرا فى سكك صربيا الحديدية ويعتقد الكثيرون أنه انضم الى اليد السوداء ليبلغ المسيو باشتش أعمالها. وتانكوستش وسيجانوفتش هما الشخصان اللذان ساعدا رأسا على إعداد مؤامرة الاغتيال فى بلغراد فأعطيا ثلاثة الأشخاص الذين وكل اليهم قتل الغراندوق فرانتس فرديناند القنـــابل ومسدسات براونج كما أعطياهم سما يتناولونه بمجرد انجاز عملهم.

وهنالك عضو من أعضاء اليدالسوداء من قديم هو فلاديميرجاتشينوفتش وكان رجلا ممتعا قام فى البوسنه بدعاية فعالة تقوم على الارهاب سواء فى ذلك ما كتب وما نظم من جماعات ارهابية سرية. وبين اعضاء جمعية اليدالسوداء دوشاناوبتركتش صديق حميم للجوباجوفانوفتش وآخر سكرتير لمحكمة النقض الصربيةوثالث سكرتير لجامعة بلغرادورابع سكرتير بوزارة الخارجية وهو الدكتور ميلان بلوفتش الذى تولى بعد ذلك تحرير بوليتيكا. هذا الى بعض موظفى السكة الحديدية والبوليس والداخلية مما يدل على أن اليد السوداء لم تكن جمعيةعسكرية فقط كما كان يحكى عنها أو كانت منفصلة عن نارودنا اودبرانا معارضة لها كما قيل مرارا. فانه يبنا لا نشك فى ان نارودنا اودبرانا كانت تعمل على إنشاء دولة صربية كبرى بالوسائل« الثقافية »وان اليد السوداء كانت تؤثر لقلة صبرها أعمال الأرهاب بالالتجاء الى القتل، فان الجمعيتين كلتيهما كانتا ترميان الى غرض واحد وتضمان اعضاء مشتركين. فقد كان

ميلان فازتش وهو أحد الأعضاء العشرة الذين الفوا لجنة اليد السوداء المركزية العليا فى بلغراد ، نقول كان فى الوقت نفسه على قول قتلة الغراندوق فرديناند سكرتيرا لجمعية نارودنا اودبرانا زودهم بالمال وبالنشرات الثورية . وكانت الجمعيتان تستخدمان فى البوسنة نفس « الرجال الموثوق بهم » وتتخذان « أنفاقا » واحدة للاتصـــال . مثال ذلك ان راده مالوبابتش ، وهو احد الصربيين النمسويين المحكوم عليهم فى أجرام بتهمة الخيانة وممن أصبحوا بعد ذلك من رجال نارودنا اودبرانا الموثوق بهم فى ســـنة ١٩١١ ، قدم الى الكولونل ديمتر ييفتش فى سنة ١٩١٣ بواسطة تودوروفتش خفير الحدود وأصبح من ذلك الحين من كبار جواسيس اليد السوداء ومصلحة المخابرات فى هيئة اركان الحرب الصربية . فالعلاقة بين الجمعيتين كانت من المتانة بحيث تعذر على لجنة كارنجى التى ابتعثت للتحقيق فى حروب البلقان التميز بينهما

الحركة الثورية فى البوسنة

قبل الحرب العالمية بأكثر من نصف قرن كانت هنالك خصومة متزايدة قائمة بين السلطات الحاكمة فى النمسا والمجر والقوميات المحكومة فى الامبراطورية الثنائية . وبعض هذا الجفاء يرجع الى شعور جديد بالقومية كان فى خلال القرن التاسع عشر قوة كبيرة آخذة على الدوام فى الازدياد ، ويرجع البعض الآخر الى اضطهاد حكومة هابسبورغ فى الحكم وانها لم تكن تعبأ بأمانى رعاياها السلافيين والرومانيين . وقد كانت هذه الخصومة حادة فى البوسنة والهرسك بعد ان احتلتهما النمسا فى سنة ١٨٧٨ وخاصة بعدضمها فى ١٩٠٨ وزاد فى استياء هذين الأقليمين تعطيل مجلس البوسنه « والقوانين الاستثنائية » التى سنتها النمسا اثناء الانفعال الشعبى الذى احدثته انتصارات صربيا واتساع اراضيها فى سنة ١٩١٢ ذلك الاتساع الكبير . لكنه فى سنة ١٩١٣ — ١٩١٤ أعيـــد المجلس فى عهد ادارة الكونت بلنسكى وسحبت

القوانين الاستثنائية ، وخولت الصحافة حرية واسعة وبذلت مجهودات كبيرة لتحسين الحالة السياسية والاقتصادية فى البوسنه . وكان بلنسكى سلافيا (لأنه بولونى من غاليسيا) فكان اكثر عطفا على الأمانى الصربية من زملائه الألمان والمجريين ، يأمل باتباع سياسة المسالمة فى البوسنه أن يحمل السكان الصربيين على اظهار شيء من الولاء للحكم الهابسبورغى كالذى أظهرته العناصر الكرواتية والأسلامية فى الاقليمين المضمومين

على أن المجهودات التى بذلها بلنسكى فى سبيل التوفيق لم تلق اهتماماً ما بل عدت على النقيض من ذلك من دلائل ضعف النمسا وتداعيها ، فانتفع بها فى مواصلة الحملات الصحفية والحركات الهدامة الثورية ضد السلطة النمسوية

وقد كانت فى البوسنه أحزاب فى سنة ١٩١٤ سماها بعضهم « بالجيل القديم » وكانت تمثل السياسيين والحضريين الذين تربوا فى الجامعات. وعلى أن هذه الأحزاب كانت تؤلف المعارضة فى مجلس نواب البوسنة فأنها كانت مرتاحة فى الغالب الى الالتجاء فى أعمالها الى الوسائل المشروعة ترمى الى استخلاص حقوق سياسية من السلطات النمسوية أوسع مما كان لها . وقد كانت هى العناصر التى أملت النمسا أن تقسم بعضها على بعض لأنها أرادت أن تقوم سلطتها على سياسة فرق تسد .

هذا الجيل القديم كان يتباين مع « جيل جديد » يختلف عنه كل الاختلاف . نشأ فى صربيا فى أوائل القرن العشرين وعرف « بالبوسنه الفتاه » وكان متبرما بالسياسيين والحضريين وبكل شكل شرعى من أشكال المعارضة . فلم يكن يقبل أية فكرة ترمى الى « نظام الحكم الثلاثى » كوسيلة لأرضاء الأمانى القومية الصربية الكرواتية وكان قوام هذا « الجيل » شباب « الطبقات الصغيرة العديمة الشأن » أمثال الفلاحين ومدرسى المدارس وابناء القسس وصغار الطلبة ، وكان أعضاؤه ضجرين « مستقتلين » جعلوا

فى مبدأ أمرهم يتغذون بما كتبه الروس الثوريون والفوضيون أمثال هرتسن وكروبوتكين. وزاد حماسهم ما أصاب العنف من نجاح فى ثورة ١٩٠٥ الروسية فطوروا « شريعة العمل الفردى » إذ اعتقدوا ان أعمال الارهاب القائمة على الاغتيال هى خير وسيلة للقضاء العاجل على طرق السياسيين البوسنويين الملطفة والتخلص من السيطرة النمسوية لتمهيد الطريق لقومية (يوجوسلافية) جديدة. وقد كان من شأن الارهاب الثورى أن ساعد على غرضين كبيرين: القاء الذعر فى نفوس الهيئات الحاكمة وإذكاء الروح الوطنية بين الجماهير .

والرجل الذى كان له أعظم نفوذ فى تنشئة الحركة الثورية فى البوسنه وفى إلهام الطلبة البوسنويين الذين نفذوا المؤامرة على الغراندوق، هو فلاديمير جاشينوفتش . اراد أبوه أن يلحقه بالكهنوت فأرسله إلى المدرسة لهذا الغرض فما عتم الولد ان نبذ دراسته وجعل يقرأ كتابات الروس الثورية . وفى سنة ١٩٠٩ وأزمة الضم قائمة ، ذهب الى بلغراد حيث اتصل بزعماء نارودنا اودبرانا، وكانت مشكلة حديثا . كما اتصل بمن هم اعنف من هؤلاء روحا اولئك الذين حبذوا « العمل المباشر » وشكلوا « اليد السوداء » بعد ذلك . وقد مكث فى صربيا سنتين وقع فى غضونهما تحت تأثير سكرلتش أحد الذين كانوا يروجون الدعاية النشيطة للأفكار الثورية ابتغاء مقاومة النمسا . ثم عاد بعد ذلك الى البوسنة موفداً من قبل نارودنا اودبرانا فجعل على قول أحد أتباعه يخطب وينبه الناس، ثم اختفى كأنه طيف زال وكأنما قد ابتلعته الأرض لما أن احس بصنائع النمسا يقتفون أثره ومن بينهم بعض الصربيين .

وفى سنة ١٩١٢ عاد جاتشينوفتش إلى بلغراد فلما وجد نارودنا أودبرانا أكثر اعتدالا فى رأيه مما ينبغى التحق « باليد السوداء » . واسمه فيها مرقوم اليه برقم ٢١٧ فى قائمة الأعضاء التى نشرتها الحكومة الصربية فى محاكمة سالونيك . ويقال انه كان يتلقى المال من الجمعيتين وانه حصل على « إعانة دراسية » من مصلحة الدعاية التابعة لوزارة الخارجية الصربية . فمكنته هذه الاعانة من التوجه إلى

لوزان لدراسة أخرى . وهنا اتصل رأساً بمختلف الثوريين الروسيين وفى جملتهم تروتسكى الذى كتب لمجموعة من مقالاته الفرنسية تصديراً موقعاً عليه بحرفى L . T.

فى تلك الأثناء وجد جاتشينوفتش من وقته متسعاً لأن يسافر إلى البوسنة وينظم شبان « البوسنة الفتاه » جماعات ثورية سرية تتألف من أشخاص موثوق بهم لكنهم لا يتصلون بعضهم ببعض إلا على يد وسطاء . وهذه الطريقة فى التنظيم لازمة من لازمات اليد السوداء التى استمد منها هذه الفكرة . وقد كان من شأن هذا التشكيل أن زود « اليد السوداء » بشبكة من الفروع منتشرة فى جميع نواحى البوسنة وغيرها من الأقاليم الصربية فى النمسا والمجر . ولم يكن الطلبة والفلاحون والعمال الذين تألفت منهم تلك الجماعات خارج صربيا فى الغالب أعضاء منتظمين فى « اليد السوداء » لكنه كان باستطاعة اليد السوداء أن تستخدمهم فى التهييج الثورى وأعمال الأرهاب فى البوسنة . ومن المستحيل تقدير عدد هذه الجمعيات لكن الأكيد أنها كانت موجودة فى كل المدن المشتملة على مدارس ثانوية . ومن أكثر هذه الجماعات نشاطاً وعملا واحدة كان غيرها يأتمر بأمرها وهى الجماعة التى شكلها جاتشينوفتش فى بيت المدرس دانيلو ايلتش فى سيراجيفو « فقد كانت بصورة ما أكبر معبر عن كافة التيارات الوطنية فى البلاد . وكانت علاقاتها المباشرة وغير المباشرة بالمهاجرين فى بلغراد وثيقة جداً . »

إن اختمار النزعة الثورية بين شباب البوسنة وهو ما نشأ عن التضايق من الاضطهاد النمسوى والرغبة فى ايجاد وحدة قومية للصرب والكروات كما نشأ عن تأثير الكتابات الروسية الفوضية والدعاية الصربية ، كان بادياً فى حركة الشبان البوسنويين الدائبة ، إذ يروحون ويغدون مهاجرين بين صربيا

وبلادهم ، فقد كان يحلو لهم الابتعاد عن جو سيطرة هابسبورغ الخانق والتجوال هنا وهنا فى هواء بلغراد الذى كان أروح لهم وأكثر ملائمة لنفوسهم . فهنا كان يحسن استقبالهم ، ويسهل عليهم الحصول على الشهادات الدراسية . وهذه المهاجرة من الأشياء التى يسعك أن تطلع على صورة حسنة لكيفية مزاولتها من حالة الشبان الثلاثة الذين نفذوا مؤامرة اغتيال فرانتس فرديناند :

ولد كافريلو برنسيب فى جراهوفو فى البوسنه الغربيةبين الجبال الموحشة الواقعة على مقربة من حدود دلماسيا . وعلى أنه كان فى بادئ أمره مجتهداً فى مدرسته فأن أوقات تحصيله كان كثيراً ما يتخللها اشتغاله بالدعاية السياسية حتى أوقف عن التحصيل عدة مرات . وقدم أخيراً إلى سيراجيفو حيث مكث شهراً . وفى مايو سنة ١٩١٢ توجه إلى بلغراد بقصد التحصيل فى الظاهر لكنه لما سئل فى المحاكمة عن سبب توجهه اليها أجاب بقوله « هذا شأنى » ولما كان سفره هذا قد وقع بالضبط فى وقت كان جاتشينوفتش يشكل فيه جماعة الكروتس هوك فى سيراجيفو ويؤثر فى شبانها برأيه عن وجوب القيام بحملة تهييج ثورى ، فمن الراجح أن يكون هو الموعز إلى برنسيب بالسفر الى بلغراد . وعلى كل فان برنسيب سرعان ما اتصل برجال اليد السوداء فى مقاهى بلغراد ، وعلى قوله هو ، أدخل الى نارودنا أودبرانا بواسطة سكرتيرها الماجور فاستش الذى كان أيضا من كبار أعضاء « اليد السوداء » . ولما نشبت حرب البلقان ذهب الى الحدود التركية ليتدرب عسكرياً مع الكوميتجى تحت إمرة الماجور تانكوستش وهو أيضاً من كبار رجال اليد السوداء المشتغلين بالأرهاب والتهييج . لكنه لما لم يكن يتجاوز السادسة عشرة من سنه وكان ضعيف الجسم ضئيله أرجعه تانكوستش . على أنه كان قد تشبع بأفكار اليد السوداء عن الأرهاب بالقتل السياسى فأنفق خمسة عشر الشهر التالى فى التآمر مع جاتشينوفتش وايلتش وفى أسفار بين بلغراد وقرية

حادزهكى الواقعة على بعد ستة أميال من سيراجيفو. وقد قضى فى هذه القرية شتاء ١٩١٣ — ١٩١٤ ثم عاد الى بلغراد فى فبراير سنة ١٩١٤ .

وترك ندجلكو شابرينوفتش الذى ألقى القنبلة على الغراندوق النمسوى، المدرسة لأنه لم يتقدم فيها واختلف مع والده . وقد ظل ينتقل من حرفة إلى أخرى ويتشاجر مع عدة من أصحاب الأعمال حتى ذهب إلى بلغراد واشتغل هناك فى حانوت يطبع المنشورات الفوضية فكان من ذلك الحين أن أخذ يتشرب الآراء الفوضية. وعاد إلى سيراجيفو مريضاً فاشتغل بأضراب لصفافى الحروف وتقدمت ضده شكاوى حملت ولاة الأمور فى سيراجيفو على نفيه فلجأ ثانية إلى بلغراد . وقد اتصل فيها برنسيب، كما كان له بعض الاتصال بجمعية نارودنا أودبرانا . وأعوزه بعض المال للعودة الى سيراجيفو فنصح له صديق بالالتجاء الى هذه الجمعية ففعل وأعطاه الماجور فاستش ، وكان أيضا عضوا فى جمعية اليد السوداء وكان بينه وبين برنسيب مودة ، خمسة عشر دينارا وكمية من مطبوعات نارودنا أودبرانا ثم زوده بقوله « كن دائما صربيا حميا » . وتشاجر فى سيراجيفو مع بعض أصدقائه فغادرها الى تريستا حيث اشتغل فى إحدى الصحف ثم بارحها الى أباتسيا فى اكتوبر ١٩١٣ حيث أخبر صديقا بعزمه على قتل الغراندوق فرانتس فرديناند . وقد ساعده هذا الصديق على العودة الى بلغراد حيث وظفه فى مطبعة الحكومة الصربية وكان مديرها داشتش أحد مؤسسى جمعية نارودنا أودبرانا . ولقد تلقى أثناء اشتغاله بالمطبعة قصاصة من إحدى الصحف عن زيارة الغراندوق المقبلة للبوسنه فعقد النية فى الحال على تنفيذ عزمه وهو اغتيال الغراندوق فرانتس فرديناند . ثم استبان عاجلا أن بعض ضباط « اليد السوداء » مستعدون أن يمدوه واثنين من المهاجرين بالقنابل والمسدسات اللازمة .

وثالث، عضو فى ثالوث الطلبة الذين تآمروا فى بلغراد على قتـــل

الغراندوق هو تريفكوجرابز . طرد من مدرسة توزلا العليا للطمه مدرسا على وجهه فذهب الى بلغراد لاتمام دراسته وهناك التقى ببرنسيب وغيره من المهاجرين فتشبعت نفسه بالروح القومية الصربية وتاقت الى الاشتراك فى الاغتيالات السياسية .

وقد نشأت فكرة الاغتيال السياسى فى شتاء ١٩١٣ – ١٩١٤ عند برنسيب وجاتشينوفتش وايلتش ، وكانت هى الغرض من اجتماع فى تولوز بين جاتشينوفتش وآخرين . لكن الراجح أن هؤلاء المتآمرين لم يكونوا قرروا بعد ما إذا كان الغراندوق النمسوى أو الجنرال بوتيوريك حاكم البوسنه هو الذى يكون الضحية . وقد كان هذا الجنرال مكروها لاعتباره مسئولا مباشرة عن قسوة الحكم النمسوى فى البوسنه . والظاهر أنهم كانوا فى أول الأمر يميلون الى قتل حاكم البوسنه دون وريث عرش النمسا .

وغير بعيد أن يكون برنسيب قد كون فى نفس الوقت « تصميمه » — كما يقول — على قتل الغراندوق ؛ والراجح أن هذا التصميم قوى فيه ان لم يكن حقيقة أوحى به سيجانوفتش فى بلغراد وكان رفيقا حميا للماجور تانكوستش، حصل منه فيما بعد على مسدسات برونتج لاستعمالها فى قتل الغراندوق.

وعلى كل فأن لنا أن نستخلص مما تقدم أن جاتشينوفتش تآمر بالاشتراك مع برنسيب وايلتش على إرهاب ولاة الأمور النمسويين باغتيال فرانتس فرديناند أو بوتيوريك هو الراجح وذلك فى اجتماع تولوز فى شهر يناير ١٩١٤ لكن المؤامرة لم تسفر عن شيء إما لأن القتلة خانتهم شجاعتهم ، وإما لأنهم فى بلغراد قرروا أن يكون الغراندوق هو الضحية ؛ وقد ذهب برنسيب الى بلغراد فى فبراير ١٩١٤ بعد أن استقر رأيه على اغتيال الغراندوق واتصل هناك بسيجانوفتش وبواسطته اتصل بالماجور تانكوستش فلما وصلت قصاصة الصحيفة تعلن عن عزم الغراندوق على زيارة البوسنه انتهزها الشبان الثلاثة باعتبارها فرصة طيبة لتنفيذ الاغتيال الذى دار البحث فى شأنه . وكتب

برنسيب الى ايلتش فى سيراجيفو ينبئه بعزمه على اتيان ذلك وأنه سيحضر ومعه أسلحة . ومهما يكن من أمر فأن الذى أوحى بالمؤامرة جماعة الثوريين البوسنويين — جاتشينوفتش وبرنسيب وايلتش وغيرهم — وجميعهم كانوا فى بلغراد وعلى اتصال فيها وثيق بأعضاء جمعية اليد السوداء .

إعداد المؤامرة فى بلغراد

فى مارس ١٩١٤ أعلنت إحدى صحف زاجرب أن الجيش النمسوى سيقوم بمناوراته الصيفية فى البوسنه وأن الغراندوق فرانتس فرديناند سيتولى القيادة . فأزعج هذا الخبر بادئ الأمر الجماعة الثورية الصغيرة الموجودة فى سيراجيفو إذ خشيت أن تفضى زيارة الغراندوق الى تقوية ساعد الكرواتيين وشد أزر الزعماء السياسيين المستعدين لقبول بعض تساهلات من هابسبورغ فيكون ذلك بمثابة ضربة تصيب أمانى اليوجوسلافيين فى الوحدة القومية والاستقلال . على أن الانزعاج لم يلبث أن سرى عن الجماعة لأنها سرعان ما استبانت الفرصة سانحة لارتكاب خير اغتيال سياسى ممكن ، اغتيال من النوع الذى كان جاتشينوفتش يحرض عليه من أمد طويل.وهنا فكروا فى المهاجرين الصربيين الموجودين فى بلغراد والذين يفوقونهم تهوراً وتعصباً وقرروا اطلاعهم على خبر زيارة الغراندوق المنوية

ولما تلقى شابرينوفتش الخبر أطلع برنسيب عليه فى مقهى كان من عادتهما أن يجتمعا فيه وعرض برنسيب على رفيقه شابرينوفتش بعد ذلك أن يشترك معه فى قتل الغراندوق وكان هذا يؤثر اغتيال حاكم البوسنة لأنه رمز الاضطهاد النمسوى لكنه رضى بفكرة برنسيب . وحدث أن جرابز جاء من بلده الى بلغراد فأطلع برنسيب على قصاصة بخبر زيارة الغراندوق فأخبره هذا انه وشابرنيوفتش مستعدان للعمل فأجابه جرابز وكذلك أنا . ومن ذلك الحين جعل الشبان الثلاثة يبحثون فى الطرق والوسائل لتحقيق هذا المشروع

وكان يتردد على المقهى السالف الذكر ميلان سيجانوفتش البوسنوى المولد وأحد الكومتيجيين الصربيين دربه الماجور تانكوستش على عمله هذا وقاتل تحت امرته فى حرب البلقان ثم انضم الى جمعية اليدالسوداء تحت رقم ٤١٢ . فكان كثيراً ما يتحدث مع برنسيب عن الاضطهاد اللاحق بالبوسنة فلما عرضا لفكرة قتل الغراندوق وافق عليها سيجانوفتش كل الموافقة وعرض أن يقدم الأسلحة والوسائل اللازمة . ولما كانت القنابل غير مضمونة العاقبة وتنفجر بعد مضى بضع ثوان فقد استقر رأيهم على أن يزود القتلة بالمسدسات أيضاً، والحصول عليهاولى سيجانوفتش وجهه شطر زملائه أعضاء اليد السوداء ومن بينهم الماجور تانكوستش الذى حصل من ديمتريفتش على المال اللازم لشرائها.وأخبر سيجانوفتش الشبان أيضاً بأن بعض الموظفين الصربيين سيساعدونهم على اجتياز الحدود بواسطة «النفق» أوالسكة الحديدية الممتدة تحت الأرض ، ويجمعون بينهم وبين بعض الرجال الموثوق بهم على حدود البوسنة . وقد جعل يدربهم عملا باشارة تانكوستش على استعمال المسدسات فى متنزه لاطلاق النار على مقربة من بلغراد. وقبل أن يغادر الطلبة بلغراد بقليل أخذ سيجانوفتش أحدهم وهو جرابز الى مسكن تانكوستش لأن هذا أحب أن يقتنع بأن الشبان مصممون على غرضهم وأنهم يعرفون كيف يستعملون الأسلحة .

أما ديمتريفتش فكان أبعد من سواه فى هذا الأمر عن الظهور . وقد صرح الطلبة بأن سيجانوفتش كان يشير خفية الى « رجل » كان عليه أن يستشيره فى الحصول على الأسلحة ، وكان يلوح انه يتلقى التعليمات عن موعد سفرهم وعن أشياء أخرى من شخص مبهم

وقد سافر القتلة الثلاثة من بلغراد الى سيراجيفو قبل وصول الغراندوق الى البوسنة بثلاثة أسابيع تقريباً تجنباً للشبه وتخلصاً من القبض عليهم. وزودهم سيجانوفتش قبل سفرهم بست قنابل وأربعة مسدسات برونتج وشىء من الذخيرة

كما أعطاهم ١٥٠ ديناراً نقداً وقليلا من سيانيد البوتاس لينتحروا به عقب قتل الغراندوق تفاديا من احتمال اعترافهم او الافضاء بأقوال يمكن أن تعرض الضباط الصربيين الذين ساعدوهم فى بلغراد على اعداد المؤامرة للاتهام .كذلك زودوا بخريطة للبوسنه تبين الطرق التى كان عليهم أن يسلكوها ومحطات الجندرمة النمسوية التى كان ينبغى أن يعنوا بتحاشيها .

وكان دانيلو ايلتش الذى كان يراسل برنسيب قد جمع فى تلك الأثناء بضعة رجال فى سيراجيفو ليسلحهم بما يزيد عن حاجة القتلة الثلاثة من أسلحة كانوا سيحضرونها من بلغراد .

رحلة القتلة من بلغراد الى سيراجيفو

استقل القتلة الثلاثة زورقا من بلغراد الى شاباتش وبيدهم مذكرة من سيجانوفتش إلى الماجور بوبوفتش قومندان الحدود فى شاباتش يبلغونه معها بأنهم مبعوثون من قبل الماجور تانكوستش فلما وصلوا الى شاباتش اهتدوا على عجل الى الماجور بوبوفش فى مقهى وأخبروه بأنهم مسافرون خفية الى البوسنه. وكان يلوح انه عالم برسالتهم من تانكوستش الذى قابله فى بلغراد قبل ذلك ببضعة أيام . فعاد الطلبة الثلاثة الى المخفر وحصل لهم على أمر بتسفيرهم بنصف أجرة على السكة الحديدية بين شاباتش ولوزنكا حيث يجتازون الحدود . ثم زودهم ببطاقة الى سلطات الحدود طلب فيها الى الموظفين المعنيين بأن يقدموا لهم المساعدة ، وأعطاهم جوازا مزورا يظهر أحدهم بأنه محصل ضرائب والآخرين مساعدين له. ووصلوا الى لوزنكا وقدموا البطاقة الى ضابط الحدود فرتب معهم أن يعودوا اليه فى اليوم التالى فلما عادوا اتفق معهم على أن يسافر شابرينوفتش بالجواز المزور الى سفورنيك وهناك أعانه أحد الموظفين الصربيين على اجتياز الحدود وركب عربة عبر البوسنة الى توزلا . أما برنسيب وجرابز ومعهما القنابل والأسلحة فهربهما موظف آخر

من طريق أخرى وسلمهما الى فلاح قضيا الليل فى كوخه . وفى اليوم التالى انتقلا الى فلاح آخر قادهما فى أمان الى بريبوز فى البوسنة حيث قابلهما ناظر مدرسة يدعى شوبريلوفتش من رجال نارودنا أودبرنا « الموثوق بهم » فرافقهما هذا الى بيت فلاح واتفق على أن ينقلهما ابن الفلاح فى عربة الى توزلا ومعهما الأسلحة. واستقلا العربة فلما بلغا مكانا يسمى لوبار تركا ابن الفلاح يسير بالعربة وحده وفيها الأسلحة مخبأة فى مكان حريز وعرجا تعريجة لحقا به بعدها ثم استقلا العربة الى توزلا فبلغاها فى الصباح الباكر ووجدا كل شىء معدا لاستقبالها .

ولما كان برنسيب وجرابز لا يملكان جوازى سفر للبوسنة فقد خشيا أن يفتشا عند دخولهما سيراجيفو فيفتضح أمرهما فاتفقا مع جوفانوفتش على أن يخبىء الأسلحة فى بيته الى أن يأتى شخص مأمون من سيراجيفو فيتسلمها. واصطلحوا على إشارة بعينها يبديها الرجل المأمون لتسلم اليه الأسلحة بموجبها . وقدكان وذهب ايلتش الى توزلا فتسلم الأسلحة بعد أن نقلها اليه جوفانوفتش الى دبوز فى طريق سيراجيفو . وعاد ايلتش أدراجه الى سيراجيفو بالقطار ومعهالأسلحة . وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم الذى كان مقررا أن يزور الغراندوق وقرينته سيراجيفو فيه تقابل برنسيب وشابرينوفتش مع ايلتش وتسلما منه بعض الأسلحة التى أحضروها من بلغراد ، فأخذ برنسيب مسدسا من طراز براونتج ، وأخذ شابرينوفتش قنبلة وتناول جرابز مسدسا وقنبلة ثم تفرق ثلاثتهم ليأخذ كلٌ مكانه الذى خصص له فى الطريق التى قدر أن يمر منها الغراندوق .

جريمة إغتيال ٢٨ يونيه ١٩١٤

كانت سيراجيفو منذ ٥٠٠ عام ولا تزال حاضرة البوسنه، وهى مزدحمة تنتهى بازدحامها الى واد ضيق عند سفوح تلال عالية، فى وسطها نهر صغير يجف نصفه فى الصيف، وشوارعها المفضية إلى الكنيسة فى نواحيها القديمة معوجة ضيقة. لكن الرصيف المعروف الآن برصيف ستيتفانوفنش يعرض شارعا متوسط السعة قامت المنازل على أحد جانبيه وامتـــد على جانبه الاخر سور واطئ. وهذا الشارع يؤدى إلى دار البلدية ويتصل بالجهة الأخرى من المدينة بجسور عدة وفى تلك الجهة مسجد من المساجد الكبرى وفيها مقر حاكم البوسنه. وقد وزع ايلتش القتلة على امتداد الرصيف الآنف الذكر اذ كان مقرراً أن يكون الطريق الذى يمر منه الغراندوق وزوجته، وزودهم بالقنابل والمسدسات وكانوا عديدين. فوقف ثلاثة هم محمد باشتش وشوبريلوفتش وشابرينوفتش على الجانب الذى يلى النهر على مقربة من جسر كومورجا، ووقف ايلتش وبوبوفتش عبر الشارع بجوار البنك النمسوى المجرى، ووقف برنسيب أولا على بعد منهما بقرب الجسر اللاتيني ثم انتقل الى ركن من شارع فرانسوا جوزيف الضيق حيث وقع الاغتيـال الفعلى أخيراً، وعلى بعد منه وصوب دار البلدية كان جرابز يسير جيئة وذهابا ويفتش عن مكان يكون فيه بعيدا عن تدخل البوليس.

طلع نهار الأحد ٢٨ يونيه ١٩١٤ مشرقا بهيجا زينت الشوارع فيه بالأعلام عملا برغبة المحافظ تكريما للغراندوق، وعلقت صورته فى نوافذ كثيرة، واحتشدت الجموع لرؤيتـه. فلم يحاول صد تلك الجموع بضرب نطاق من البوليس كما فعلوا فى سنة ١٩١٠ حينما زار المدينة فرنسوا جوزيف، ورحبت عدة من الصحف الموالية بمقدم الغراندوق. لكن صحيفة ناورود الصربية وكبرى الصحف اكتفت بنشر خبر قدوم الغراندوق مجرداً من كل تعليق.

ووصل فرانتس فرديناند ومن معه الى سيراجيفو فى الساعة العاشرة صباحا فبعد أن استعرضوا الجنود استقلوا السيارات الى دار البلدية حيث الاستقبال الرسمى . وكان وريث العرش مرتديا بذلته العسكرية الكاملة متحليا بنشاناته جميعا . وكانت زوجته مرتدية ثوبا أبيض وقبعة كبيرة وجالسة إلى جانبه، وقبالتها الجنرال بوتيوريك حاكم البوسنه العسكرى الذى كان يشير الى كل ما يستحق الرؤية أثناء السير

وكان محافظ المدينة وحاكم دار البوليس فى عربة أمامهما يكشفان الطريق وخلفهما سيارتان أخريان تقلان بعض حاشية الغراندوق ورجال الحاكم وبينما هذا الموكب يقترب من جسر كومورجا والجنرال بوتيوريك يوجه التفات الغراندوق الى ثكنات جديدة إذا بشابرينوفتش يضرب كابسول قنبلة بأحد العمد القائمة فى الطريق ويتقدم إلى الأمام ثم يلقى القنبلة على سيارة الغراندوق . ولحظه السائق إذ ذاك فأطلق لسيارته العنان فسقط المقذوف على ثنيات غطاء السيارة المكشوفة ثم ارتد إلى الأرض . وفى رواية أخرى تناوله فرانتس فرديناند بثبات عجيب وألقاه فى الطريق فانفجر انفجارا عالى الصوت وحطم جانبا من السيارة التالية وجرح القائمقام مريتس وبعض النظارة جراحا بليغة .

وقفز شابرينوفتش إذ ذاك الى حوض النهر من فوق السور القائم عليه وكان النهر جافا تقريبا فى ذلك الفصل من السنة . وحاول الهرب لكن بعض رجال البوليس قبضوا عليه على عجل وقادوه الى التحقيق . وفى تلك الأثناء بادرت السيارة الرابعة الى سيارة الغراندوق حيث لم يصب أحد بضرر اللهم الا خدش أصاب الغراندوق فى وجهه من كابسول القنبلة الطائر على الراجح. وأمر الغراندوق جميع السيارات بالوقوف ليعلم مبلغ الضرر الذى وقع ، ولما رأى أن المصابين قد نقلوا الى المستشفى قال فى هدوء وشجاعة صميمين «هلموا .هذا معتوه لنسر أيها السادة فى طريقنا . »

وهكذا سار الموكب الى دار البلدية مسرعا فى أول الأمر، ثم تمهل كأمر الغراندوق ليراه الناس جيداً . واستقبلت الغراندوقة وفدا من السيدات المسلمات بينما كان على الغراندوق أن يستقبل موظفى المدينة . وشرع المحافظ الذى كان قد أعد خطبة الترحيب فى تلاوتها كما لو لم يحصل شىء . لكن خطبته لم تكن تناسب المقام، فقد كان الكلام فيها عن ولاء شعب البوسنه وعن الفرح العظيم الذى شمله حين ترحيبه بوريث العرش . وكان فرانتس فرديناند بطبيعته سريع الغضب صريحا فقاطع المحافظ بخشونة قائلا : « كفى! ماهذا ! أزوركم فتقابلوننى بالقنابل! » ومع ذلك فقد سمح للمحافظ باتمام خطبته ، وكانت ختام الرسميات فى دار البلدية .

وتساءلوا إذ ذاك أيتبعون البرنامج الموضوع فيمرون فى شارع فرانسوا جوزيف الضيق وموضع الازدحام فى المدينة ويزورون المتحف، أم يسيرون حذرا من اعتداء آخر رأساً إلى مقر الحاكم على الجانب الآخر من النهر حيث يتناولون طعام الغداء ؟ فأصر الغراندوق على التوجه إلى المستشفى ليستفسر عن حالة الضابط الذى جرحته قنبلة شابرينوفتش . وكان من رأى الحاكم العام وحاكم دار البوليس أن من غير المحتمل أن يقع اعتداء آخر فى نفس اليوم . لكنهما قررا أن لا يمر الموكب من شارع فرانسوا جوزيف الضيق طبقا للبرنامج الموضوع بل أن يتوجهوا الى المستشفى والمتحف من شارع رصيف آبل رأساً وفى سير سريع . وعليه استقل الغراندوق وزوجه وبقية الحاشية سياراتهم ووقف الكونت هاراخ على سلم سيارة الغراندوق الأيسر ليقيه الاعتداء من جانب الرصيف المحاذى للنهر . وعند بلوغ شارع فرانسوا جوزيف عرجت سيارة المحافظ التى كانت فى المقدمة الى اليمين ودخلت فيه وفاقا للبرنامج الأصلى . وإذ يحاول سائق سيارة الغراندوق أن يتبع سيارة المحافظ صاح به بوتيوريك : « هذا هو الطريق الخطأ ! سر رأساً فى شارع رصيف آبل » فحرك السائق الفرامل ليرتد عن الطريق ، وفى ذلك الركن بعينه حيث

وقفت السيارة لحظة ما اشأمها ، كان برنسيب واقفا بعد أن غير موقفه الأول على جانب الرصيف المحاذى للنهر ، فأتاحت له هذه الصدفة خير فرصة ممكنة فتقدم وأطلق عيارين ناريين اخترق أحدهما رقبة الغراندوق فتدفق الدم من فمه ونفذت الرصاصة الثانية ، ولا يبعد أنها كانت مصوبة الى بوتيوريك ، الى أحشاء صوفيا خوتك. فاستدارت السيارة وأطلقت لسرعتها العنان فوق الجسر اللاتيني صوب مقر الحاكم . وكانت آخر كلمة لفظها الغراندوق لزوجه : «صوفيا ! صوفيا ! لا تموتى بل احيى لأولادنا ! » لكن الموت أطبق على كليهما فى بضع دقائق ، وكانت الساعة الثانية عشرة من صباح يوم الأحد ٢٨ يونيه ١٩١٤ .

الفصل الثالث

تبعة جريمة سيراجيفو

أتينا فى الفصلين السابقين الخاصين بمشا كل البلقان وفرانتس فرديناند ومؤامرة سيراجيفو على موجز للحوادث وبيان للأحوال التى ساعدت على مأساة سيراجيفو المشؤومة . وكان حرياً بما أوردنا أن يعين التبعـة فى هذه المأساة الى حد ما . لـكنا تركنا عدة مسائل قام من حولها جدل كثير رأينا من الخير أن نعالجهـا الآن على انفراد قبل أن نحاول الادلاء باستنتاجات نهائية فيما يتعلق بالتبعة النسبية فى هذه الجريمه التى كانت السبب المباشر للحرب العالمية. وفى مقدمة هذه المسائل المعرضة للجدل البواعث التى حملت القتلة على ارتكاب الجريمة ، ونقص حماية البوليس النمسوى ، والدور الذى قام به ديمتريفتش وجمعية اليد السوداء ، وعلم المسيو باشتش بالمؤامرة وعدم احاطه اياها ، والقول بأن صربيا حذرت النمسا .

بواعث القتلة

المألوف أن تختلط بواعث المرء وأن يشكل على الناس غالباً فهمها كل الفهم . وهذا على الأخص هكذا فيما يتعلق بالقاتل السياسى الذى يتوقع كل التوقع أن تذهب حياته نتيجة من نتائج عمله . وطبيعى أن ننتظر من القاتل أن يسوق مختلف الأسباب كباعثه على الجريمة ، وأن نجد أن مختلف المتآمرين يختلف بعضهم عن بعض فى التنويه ببواعثهم المتباينة . وهذه فى الواقع هى حالة أولئك الشبان الذين تآمروا على فرانتس فرديناند . ويصح أن يعتبر برنسيب وشابرينوفتش فى ضوء واحد ليس فقط لأنهما يعتبران محرضين أو

لأنهما استمدا الشجاعة من اعتقادهم فأقدما بالفعل على اغتيال الغراندوق ولـكن أيضا لأن بواعثهما كانت واحدة .

وخير ما يستند إليه للحكم على بواعثهما أقوالهما التى فاها بها عقب القاء القبض عليهما وأثناء محاكمتهما ، مع مراعاة أنهما كانا يتكلمان كسجينين متهمين بالقتل والخيانة . وعلى هذا يصح القول بأن بواعث برنسيب وشابرينوفتش تنقسم الى ثلاثه أقسام ، أولها الباعث الشخصى الناشئ من تبرمهما بالحياة ورغبتهما فى أن يكونا شهداء وأبطالا من طراز بوجدان زيراجتش الذى أطلق على حاكم البوسنة خمسة أعيرة نارية فى سيراجيفو وانتحر . وقد كان برنسيب وشابرينوفتش تعيسين فى وطنهما لا يتلقيان من أبويهما إلا قليلا من المعونة المالية لا تغنى ولا تسمن . وقد طالما تشاجر شابرنيوفتش مع أبيه وبعض إخوانه الاشتراكيين فى سيراجيفو . وغادر كلا الشابين المدرسة مبكرين ولم يزاولا عملا ما . وشد كلاهما رحالهما الى بلغراد حيث وقعا تحت تأثير الدعاية الفوضية المنطوية على الارهاب ، وسمعا الناس فى المقاهى يتكلمون عن اضطهاد النمسا وعن الدور الذى سوف تلعبه صربيا فى المستقبل لتحرير صربيى البوسنه . وكلاهما وبخاصة شابرينوفتش كانا يشكوان من اعتلال صحتهما وقلة ذات يدهما حتى باتا فريسة بالفعل للسل . وقد ماتا فى السجن ولم يعمرا فيه طويلا فقضى شابرينوفتش فى يناير سنة ١٩١٦ وبرنسيب فى ربيع سنة ١٩١٨ ولقد كانت الحياة شحيحة لا تدخر لهما شيئا ، لـكنهما منيا نفسيهما بأن يكون لهما على الأقل مجد الشهيد إذا احتذيا مثال زيراجتش .

وباعث آخر للجريمة هو الرغبة فى الانتقام من النمسا لحكم الاضطهاد فى البوسنه وذلك باثارة المعارضة عليه وتمهيد الطريق لثورة تضع حداً له . والباعث الثـالث ملحق بهذا إذ يدور حول إحداث ثورة بين الصرب فى البوسنة والهرسك وتمهيد الطريق بذلك لسلخ هذين الأقليمين عن المملكة الثنائية وضمهما إلى صربيا لتكون جميعها نوعا من دولة قومية لسلاف الجنوب .

وقد أشار برنسيب الى هذا أثناء التحقيق معه فأبدى خشيته من أنه لو عاش فرانتس فرديناند واعتلى العرش لكان أقدم على اصلاحات قوية كتنفيذ خطته فى الحكم الثلاثى بتوحيد سلافي الجنوب، لا بالاتحاد مع صربيا بل باعطائهم مركزاً عضويا تحت حكم هابسبورج يماثل مركز الألمان فى النمسا والمجريين فى المجر.

وقد كان شابرينوفتش متفقا مع برنسيب فى العمل لأعداد ثورة فى البوسنه تفتح الطريق لاتحاد جميع الأقطار الصربية التى كانت تؤلف فى يوم ما امبراطورية اصطيفان دوشان. لكن نشأته السياسية كانت تختلف عن نشأة برنسيب بعض الاختلاف فقد كان فى مبدأ أمره يعتنق الفكرة الفوضية والثورية الاجتماعية، فلما عاش فى بلغراد واختلط بالكوميتجيين أصبح أميل إلى المذهب الوطنى

هذه هى البواعث الثلاثة الأساسية التى كانت تحدو أكبر المتآمرين. لكن أيها كان أقوى من الآخر؟ حالتهما الشخصية النفسانية أو رغبتهما فى الانتقام من النمسا أو القومية الصربية. من الصعب تغليب باعث على آخر وان كان بعض كتاب اليوم من الصربيين والعاطفين يرجحون باعث القومية الصربية. والمتهمان نفسهما لم يكونا يعرفان فى سنة ١٩١٤ أى باعث كان يحدوهما أقوى من غيره. وقد سئل برنسيب عما إذا كان قد أقدم على فعلته مدفوعا فى الأصل بالرغبة فى الانتقام أو بفكرة الوحدة القومية. أو بعبارة أخرى أكان الباعث الشخصى أم السياسى هو الغالب — فأجاب «الشخصى لكن الآخر كان أيضا قويا وهما متكافئان».

وقد طالما قيل فى تخفيف وقع الجريمة أو ايضاحها أن إقامة الغراندوق للمناورات فى البوسنه كان تحرشا جريئا منه، وأن الصربيين خشوا أن تكون نيته منصرفة الى مهاجمة صربيا، وانهم غضبوا لزيارته لسيراجيفو فى يوم عيد صربى قومى هو عيد فيدوف دان. بيد أن أقوال برنسيب

وشابرينوفتش نفسها لم تشر الى أن شيئا من هذا كان له أى تأثير كبير عليهما . فهما لم يشرعا فى تنظيم مؤامرتهما إلا بعد أن علما بأن الغراندوق ينتوى النزهة فى البوسنه وقبل أن يشعرا بأنه سيزور سيراجيفو فى عيد فيدوف دان . وقد قررا اغتيال الغراندوق فى البوسنه لا لأنهما غضبا لزيارته أو خشيا اعتداء على صربيا ولكن لأن وجوده فى البوسنه يتيح لهما فرصة حسنة لأكساب البواعث الثلاثة التى أسلفنا الاشارة اليهما الأثر الفعال

المسيو باشتش

ونارودنا أودبرانا واليد السوداء

أشرنا فى فصل سابق الى نشاط نارودنا أودبرانا واليد السوداء ورجحنا علم المسيو باشتش وبعض أعضاء وزارته بوجود مؤامرة . لكنه لكى تدرك مسئولية صربيا وتقوم لديك الأدلة الكافية عليها لا بد من أن نقول لك شيئا عن علاقة هاتين الجماعتين احداهما بالأخرى ، وكلتيهما بالحكومة الصربية .

من الجائز أن تعتبر الحكومة الصربية مسئولة عن أعمال نارودنا أودبرانا فقد نظم هذه الجماعة علناً بعض الصربيين النابهين فى جملتهم بعض أعضاء الوزارة الصربية سنة ١٩٠٨ . وقد كان مقر لجنتها المركزية فى عاصمة الصرب ورئيسها هو الجنرال يانكوفتش . ونشرت قوانينها الأساسية وأذيعت أعمالها التى زعموا أنها « ثقافية » وأعلن بعض أعضاء الحكومة الصربية موافقتهم عليها وكانت صلات الجمعية بتلك الحكومة وثيقة ودية دائماً . وكان الغرض فى الأصل من انشائها اعداد الوسائل اللازمة للحيلولة بالقوة دون تنفيذ النمسا لسياستها الخاصة بضم البوسنة والهرسك . لكنه بعد أزمة سنة ١٩٠٩ عندما تخلت الروسيا عن مناصرة الأمانى الصربية وقطعت صربيا عهداً للنمسا بأن تعيش واياها جارتين فى سلام ، حولت نارودنا أودبرانا أغراضها فى

الظاهر من استعمال القوة ضد النمسا الى « العمل الثقافى » الرامى الى تنشيط الشعور القومى فى مملكة الصرب .

ومن المعلوم انها تابعت فى البوسنة دعاية سرية بغية قلب الأمور فهربت اليها نشرات صربية قومية وجندت فيها « رجالا موثوقاً بهم » مكلفين فى الظاهر بتنظيم جمعيات محلية بريئة للتعليم والرياضة البدنية ومنع المسكرات ، فى حين كانت وظيفتهم فى الباطن إثارة الشعور بالقومية الصربية وتمهيد الطريق لاتحاد السكان الصربيين فى المملكة الثنائية بصربيا . فكانت تساعد الشبان البوسنويين الذين يأتون الى بلغراد للتحصيل أو للتآمر على اغتيال رجال السلطة النمسوية أو الثورة عليهم ، وتشجعهم . وعلى أن نارودنا أودبرانا كانت فى الراجح تجهل بصفة رسمية مؤامرة اغتيال فرانتس فرديناند فأن رجالها الموثوق بهم ووسطاءها المبثوثين هنــــا وهنا للاتصال السرى بين صربيا والبوسنة كانوا بلا ريب يستخدمون من رجال اليد السوداء ويستعين بهم الشبان الثلاثة الذين بارحوا بلغراد إلى سيراجيفو لارتكاب الجريمة . فهذا النشاط المتشعب بين الجمعيتين الصربيتين المتباينة أغراضه فى كل منهما حسبما تدل الظواهر ، قد سهله ويسره كون سكرتير نارودنا أودبرانا ميلان فاستش وغيره من أعضائها كانوا أعضاء أيضاً فى اليد السوداء . وبذلك يمكن عد الحكومة الصربية مسئولة عن نظام كان عماله السريون فى البوسنه يمهدون الطريق لأثارة الفوضى فى النمسا والمجر ويستخدمون لمساعدة قتلة الغراندوق على السفر الى سيراجيفو ومن ثم كانت النمسا محقة فيما طلبته فى بلاغها النهائى من وجوب حل نارودنا أودبرانا .

أما علاقات الحكومة الصربية بجمعية اليد السوداء فكانت تختلف عن ذلك كل الاختلاف . فقد تفرعت هذه الجمعية عن نارودنا أودبرانا يوم أخذت عصبة الضباط العسكريين الذين قتلوا الملك اسكندر والملكة دراجا فى سنة ١٩٠٣ تتبرم بأعمال نارودنا أودبرانا الموسومة بالثقافة وتسأم سياسة

حزب باشتش الراديكالى التى كانت تقضى بتأجيل العراك النهائى مع النمسا إلى أن تحرر صربيا الصربيين الخاضعين للحكم التركى . فقـــد وحدت هذه العصبة مواردها الداخلية واستوثقت من تأييد الروسيا وفرنسا . وكانت اليد السوداء جمعية سرية تستخدم الأرهاب وكان أعضاؤها مرموزاً إليهم بأرقام بدل الأسماء . وقد ظلت قوانينها الأساسية الغريبة التى لم يوجد مثلها الا فى القرون الوسطى مكتومة لم تنشر الا فى محاكمة سالونيك المشهورة سنة١٩١٧ ولم تكن الحكومة الصربية تجهل وجود هذه الجمعية بل كانت تعلمه علم اليقين كما كان الجميع يعلمون به والصحف تبحث فيه . بيد أن الراجح هو أنها لم تكن بادئ الأمر ملمة بالتفاصيل عن أعضاء الجمعية واعمالها الخفية . وكان فى جملة أعضائها ديمتربيفتش الذى رقى فى سنة ١٩١٣ إلى رئيس مصلحة المخابرات فى هيئة أركان حرب الجيش الصربى والماجور تانكوستش الذى كان أحد زعماء الكومتجى المشهورين وعدد كبير من الضباط الآخرين . وقد كانت الجمعية فى البدء تعتبر جماعة من رجال العسكرية لكنها كانت تضم عدداً عظيما من الموظفين المدنيين من بينهم ثلاثة من موظفى وزارة الخارجية الصربية على الأقل .

ان النزاع الحزبى الداخلى الذى كان قائماً بين حزب باشتش الراديكالى والضباط العسكريين المنتمين الى اليد السوداء كان يدلل به كثيراً على أن ديمتريفتش وقتلة سيراجيفو لم يكونوا بحال من الأحوال متفقين مع الحكومة الصربية وانهم كانوا أدنى الى أن يخفوا عنها كل علم بمؤامرة الاغتيال . وهذا صحيح فى الراجح فان ثمة دلائل عديدة مما ظهر فى محاكمة القتلة على أن أصدقاء هؤلاء من رجال العسكرية كانوا يحذرونهم ويحضونهم على تجنب ما من شأنه أن يحيط السلطات المدنية الصربية بخبر المؤامرة .

لذلك يمكن أن تعتبر مما لا يحتمل الشك أن المسيو باشتش ووزارته لم يكن لهما دخل بتدبير الجريمة ، فقـد دبرت من ورائهما وكانا يجهلان أمرها

حتى أوشك الاستعداد لها أن يتم وأصبح الشبان على أهبة الرحيل من بلغراد إلى سيراجيفو . عندئذ اتصل بالحكومة خبرها . ودليلنا على ذلك أقوال المسيو لجوبا جوفانوفتش وزير المعارف الذى أبان أن المسيو باشتش علم فى أواخر مايو أو أوائل يونيه أن أشخاصاً بعينهم يستعدون للسفر إلى سيراجيفو لاغتيال الغراندوق وانه أخبر بعض أعضاء وزارته بذلك وان الأوامر صدرت إلى سلطات الحدود بوقف القتلة لكنها لم تنفذ لأن تلك السلطات كانت أعضاء فى جمعية اليد السوداء فكتبت إثر ذلك تقول إن الأوامر بلغتها متأخرة وبعد أن اجتاز الشبان الحدود . وقد أسلفنا بيان الأسباب التى تحملنا على تصديق أقوال وزير المعارف .

إهمال صربيا فى القبض على الشركاء

يتهم المسيو باشتش بأمرين على أعظم جانب من الخطورة : تقصيره فى تحذير السلطات النمسوية تحذيراً بيناً بعد اذ علم أن القتلة ذهبوا الى سيراجيفو ، وتهاونه بعد وقوع الجريمة فى البحث عن الشركاء فى بلغراد والقبض عليهم . وفى الواقع أن موظفى البوليس الصربى ساعدوا فعلا أحد هؤلاء الشركاء على مايظهر ومكنوه من الاختفاء عن الأنظار ; وذلك الشريك هو سيجانوفتش . ولو كان حوول القبض على سيجانوفتش العضو فى جمعية اليد السوداء وفضح بذلك الدور الذى قام به أعضاء بارزون فى الجمعية كديمتريفتش وتانكوستش لكان النزاع السياسى خليقاً أن يزداد حدة ولكان هذا أقوى من الخصومة التى سببت سقوط الوزارة مؤقتاً . والظاهر ان المسيو باشتش لم يجرؤ على اتخاذ اجراءات ما مع زعماء جمعية قوية كهذه الجمعية فسلك لهذا مسلكا سلبياً محضاً وفى مرجوه أن النمسا وأوربا لن تعلما الحقيقة .

لم تكشف المصادر الصربية عن وقت اتصال خبر المؤامرة بالمسيو

باشتش ولا كيف كان هذا الاتصال . والنظرية المأخوذ بها على وجه عام هو أنه علم بها سراً من ميلان سيجانوفتش الذى يعتقد أنه كان يقوم بدور مزدوج : يتآمر مع زعماء اليد السوداء ويستخدمه المسيو باشتش فى الوقت نفسه للتجسس عليهم واطلاعه على أعمالهم لمصلحة الحكومة الصربية والحزب الراديكالى وقد صرح متآمرو سيراجيفو الثلاثة فى غير مواربة — عند القبض عليهم وأثناء محاكمتهم — ان سيجانوفتش لعب دوراً فعالا فى اعداد معداتهم فى بلغراد . وسيجانوفتش صربى بوسنوى جاء بلغراد فى سنة ١٩٠٨ مهاجراً فدربه تانكوستتش على أعمال الكوميتجى ثم استخدم فى السكك الحديدية الصربية موظفاً صغيراً ، فعندما كان يحضر المؤامرة ويعد العدة لها كان صنيعة لتانكوستتش . وقد حصل لبرنسيب وشريكيه على القنابل والمسدسات التى كان مقرراً أن تستعمل فى الاعتداء على الغراندوق من بلغراد ، وأعطاهم السم الذى كان مقرراً أن يتناولوه عقب الجريمة ليحول بذلك دون افشائهم شيئاً عنه أو عن شركائه الصربيين . وقد أخذ سيجانوفتش الشبان بناء على امر تانكوستتش ، إلى روضة للتمرن على إطلاق النار بقرب بلغراد ودربهم على استعمال المسدسات . وفى أواخر مايو عند ما كانوا على أهبة الرحيل زودهم ببطاقات توصية لوكلاء اليد السوداء ورجالها الموثوق بهم ليسهلوا لهم سفرهم إلى سيراجيفو . والأسباب التى تحمل على الاعتقاد بأن سيجانوفتش أبلغ باشتش عن المؤامرة ليست واردة فى شىء سابق لوقوع الجريمة ولكنها تحزر من التواطؤ البين الذى ظهر بينهما فيما بعد ، ومن محاولة السلطات الصربية إخفاء سيجانوفتش وتمكينه من التوارى عن الأنظار، هذا إلى الشهادة التى أداها سيجانوفتش فى سنة ١٩١٧ ليساعد الحزب الراديكالى على إدانة ديمتريفتش وحطم قوة اليد السوداء .

لقد حدث بعد وقوع الجريمة ببضعة أيام عند ما أخذت الاشاعات تصل إلى بلغراد عن اعترافات شابرينوفتش وبرنسيب أن كلا من تانكوستتش وباشتش

سعيا فيما يلوح فى منع نشر الأخبار الخاصة بالشركاء الموجودين فى بلغراد. إذ قصد ثلاثة من الكوميتجى فى مساء ٢٩ يونيه إلى المستر سفيتوليك ساڤتش صاحب جريدة «البلقان» وطلبوا اليه باسم الماجور تانكوستتش أن لا ينشر شيئاً فى صحيفته عن صلات القاتل شابرينوفتش وعلاقاته بمعارفه فى بلغراد كائنة ما كانت الظروف. وأنه يجب عليه فوق ذلك أن لا يكتب شيئاً يمكن أن يورط الصربيين «والا أصابه شر». فهذا النوع من الأرهاب والخوف من أذى كوميتجى كتانكوستتش وانتقامه كان يذكره «الرجال الموثوق بهم» فى البوسنه باعتباره أحد البواعث التى كانت تحملهم على مساعدة القتلة. وهو فوق ذلك يفسر السبب الذى من أجله لم يعن باشتش أو يجرؤ على محاولة القبض على هذا الزعيم المحبوب القوى من رجال اليد السوداء الا بعد أن أرغمه أخيراً البلاغ النمسوى النهائى على اعتقاله فاعتقله بضعة أيام. ولو اتخذت الحكومة الصربية فى الحال اجراءات فعالة للقبض على شركاء المعتدين فى بلغراد وأقامت الدليل الصادق على ما طالما أكدته من الرغبة فى العيش مع النمسا على خير ما يكون الجار مع الجار، — نقول لو فعلت الحكومة الصربية هذا لهدأ ذلك من سخط ألمانيا على الجريمة ولجعلها أقل استعداداً مما كانت للسير وراء النمسا فى الطريق المشئوم، ثم لقوى هذا الأمل فى التوسط الحبى. لكن المسيو باشتش بعدم قيامه بهذا وباتخاذه موقفاً سلبياً هو الانتظار إلى أن يرى ما عسى أن تقدمه النمسا من أدلة وتهم معينة مدينة، اضطلع بتبعة خطيرة أخرى عما وقع.

هل حذرت صربيا النمسا ؟

هذه المسألة على جانب عظيم من الأهمية لاختلاف ما استخلص الناس من أجوبتها ان نفيا وان ايجابا. فلو فرضنا أن الحكومة الصربية حذرت فينا لأمكن تفسير هذا إما فى مصلحة صربيا إذ يدل على أن حكومة باشتش عند

ما اكتشفت المؤامرة بذلت قصارى جهدها فى درء الجريمة وبذا تكون قد فعلت كثيراً لاخلاء نفسها من الملام فى هذا الشأن. وإما فى مصلحة النمسا إذ يثبت أن الحكومة الصربية كانت عالمة بالمؤامرة فيكون ثمة ما يبرر طلب النمسا أن يسمح لموظفين نمسويين بالتعاون مع الموظفين الصربيين على ضبط الشركاء الموجودين فى بلغراد ما دام أن هؤلاء الموظفين أنفسهم لم يتخذوا إجراءات ما فى هذا الصدد.

هذا عن الفرض الأول. فاذا لم يكن هنالك تحذير فانه يصبح أولا فى مكنة الحكومة الصربية أن تزعم — كما فعلت فى الواقع — أنها لم يكن لها علم بالمؤامرة قبل وقوعها وأنها لهذا بريئة منها كل البراءة، وثانياً يمكن القول إنصافا للنمسا إن صربيا مسئولة عن التستر على المؤامرة وبذا تكون متواطئة على الجريمة.

فلا غرو، وهذه التفسيرات المختلفة للاحتمالين ممكنة، أن تجد العاطفين على صربيا يناقضون بعضهم البعض بشدة وكذلك الذين يعطفون على النمسا. ولا عجب أن تكون الأدلة المتناقضة فى هذا السبيل جمة، ونحن إذ نمحصها يتعين علينا أن نوجه الالتفات بنوع خاص إلى ثلاث نقط: إلى من وجه التحذير إذا كان وجه على الاطلاق؟ هل وجهه المسيو جوفانوفتش وزير صربيا المفوض فى فينا من تلقاء نفسه وبصفة غير رسمية أو هو قدمه رسمياً بناء على تعليمات من بلغراد؟ هل تضمن التحذير أى تلميح إلى مؤامرة معينة أو أنه لم يعدُ بياناً عاماً مبهماً عن عدم الرغبة فى زيارة الغراندوق لاقليم مضطرب؟.

إن أول تأكيد ذى شأن بأن صربيا حذرت النمسا صدر عن المسيو سباليكوفتش وزير صربيا المفوض لدى الروسيا إذ صرح فى حديث له مع صحيفة فيشرنيه فريميا، التى كانت تصدر فى سان بطرسبورغ، عقب الاغتيال ببضعة أيام بأن حكومة الصرب حذرت النمسا من رحلة الغراندوق إلى

البوسنه ، فقد علمت أن مؤامرة تدبر بواسطة البوسنويين الممتعضين من اضطهاد النمسا والذين يعتقدون بأن الغراندوق مسئول عنه . بيد أن وزارة خارجية فينا كذبت رسمياً فى ٣ يوليه هذا التأكيد وغيره من أمثاله .

ووقفت المسألة عند هذا الحد بضعة أشهر لوقوع ما هو أكبر أثراً منها كبلاغ النمسا النهائى وبلبلة الأفكار من أمر الحرب . إلى أن أثارها المسيو دينيس الفرنسى أستاذ التاريخ السلافى الشهير فكتب يقول « إن المسيو باشتش حاول بطريقة خفية أن يدل بالبلاتس (وزارة الخارجية النمسوية) على الأخطار التى يتعرض لها الغراندوق ، إذ أبلغ وزير صربيا المفوض (جوفان جوفانوفتش) وزير الخارجية أن لدى حكومته ما يحملها على الاعتقاد بأن مؤامرة تدبر فى البوسنة . فلم يأبه المستشار (برشتولد) لهذا التبليغ » وقد صدق بيان الأستاذ دينيس أشخاص خارج ألمانيا والنمسا وآمنوا به فى غضون الحرب بوجه عام . وذلك على الرغم من نفى برشتولد إياه بقوة عند ما اتصل به خبره . ونفى النمسويين للقول بأن جوفانوفتش قدم أى تحذير من أى نوع الى وزارة الخارجيــة صحيح لا مراء فيه . فان كل الدلائل المعتمدة تدل على أن المسيو جوفانوفتش اذا كان قدم « تحذيراً » فقـد أفضى بمخاوفه لا الى برشتولد أو الى وزارة الخارجية وفاقاً للاجراءات المرعية ولكن الى الدكتور فون بلنسكى وزير المالية. ولتوضيح السبب الغريب لهذا الاجراء غير المألوف يجب أن نقف لحظة عند هذا الموضوع فنقول :

جاء المسيو جوفان جوفانوفتش الى فينا وزيراً مفوضاً لصربيا فى أواخر ديسمبر ١٩١٢ خلفا للدكتور سيمتش ، وكان الدكتور سيمتش رجلا كهلا مجربا وسياسياً كيسا مهيبا لقى نجاحا لا بأس به فى وظيفة كانت شاقة جداً . فان مركز المعتمد الصربى فى فينا لم يكن بعد سنة ١٩٠٣ سهلا حتى فى الأوقات العادية ، وذلك بالنظر الى الخصومة القومية التى كانت قائمة بين شعبي البلدين والى المسائل المتعلقة بتهم الجاسوسية والدعاية والاضطهاد والتحريض وهى

التى كان يتراشق بها الفريقان وتسبب لهما انفعالا دائما . فلما قدم جوفانوفتش فى سنة ١٩١٢ كانت الحالة دقيقة وحرجة بنوع خاص من جراء العواقب المهيجة التى ترتبت على الحرب البلقانية الأولى والجهود التى كانت تبذلها النمسا فى مؤتمر لندن لحرمان الصربيين من ثمار انتصاراتهم . وكان المسيو جوفان جوفانوفتش على نقيض سلفه شابا يكاد يبلغ الأربعين قال فيه واحد من خيرة أصدقائه وزملائه عند وصوله إن شعره الأشعس الكث، وعينيه القاتمتين، وشاربه الأسود، جعلت له مظهراً لا يبعث الطمأنينة التى كان يبعثها مظهر سلفه المحترم . وقد كان الناس فى فينا لا يتحرجون من التأكيد بأنه أثار فى ١٩٠٨ الاضطراب على ضم البوسنه والهرسك وبأنه كان يقود عصابات الكوميتجى.

لذلك لم يكن جوفانوفتش عند وصوله الى فينا يعتبر شخصاً مرغوبا فيه وفى الواقع انه قيل ان النمسا أبطأت فى الموافقة على اسمه حينما اقترح تعيينه وانها لمحت بعد ذلك الى انها تكون مسرورة اذا استدعى ، وهى تلميحات أبت بلغراد أن تأبه لها . وقد كان استقباله بعيداً عن أن يكون ودياً ويقال انه لما قدم الى الامبراطور فرنسوا جوزيف اكتفى الامبراطور بأن ينحنى له بدل أن يصافحه كما هى العادة فى مثل هذه المناسبات . أما الغراندوقات فلم يقبلوا استقباله مطلقا وبرشتولد كان فاتراً حياله قاصرا علاقاته به على العمل الرسمى وحده . ففى هذه الظروف الأليمة كانت علاقات جوفانوفتش الودية بالدكتور فون بيلنسكى أقوم ما تكون عنده وكان بيلنسكى لتوليه الادارة المدنية فى البوسنة والهرسك الى جانب وزارة المالية يجد من الأمور المشتركة ما يخاطب فيه وزير صربيا المفوض كثيرا . ولما كان سلافيا (بولونيا من غاليسيا) فقد كان أسهل عليه من أى نمسوى ألمانى أو مجرى أن يحافظ على علاقات الوداد مع صربى كجوفانوفتش. وفى الواقع سرعان ما اتفق الاثنان بمصادقة فرانسوا جوزيف وبرشتولد على أن يزاول بيلنسكى مع الوزير

الصربى الأعمال الدبلوماسية ويقوم بتبليغها الى برشتولد حرصاً على حسن العلاقات بين البلدين . وهذا بلا ريب عمل شاذ غير مألوف لكنه قد اضطرت اليه — غير الأسباب التى أوردناها — أسباب أخرى كتراخى برشتولد المركب فى طبعه وطموح بيلنسكى الى أن يجمع فى يده كل سلطة يمكنه أن يحرزها وأن يرفع من شأنه وأهميته . وهذا مع ذلك يفسر السبب الذى من أجله يمكن أن يكون جوفانوفتش قد آثر فى يونيه ١٩١٤ اختيار بيلنسكى على برشتولد أو أى انسان آخر فى وزارة الخارجية النمسوية لمفاتحته بارتيائه الدقيق وهو أنه قد يكون من الخطر على الغراندوق فرانتس فرديناند أن يتوجه الى البوسنه .

وفى سنة ١٩٢٤ وهى الذكرى العاشرة لاغتيال الغراندوق عاد موضوع « تحذير » صربيا المزعوم للنمسا إلى الظهور إذ جاء فى خطاب مرسل إلى إحدى صحف فينا بتوقيع « X .Y. » وقد نسب إلى جوزيموفتش سكرتير المفوضية الصربية من فينا سنة ١٩١٤ أنه « فى ١٨ يونيه ١٩١٤ تلقى المسيو جوفانوفتش رسالة جفرية من باشتش يكلفه فيها بحمل الغراندوق على العدول عن رحلته إلى سيراجيفو أو على الأقل تحذيره من الأخطار التى تهدده . » وعندئذ أبلغ جوفانوفتش ذلك الى بيلنسكى ظهر يوم ٢١ يونيه . وهذا يلوح لأول وهلة مؤكداً لما زعم دبنيس من أن حكومة بلغراد حذرت النمسا رسمياً ، بيد أن الخطاب مشكوك فى صحته إلى درجة أنه لا يمكن الاعتماد عليه . وقد ناقضه جوفانوفتش نفسه فى كثير من تفاصيله ، إذ بعث بعد نشره بأسبوع الى احدى صحف فينا البيان الهام الآتى :

« يسرنى أن أسرد لكم حقيقة الأمر فى مسألة التحذير الذى صدر عنى ومن تلقاء نفسى للغراندوق . لقد كنت إذ ذاك وزيراً مفوضا ومندوبا فوق العادة لدى فينا فاتصل بى أن ولى العهد ينتوى أن يحضر المناورات فى البوسنه (وهنا ذكر خطأ بعض تفاصيل رحلة فرانتس فرديناند المقترحة الى البوسنه

وأكد أن الصربيين سوف يرونها عملا مثيراً لهم ثم قال :) فبعد أن وزنت كل هذه الظروف عقدت العزم على أن أزور الدكتور فون بيلنسكى الذى كان إذ ذاك وزيرا للمالية ووزيرا للبوسنه . وعلى قدر ما اذكر كانت زيارتى حوالى ٥ يونيه — أى قبل وقوع الاغتيـــال بثلاثة وعشرين يوما . وقد أوضحت للوزير فى صراحة تامة ما كنت علمته من أن المناورات ستجرى على الدرين قبالة صربيا وأن الغراندوق نفسه سيتولى قيادتها وقلت للوزير فون بيلنسكى : « إذا صح هذا فانى أستطيع أن أؤكد لسعادتك أنه سيثير أعظم استياء بين الصربيين الذين لابد سينظرون اليه نظرهم الى عمل مثير . والمناورات اذا جرت فى ظروف كهذه تكون خطرة . فقد يكون بين الشبان الصربيين واحد يضع فى بندقيته أو مسدسه رصاصة بدل الخرطوشة ثم يطلقها . وقد تصيب الرجل الذى استثار . لذلك كان من الخير والحكمة أن لايذهب الغراندوق الى سيراجيفو وأن لاتجرى المناورات فى يوم فيدوف دان (وهو يوم ٢٨ يونيه حيث يحتفل الصربيون بعيد القديس فيتوس) وأن لاتدور فى البوسنه .

« وقد رد الدكتور فون بيلنسكى على هذه الكلمات الصريحة بقوله إنه سيدون مذكرة بها ثم يبلغنى ما يكون لهـا من نتيجة لدى الغراندوق وان كان هو لا يعتقد بأن المناورات تؤول الى هذا الذى تنبأت به ، هذا الى ما يبده من معلومات تدل على أن البوسنه هادئة . وقد زرته بعد ذلك ببضعة أيام من أجل هذا الموضوع . فعلمت برغم ذلك أن البرنامج الأصلى سيتبع وانه لا يغير فيه شىء على الرغم من انذارى . ولا شك أن الغراندوق أبلغ الخبر لكنه لم يكن يأبه لأحد سوى نفسه . »

هذه الحكاية التى رواها المسيو جوان جوفانوفتش يلوح أنهـا أدنى الروايات الصربية الى الحقيقة . وقد أيد بعضها ونقض البعض الآخر بيان قيم أدلى به المسيو بول فلاندراك الذى كان فى سنة ١٩١٤ رئيس القسم الصحافة

فى وزارة المالية فى عهد بيلنسكى ، والذى يتولى منذ الحرب إدارة بنك الودائع فى فينا . قال : « فى مايو ١٩١٤ وطلائع الأخبار عن رحلة الغراندوق فرانتس فرديناند الى دلماسيا والبوسنه آخذة فى الذيوع بين الجمهور ، حضر جوفانوفتش لآخر مرة الى مكتب وزير المالية وجعل على أثر وصوله يتكلم عن المناورات المقترحة فأبدى مخاوفه من أن تعتبرها الحكومة الصربية تحرشا بها ثم قال إلى ذلك انه يجب أن ينظر وزير المالية بعين الاعتبار الى احتمال أن تثير المظاهرات الوطنية التى لامفر منها إذا ماظهر العاهل المقبل ، شعور الجانبين على الحدود النمسوية الصربية . ثم رجا بيلنسكى ألا يعتبر ملاحظاته بمثابة تبليغ رسمى فان الذى حدا به إلى ابدائها إنما هو مجرد الرغبة فى أن لا يقع شىء يمكن ولو مؤقتاً أن يؤثر على المفاوضات التى كانت قد ابتدأت لتحسين العلاقات المتبادلة بين النمسا والصرب .

« لم يعر بيلنسكى هذه التصريحات أى انتباه خاص وأعتقد أنه لم يبلغها الى الكونت برشتولد على الاطلاق ، وان كان من عادته أن يبلغه كل مايجرى له من الأحاديث مع وزير صربيا المفوض .... وعلى ان المسيو بيلنسكى لم يكن يعلم عند ما دار هذا الحديث أنه ستتفرع عن رحلة الغراندوق للتفتيش الحربى رحلة سياسية فانه كان مقتنعاً بان رحلة فرانتس فرديناند الى الأقاليم الجنوبية كانت على الاقل سابقة لأوانها وقد أعرب أيضاً للامبراطور صراحة عن مخاوفه

« من هذا الحديث الذى أداره جوفانوفتش الوزير الصربى والذى أبلغنى بيلنسكى إياه صدفة عقب وقوعه رأساً ولأنه الى حد ما يؤيد نظريته فى عدم مناسبة الوقت لرحلة الغراندوق — أقول من هذا الحديث تنشأت على مر السنين طائفة من الأساطير فذهب البعض بعيدا الى درجة أن يبنى على ملاحظات جوفانوفتش انذارا بوقوع الجريمة أو تلميحا الى امكان وقوعها . أما بيلنسكى نفسه وهو الذى لم يعتد أثناء توليه وزارة المالية أن يدون

ملاحظات ، فلم يذكر مطلقا هـذا الحديث الآخر مع الوزير الصربى فى مفكراته التى اعتاد أن يدونها من الذاكرة ، وهذا دليل على أنه لم ير فيه انذارا لا صريحاً ولا خفياً . »

ومن الشائق أن تسمع ما على الشخص الذى تلقى « الانذار » أن يقوله عنه ، لـكنه من الغرابة بمكان أن مذكرات المرحوم الدكتور بيلنسكى وهى واقعة فى مجلدين لم تتضمن شيئاً عن ذلك وان كانت قد تناولت حياته العامة بالتفصيل . وقد استخلص بعض الـكتاب من هذه الحقيقة الواقعـة أنه لم يتلق أبداً إنذاراً ما أو لكان ذكره بالتأكيد لأهميته الحاسمة . بيـد أن الأرجح أنه تجنب ذكر الواقعة الأليمة فى أنه لم يصرف الغراندوق عن رحلته المشئومة أو على الأقل لم يستوثق ـ وهو إذ ذاك المسئول عن إدارة البوسنه ـ من انه اتخذت لحمايته تدابير كافية وأن سيراجيفو أعدت لأناس قد يكونون من القتلة . ولا بد أن هذا الاهمال قد أقض مضجعه ولزمه كابوسه المخيف طوال حياته نظرا للعواقب المرعبة التى ترتبت عليه بالنسبة للنمسا وللعالم . وقد قصده مؤرخ نمسوى والحرب لا تزال مستعرة يطلب اليه القاء بعض النور على مايزعم من التحذير الصربى من مؤامرة سيراجيفو فرد عليه بكتاب وجيز ردا ذا مغزى إذ قال: انه ليتـكلم عن كل شيء آخر يتصل بهذه المسألة المحزنة (الحرب) إلا هذه النقطة بالذات فانه يجب أن يسدل عليهـا ستار النسيان . وكل الذى أبداه فى مذكراته هو شكواه من أن أحدا لم يستشره فى التدابير لأن الغراندوق كان قد أعرب عن رغبته فى أن يعالج هذه المسألة رئيس البلد نفسه وحده [وهو الجنرال بوتيوريك حاكم البوسنه والهرسك] باعتبار كونه الجنرال المتولى القيادة دون إدخال وزير المالية فى أى تدبير . « فلم يسعنى أن أعترض على هذا لأنى لم أكن أتدخل فى تنظيم الاقليم من حيث المسائل المتعلقة بالادارة العسكرية ، فيما عدا تجنيد الرديف ودفع نفقات ذلك.» قال « وليس صحيحاً ما أشيع من أنى أنذرت الأمبراطور قبل الرحلة

لأنى لم يكن لى حق مطلقا فى التدخل فى رحلة عسكرية محضة. وتحول الرحلة الى مسألة سياسية أمر سمح به دون أن أسأل فيه أو أبلغ اياه» قال وقد أبان هذه الحقائق للأمبراطور عند ما حظى بمقابلته عقب الاغتيال بيومين. وفيما عدا هذه المقابلة لم يتكلم أبدا عن رحلة الغراندوق لا قبل الرحلة ولا بعدها.

من هذه الدلائل يصح أن نستنتج ما يلى :

١ — فى ٥ يونيه أو حواليه أبلغ وزير صربيا المفوض فى فينا المسيو جوفان جوفانوفتش الى المسيو بيلنسكى وزير المالية فى النمسا والمجر شيئاً ولم يبلغه الى برشتولد أو وزارة الخارجية النمسوية وهو ما كان ينبغى أن يفعله طبقا للتقاليد الديبلوماسية المرعية.وهذا المسلك الديبلوماتيكى الشاذ فى مناسبة كهذه ربما كان منه خلوا من الحكمة كما دلت الأمور لكنه لم يكن غير طبعى لأنه قد جرى عليه عدة أشهر. وقد أدرك جوفانوفتش أيضا بلا ريب ان الذى كان عليه أن يقوله دقيق جدا وصعب وأنه أسهل عليه بكثير أن يبلغه بيلنسكى الودود لا برشتولد الجامد الظنين. كذلك لم يرد أن يعطى تبليغه صبغة رسمية أو يلجأ فيه الى الرسميات. فان تبليغا يقدمه الى صديقه بيلنسكى يكون أقل رسمية من التبليغ الذى يقدمه الى وزير الخارجية. وكان بيلنسكى لا يخشى شيئا ذا خطر من ناحية البوسنه فضلا عن أنه كان ينتوى زيارة هذه البلاد هو وزوجه فلم ينظر الى تبليغ جوفانوفتش نظرة جدية ولم يذكره فى الراجح لا للامبراطور ولا لفرانتس فرديناند ولا لبرشتولد. وعلى ذلك تكون التكذيبات المتكررة التى نفى فيها موظفو وزارة الخارجية النمسويه تلقى أى انذار رسمى فى صربيا لا غبار عليها

٢ — من الممكن أن يكون جوفانوفتش قدم تبليغه كما يزعم من تلقاء نفسه لكنه مع ذلك يلوح غريباً أن يخطو خطوة هامة كهذه دون تفويض أو تعليمات من وزير خارجية صربيا. وهل من محض الصدفة أن «تحذير»

جاء على أثر ما أبلغه المسيو باشتش فى آخر مايو أو أول يونيه الى لجوبا جوفانوفتش وغيره من أعضاء وزارته من أن هنالك أناساً يستعدون للذهاب إلى سيراجيفو لقتل فرانتس فرديناند ؟ » أليس هنالك بعد كل شيء نذر من الحقيقة فى بيان المسيو دينيس إذ يقول إن « المسيو باشتش حاول فى فطنة أن يشير الى الخطر الذى كان الغراندوق يتعرض له فكلف وزيره المفوض فى فينا باتخاذ اجراءات تحول لما امكن دون وقوع المأساة ».

وقد كان المسيو باشتش من الخبرة بتوتر العلاقات النمسوية الصربية فى الماضى بحيث يدرك أن النمسا سوف تقدم الى صربيا مطالب صارمة جداً إذا نجح القتلة، وقد تتوسل بالجريمة لمحاربة جارتها الشكسة . ولم يكن مسيو باشتش يريد الحرب فى ذلك الأوان وخاصة الحرب التى يسببها حادث كهذا ، وكان يعلم أن صربيا تريد أن تعيش فى سلام عدة أشهر أخر على الأقل قبل أن تشتبك مع النمسا فى حرب حياة أو موت ، وذلك كيما تستجم بلاده نفسها من حروب البلقان ويستتب لها الأمر فى الأراضى الجديدة التى نالتها . ولما نكد هذا الى أنه كان فى شك من أمر الروسيا وفرنسا وتأييدهما له فى حرب مع النمسا إذا ما تسربت الحقيقة وعلم أن الجريمة كانت تدبر فى عاصمة صربيا بمساعدة ضابط عظيم فى هيئة أركان حرب الصرب وأعضاء آخرين فى جمعية سرية صربية ذات سمعة رديئة من جراء ما اقترفت من الاغتيالات السياسية فى الماضى .

لا مشاحة فى أن المسيو باشتش كان فى مركز صعب ومربك جداً . فقد رغب فى الحيلولة دون وقوع جريمة القتل لما يمكن أن تجره من العواقب المرعبة . لكنه لو أنذر النمسا بما كان يجرى وسلك لذلك الطريق الوحيدة الفعالة لدل بذلك على معرفته بالمؤامرة ولكان هذا اعترافاً منه باغتيال يضاف إلى قائمة الاغتيالات الطويلة التى دبرت فى صربيا ضد المملكة الثنائية . ففى مثل هذه الظروف أليس من الجائز أن يكون قد لمح لوزير صربيا المفوض

فى فينا بشىء حمل الأخير على أن يفضى إلى بيلنسكى بارتيابه فى ولاء الجنود البوسنوية وبأن رحلة الغراندوق المقترحة غير مرغوب فيها بوجه عام؟ وفى مثل هذه الحالة نفهم سعى جوفانوفتش إلى أن يوقع فى النفس انه كان يتكلم بصفة غير رسمية ومن تلقاء نفسه وهذا أمر مألوف جداً فى الديبلوماسى. وأمثلته لا تحصى فيما نشر من المحفوظات الألمانية والروسية والانجليزية.

من ثم كان من الصعب أن نصدق أن جوفانوفتش يقدم على عمل هام كهذا يتعرض فيه لشئون داخلية محضة لدولة أخرى كالمناورات وأسفار الأمراء دون أن يكون قد تلقى تعليمات بذلك من بلغراد. والى أن تنشر السلطات الصربية كامل المكاتبات التى دارت بين باشتش وجوفانوفتش فى الأسابيع السابقة للاغتيال أو على الأقل الوثيقة التى لابد أن يكون جوفانوفتش قد روى فيها لباشتش حديثه مع بيلنسكى، نقول الى أن يقع هذا فلا حرج من الشك فى أن جوفانوفتش كان فيما فعله يعمل «من تلقاء نفسه»

٣ — ان «التحذير» قدم فى عبارة عامة جداً فلم يتضمن أى تلميح بامكان وقوع الاغتيال من متآمرين مدنيين أو أية اشارة الى المؤامرة التى كانت قائمة إذ ذاك. وكل الذى أشار اليه «التحذير» هو احتمال وجود خطر من أن يكون بين الجنود من هم غير موالين. وإذن فلا غرو ان لم يعره بيلنسكى التفاتاً كثيراً. وهو على كل حال لا يخلى الحكومة الصربية من ذنب كتمان خبر مؤامرة يراد بها القتل كان لضباطها ضلع فيها، وهى جريمة تعرف فى الحياة الخاصة «بالتستر على الجناية».»

الفصل الرابع

أسطورة مجلس بوتسدام

قد يلوح من قبيل العبث بعد الذى نشر من وثائق كاوتسكى وتقرير لجنة الريخستاج التى حققت فى مقدمات الحرب ، أن نعود الى ادحاض الأسطورة القائلة « بأن هذه المأساة التى هى أعظم المآسى الانسانية كانت من عمل الامبراطور وحاشيته الامبراطورية فى مؤتمر بوتسدام المنعقد فى ٥ يوليه ١٩١٤ » . أجل قد يلوح هذا من قبيل « الضرب فى حديد بارد » . لكنه لما كان هذا قد ذكرته لجنة مؤتمر الصلح التى كان يرؤسها المستر لانسنج على أنه مما يبرر المادة ٢٣١ من المعاهدة ، ولما كان مسيو بورجوا ومسيو باجيه قد سلما بها وكان الرئيس بوانكاريه فيما يلوح قد وافق عليها على الرغم من الوثائق الكاملة التى كانت تحت أيديهم حينما كتبوا ما كتبوا ، ولما كانت الأسطورة لا يزال يصدقها أولئك الذين تابعوا التحريات الحديثة عن أسباب الحرب ، نقول لما كان هذا هكذا فقد يكون من الفائدة تمحيص هذه الأسطورة المنتشرة مرة أخرى باعتبار كونها مثالا للطريقة التى تذيع بها الخرافات وتنمو وسط بغضاء الحرب ودعاوتها .

وأمتع حكاية وأبدعها عن « مجلس التاج » الذى زعموا أنه انعقد فى بوتسدام فى ٥ يوليه . وهى الحكاية التى كانت أوسع من غيرها انتشاراً وأكثر ذيوعا ، هى التى قصها المسيو مورجنتاو فى فصل عنوانه « فانجنهايم يقص على السفير الأمريكى كيف بدأ الأمبراطور الحرب » قال :

« سأظل متمثلا شخص هذا السياسى الألمانى فى تلك الأيام المثيرة التى سبقت المارن . . . فان الحظ الطيب الذى كان من نصيب الجيوش الألمانية

استخفه إلى درجة الخرق أحيانا فى أحاديثه . وقد حمله طربه يوما على أن يقص عليّ وقائع بعينها أظن أنها ستكون أبداً ذات قيمة تاريخية عظيمة ... حدثنى أن الامبراطور استدعاه إلى برلين لحضور مجلس أمبراطورى ، فانعقد هذا المجلس فى بوتسدام فى ٥ يوليه برياسة الأمبراطور وحضور كافة السفراء المهمين تقريبا . وكان استدعاء فانجنهايم نفسه ليطمئن النفوس من ناحية تركيا ويطلع زملاءه على الحالة فى الأستانة بوجه عام . وكانت تعتبر إذ ذاك قطب الرحى فى الحرب المنتظرة ولم يذكر فانجنهايم أسماء حين أخبرنى عمن حضر الاجتماع وان كان قد قال على وجه التعيين انه كان من بينهم ، والوقائع من الأهمية بحيث تحملنى على اقتباس كلماته التى قالها بالألمانية : Die Haeupter des Generalstabs und der Marine (رؤساء هيئة أركان الحرب العامة والبحرية) وقد افترضت أنه يقصد فون مولتكه وفون تربتس . قال وقد حضر كذلك كبار أصحاب المصارف ومديرى السكك الحديدية وأصحاب المصانع الألمانية وكلهم من حيث لزومهم لاستعدادات ألمانيا الحربية كالجيش نفسه

« وأخبرنى فانجنهايم أن الأمبراطور سأل كلا منهم بدوره فى لهجة خطيرة : « هل أنت مستعد للحرب ؟ » فأجاب الكل بنعم إلا الماليون فقد أبدوا أنهم بحاجة الى أسبوع لبيع سنداتهم الأجنبية وعمل قروض .. ولم يكن فى ذلك الوقت من يرى أن مأساة سيراجيفو ستجر الحرب لامحالة إلا عدد قليل . وقال لى فانجنهايم إن المجلس اتخذ كل احتياط حتى لاتحوم حوله الشكوك ، وأنه قرر إمهال الماليين لتسوية ماليتهم للحرب المقبلة . وعاد بعض الأعضاء على عجل إلى أعمالهم وانصرف البعض الآخر الى اجازاتهم. وتوجه الأمبراطور الى نروج على ظهر يخته وسافر فون بيتمان هولفيج يطلب الراحة وعاد فانجنهايم الى الآستانة .

« ومن المعلوم أن فانجنهايم وهو يقص عليّ حكاية هذا المجلس كان يسلم بأن ألمانيا عجلت بالحرب بل أنه كان فيما أظن فخوراً بالرواية كلها ، فخوراً

بأن ألمانيا عالجت الأمور بطريقة محكمة تنطوى على التبصر ، نخوراً على الأخص بأنه دعى إلى الاشتراك فى اجتماع خطير كهذا . وكثيرا ماساءلت نفسى لماذا تراه أفشى الىّ بهذا السر العظيم . وأكبر الظن أن السبب الحقيقى هو غروره الزائد ورغبته فى أن يرينى كيف كان مقربا الى مجالس أمبراطوره الخاصة وان يطلعنى على الدور الذى قام به فى جر هذه الحرب . ومهما يكن من أمر الباعث له على هذا فقد كان من جراء هذا الخرق أن أرانى على التحقيق من هم المدانون حقيقة بهذه الجريمة الفظيعة . وقد استفاضت فى أوربا فى الأشهر القلائل التى تلت نشوب الحرب عدة كتب زرقاء وحمراء وصفراء ومئات من الوثائق التى نشرها الدعاة الألمان يحاولون اثبات براءة ألمانيا فلم يكن لها فى نفسى أقل تأثير . فان استنتاجاتى عن مسئولية الحرب ليست قائمة على ريبة أو عقيدة أو دراسة وقائع من عمل الظروف . ولم يكن علىّ أن أقيم الدليل أو اجادل فى الأمر لأنى أعرف . أعرف أن المؤامرة التى سببت أعظم فاجعة انسانية قد دبرها الأمبراطور وبطانته الأمبراطورية فى بوتسدام فى ٥ يوليه سنة ١٩١٤ . أخبرنى بهذا واحد من كبار المشتركين فى هذا المجلس وسمعت تفاصيله من فمه وهو طروب يباهى بنجاح المؤامرة . وانى كلما سمعت الناس يجادلون فى تبعة هذه الحرب أو قرأت ما تقدمه ألمانيا من معاذير سمجة كاذبة تمثلت بكل بساطة شخص فانجنهايم الضخم وقد جاءنى عصر يوم من أيام أغسطس ينفخ الدخان من سيجار أسود كبير ويقص علىّ حكاية هذا الاجتماع التاريخى . ففيم إذن ضياع الوقت فى البحث فى هذه المسألة . »

فيم إذن البحث بعد هذا ؟ لأن الوثائق الميسورة فى الوقت الحاضر تثبت بصفة قاطعة انه تكاد لا توجد كلمة صدق واحدة فى هذه القصة بأكملها سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالأشخاص الذين قيل انهم كانوا حاضرين أم فيما يتعلق بموقف الأمبراطور حيال التأجيل ، أم عن السبب الحقيقى للتأجيل ، وأخيراً عما زعموا من بيع السندات توقعاً للحرب .

الأشخاص الذين قيل إنهم كانوا حاضرين

والآن فلنمحص تلك القصة زعماً زعماً :

« حضور كافة السفراء المهمين تقريباً » . والسفراء المهمون لابد ان يكونوا سفراء لندن (ليخنوفسكى) وفينا (تشيرشكى) وباريس (شون) وسان بطرسبورغ (بورتاليس) .

فليخنوفسكى السفير فى لندن لم يحضر مجلس بوتسدام هذا لأنه هو نفسه يقول فى رسالة انه علم به فيما بعد . ومؤكد كذلك أن تشيرشكى السفير فى فينا لم يكن حاضرا وإلا لما أبرق اليه بيتمان هولفيج فى ٦ يوليه يبلغه حدوث مقابلة هامة فى بوتسدام فى ٥ يوليه بين الأمبراطور غليوم والسفير النمسوى تسيجينى . وسنصف هذه المقـــابلة ومغزاها بالتفصيل فيما بعد . كذلك ليس هنالك أدنى دلالة على أن شون وبورتاليس حضرا من باريس وسان بطرسبورغ

ولعله مع ذلك ليس سوى فانجنهايم نفسه من يعنيه فانجنهايم بالسفير المهم فصحيح أن البارون فانجنهايم غادر الآستانة فى ٢ يوليه ووصل الى برلين فى ٤ يوليه فى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والعشرين مساء ثم عاد الى الآستانة فى ١٥ يوليه . لكنه ليس صحيحاً ان الامبراطور «استدعاه لمجلس امبراطورى » فانه على النقيض من ذلك لم يقابل الامبراطور مطلقا بل قدم تقريره إلى وزارة الخارجية فقط . وفى الواقع انه كان منفعلا جداً من أن الامبراطور فى مثل هذه الأيام القلقة لم ير أن الأمر يستأهل أن يقابل شخصاً له مثل أهمية سفيره لدى تركيا أثناء زيارة الأخير لبرلين

« رؤساء هيئة أركان الحرب العامة والبحرية » . من المؤكد أن الجنرال فون مولتكه لم يكن فى بوتسدام فى ٥ يوليه . فانه فى ١٥ أبريل ١٩١٤ كان

قد توجه إلى كارلسباد للاستشفاء جريا على عادته منذ سنين مستصحباً بعض أفراد أسرته. وقد زاره هنـاك فى ١٢ مايو رئيس هيئة أركان حرب النمسا البارون كونراد، وكان قد جاء بلباسه المدنى فجعل مولتكه فى الحالة السياسية العامة محادثة ظلت ساعتين أو ثلاثا. وقد ألمع كونراد فى حديثه الى أنه لا يمكن الاعتماد على رومانيا وأشار الى الطرق التى يمكن أن تستخدم بهـا الجنود الايطالية شمالى جبـال الألب والى الرغبة فى أن يضع مولتكه خطة تمكن فى حالة الحرب من توجيه عدد اكبر من الجنود الألمان الى الروسيا فيخف ضغطها على النمسويين فى غاليسيا. فالحديث بأكمله لم يعدُ أنه كان حديثاً عاما فى الشئون السياسية والتعاون العسكرى بين دولتى الوسط وهو بهذه الصفة طبيعى بين رئيسى أركان حرب دولتين متحالفتين ومن قبيـل ما كان يجرى بينهما من قبل. بل انه من قبيل الأحاديث التى كانت إذ ذاك دائرة بين ضباط أركان حرب فرنسا والروسيا عدة سنين.

وبارح مولتـكه كارلسباد فى ١٤ مايو ليشترك فى إحدى الجولات التى اعتادت هيئة أركان الحرب القيام بها فى جبال الفوج للمراقبة. ولما فرغ من رحلته هذه اجتمع فى أول يونيه بايكاردشتين فى بادن بادن. ولم يكن رجلا معافى فى ذلك الحين فعـاد إلى كارلسباد فى يوم الأحد ٢٨ يونيه بنـاء على مشورة طبيبه. وكان ذلك قبل أن يتلقى نبأ مقتل فرانتس فرديناند الذى حدث فى نفس اليوم. ومكث فى كارلسباد إلى ٢٥ يونيه كما كان مقدراً أن يفعل ثم عاد إلى برلين فى ٢٦ يوليه. ويدل سجل بوليس كارلسباد على أن مولتكه حتى بعد أن وقعت جريمة سيراجيفو ظل يعيش عيشته العادية المألوفة فكان فى يوم ٥ يوليه يعيش فى كارلسباد فى سكون لا متآمرا فى مجلس فى بوتسدام يضع التدابير لأشعال الحرب. ودليل آخر على أن مولتكه لم يكن فى بوتسدام فى ٥ يوليه هو ذلك الـكتاب الهام الذى بعث به اليه فى كارلسباد وزير حربية بروسيا فالـكنهاين فى ٥ يوليه يقص عليه فيه ما دار فى المقابلة

التى كانت بين سفير النمسا والأمبراطور غليوم فى بوتسدام ذلك اليوم .

ولعل مخترع الأسطورة لم يكن يعنى مولتكه وانما عنى الكونت فالدرسيه القائم بأعمال رئيس هيئة أركان الحرب. لكن هذا لم يكن أيضاً فى بوتسدام فى ٥ يوليه فانه كان قد توجه الى هانوفر فى ٤ يوليه لوفاة أحد أفراد أسرته بعد أن نبه الى وجوب دعوته تليفونياً إذا حدث شىء ذو بال ، فلو أنه عقد حقيقة مؤتمر هام كالذى تصفه خرافة مجلس بوتسدام لكان فالدرسيه عاد بلا ريب إلى بوتسدام من أجله . لكنه لم يعد من المأتم قبل ٧ يوليه وعلم من أحد مرؤوسيه وهو الجنرال برتراب بمقابلة السفير النمسوى للأمبراطور غليوم — تلك المقابلة التى تمت فى ٥ يوليه وهو غائب . بل انه لم يعتبر هذه المقابلة من الأهمية بمكان فغادر برلين ثانية فى اجازة كان قد رتبها من قبل . فلو أن خططاً عسكرية كانت قد اتخذت أو لو أن حرباً كانت قد دبرت وكان يظن انها على الأبواب لما كان خليقاً أن يغادر مركزه .

كذلك كان رئيس البحرية الأميرال فوق تربتس غائباً عن برلين يستمتع بعطلة فى تلراسب من أعمال سويسره من ٢ يوليه إلى ٢٧ منه ومن ثم لم يكن ممكناً أن يكون قد حضر المجلس الشهير الذى تحكى عنه الأسطورة .

هذا ما كان من أمر هؤلاء ، فماذا كان من أمر الأعيان الآخرين الذين أشار اليهم فانجنهايم إشارة مبهمة « والذين كانوا من حيث لزومهم لاستعدادات ألمانيا الحربية كالجيش نفسه » ؟ فأما كروب فون بولن - هالباخ صاحب مصانع كروب العظيمة لصنع الذخيرة فلم يكن فى بوتسدام فى ٥ يوليه بل كان فى انتظار الأمبراطور فى كيل وهو فى طريقه إلى رحلته الشمالية . وهناك فى كيل علم بمقابلة الأمبراطور لسفير النمسا لكنه لم يكن يعتقد أن مصانعه بحاجة من جراء هذه المقابلة إلى اتخاذ معدات خاصة . والدكتور ميلون أحد مديرى مصانع كروب وممن ذكروا كثيراً قرر انه لم يسمع عن التبليغ النمسوى الا فى « أواسط يوليه » فى حديث جرى له مع الدكتور هيلفيريش

مدير البنك الألمانى . وفى سنة ١٩١٩ عند ما طلب اليه أن يدلى بما يعرفه عن مجلس بوتسدام المزعوم وعن الاستعدادات الحربية التى تلته أبان انه ليس لديه ما يقوله مما يمكن أن يلقى ضوءاً جديداً على المسألة . أما الدكتور هيلفيريش فقد نفى بشدة أن أى مجلس حربى عقد فى بوتسدام أو أنه تلقى قبل تسليم البلاغ النهائى الى صربيا أية اشارة رسمية بوجوب اتخاذ أى اجراء مالى أو اقتصادى تمهيداً للحرب . وهو يرى انه قد يكون منشأ الاشاعة بحذافيرها ساقياً فى أحد فنادق برلين تلقفت أذنه بعض ماذكر عن مقابلة الأمبراطور لسفير النمسا .

وسئل الهر بالين رئيس شركة هامبورغ أميريكا الملاحية — وكان غائباً عن برلين فى أحد المصحات فى أوائل يوليه ، نقول سئل بالين فى يوليه عما اذا كان يحب التوجه الى انجلتره ليحاول أن يعرف من هولدين حقيقة ما أشيع عن اتفاق انجليزى روسى بحرى . فلا هو ولا مدير شركة نورديتشر لويد كان يمكن على ذلك أن يكونا قد حضرا مجلساً فى بوتسدام لأنه ظهر انهما لم يكونا الى ٢٠ يوليه يعلمان أن هنالك خطراً محتملا من مشاكل حربية . وفون ياجو سكرتير الدولة (وكيل الوزارة) لم يعد من قضاء شهر العسل فى سويسره قبل ٦ يوليه .

من هذه الأدلة يتبين أن نفس الأشخاص الذين كان المنتظر أن يكونوا هم الموجودين فى مجلس كهذا لو انه انعقد ، قد ثبت انهم كانوا غائبين فى ٥ يوليه ولم يتخذوا أية اجراءات « لتدبير الحرب » . واخيراً فانه ليستحق الذكر انه لا السير هوراس رامبولد الذى كان قائماً بأعمال السفارة البريطانية فى برلين فى أوائل يوليه ولا أى من زملائه المعتمدين أشار أية اشارة الى مؤتمر كالذى تصوره حكاية فانجنهايم . فلو أن مؤتمراً كهذا انعقد لكانوا سمعوا شيئاً عنه على سبيل الاشاعة بعد بضعة أيام أو أسابيع . ولقد كان السير هوراس فى سنة ١٩١٧ على حق فى ميله الى الاعتقاد يوم ذاعت هذه الأسطورة بأن الصحف قد وقعت على بيض الأنوق .

موقف الأمبراطور من التمهل

يصور البارون فانجنهايم الأمبراطور والمجلس — كما جاء فى الحكاية السالفة — بأنهما قررا التمهل أسبوعين ليتمكن أصحاب المصارف من بيع سنداتهم الأجنبية . وهذا نقيض الحقيقة . فان وثائق كاوتسكى تنطوى على الكثير مما يدل على أن الامبراطور كان يرغب فى ان لا تتمهل النمسا فى كل ما يمكن أن تتخذه حيال صربيا ، وأنه كان يرى أن تعمل بأسرع ما يستطاع ، والشعور لا يزال فى أوربا فى مصلحة آل هابسبورغ ، بعد الذى صدمه من جريمة سيراجيفو المروعة وأسخطه من الصربيين الآثمين ، وانه لما قرأ أن السفير الألمانى فى فينا بعد حادث سيراجيفو بيومين « انتهز كل فرصة لتحذير النمسا ، فى هدوء ولكن فى حزم وجد ، من اتخاذ شيء ينطوى على العجلة » كتب على الهامش هذه الملاحظة : « الآن أو أبداً ! من خوله أن يفعل هذا ؟ ان هذا لهو الغباء بعينه ! فليس من شأنه بل من شأن النمسا المحض ان تنظر فيما تتخذ فى هذه المسألة والا لقيل فيما بعد اذا جرت الأمور على غير مايرام ان ألمانيا لم تكن راغبة !! ليقلع تشرشكى عن هذا الهراء ! فأنه يجب ان تسوى الأمور مع الصربيين على عجل . وهذا لا يحتاج الى بيان وهو الحقيقة بعينها » . وروى سفير النمسا فى برلين كذلك ان الأمبراطور قال له : « انه ليكون مدعاة لأسفه اذا نحن لم نستفد من اللحظة الراهنة التى كانت فى مصلحتنا كثيراً » ولما كتب تشيرشكى فى ١٤ يوليه يقول ان برشتولد نفسه قد اقتنع أخيراً « بأن من المرغوب فيه أن يعمل بأقصى سرعة » خط الامبراطور تحت هذه العبارة خطين . ولما سمع بأن البلاغ النهائى يراد تأجيله أكثر من أسبوعين بعد أن يكون الرئيس بوانكاريه قد غادر بطرسبورغ علق على هذا بكلمة يا للأسف . وهكذا كان الامبراطور يريد أن تعجل النمسا باتخاذ ما تريد اتخاذه مدفوعا الى ذلك بتسرعه الطبيعى لا حاضاً على الابطاء والتمهل كما تصوره حكاية فانجنهايم

الأسباب الحقيقية التى حدت الى التمهل

كنلك لا أساس لما زعمه فانجنهايم سببا للتمهل أسبوعين فى ارسال البلاغ النهائى من « ان الماليين قالوا انهم يجب أن يمهلوا أسبوعين لبيع سنداتهم الأجنبية والاقتراض ، فان الأسباب الحقيقية للتأخير آتية كلها من ناحية فينا لا من ناحية برلين . وهى فى الغالب سببان أشير اليهما مراراً وتكراراً فى الوثائق الألمانيــة والنمسوية التى نشرت فى سنة ١٩١٩ . وأول هذين السببين هو أن برشتولد وزير خارجية النمسا والمجر لم يكن يستطيع أن يتخذ اجراء ضد صربيا قبل أن يحصل على موافقــة تيزا رئيس وزارة المجر . وقد استغرق صرف تيزا عن معارضته السابقة أسبوعين حتى أمكن أن يرضى بالالتجاء مع صربيا إلى العمل العنيف . وثانى السببين وأهمهما الى حد بعيد هو أن برشتولد لم يكن يرغب فى تقديم البلاغ النهــائى الى صربيا قبل أن يتأكد من ان الرئيس بوانكاريه ورئيس الوزارة الفرنسية فيفيانى غادرا سان بطرسبورغ وأصبح السبيل اليهما وهما فى عرض البحر فى طريق العودة الى فرنسا متعذراً ، والا لكان من المنتظر أن تساعد الروسيا صربيا عسكريا وهى تحت تأثير « حالة الشمبانيــا » وتبادل الانخـاب بين فرنسا والروسيا وتعصب بوانكاريه وايزفولسكى والغراندوق نيقولا وغيرهم ممن كانوا مجتمعين فى سان بطرسبورغ ، فتحبط بذلك خطط النمســا التى كانت ترمى الى جعل نزاعها مع صربيا نزاعا محليا .

النتيجـــة

جلى ان «مجلس بوتسدام» انما هو حديث خرافه . وهو مثال ممتع للطريقة التى تنمو بها الأسطورة وتزدهر وتذيع الذيوع كله فى جو من دعاية الحرب والاستعداد لتصديق كل شىء يقال عن العدو . على انه ثمة عدة أسئلة هامة

هى : كيف نشأت الأسطورة بادىء ذى بدء ؟ وكيف بلغت تلك الصورة الكاملة التى أوردها بها المستر لانسنج ورفاقه فى مؤتمر الصلح الباريسى للتدليل على ذنب ألمانيا ؟

لقد كان للامبراطور ، كما سنورد فى الفصل التالى ، أحاديث على انفراد مع سفير النمسا وعدة موظفين ألمان فى ٥ يوليه فى بوتسدام ، فمن الممكن جداً كما رأى الدكتور هيلفيريش أن يكون مُنشىء الأسطورة ساقياً فى أحد فنادق برلين سمع ذكر هذه الأحاديث فهول فيها حين نقلها . وفى سبتمر ١٩١٤ ظهرت فى احدى الصحف الهولندية وهى « نيفه روتردامشه كورانت » حكاية عن اجتماع فى بوتسدام فى ٥ يوليه حضره كبار الموظفين الألمان والنمسويين وفى جملتهم برشتولد وتيزا وكونراد والغراندوق فريدريك وصيغ فيه البلاغ النهائى المشئوم . ومرت هذه الحكاية فى ذلك الوقت دون أن يهتم بها أحد. ذلك ان معركة المارن كانت حينذاك تستغرق انتباه العالم فنسيت ثم عادت الى الظهور فى سنة ١٩١٧ فانتشرت على أيدى الاشتراكيين فى ألمانيا وعلى يد البرنس ليخنوفسكى الذى ألمع اليها والصحافة الأوربية التى أفسحت صدرها للمناقشة فى أمرها . وقد ألف المستر مورجنتاو كتابه عقب ذلك بقليل فاشير اليه فى مؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ فى تعيين المسئولية عن الحرب .

أو ليس غريبا أن يكون البارون فانجنهايم قد زود المستر مورجنتاو بهذه التفاصيل الشيقة التى تتنافى مع الحقائق كل التنافى ؟ أبلغت به الجرأة أن يفشى أمراً كهذا يسىء الى مصالح حكومته ؟ ان ألمانيا كانت فى ذلك الحين والحرب لم يمر على نشوبها إلا بضعة أسابيع ، تبذل جهدا عنيفا لكسب ثقة الولايات المتحدة وجعل العالم يعتقد أنها تحارب دفاعا عن النفس فى حرب فرضت عليها فبيان كبيان فانجنهايم كان خليقاً أن يضر بألمانيا ضرراً بليغاً .

ثم أليس من الصعب أن نفهم لماذا لم يبلغ السفير الأمريكى واشنطون ما كان قمينا أن يعتبر أهم شيء سمعه فى الآستانة؟ ومع ذلك فان البحث الدقيق فى أضابير وزارة الخارجية فى واشنطون يدل على عدم وجود رسالة أو برقية تشتمل على هذا الحديث الممتع مع البارون فانجنهايم؛ كذلك لم يكتب المستر مورجنتاو فى كتابه شيئاً عن ارسال تقرير فى هذا الموضوع الى واشنطون .

الفصل الخامس

إعداد البلاغ النمسوى النهائى

لقد قضى مقتل فرانتس فرديناند وزوجه على تردد برشتولد فخرج عن موقفه الماضى المزعزع ، وصمم على أن يتخذ من هذه الجريمة أداة حسنة وذريعة طيبة لتسوية الحالة غير المرضية القائمة بينه وبين صربيا والقضاء نهائيا على الخطر المداهم المملكة الثنائية من ناحية الدعاية لفكرة « صربيا الكبرى » والدسائس الروسية الموجهة إلى نفوذ النمسا فى البلقان . فقد مضت أشهر وسنون والاعتقاد يتزايد بين بعض الجماعات فى فينا بأن الحالة السياسية تصبح فى البلقان خطراً على النمسا وعبئاً لا يحتمل . وكانت صربيا قد خرجت من حروب البلقان اكبر مما كانت حجما وأزيد سكانا ودعاوى . وكانت الحركة القائمة لتحقيق ما يسمى بصربيا الكبرى تقوى وتلق تأييداً من الحركة الوطنية التى كانت تنمو بين سلافيى الجنوب العائشين تحت الحكم الهابسبورغى . وقد راجت فى سنة ١٩١٤ الأشاعات بأن صربيا والجبل الأسود سيندمجان . ومعنى هذا الاندماج ان يصبح لصربيا منفذ على بحر الادرياتيك وأن تهدد دولة البانيا الوليدة فى كيانها الذى كانت تجاهد من أجله فتتعرض بذلك التدابير التى سعت النمسا بواسطتها إلى ان تكون بمأمن من الخطر السلافى على حدودها الجنوبية للخطر . ورومانيا لم يكن يستطاع الاعتماد عليها كحليف . وهياج الأقلية الرومانية فى البحر كان اذ ذاك فى شدته المألوفة . وقد كان يهجس بالخواطر ان الروسيا تشجع سراً على تشكيل عصبة فى البلقان من صربيا ورومانيا واليونان وانها كانت تتحين الفرصة

الملائمة بموت فرنسوا جوزيف الشيخ أو بنشوب حرب أوربية ، لتمزيق النمسا بتحرير القوميات المضطهدة بينما تصبح الروسيا نفسها صاحبة السيطرة على المضايق وهو ما طالما اشتهته ، ويصبح لها منفذ حر الى البحر الأبيض المتوسط. وكان تسلح الروسيا إذ ذاك وانشاء السكك الحديدية فيها لاغراض حربية واجراء التعبئات على سبيل التجربة قائما كله على قدم وساق . وكانت فرنسا تقرض الروسيا لهذه الأغراض ملايين الفرنكات بينما هى فى نفس الوقت تزيد فى منشئاتها العسكرية . وكانت ألبانيا صنيعة النمسا وصنع يدها لصد صربيا ، فى غمار الفوضى والثورة على أميرها الضعيف الذى اختير أخيرا حاكما لها . وكان الانفعال الدفين الناشىء بين ايطاليا والنمسا من تطلع إيطاليا الى تريستا والترنتينو ومن الغيرة والتنافس بين الدولتين فى البلقان قد عادت له أخيرا حدته من جراء مرسوم نمسوى يحرم الأشخاص الايطالى المولد من تقلد الوظائف البلدية فى تريستا . حتى ألمانيا كانوا يحسون من نحوها انصرافا عن مصالح حليفتها النمسوية فى البلقان وعدم اكتراث للاخطار التى تهددها فيه فيمضهم هذا الشعور . واذن فخير طريقة لحمل ألمانيا على احترام النمسا كحليفة جديرة بالتحالف هو أن يلجأوا الى سياسة اكثر انطواء على القوة والعزم من ذى قبل ليروا ان النمسا قادرة على العمل الحاسم ويبرهنوا على أنها عتاد فى الواقع للمحالفة الثلاثية لا عالة عليها .

بلى لقد كان ثمة شعور عام ، حتى قبل فاجعة سيراجيفو ومن ناحية الكثيرين من الموظفين فى فينا ، بوجوب عمل شىء للحيلولة دون تهدم بناء هابسبورغ المتداعى ، اما من جراء ضعفه الداخلى وتردد أصحابه بين هذا الرأى وذاك لا يستقر لهم قرار ، واما بواسطة أعدائه الذين يتربصون به الدوائر ليقوضوه عاجلا . فلما جاء نبأ مقتل الغراندوق اشتد هذا الشعور وقوى. وراح أصحابه يقولون لأنفسهم انه اذا لم تغضب النمسا لهذه الضربة التى أصابت أسرتها المالكة ولم تتخذ اجراءات قوية للقضاء الى الأبد على

لخطر المداهم من فكرة صربيا الكبرى فسوف تفقد مركزها فى البلقان وفى أوربا الى الأبد . وإذن فيجب أن تظهر أن لديها من الحيوية ما يرد اليها هيبتها ويقوى دعائمها . وخير أن تفعل هذا فى الحال لأن المركز لن يزداد فى المستقبل الا سوءً ما دام تسلح الروسيا قد بلغ التمام والمطامع القومية تتفاقم على مر الأيام . لقد كان كيان النمسا كدولة عظمى فى خطر . كان كما صوره كونراد رئيس هيئة أركان الحرب وزعيم الحزب العسكرى فى فينا إذ يقول :

« كان ثمة بديلان بارزان أحدهما تجاه الآخر : المحافظة على النمسا والمجر كمجموعة من القوميات المختلفة ينبغى أن تشد بعضها بعضا حيال الخارج ، وأن تجد فى ظل حاكم واحد رفاهيتها المشتركة ، أو قيام دول قومية مستقلة منفصلة تغير على الأراضى النمسوية المجرية التى يسكنها مواطنوها فتدمر الملكية بذلك .

« وقد بلغ النزاع بين هذين البديلين اللذين كان يتكهن بهما منذ زمن طويل مرحلة حادة بعمل صربيا فلا سبيل الى تأجيل القرار فى شأنهما أكثر مما تأجل . ولهذا لا للانتقام لجريمة القتل يجب أن تجرد النمسا والمجر سيفها فى وجه صربيا . . . فالنمسا والمجر لايسعها بعد الآن أن تبقى عديمة الاكتراث للحالة ، وأن ترضى هذا التحرش فى هدوء ، وأن تعمل بالمذلة المسيحية فتدير خدها الأيسر بعد الأيمن للضرب . »

هكذا حض كونراد برشتولد وهو مقتنع بأنه لا مندوحة للنمسا عن اشهار الحرب على صربيا محافظة على كيانها — على الموافقة على التعبئة العاجلة ضد صربيا . لكن برشتولد عارضه بأن هنالك صعوبتين : وجوب إعداد الرأى العام ، وضرورة بناء أسباب الحرب على نتيجة التحقيق فى سيراجيفو . وكان فرانسوا جوزيف يعارض فى أى عمل سريع . كذلك كان الكونت صطيفان تيزا رئيس وزارة المجر لايريد أية حرب على الاطلاق ضد صربيا

حتى يستوثقوا من أن ألمانيا سوف تحمى مؤخرة النمسا من هجوم الروسيا . ثم كان أن بات برشتولد مثل كونراد مقتنعا بضرورة حرب محلية ضد صربيا وعكف فى الأيام التالية على العمل فى سبيل ضمان تأييد ألمانيا وإقامة حاجز فى وجه صربيا والتغلب على العقبتين الداخليتين المهمتين اللتين كانتا تعترضان الحرب المحلية العاجلة ضد صربيا وهما تردد فرنسوا جوزيف ومعارضة الكونت تيزا

الأمبراطور فرنسوا جوزيف

لم يكن الأمبراطور فرنسوا جوزيف حين مقتل سيراجيفو قد أبل من المرض الذى أصابه فى الشتاء السابق وظن الكثيرون من ملاحظيه أنه قد يودى بحياة العاهل الشيخ . وقد كانت كافة الحروب التى شهرها فى الماضى تبوء بالهزيمة أو بضياع الأراضى أو بكليهما معاً على وجه عام . ولم يكن الامبراطور مولعاً بكونراد كرئيس لهيئة أركان الحرب أومتفائلا من ناحية التغييرات التى أحدثها فى الجيش النمسوى . وليس شك فى أنه كان يريد أن يعيش بقية أيامه فى سلام . أما الآن فقد جعل الخوف يتولاه من أن تبيت الحالة الصربية فى آخر الأمر مما لا يطاق . وعلى أنه كان حزينا جدا وذاهبا فى التشاؤم مذهباً بعيداً فانه كما يظهر لم يكن يتوقع أن تكون الحرب المحلية مع صربيا قريبة النشوب لأنه كان يتكلم عن خططه التى أعدها للصيف وعما ينتظر لصيد الوعول من نجاح .

وفى ٥ يوليه حث كونراد على التعبئة فرفض فرانسوا جوزيف التصديق على اجراءاتهـا قائلا : « كلا ، هذا محال » ومشيراً الى خطر هجوم الروسيـا وإلى عدم الوثوق بمساعدة ألمانيا ؛ فقد كان قبل اجتماع كونوبشت قد سأل فرانتس فرديناند أن يحصل من الأمبراطور غليوم على تصريح بأن فى استطاعة

النمسا أن تعتمد على ألمانيا ، وهو تصريح كان يريده بلا قيد ولا شرط . لكن غليوم الثانى تحاشى أن يتورط . وفى ٧ يوليه عاد الشيخ الحزين إلى مصيفه ومراحه فى إيشل كارها أن يتخذ قراراً يمكن أن يجر الى حرب . وبعض الأوراق البالغة الأهمية التى عرضها عليه برشتولد أثناء الأيام التى تلت قد أشر عليها بأمضائه بالقلم الرصاص على أنه قرأها والحال أنها لم تعد تحمل تلك الملاحظات الممحصة التى كان يبديها فى سنيه السابقة النشيطة . ومن الممكن جداً أن يكون العاهل الشيخ لم يدرك كل الادراك نتائج السياسة والخطط التى كان يضعها برشتولد إذ ذاك . وليس لدينا روايات مرضية عن الأحاديث التى دارت بينه وبين وزير خارجيته ، بيد أن الظاهر أن برشتولد لم يلق كبير عناء فى اقناع مليكه بوجوب التصديق على الاجراءات التى عرضها عليه . أما تيزا فقد كان أقوى شكيمة وأشد مراساً .

برنامج تيزا السلمى

الكونت صطيفان تيزا الشهير بن الشهير ربما كان إذ ذاك أقدر سياسى فى المملكة الثنائية وأوقع سياسى فى النفس . كان بين نبلاء المجر كالمارد الصغير بشعره المقصوص ووجهه الأسمر المربع ومعطفه المجرى الفضفاض ، حين تولى زعامة حزب الأغلبية كما كان أبوه من قبله . كان رجلا يدرك الأخطار الحائقة بالبلاد من كل الجهات كل الادراك ، قديراً على التفكير فيها والتدليل عليها فى هدوء ، وكان يعرف بالضبط ما يريد . فلما أصبح فى يونيه ١٩١٣ رئيساً لوزارة المجر مكنه مركزه الرسمى من توجيه الالتفات الى آرائه . وقد وضع فى ربيع ١٩١٤ « سياسة بعيدة النظر » ليكسب بلغاريا الى جانب ألمانيا والنمسا ويضمن السلام فى البلقان بضع سنوات على الأقل ، فرضى برشتولد هذا البرنامج السلمى مع بضعة تعديلات واتخذ منه قاعدة لمذكرة مسهبة كان قد وجهها الى برلين ولما يكد قبل أن تحمله أنباء سيراجيفو على التحول

فجأة الى برنامج كونراد . ولم يكن تيزا مع ذلك بالرجل الذى يسمح بأن تقلب آراؤه الناضجة فى لحظة رأساً على عقب ولو بجريمة كهذه . فانه بادر الى ڤينا فى ٢٩ يونيه فى اليوم التالى للاغتيال ليعرب لفرنسوا جوزيف عن عطف بلاده ولكن دون أن يجول بخاطره أن سياسة المملكة ستبدل من جراء ما وقع . وبعد أن عزى الامبراطور زار البالبلاتس وليس لديه أقل فكرة عن التغيير الفجائى الذى طرأ على موقف وزير الخارجية . وهناك فى وزارة الخارجيه علم مع الدهشة الأليمة بعزم برشتولد . على أن يخلق من جريمة سيراجيفو الفظيعة سبباً لمناقشة صربيا الحساب نهائياً » .

عندئذ أبلغ تيزا برشتولد صراحة أن إثارة حرب كهذه مع صربيا لتكون « غلطة مشئومة » ولتصمن النمسويين « أمام العالم أجمع بأنهم عكروا السلام ، هذا الى خوضهم حرباً كبرى فى ظروف هى أسوأ ما تكون بالنسبة لهم » . على أن الظاهر أنه لم يؤثر فى برشتولد فتيلا وعلى كل فقد وجد تيزا من واجبه عند عودته الى بودابست أن يبلغ فرنسوا جوزيف عن خطط برشتولد الرعناء ويحذره منها . ولما كان متوقعاً أن يقدم الامبراطور غليوم الى فينا للاعراب عن عطفه الشخصى لأخيه الأمبراطور رجا تيزا فرنسوا جوزيف أن ينتهز هذه الفرصة « لحمله على تأييدنا فى سياستنا البلقانية » وهى كسب بلغاريا والمحافظة على السلام فى البلقان . وكان تيزا فى خلافه مع برشتولد يريد أن يستخدم نفوذ ألمانيا فى مصلحة برنامجه السلمى السياسى ضد برنامج برشتولد الحربى الجديد الأرعن . لكن برشتولد تقدم لنزع هذا السهم بعينه من كنانة تيزا وتوجيهه الى تيزا نفسه كما سنرى

فى مارس ١٩١٤ وضع تيزا مذكرة بالنظر الى أن رومانيا لم يكن يمكن الاعتماد عليها كحليفة والى الأخطار المتزايدة التى استهدفت لها المملكة الثنائية عقب حروب البلقان . وفى هذه المذكرة شرح برنامجا للسلام وعودة الأمور الى مجاريها ووضعها فى نصابها فى شبه جزيرة البلقان ، ثم عرضها على فرنسوا

جوزيف وبرشتولد مؤملا قبولها كقاعدة لسياسة رشيدة تجرى عليها النمسا وألمانيا فى تلك الناحية . وإليك خلاصة هذه المذكرة :

« ان حروب البلقان وصلح بوخارست جرت جميعها على النمسا والمجر حالة لاتطاق ، أصبح معها وجود سلام حقيقى دائم غير ممكن ما لم تتحسن تلك الحال . ومن جهة أخرى فان الأعياء والفزع العام من الجسامة بحيث لا يسمحان بأى عمل عسكرى نافع فى المستقبل القريب ، فالأحقاد والعواطف تعترض المرء فى الحكم على مصالحه ومصالح جيرانه وتقديرها تقديراً سليما صحيحاً . وغلو المنتصر فى الثقة بنفسه ومرارة المغلوب سواءٌ فى الحيلولة دون الرأى الرشيد . لذلك لا تستطيع النمسا أن تقدر قيمة نفسها التقدير الصحيح وأن تقتضى الاحترام المناسب لمصالحها ونصائحها بين دول البلقان الا اذا تبدد الدخان وأمكن للعقل الهادىء أن يسود . وانها لتكونن غلطة شنيعة أن تتعجل الحوادث أو تحاول إحداث تطور غير ناضج لا يقع الا نتيجة الزمن والأناة والسياسة الممحصة الرشيدة . وليس معنى هذا أن نهبط الى الخنوع والبلادة وننحط الى الكسل السلبى فانه يجب على النقيض من ذلك أن نتخذ سياسة باكرة ننعم فيها الفكر لنستطيع أن نذلل بها متاعبنا الداخلية تدريجاً ونوجد فى البلقان حالة أصلح . » وانه ليجب وهذا الغرض نصب أعيننا أن لا نفكر فى مصالحنا الخاصة وحدها بل أن نتفاهم مع ألمانيا تفاهما لا يعتوره إبهام . فمهمتنا شاقة ولا سبيل الى النجاح ما لم نتأكد تماماً من أن ألمانيا فهمتنا واحترمتنا وباتت تؤيدنا فانه ليجب أن ترى ألمانيا أن البلقان لا يهمنا وحدنا تلك الأهمية الحاسمة بل يهم الأمبراطورية الألمانية كذلك » .

« أما مايتعلق بالروسيا فلم يكن تيزا يعتقد أن فى نيتها خوض حرب عاجلة فان موقفها العدوانى وقعقعة سلاحها انما كان يراد به التأثير فى دول البلقان وتشجيع الحركة الوطنية فى رومانيا وصربيا ، وقد يكسب فرديناند ملك بلغاريا الى جانب القيصر . ويعتقد تيزا أن بلغاريا يمكن وينبغى أن تجذب الى جانب

دول الوسط . وقد وقع فرديناند بلا ريب فى مركزه المويئس الذى وجد فيه بعد الحرب البلقانية الثانية لاتباعه سياسته الخرقاء وعدم إصغائه الى نصح النمسا . ومع ذلك فأن احاطة رومانيا وصربيا واليونان بيلغاريا ، وكون تركيا لا تزال تهددها قد يدفع بها الى أحضان الروسيا ما لم تبادر النمسا الى نجدتها . وهذا التشكيل الذى قد يصلح ذات البين بين بلغاريا والدول المسيحية الاخرى تحت رعاية الروسيا قد يفضى الى حرب ناجحة ضد النمسا والى مكافأة بلغاريا بمقدونيا ، وتصبح النمسا محصورة وسط هذا الطوق الحديدى الذى لا تنى الروسيا عن صنعه فيتم تفوق الوفاق الثلاثى عسكرياً فى أوربا وعندئذ تكون اللحظة التى تنشدها الروسيا وفرنسا من زمن طويل قد دنت فتهاجمان ألمانيا بقوى هائلة وتشهران الحرب العظمى يحدوهما الأمل فى النجاح .

وكان تيزا يعتقد أن الوفاق الثلاثى لن يهاجم ألمانيا مع ذلك الا بعد أن تكسب الروسيا جانب بلغاريا وبذا تهدد النمسا بحرب فى ثلاثة ميادين . ومن ثم كانت عقدة المركز الأوربى فى البلقان وخاصة فى ضم بلغاريا الى دول الوسط . وهذا كان من الأهمية الحيوية لألمانيا كما هو للنمسا على السواء . ولذلك وجب على المملكة الثنائية أن تعارض سياسة الروسيا فى البلقان بسياسة ألمانية نمسوية تكون ثمرة التمحيص وانعام النظر ويسودها الوفاق . وخير طريقة لكسب بلغاريا هى فى رأى تيزا أن يلوح لفرديناند بأمل الحصول على مقدونيا . وهذا أمر لا يمكن أن يتم فى الحال فأنه لايزال أمام بلغاريا عدة سنين لتسترد فيها قواها وتلتئم جروحها من جراء الحرب . وفى تلك الأثناء يجب أن تطمئن دول الوسط بلغاريا من ناحية تركيا أو اليونان وتضمن لها الحماية من اعتدائهما . وقد كان شعور الجمهور الرومانى شديد العداء للمجر فيجب أن يبذل مجهود لحمل الملك كارول على الثبات فى محالفته وطمأنينته بأن رومانيا ليست فى خطر من أى اعتداء عليها من جانب بلغاريا .

يجب أن تتعاون المانيا والنمسا من الآن فصاعداً على ايجاد عصبة لمصلحتهما من دول البلقان فتبعد رومانيا واليونان عن صربيا وتُصالح مع بلغاريا على قاعدة توسع هذه على حساب صربيا . »

هذا هو هيكل السياسة التى رأى تيزا أنه ينبغى أن تُقنع المانيا بها حتى يسع الدولتين — دولتى الوسط — أن تؤيد إحداهما الأخرى فى صوفيا وبوخارست والآستانة . وقد ردد فى نهاية مذكرته « أن سياسته فى الوقت الحاضر سياسة سلام وأن بلغاريا لن تستطيع أن تعوض نفسها بمقدونيا إلا فى المستقبل البعيد نسبياً » ثم قال فى الختام مؤكداً : « إننا يجب أن نحافظ فى البلقان على السلام أولا ثم نعد بعــــد ذلك تطوراً صالحا فلا موجب إذن لاضاعة الوقت »

والظاهر أن برنامج تيزا صادف قبولا لدى فرنسوا جوزيف وبرشتولد الذى كلف البارون فلوتو إخصائى وزارة الخارجية فى شئون البلقان باعداد مذكرة أطول من مذكرة تيزا تبسط فيها آراؤه . وقد أكد فلوتو المركز العصيب الخطر الذى توجد فيه النمسا وأبان أنه على رغم ولاء الملك كارول شخصياً ولاءً لاسبيل الى الشك فيه ، لا يمكن الاعتماد على رومانيا نظرا للتيار القوى المعادى للنمسويين بين الشعب الرومانى ولذا يجب على النمسا أن ترغم رومانيا على اعلان موقفها صراحة سواء أكان هـذا الموقف مع النمسا أو عليها . وخير وجه للضغط على رومانيا فى هـذا الصدد هو أن تحالف النمسا بلغاريا وأن تجعل صوفيا محور سياسة النمسا البلقانية لا بوخارست وفى هذه الحالة تكلف بلغاريا بأن تضمن لرومانيا الحدود الراهنة بينهما وبذا لا يخاصم الملك كارول ولا يكون ثمة ما يبعث على خوفه . بل انه ليرى عندئذ حكمة التعلق بالمحالفة الثلاثية . وقد يضطر الى استخدام نفوذه العظيم مع صربيا ولتقريب صربيا الى المملـكة الثنائيـة . وفى هذه الحالة تتقدم المملـكة الثنائية منتصف الطريق الى صربيا عن إخلاص وفى حدود حالة سياسية كهذه » .

لكنه إذا لم يوافق الملك كارول على إعلان ولائه للمحالفة الثلاثية فى تصريح علني مرض فيكون على النمسا أن تعدل تدابيرها العسكرية وأن تسعى لجذب تركيا الى التحالف مع بلغاريا حتى تعضد كلتاهما المحالفة الثلاثية .

وقد عرضت مذكرة فلوتو على برشتولد فى أواسط يونيه بعد أن فصلها ماتشيكو وبوجاشر . وليس جليا ما إذا كانت قد عرضت على فرانسوا جوزيف فى خلال زيارة برشتولد لكونوبشت فى اليوم التالى لاجتماع الأمبراطور غليوم بولى عهد النمسا . وعلى كل فقد كان تقرر أن تزاد تفصيلا وتعرض على السلطات الألمانية لتكون بمثابة مرشد للحليفتين فى شئون البلقان . وكان أن وضع مشروع بهذا المعنى فى ٢٤ يونيه ، وراجع برشتولد المشروع ووضعه فى صيغته الأخيرة المهذبة مؤملا أن لا تلقى هذه الصيغة معارضة من وزارة خارجية برلين وأن تقتنع بها .

بهذه الصيغة كانت المذكرة كاملة ومعدة لأن ترسل الى برلين . وكان الغرض منها « أن تفتح أعين ألمانيا» الى الحاجة الى معاونة النمسا بهمة على خطب ود بلغاريا . لكنه فى عصر يوم الأحد ٢٨ يونيه جاءت تلك الرسالة التليفونية المزعجة تنبىء بمقتل فرانتس فرديناند وزوجه فى سيراجيفو . والظاهر ان هذا النبأ أثر تأثيراً قوياً فى ذهن الكونت برشتولد وانتشله من تراخيه وتردده المعتاد. ويذكر الكثيرون من المؤرخين وعدة من الفيناويين الذين تحدث اليهم كاتب هذه السطور أن برشتولد كوزير كان يخضع لغيره ويسمح لأعداء الصرب من الموظفين المجريين فى وزارة الخارجية النمسوية كهويوس وفورجاخ وماتشيو وللبارون كونراد رئيس هيئة أركان حرب النمسا بتسييره . فكان وزير الخارجية يعتبر مجرد « باصم من المطاط » يصدق على ما يقدم اليه . واذا كان لهذا الرأى قبل فاجعة سيراجيفو ما يسوغه الى حد ما فهو على ما يلوح ليس كذلك فيما يتعلق بأزمة يوليه ١٩١٤ فان الدلائل الملابسة لعصره ترينا ان برشتولد على كثرة ما كان مرؤوسوه فى البالبلاتس ورجال العسكرية يقودونه

قد قام فى الحوادث التى أفضت إلى الحرب العالمية بدور فعال مشئوم . وقد كان الى ماقبل ذلك يتردد بين رأيين متعارضين يمثل أحدهما كونراد ويمثل الآخر تيزا . أما الآن بعد أن وقع حادث سيراجيفو فانه قرر أن يتخذ من هذه الجريمة مبررا نهائيا لتسوية علاقات النمسا بصربيا دفعة واحدة

برشتولد يطلب مساعدة المانيا

لقد تحول برشتولد الآن نهائيا الى رأى كونراد وجاراه فى رغبته فى الحرب العاجلة مع صربيا . لكنه نظراً إلى تردد فرنسوا جوزيف ومعارضة تيزا لم يكن يسعه أن يتخذه فى الحال . هذا الى أنه أدرك ان من الجنون ان يلجأ إلى عمل أخرق كهذا قبل أن يتأكد أولا من برلين ان ألمانيا ستساعده. وقد كانت هذه فى بضع السنوات الأخيرة تحول على الدوام دون التجاء النمسا فى البلقان الى عمل عدائى قد يجر المحالفة الثلاثية إلى نزاع مع الوفاق الثلاثى . وقبل حادث سيراجيفو بيومين كان تشيرشكى السفير الألمانى فى الوقت الذى كان بعض ذوى الخطر فى فينا « يعربون الحين بعد الحين عن الأمل فى ان تنتزع النمسا بالحادث لتحاسب الصربيين نهائيا » — فى هذا الوقت كان تشيرشكى ينتهز كل فرصة للتحذير فى هدوء ، ولكن فى حزم وجد ، من التسرع فى اتخاذ الاجراءات . وقد أشار قبل كل شىء الى انه يجب أن تتثبت النمسا مما تريده بالدقة ، وأن تنظر بعين الاعتبار الى حلفائها وتزن المركز الأوربى بحذافيره وخاصة الموقف الذى يمكن أن تقفه ايطاليا ورومانيا حيال صربيا . وقد سرد له برشتولد فى ٢ يوليه كل الاخطار المنطوية عليها الدعاية لصربيا الكبرى وكانت الأنباء قد وصلت إذ ذاك بأن اثنى عشر قاتلا فى طريقهم لاغتيال الأمبراطور غليوم فكان من مصلحة المانيا كما هو من مصلحة النمسا أن يوضع حد لمؤامرات

بلغراد. وقد سلم تشرشكى بهذا لكنه أبدى للوزير النمسوى بصفة خاصة «أن السبب الذى من أجله لم تعط ألمانيا فيما مضى وعوداً بالمساعدة أكثرمما فعلت هو أن النمسا تكلمت من الوجهة النظرية كثيراً ولكنها لم تضع للعمل خطة محدودة معينة». وحين توضع خطة كهذه يسع برلين أن تعد بالتأييد الكامل التام. ثم عاد تشيرشكى فحذر برشتولد من خطر ابعاد رومانيا وايطاليا. كذلك جاءت من برلين عبارات تنطوى على العطف بيد أنها كانت مصحوبة بالنصح بالحيطة والحذر.

تلقاء هذا الموقف، موقف الحذر والاعتدال من جانب فرنسوا جوزيف وتيزا وألمانيا، لم يكن برشتولد يجرؤ على اتخاذ شىء ضد صربيا وكان يخشى إن هو عبأ الجيش فى الحال أن يفضى ذلك الى أن تبقى النمسا وحدها دون مظاهرة ألمانيا وعواقب هذا قد تكون فادحة. فكان يرى أن عليه أن يحصل من برلين على تأكيد بتأييده فى أية سياسة يمكن أن يتخذها فى النهاية. وليضمن ذلك قرر أن يبتعث الكونت هويوس ال برلين فى رسالة خاصة. وكان برشتولد ينتوى أن يكون لقوسه وتران: أن لا يعدل جهاراً عن برنامج تيزا السلمى الذى يقصد به كسب بلغاريا الى جانب النمسا وألمانيا وهو ما يرجح أن تقره برلين، وأن يفرغ قصاراه لاستدراج ألمانيا الى أقصى حد ممكن لاقراره على اتخاذ عمل حربى عاجل حازم ضد صربيا، ولهذا الغرض يريد أن يستغل فظيعة سيراجيفو الى أقصى ما يمكن. فيؤكد أن خيوط المؤامرة تمتد بلا ريب الى بلغراد وأن الجريمة خاتمة سلسلة الاعتداءات الصربية المرهقة التى يجب أن يقتص منها أخيراً بالقوة. وهكذا قرر، وهذا البرنامج المزدوج نصب عينيه، أن يبعث فى الحال الى برلين بالمذكرة المستفيضة المتعلقة بالسياسة السالفة الذكر مشفوعة بالحاشية التالية:

«كانت هذه المذكرة قد تمت ولما تكد يوم أن وقعت حوادث سيراجيفو المرعبة. ويكاد لا يكون اليوم فى مكنة أحد أن يقدر خطورة هذه الجريمة

النكراء. وهى بلا أدنى شك الدليل لمن يعوزه الدليل على أن الهوة الفاصلة بين المملكة وصربيا لا سبيل الى تخطيها أو أن طمع صربيا فى التوسع لا يقف فى شدته واستهتاره عند حد. وليس من سبيل الى نكران حسن النية عند النمسا والمجر أو أنه يعوزها الاستعداد لأن تكون علاقاتها بصربيا مما يحتمل، لكن الأحداث أثبتت أخيراً أن كافة هذه المجهودات ذهبت هباء، وان المملكة يجب أن تجعل بالها فى المستقبل الى عداوة صربيا اللدودة الخالية من الرحمة والبادية العدوان. وهذا كله من شأنه أن يحمل المملكة على أن تقطع بيد حازمة تلك الخيوط التى يحيكها أعداؤها شبكة فوق رأسها».

وأنشأ برشتولد كتاباً مبهماً ذا وجهين ليوقعه فرنسوا جوزيف ويرسله الى الأمبراطور غليوم وكان شطره الأكبر كالمذكرة المتعلقة بالسياسة وفقاً على برنامج تيزا السلمى لكن بدء الكتاب وختامه — كالحاشية الآنفة الذكر — كان يراد بهما أن يقنعا العاهلين الأمبراطوريين بمسئولية صربيا عن جريمة سيراجيفو وبذا يوضع الأساس الذى يمكن أن يقيم عليه برشتولد عمله الحربى، ومع ذلك فان العمل الحربى لم يرد له ذكر لأنه لم يشأ أن يزعج الأمبراطورين بادئ بدء دون موجب وفى صورة جافة. لكنه اذا وجد أنهما قبلا نظريته فيما يتعلق بمسئولية صربيا فقد يصبحا ميالين الى الموافقة على غزو صربيا عسكرياً، أو فيكون على كل حال فى وسعه أن يعود أدراجه الى برنامج تيزا السياسى.

محادثات بوتسدام فى ٥، ٦ يوليه

كان هذا الكتاب الملكى مصحوباً بمذكرة برشتولد التفصيلية وحاشيتها وقد أرسلا معاً الى برلين مع اسكندر هويوس سكرتير وزارة الخارجية وكاتم سر برشتولد، وحملهما الكونت تسيجيينى سفير النمسا الى الأمبراطور فى بوتسدام فى يوم الأحد ٥ يوليه. وإليك تقرير تسيجيينى عما وقع:

« بعد أن ابلغت الأمبراطور غليوم أن بيدى كتاباً خطياً أريد أن أسلمه إياه تلقيت دعوة جلالتى الأمبراطور والأمبراطورة لتناول طعام الغداء فى القصر الجديد. وقد سلمت جلالته الكتاب ومعه المذكرة فقرأها فى حضورى باهتمام زائد ثم اكد لى بادئ الرأى انه كان يتوقع عملا جدياً من جانبنا ضد صربيا لكنه قال انه يعترف فى الوقت نفسه بأن أقوال جلالة أمبراطورنا تزيد فى احتمال وقوع تعقيدات خطرة فى أوربا ، ولذلك فهو يرغب فى أن لا يجيب جواباً نهائيا قبل أن يستشير المستشار الأمبراطورى.

« وعقب الغداء خولنى جلالته لما عدت فأكدت له خطورة الحالة ان اكتب بأنه فى استطاعتنا فى هذا الصدد أن نعتمد على مساعدة ألمانيا التامة. على أنه يجب كما قال من قبل أن يسمع ما يقول المستشار الأمبراطورى وان كان لا يشك فى أن بيتمان هولفيج سيوافقه كل الموافقة. أما فيما يتعلق بأى عمل من جانبنا ضد صربيا فيرى ان مثل هذا الاجراء لا ينبغى ان يتأخر فان موقف الروسيا سيكون بلا ريب عدائياً وهذا أمر توقعه من سنوات وحتى لو «أفضى الأمر الى وقوع حرب بين النمسا والروسيا فيجب ان نعتقد ان ألمانيا ستقف إذ ذاك الى جانبنا بولائها المعتاد كحليفة . » قال والروسيا فوق ذلك وكما تدل الأحوال اليوم ليست مستعدة للحرب وستنعم الفكر طويلا قبل ان تلجأ الى السلاح . لكنها ستثير علينا دول الوفاق الثلاثى وتنفخ فى نار البلقان .

« وقال جلالته انه يفهم ان من الصعب على فرنسوا جوزيف ، لما عرف عنه من حب السلام ، ان يغزو صربيا . لكنه إذا قررنا ان من الضرورى اتخاذ اجراء عسكرى حيال صربيا فانه يؤسفه أن لا تنتهز اللحظة الراهنة لأنها فى مصلحتنا جداً

«أما فيما يتعلق برومانيا فسيعنى بأن يقف الملك كارول ومستشاروه موقفا لا غبار عليه . فهو لا يرحب بفكرة المحالفة مع بلغاريا إذ انه لم يثق يوماً

بالملك فرديناند ولا بمستشاريه السابقين او الحاليين ولا هو يثق به الآن .
على انه لن يعارض فى عقد محالفة بين النمسا وبلغاريا لكنه يجب ان يلاحظ
أن لا تحتوى المعاهدة شيئاً يسىء الى رومانيا كما يجب أن يبلغ فحواها الى
روما وفاقا لما جاء فى المذكرة .

« وينوى الامبراطور غليوم ان يبكر فى صباح الغد بالذهاب الى كيل ليبدأ
من هناك رحلته البحرية الى الشمال لكنه سيحادث المستشار قبل السفر
وقد دعاه من هوهنفينو لهذا الغرض وسيقابله مساء اليوم فى القصر
الجديد . وعلى كل فسأخلق مناسبة للتحدث الى المستشار فى أى وقت من
صباح الغد . »

كيف كانت عواطف الامبراطور غليوم وقت هذه المقابلة ؟ لقد صدمه
نبأ اغتيال فرانتس فرديناند وزوجه صدمة الميه وأثر تأثيراً عميقا فى نفسه
السريعة الانفعال بطبيعتها ، وهو الذى كان قد استقبل الغراندوق فى كونوبشت
ولما يكد . وفى يوم الأحد السابق بينما هو فى كيل على ظهر يخته عصر ذلك
اليوم لمح لنشاً صغيراً يشق عباب الماء بأقصى سرعته كما لو كان يسدد مقدمه
الى قلب اليخت فأشار اليه اشارة قاطعة بأن يتنحى لكن الأميرال ميللر الذى
كان يدير دفة اللنش بدل أن يفعل ذلك أشار الى اليخت بأن لديه شيئا يريد أن
يبلغه ورفع ساعده بقطعة من الورق ثناها بعد ذلك وأودعها علبة سكائر ثم
ألقى بها الى ظهر اليخت محاذراً فالتقطها بحار سلمها الى الامبراطور ففتحها
غليوم الثانى ولم يأت على ما فى الورقة حتى امتقع لونه إذ كانت تتضمن نبأ
حادث سيراجيفو المشئوم . وأصدر الامبراطور أوامره على الأثر بالرجوع
والعدول عن سباق الزوارق . وقد كان فى نيته أن يذهب الى فينا ليشترك فى
تشييع جنازة الغراندوق وليظهر احترامه للشيخ فرنسوا جوزيف فى أخرى
محنه ، لكنه لما نقل اليه أن اثنى عشر من الصربيين القتلة فى طريقهم من
بلغراد الى فينا ليغتالوه رضخ لمشورة مستشاره وعدل عن الزيارة . وقد

أعلن بصفة رسمية أن السبب فى تغيير الأمبراطور لعزمه يرجع الى الروماتزم وليس بالمرة الى اعتبارات تتعلق بسلامته الشخصية . بيد أن قراره الفجائى بعدم السفر إلى فينا لتأدية واجبه نحو صديقه الراحل أثار كافة أنواع الأقاويل المتناقضة والاشاعات الخيالية . ومن التسرع أن يحاول كاتب تحليل نفس الأمبراطور فى ٥ يوليه ١٩١٤ أو فى أى وقت آخر تحليلا سديداً . وقد زعم كارل كاوتسكى الزعيم الاشتراكى الألمانى انه كان على شىء من الجنون وقام هرمان لوتس ببحث دقيق فى هذا الصدد ليُرى أن الأمبراطور كان يعانى من أمد طويل ضيقاً جنونياً دورياً كان كل دور فيه يقع مع ايماءة من ايماءاته الخرقاء المنطوية على المشاغبة والتى ظل يزعج أوربا بهـا بلا انقطاع . وغيرهما من الكتاب الذين قرأوا خطب الأمبراطور أثناء الحرب بادية الانفعال وهو يتنقل فيها بين الابتهاج والتأثر إلى حد البكاء ، أو ما ألفه بعد الحرب كـ « Comparative Tables » ومذكراته، التى لافائدة فيها يرون فيه آراء مختلفة . فمنهم من يعده مخبولا خطراً ومنهم من يعتبره معتوهاً كبيراً أو أبله أنانياً . لكن هؤلاء ينسون أن الحكم على الزعماء ، حتى فى دول الوفاق، بما قالوه تحت تأثير الحرب أو الدعاية السياسية لايدل دلالة منصفة على آرائهم أو عقليتهم قبل الحرب . وهم ينسون حين قراءة ماهطلت به دورن ، ذلك التأثير الماحق الذى خلفته متاعب الحرب فى عقل قابل للانفعال والهياج. وليس لتقدير مواقف الامبراطور فى يوليه سنة ١٩١٤ خير من الهوامش التى كان يبعثرها على ما كان يقدم اليه من رسائل . فقد كانت هذه منه عادة انحدرت اليه من ناحية بسمرك فذهب يقلده فيها. وقد كان بسمرك يجد أنه مما يوفر عليه وقته أن يدل على رغباته بهذه الملاحظات التى كان يدونها على الهامش بدل أن يكتب أو يملى تعليمات طويلة . وكلا بسمرك وغليوم الثانى كانا يعتقدان أن هذه الملاحظات ستظل من الأسرار المحفوظة ، ولو تنبأ كلاهما بأنها

ستنشر على العالم عاجلا لبانت دهشتهما كبيرة . على أنه بينما كانت ملاحظات بسمرك عصارة تفكير عميق ويراد بها عادة أن تكون بمثابة تعليمات ، كانت هوامش الامبراطور فى الغالب مجرد معارضة للوثيقة التى أمامه تنطوى على الانفعال والتسرع . ويجب أن نذكر أن هذه الملاحظات متناقضة مبالغ فيها ولم يكن لها أى نفوذ أو تأثير فى سير الحوادث من الوجهة الفعلية لأنها كانت تدون متأخرة عدة أيام على أوراق كانت وزارة الخارجية قد اتخذت فى شأنها قراراتها بالفعل . ومع كل فأنها تدل بعض الشىء على اتجاه ذهنه والتأثير الحاسم الذى كان لمقتل صديقه عليه .

كان الامبراطور غليوم قبل حادث سيراجيفو ميالا الى الظن بأن النمسا كانت تهيج من ناحية صربيا بلا ضرورة أو داع وأنه ينبغى أن تحاول الوصول معها الى تفاهم حتى كائناً ما كان . وفى ربيع ١٩١٤ لما أزعجت النمسا تلك الاشاعات التى راجت بأن صربيا قد يدفعها تحريض الروسيا الى الاتحاد مع الجبل الاسود بأية صورة ، كان الامبراطور على مابدا منه ، فى جانب صربيا أكثر مما كان فى جانب النمسا . وقد اعتبر المجهودات التى بذلتها النمسا أثناء حرب البلقان لمنع صربيا من أن يكون لها منفذ على بحر الأدرياتيك عملا أخرق ، كما اعتبر مجهودها الجديد فى سبيل منع صربيا من الوصول الى الادرياتيك بالاتحاد مع الجبل الاسود « غير معقول » قال : « ويجب قطعاً أن لا يمنع هذا الاتحاد ، فاذا حاولت فينا هذا المنع ارتكبت جهالة شنيعة وأثارت خطر الحرب مع السلافيين وفى هذه الحالة لن نحرك ساكناً » . كان يوافق تيزا الذى كان يسلم بهذا الاتحاد باعتبار أنه قريب الوقوع أكثر من موافقته لبرشتولد وفرنسوا جوزيف اللذين كانا يعتبرانه مما لا يمكن قبوله . وقد أبرق من كورفو الى بيتمان هولفيج فى ٥ ابريل يقول :

« ان من اللازم قطعاً أن يواجه أولئك الذين هم فى فينا احتمال اتحاد صربيا بالجبل الأسود بجد وأن يعرفوا جليا هل يقفون مهما كانت

الظروف فى الموقف الذى يراه الامبراطور والكونت برشتولد أو ينحازون إلى آراء تيزا . والأول ممكن فقط إذا كانوا مصممين تصميما قاطعا على منع الاتحاد بقوة السلاح . وعلى كل فيجب ان لا تعرض النمسا هيبتها للخطر وتعلن على الملأ أموراً غير مقبولة تسمح بها فى النهاية . أما اذا وافقوا على آراء تيزا المعقولة فستكون السياسة النمسوية قادرة دون جهد آخر على ان توطن نفسها على الأحوال المتغيرة وفى الاتجاه الذى ندعو اليه من سنين . يجب ان يكون هناك ميثاق سلام مع المملكة الثنائية يجذب صربيا . »

فبينما كان الأمبراطور الألمانى الى ذلك الحين ميالا على وجه عام الى حماية صربيا من مطالب النمسا الخطرة المجحفة ومؤملا فى تسوية سلمية لمتاعبهما ، اذا به الآن بعد أن قتل واحد من خيرة أصدقائه كان يزوره قبل هنيهة بيد قتلة قد سلم بأنهم أتوا من بلغراد تثور ثائرته على الصربيين ويصب عليهم جام غضبه . وقد وصفتهم ملاحظاته التى هى على الهامش بأنهم « قتلة » « ومغتالون » و « قطاع طرق » . وقد شعر فى اخلاص أن الملكية فى خطر وأن الروح الذى حدا بهم الى قتل ملكهم وملكتهم فى سنة ١٩٠٣ لا يزال يسود البلاد ، وأن جميع الملوك ونيقولا الثانى فى مقدمتهم ينبغى أن يؤيدوا النمسا بدل أن يعارضوها فى أى عمل يمكن أن تتخذه لقمع التهييج المنطوى على الاستهتار الذى كان قائما منذ سنين بين الصربيين والذى يهدد كيان الحليف النمسوى كما أبلغه برشتولد الآن ، وقد ذهب صديقه هو فريسة له . لذلك لما قرأ أن تشيرشكى سفيره فى فينا كان ينتهز كل فرصة لتحذير برشتولد فى هدوء ولكن فى حزم وجد من اتخاذ أية اجراءات تنطوى على التسرع لاحظ على الهامش كما أسلفنا القول فى الفصل السابق . « الآن أو أبداً ! من ذا الذى خوله أن يفعل هذا ؟ ان هذا لهو الخرق بعينه ! ليس من شأنه بل من شأن النمسا المحض أن تنظر ماذا تعمل فى هذا الصدد لأنه سوف يقال فيما بعد إذا جرت الأمور على غير ما يرام إن ألمانيا لم تكن راغبة !! أرجو

أن تسوى الأمور مع الصربيين . وليكن هذا عاجلا . وهذا جلي وبديهي ! »
وهكذا كان يريد باندفاعه الطبيعي أن تقدم النمسا على عمل حيال الصرب
بأسرع ما يستطاع والعالم المتمدين لا يزال بأسره يعطف عليها تحت تأثير
الجريمة الفظيعة ووقعها الشديد . ولم يكن الأمبراطور يعلم فى ٥ يوليه بالضبط
ما هو العمل الذى يجب أن تقدم عليه النمسا ، ولم يكن يهمه أن ينصح به . لكنه
لا هو ولا بيتمان هولفيج كانا يظنان أن النزاع النمسوى الصربى قد يؤدى الى
حرب أوربية . ولذا أمكنه أن يسافر فى أمان إلى نزهته البحرية فى صباح
اليوم التالى كما كان مقرراً من زمن طويل وكما نصح له بيتمان . وما كان خليقاً
أن يفعل هذا لو أنه ظن أن العمل الذى أراد أن تقدم عليه النمسا فى الحال
أن لا تبطىء فيه أكثر من أسبوعين ، سيؤدى على الراجح الى حرب أوربية .
ومما له مغزى هو أنه لما سمع بنوع البلاغ النهائى الذى قدمه برشتولد الى صربيا
عجل بالعودة إلى برلين . وتنسب اليه أسطورة « مجلس بوتسدام » انه بارح
ميدان العمل ليخدر أعصاب أوربا فى صورة مكيفاليه من ناحية أمنها قبل أن
يباغت فرنسا والروسيا بالهجوم . لكن مثل هذا الرأى قد وصفه غليوم نفسه
فى ذلك الحين بأنه « عبث أطفال » وذلك فى هامش رسالة وصلت اليه من فينا
تقول ان هذا هو عين مافعله رئيس هيئة أركان الحرب ووزير الحربية النمسويان
فضلا عن أن الأمبراطور لم يكن من أولئك الذين كان يمكن أن يغادروا
برلين لو انه توقع تعقد الموقف الأوربى بصفة جدية . وعدوله عن رحلة
الشمال التى كان قد اعتاد القيام بها فى ذلك الفصل منذ سنين والتى كان قد
أعلن عنها فى الصحف من زمان طويل ، كان خليقاً ان يكون هو الذى يثير
فى الخارج القلق ويتيح للعسكريين فى كل مكان فرصة العمل . لذلك
قرر الامبراطور ان ينفذ ترتيباته التى كان قد رتبها على الرغم من حادث
سيراجيفو كما قرر بالضبط بوانكاريه أن ينفذ ما كان قد قرره من قبل من
القيام برحلته الى الروسيا .

ومع ذلك فقد أدرك الأمبراطور أن عمل النمسا قد يشعل حرباً اوربية وان كان لم يرجح هذا . وكان من المحتمل على كل حال أن يثير عمل النمسا فى غيبته اشاعات الحرب ولذا رأى من الحكمة ان يحيط فى هدوء بعض ممثلى الجيش والبحرية الذين اتفق وجودهم فى برلين بما جرى له من حديث مع تسجيني كما أحاط به بيتمان أيضاً .

وهكذا قابل الأمبراطور هؤلاء بعد ظهر الأحد أو فى صبيحة الاثنين قبل أن يستقل السيارة من بوتسدام الى كيل فى الساعة التاسعة والدقيقة ١٥ من صباح يوم ٦ يوليه . فأحاط كلا منهم بحديثه مع السفير النمسوى وكلفهم أن يبلغوه بصفة خاصة رؤساءهم الغائبين بالاجازة . ثم أضاف إلى ذلك قوله انه لا حاجة بهم الى الغاء أجازاتهم والعودة الى برلين او الى اتخاذ استعدادات عسكرية لأنه لا يتوقع أى تعقد جدى يفضى الى حرب . كذلك خاطب الأمبراطور عصر الأحد وزير حربية بروسيا فالكنهاين تليفونياً ليعود الى بوتسدام . ولما وصل استقبله وتلا عليه الرسالة المقدمة من تسيجيني مرتئياً امكان حدوث تعقدات خطيرة . ولما سأله فالكنهاين هل ينبغى أن تتخذ أية استعدادات حربية أجابه الأمبراطور سلباً وانتهت تلك المقابلة القصيرة . ولم يكن حاضراً سوى بلسن ولينكر السكرتيرين العسكريين اللذين كانا يلازمان الأمبراطور بانتظام . ولم يعط فالكنهاين أوامر باستعدادات حربية فى ذلك الحين نزولا على إرادة الامبراطور حتى ولا بعد أن قدم البلاغ النمسوى النهائى الى صربيا . بل انه على النقيض من ذلك بارح برلين فى ٨ يوليه فى زيارة رسمية ثم التحق بأسرته حيث كانت تقضى معه العطلة على شاطىء البحر ولم يعد الى برلين الا فى ٢٥ يوليه غداة اليوم الذى نشر فيه الانذار النهائى فى الصحف .

وقد يلاحظ ان هذه البيانات التى لم تقدم الا فى سنة١٩١٩ عن حوادث وقعت فى سنة ١٩١٤ مما يصح أن يطعن فيه ، لكنها مؤيدة بخطاب جدير

بالذكر كتبه فالكنهاين الى مولتكه على أثر حديثه مع الأمبراطور . ولما كان هذا الخطاب رسالة خاصة من ضابط عظيم فى الجيش الى ضابط عظيم آخر فانه يستحق أن يقتبس بحذافيره لأنه يروى بالضبط ما قاله الأمبراطور فى ٥ يوليه وماكان يفكر فيه :

« استدعانى صاحب الجلالة عصر اليوم الى القصر الجديد ليبلغنى أن النمسا والمجر فيما يلوح مصممة على أن لا تطيق الدسائس التى تدبر ضدها فى البلقان أكثر مما أطاقت وعلى أن تغزو صربيا عاجلا إذا تبينت ضرورة ذلك ، وانها لا تميل إلى التساهل حتى ولو لم توافق الروسيا على عملها .

« ويعتقد جلالته ان هذا هو الرأى الذى أمكن أن يكونه مما تحدث به اليه سفير النمسا حين سلمه ظهر اليوم مذكرة من الحكومة النمسوية وكتاباً من الأمبراطور فرنسوا جوزيف .

« وأنا لم أسمع حديثهما ولا يسعنى لذلك أن أحكم عليه بشىء . وقد قرأ لى جلالته الكتاب والمذكرة فلم يقع فى نفسى منهما ، بقدر ما أمكن لى أن أكوّن رأياً أثناء تلاوتهما السريعة ، ولم أقتنع أن حكومة فينا قد صممت تصميما ثابتاً . فكلتا الوثيقتين تعطيان صورة مظلمة لحالة المملكة الثنائية العامة المرتبة على دسائس الجامعة السلافيـة . وكلتاهما تريان من الضرورى أن يفعل شىء بأسرع ما يمكن لوقف هذه الدسائس . لكن كلتيهما لم تذكرا شيئاً عن عمل حربى ، ويغلب ان يكون الأمر إجراءات سياسية « حازمة » تلوح بينة كعقد معاهدة مع بلغاريا يريدون ان يضمنوا تأييد الأمبراطورية الألمانية لها .

« وسيوعدون بهذا التأييد مع بيان ان اتخاذ النمسا الاجراءات اللازمة لصيانة مصالحها من الشئون التى تخصها وحدها أصلا ، ولا يعتقد المستشار الأمبراطورى الذى قدم ايضاً إلى بوتسدام أكثر مما اعتقد أن الحكومة النمسوية ، وان كانت أكثر تصميما مما سبق لها ، ليست جادة فى حديثها . وعلى

الأقل فانه لم يسكت عن سفر الامبراطور الى رحلته الشمالية فقط بل نصح له بها . وسيمر زمن طويل قبل ان توقع المعاهدة مع بلغاريا ولذا تكاد لا تكون هنالك ضرورة لازعاج سعادتكم فى مقامكم فى الحمامات . وعلى أنه لم يكلفنى أحد بابلاغكم ما تقدم فقد رأيت من الصواب ان أحيطكم علماً بضغط الحالة حتى لا تأخذكم الحوادث المباغتة التى قد تقع دائماً فى النهاية على غرة

. . . .

فون فالكنهاين

ويرى هنا ان خطاب فالكنهاين يختلف فى نغمته كل الاختلاف عن تقرير تسيجينى الذى رفعه عن حديث الغداء وأسلفنا بيانه . فان فالكنهاين لم يتوقع مطلقاً أى خطر عاجل على سلام اوربا لا ولا ان الحكومة النمسوية كانت جادة فى حديثها وان كانت اكثر تصميما من ذى قبل . وكل الذى وقع من نفسه هو ان النقطة الأساسية فى رسائل برشتولد الغامضة هو العمل الديبلوماتيكى لكسب بلغاريا وحتى هذا كان يتوقع ان يستغرق زماناً طويلا .

وكما قال الأمبراطور لتسجيينى بحق انه لا يسعه ان يعطيه جواباً نهائياً قبل ان يستشير مستشاره ، استدعى بيتمان هولفيج الى بوتسدام عصر ذلك اليوم . وقد ذهب مع تسيمرمان الذى كان قائماً بأعمال وزير الخارجية اثناء غيبة فون ياجو لقضاء شهر العسل فى سويسره . وقد أبلغ بيتمان تسجيينى فى برلين نتيجة هذا الاجتماع او بعبارة اخرى قرار ألمانيا الرسمى . ثم أحاط به سفير ألمانيا فى فينا فى البرقية التالية :

« لقد سلم سفير النمسا والمجر أمس الى صاحب الجلالة كتاباً خاصاً من الأمبراطور فرنسوا جوزيف يصف الحالة الحاضرة من وجهة نظر النمسا والمجر ويسرد الاجراءات التى ارتأتها فينا ، وفى طيه صورة منها .

« وقد رددت اليوم على الكونت تسجيينى شاكراً إياه على كتاب فرنسوا

جوزيف الذى سيرد عليه الأمبراطور قريباً بشخصه . وفى هذه الاثناء يرغب جلالته فى أن يؤكد أنه غير غافل عن الخطر الذى يهدد النمسا والمحالفة الثلاثية بالتالى ، من ناحية حملة التهييج التى تقوم بها الروسيا و يقوم بها أنصار الجامعة السلافية . ومع أن جلالته كما هو معروف لا يثق كثيراً ببلغاريا وحاكمها وأنه بطبيعة الحال أكثر ميلا الى رومانيا حليفته القديمة والى ملكها المنتمى الى أسرة هوهنزلرن ، فأنه يفهم أن الأمبراطور فرنسوا جوزيف يحب أن يضم بلغاريا الى المحالفة الثلاثية نظراً لموقف رومانيا وللخطر الناشىء من تأليف عصبة بلقانية جديدة موجهة مباشرة ضد مملكة الطونه . لذلك سيكلف جلالته وزيره المفوض فى صوفيا بتقديم يد المعونة الى ممثل النمسا فى هذا الصدد اذا طلب اليه ذلك . كذلك سيبذل جلالته المساعى لدى بوخارست كما ارتأى فرنسوا جوزيف لحمل الملك كارول على تأدية واجباته كحليف وعلى إطراح صربيا وقمع حملة التهييج الموجهة ضد النمسا والمجر .

« أما فيما يتعلق بصربيا فجلالته بطبيعة الحال لا يسعه أن يتخذ أى موقف فى المسائل القائمة بينها وبين النمسا لأنها ليست من اختصاصه ولكنه يسع فرنسوا جوزيف أن يطمئن الى أن جلالته وفاقا لارتباطه بالمعاهدة ولصداقته القديمة ، سيقف مخلصاً الى جانب النمسا . »

وقد أرسل تسجيبنى برقية ثانية الى برشتولد عقب حديث جرى له مع بيتمان فى صباح يوم ٦ يوليه وحضره هويوس وتسيمرمان . وكان الشطر الاول من هذه البرقية بمثابة ترديد ما أبرق به بيتمان الى تشيرشكى فى جوهره باعتباره القرار الذى اتخذته المانيا عما يبذل فى صوفيا و بوخارست من مسعى سياسى جديد . وأما عن صربيا فقد ذكر تسجيبنى أن « على النمسا أن تقرر ما تفعله لتسوية علاقاتها مع صربيا . لكنه كائنا ما كان قرارها فلها ان تعتمد وملؤها الثقة على ان المانيا ستقف الى جانبها حليفة وصديقة . »

ثم مضى تسجيبنى يورد تأكيدات أخرى لا أثر لها فى خطاب فالكنهاين

أو فى برقيات بيتمان الخاصة بموقف ألمانيا فى ٥ و ٦ يوليه فقال :

« لقد تأكدت فى خلال حديث آخر ان المستشار يرى رأى الأمبراطور فى أنه خير للنمسا ان تعجل بمحاسبة صربيا . . . ويوافق كل الموافقة على أن لا نطلع ايطاليا أو رومانيا مقدماً على ما يستقر الرأى عليه ضد صربيا . »

ومن السهل أن نرى لماذا زعم تسجيبنى أن بيتمان هولفيج كان متفقاً معه تمام الاتفاق على أن لا تحيط النمسا ايطاليا مقدماً بأى عمل ضد صربيا . فهو كأغلب الموظفين النمسويين كان يريد الحرب إذ ذاك مع صربيا فكان أن شجع هذا القول برشتولد على عدم إشعار ايطاليا مقدما بما يحدث خشية أن تفضح روما التدبير فى بلغراد أو على الأقل أن تطلب ايطاليا على سبيل التعويض شيئاً من الأراضى لا تنتوى النمسا نزولا عنه . لكن هذه السياسة ، سياسة خديعة ايطاليا أو تأخير إحاطتها كانت من المناقضة التامة لموقف ألمانيا قبل ٥ يوليه وبعده بحيث تحملنا على الطعن فى صحة تأكيد السفير النمسوى ، فقد كان كل سعى ألمانيا فى السنوات الأخيرة هو أن تحمل ايطاليا على البقاء موالية وأن تكبح النمسا عن عمل أشياء فى البلقان تسىء اليها بلا موجب وتجعل من المحتمل أن تتملص تماماً من ارتباطات المحالفة الثلاثيه . وقد أعرب تشيرشكى لبرشتولد فى ٣ يوليه عن موقف ألمانيا الثابت بتذكيره « بأيطاليا التى ينبغى بالنظر الى علاقاتها كحليفة أن تستشار فى أى اجراء عسكرى قبل اتخاذه » وقد رد عليه برشتولد بقوله : « إننا لو طرحنا هذه المسألة على الوزارة فى رومه لكان من الراجح أن يطالب الايطاليون بفالونا تعويضاً لهم ونحن لا يسعنا أن نسلم بهذا » .

كذلك بعد هذا التاريخ بقليل ، فى ١٥ يوليه ، ردد ياجو بيان تشيرشكى وهو أن النمسا ينبغى أن تبلغ ايطاليا مقدماً فقال : انه من الأهمية فى رأيى بأعظم مكان أن تتفاهم النمسا مع وزارة رومه على أغراضها التى تتوخاها فى حالة الحرب مع صربيا وأن تكسب جانبها أو تبقيها على الحياد الدقيق (ما دام أن الحرب

مع صربيا وحدها لا توجد Casus foederis) . وإن لايطاليا الحق وفاقا لاتفاقاتها مع النمسا أن تطالب بتعويض فى حالة حدوث أى تغيير فى البلقان لمصلحة المملكة الثنائية . » وبذا كان تأكيد تسيجيبنى بأن بيتمان وافقه على أنه لا ينبغى أن تبلغ ايطاليا مقدماً أى عمل يمكن أن يستقر عليه الرأى ضد صربيا مناقضاً لطبيعة السياسة الألمانية كلها . بل إنه ليلوح أن هذا التأكيد تناقضه نفس أقوال تسيجيبنى فى ختام رسالته إذ يقول إن بيتمان « حذرنا بكل قوة من أية تدابير يمكن أن تعرض علاقاتنا بايطاليا للخطر . » وليس ثمة ماهو أكثر احتمالا لأن يؤدى الى هذا من مواجهة ايطاليا بالأمر الواقع الذى لم تبلغها عنه حليفتها شيئاً ، وهذا ما أثبتته الحوادث . ويلوح مع ذلك أن هويوس أفصح فى خلال حديث طائش مع تسيمرمان عن نية برشتولد وحرصه على أن يخفى عن إيطاليا ما يضمر ، والظاهر انه حصل على موافقة تسيمرمان وأبلغها فينا بعد ذلك . لكن المشكوك فيه هو أن الأمبراطور أو بيتمان أبدى موافقة كهذه . وإذا كان هذا هكذا وكان تسيجيبنى قد نسب إلى بيتمان تساهلا لم يصدر الا من تسيمرمان فان هذا ليكونن مثالا لما لم ينقله تسيجيبنى بالضبط عاملا بذلك على تشجيع النمسا فى سياستها الطائشة .

استنتاجات عن موقف ألمانيا فى ٥ و ٦ يوليه

إن المقابلة بين روايتى بيتمان وتسجيبنى عن موقف ألمانيا خليقة أن تدلنا على ما بينهما من خلاف فى المبنى والروح . فان بيتمان يوجه أربعة أخماس اهتمامه إلى ما دخل على السياسة الألمانية من مشروع النمسا الديبلوماتيكى المتعلق بكسب بلغاريا إلى جانب المحالفة الثلاثية . أما العلاقات النمسوية الصربية فلم يمسها إلا موجزاً وفى ختام برقيته وذلك فقط ليردد مبدءً كان هو وكيدرلن قد صرحا به بمناسبة أزمة من أزمات الحروب البلقانية وهو

أن ألمانيا ستظل تعمل لحليفة موالية ولكنها يجب ان تترك للنمسا تقرير ما تراه لازماً لمصالحها الحيوية . أما تسجيبنى فكان على الأكثر مهتماً بمشروع برشتولد العسكرى ضد صربيا وقد أحاطه الكونت هويوس علماً به . وبرقياته تصور الامبراطور وبيتمان كما لو كانا يعتقدان أن « لجوء النمسا الى عمل عاجل ضد صربيا هو خير حل جوهرى . » وان الوقت الحاضر هو أنسب لذلك من أى وقت مقبل . وهو يقول إن بيتمان على اتفاق تام فى أن لا تحاط ايطاليا أو رومانيا مقدماً .

فبماذا نفسر هذا التباين فى الروايتين ؟ الراجح أن تفسير ذلك هو إلى حد ما وكما يرتأى جوس أن تسجيينى كان يعانى الشيخوخة ولم يكن دائماً يدرك الأحاديث تماماً ويرويها بالدقة . وقد كان عدم كفايته سبباً لشىء من الخلاف السياسى بين برلين وفينا فى أثناء الحروب البلقانية . لقد كان من المقربين الى الأمبراطور غليوم لكنه كان أيضاً يختلف الى المحافل العسكرية فى برلين ، وهذه لم تكن أفكارها مما يتفق وآراء بيتمان التى كانت أكثر اعتدالا وحيطة . وقد كان فرانتس فرديناند قبل أن تقع مأساة سيراجيفو بعدة أسابيع قد أثار بالنظر الى تقدم تسجيينى فى السن مسألة إحلال معتمد سياسى محله يكون أجدر منه . ولعله من بين الاسباب التى حملته على هذا ميل تسيجيينى الى المشاغبة وعطفه على المجر . وكان خلفه وهو البرنس جوتفريد هوهنلوهه قد اختير فعلا وصدقت برلين على اختياره فى ١٢ يونيه . لكن هذا التغيير لم يقع لسوء الحظ الا فى ١٩ اغسطس ١٩١٤ نظراً لتطور أزمة يوليه ذلك التطور الفجائى . والظاهر ان تسيجيينى قد بالغ فيما يتعلق بالأحاديث التى دارت فى بوتسدام فى تأكيد مصادقة المانيا على الشطر الاخير من نداء برشتولد وهو الجزء الذى جاء بيانه مبهماً .

ومن الراجح أيضاً أن بعض السبب فى هذا الخلاف يرجع الى تباين طفيف فى موقف كل من بيتمان والامبراطور وتسيمرمان . فأن بيتمان لكونه

بطبيعته ، أكثر تفاؤلا وطلباً للكمال كان يرغب فى أن تكون العلاقات بانجلتره والوفاق الثلاثى خيرا مما كانت ، فكان يأمل أن تكفى الخطة الديبلوماتيكية السليمة التى كانت ترمى الى كسب بلغاريا لعلاج الأزمة النمسوية الصربية ، يشجعه على ذلك ما كان إذ ذاك من أمر معاهدتى بغداد ومستعمرات البورتغال اللتين كانتا معدتين للتوقيع نهائياً . أما موت الغراندوق فكان أقل تأثيراً فى عواطفه ؛ وقد أزعجه برشتولد فى قبل ذاك بمسلكه الذى لم يبال فيه بعداوة إيطاليا فيما يتعلق بالجبل الأسود وبذا عرض بناء المحالفة الثلاثية للخطر ، وكانت زعزعته إذ ذاك فى إزدياد . وقد كتب بيتمان قبل ذلك ببضعة أسابيع يقول « إن فينا قد أخذت فى التخلص منا فى شيء من العنف وفى رأيى أنها فى حاجة الى أن يكبح جماحها قبل أن يفوت الأوان . » وهذا ما حدا به الى أن يرسل الى برشتولد تحذيراً قوياً .. والآن وقد وقعت حادثة سيراجيفو لم يشأ أن يشجع برشتولد على مغامرات رعناء أخرى . وعلى أنه اضطر إلى موافقة الامبراطور على أن ألمانيا يجب أن تعد بتأييد النمسا فقد شطب كلمة « فى كل الظروف » من البرقية التى وضعها تسيمرمان .

أما الامبراطور ، وكان يفوق بيتمان بصراً بالأمور وثقوب فكر ، مع علم بالمسألة البلقانية ومعرفة أوسع من معرفته . هذا الى ما كان بينه وبين فرنتس فرديناند وفرنسوا جوزيف من روابط شخصية وثيقة ، فقد كان مع ذلك أقل من بيتمان ضبطا للنفس ودونه تقديراً للعواقب السياسية التى تترتب على أعماله فأعرب عن مشاعره بقوله على الهامش « الآن أو أبداً » الخ ما هنالك مما أوردناه . فقد كان ميالا الى الموافقة على خطة النمسا فى كسب بلغاريا وان كان هذا لم يكن يتفق وسياسته الماضية وعدم ثقته شخصياً بالملك فرديناند . كان أكثر تأثراً بالشطر الأخير من مذكرة برشتولد وخطاب فرنسوا جوزيف اللذين كانا يبينان ضرورة العمل الحازم للقضاء على خطر صربيا الكبرى . وقد نصح للنمسا بسرعة العمل وعطف أوربا لا يزال نحوها لأنه كان قد رأى

ترددها فى الماضى وتذبذبها هنا وهنا . لكنه كما دل فالكنهاين فى خطابه الى مولتكه كان يشك فى هل يخطو برشتولد حقيقة خطوات سريعة حاسمة .

وكان تسيمرمان الذى ناب فى الوزارة عن ياجو لحين عودته الى برلين بعد أحاديث ٥ و ٦ يوليه ، يشاطر بيتمان بادىء الأمر آراءه الحذرة فأنه عقب سيراجيفو مباشرة أوصى تسيجينى بالمبالغة فى الحذر ونصح لصربيا « بمحاسبة المذنبين » وحض سفراء دول الوفاق على تأييد هذه النصيحة المناسبة تفادياً من عواقب خطرة . لكنه فى ٤ يوليه تلقت وزارة الخارجية ملاحظة الأمبراطور الهامشية بالعمل « الآن أو أبدا الخ » فجعل تسيمرمان من ذلك الحين يسترشد بها . وظاهر أنه لم يبد أية اعتراضات عند ما أفضى اليه هويوس « بأن النمسا تنوى تقسيم صربيا تقسيما كاملا » . وقد تحاشى برشتولد أن يذكر شيئاً من هذا فى الرسالتين اللتين بلغهما تسيجينى للأمبراطور فلما عاد هويوس الى فيناوروى ما قاله لتسيمرمان عن تقسيم صربيا أنكرت ملاحظاته فى الحال وبُعث « أن برشتولد وتيزا خاصة يريدان أن يؤكدا بصريح العبارة أن هويوس انما كان يعرب عن رأيه الشخصى فقط . »

هذه هى آراء كبار موظفى برلين الثلاثة فى الوقت الذى كان على ألمانيا فيه أن تصدر قرارها فى ٥ و ٦ يوليه . ومن الخطأ أن يبالغ فى تقدير هذا التباين بين مواقفهم ، لكن سرد هذه الآراء مما يعين على توضيح الطريقة التى أطلقت بها برلين لفينا حرية العمل ، والطريقة التى فسرت بها فينا هذا الأطلاق واستخدمته . فقد كان الأمبراطور غائباً فى خلال الأيام التالية فى رحلته البحرية الى الشمال وبيتمان فى مزارعه فى هوهنفينو . وهوامر كان من شأنه ان لم يجعل لهما تأثيرا كبيراً على مجرى الأحوال فقد تركت وزارة الخارجية فى عهدة تسيمرمان ثم تسلمها ياجو الذى عاد الى برلين واستأنف اعمال وظيفته كوزير على اثر سفر هويوس فى ٦ يوليه . ومع ان ياجو كان متفقا فى الرأى مع تسيمرمان بصفة عامة فقد جعل على اثر عودته يتخذ موقفا

اكثر انطواء على الحذر ، فأسدى لفينا نصيحة حسنة لم يأبه بها برشتولد . فأنه لـكى يهتدى الى الغرض التى تسعى اليه النمسا والهدف الذى ترمى اليه الخطة النمسوية اخذ يقدم النصح ويوجه أسئلة لم يجب عنها برشتولد إجابة كاملة صريحة .

هكذا اتخذ الأمبراطور ونصحاؤه قرارهم متـأثرين بمقتل سيراجيفو ومطالبين من برشتولد بالمساعدة والتأييد . وقد اتفقوا على ان يسلكوا نحو بلغاريا سياسة جديدة ، وفيما يتعلق بصربيا أبانوا على قول تسيجيينى : « ان على النمسا ان تقدر ماهى فاعلة لتسوية علاقاتها بصربيا . وكائنا ماكان القرار الذى تتخذه النمسا ففى استطاعة النمسا ان تعتمد وملؤها الثقة على ان المانيا ستشد أزرها كحليفة وصديقة». لقدأطلقوا للنمسا حرية العمل فارتـكبوا غلطة شنيعة إذ نقلوا السيطرة على الموقف من أيديهم الى يد رجل متهور لا يبالى كبرشتولد ، وغامروا بأنفسهم فى عمل لا يعلمون نتيجته فلم يلبثوا أن ألفوا أنفسهم متورطين فى افعال لا يقرونها ، كما سوف ترى ، وفى قرارات اتخذت خلافا لما نصحوا به . ولم يكن يسعهم ان يعارضوا او يحتجوا فى صورة جدية إلا فى اللحظة الأخـيرة وبعد فوات الأوان . ذلك أنهم وعدوا النمسا مقدماً بأن يؤيدوها، وأى تردد من نحوهم كان خليقا أن يفضى الى إضعاف المحالفة الثلاثية فى لحظة عصيبة هى أحوج ما تـكون فيها إلى القوة لا الى الضعف . ولم يكن الأمبراطور ونصحاؤه فى ٥ و ٦ يوليه مجرمين يدبرون الحرب العالمية وانما كانوا بلهاء يضعون « الخيّـة » حول رقابهم ويسلمون الطرف الآخر من الحبل الى مغامر غبى غليظ الطبع أحس الآن أنه حر فى الذهاب الى الحد الذى يريد . فهم بعملهم هذا كانوا يتحملون تبعة خطيرة عما حدث فيما بعد .

مجهودات برشتولد لتحويل تيزا

بعد أن علم برشتولد من تسيجيينى أن ألمانيا وافقت على الشطر الثانى من ندائه ذى الوجهين. ومعنى ذلك أن ألمانيا ستقف ثابتة كحليفة فى كل ما يمكن النمسا أن تقرره ضد صربيا، لم يعد يزعم أنه يدافع عن الشطر الأول وهو برنامج تيزا السلمى. لأنه بات الآن وقد تغلب على نصف متاعبه، واصبح لايعوزه إلا اقناع أمبراطوره الشيخ وتيزا ليوافقا على استئصال الخطر الصربى الذى طالما حض على استئصاله كونراد، والذى كان قد اعتزمه هو نفسه نهائياً. فكيف العمل؟

إن سياسة تيزا politique de longue main لكسب بلغاريا وضمان السلام فى البلقان بضع سنين على الأقل قد اتخذها برشتولد وجعل منها قاعدة مذكرته التى بعث بها الى برلين الى اليوم الذى جاءت فيه أنباء سيراجيفو فجعلته ينقلب فجأة الى برنامج كونراد الحربى. وتيزا مع ذلك ليس بالرجل الذى يسمح لآرائه الناضجة بأن تقلب فى لحظة رأساً على عقب حتى ولو بجريمة كجريمة سيراجيفو. فقد أبلغ برشتولد فى صراحة أن إثارة حرب كهذه مع صربيا لتكونن « غلطة مشئومة »، ولتصمن النمسويين « أمام العالم أجمع بأنهم عكروا السلام فضلا عن بدئهم حربا عظمى فى أسوء الظروف » لكنه فيما يلوح لم يؤثر على برشتولد كثيرا. كذلك أنهى تيزا الى فرانسوا جوزيف خطط برشتولد المنطوية على التهور وحذره منها. ولما عاد تيزا الى بودابست أضاف برشتولد حاشيته للمذكرة الموجهة الى برلين منحياً على صربيا، ووضع الرسالة الملكية الموجهة من فرانسوا جوزيف الى الأمبراطور غليوم وكانت كالمذكرة تسرد برنامج تيزا السلمى لكنها فى الختام ألمعت كذلك الى عمل أحزم حيال صربيا « فان السلم لن تستقر إلا اذا تخلصنا من صربيا كعامل سياسى فى البلقان، فانه بعد الحوادث المرعبة التى وقعت فى البوسنه ستقتنع أنت أيضاً بأنه لا سبيل الى التفكير بعد الآن فى أية

تسوية حبية للخصومة التى تفرق بين النمسا وصربيا ، وان السياسة السلبية التى يجرى عليها جميع ملوك اوربا ستظل مهددة ما دام هذا المصدر للتهييج الأجرامى فى بلغراد قائما بلا عقاب » .

ولم يكن يسع برشتولد أن يبعث رسالة هامة كهذه فى شئون السياسة الخارجية وفاقا للأصول وللدستور دون أن يبلغ رئيس وزارة المجر فحواها وهى التى كانت ترتئى تحوير ما كان قد تم الاتفاق عليه . لذلك أرسل منها صورة الى تيزا ، لكن تيزا بعد تلاوتها لم ترقه مطلقا فقد خشى ان تنفر برلين من التصديق على البرنامج الديبلوماتيكى السلبى وحزر حقيقة الامر وهى أن برشتولد كان يعمل على الظفر بتأييد المانيا لعمله الحربى ضـــد صربيا لا « لسياسة بعد النظر » التىسبق الاتفاق عليها ، فأبرق فى الحال الى برشتولد يطلب حذف العبارات المنوه عنها آنفا. لكنه فى الوقت الذى كان يرسل فيه هذه البرقية كان تسيجيني يسلم النص غير المعدل الى الأمبراطور غليوم فى بوتسدام . فأن برشتولد كان قد بعث بالخطاب دون ان ينتظر رد تيزا لاجئا بذلك الى مسلك غير محمود سيسلكه فيما بعد بنفس الصورة ولكن فى أمور أعظم من هذا شأنا بكثير ، وذلك المسلك هو الاستفادة من الامر الواقع . فهو لكراهته للبحث بطبيعة تراخيه وجهله بالتفاصيل واعتماده من جراء ذلك على كتبة سره فى استقاء الاخبار ، كان على الدوام يرى انه أسهل عليه ان يتخذ الاجراء أولاً ويتجنب البحث فيه والجدل حوله حتى تمر اللحظة التى يصبح فيها العدول عنه غير ممكن بصورة مقبولة وعندئذ يكون الجدال فيه نوعا من العبث. وخير أداة لزحزحة تيزا عن موقفه الثابت كان كما اعتقد برشتولد وهويوس وفورجاخ ان يصور لتيزا ان برلين تريد أن يسلك مع صربيا مسلكا حازماً سريعاً ويزين له أن النمسا اذا لم تستفد من الفرصة الصالحة السانحة فى الآونة الراهنة فقد يزداد عن ذى قبل اعتبار المانيا للنمسا أنها غير كفء للتحالف ، وبعبارة اخرى انها دولة ضعيفة مترددة عاجزة لا تنفع

ألمانيا كثيراً لحليفة ، وانه يترتب على ذلك ان تغفل المانيا مصالح النمسا وتزهى عليها فى المستقبل وتصبح اكثر شموخاً بأنفها . وقد ساعدهم فى هذا الصدد أو بالحرى استخدموا لهذا الغرض تشيرشكى السفير الالمانى فى فينا .

ففى ٤ يوليه ارسل برشتولد بناء على ارتياء فورجاخ الى فرنسوا جوزيف وتيزا يبلغهما اشاعة سمعها أحد رجال وزارة الخارجية المتصلين بالصحافة وهى ان تشيرشكى صرح وفى نيته ان ينقل كلامه الى وزارة الخارجيـة ، أن المانيا ستؤيد المملكة الثنائية فى الجليل والحقير كائنا ماكان القرار الذى تتخذه حيال صربيا ، وانه كلما عجلت النمسا بالهجوم كان ذلك خيراً لها . والامس كان يكون خيراً من اليوم لو انها فعلت واليوم كذلك خير من الغد . وحتى لو نصحت الصحف الالمانية المعادية لصربيا اليوم بالتمسك بأهداب السلام فلا تدع فيناللشكسبيلا اليها فىانالأمبراطور (الالمانى) والامبراطورية سيشدان أزر النمسا والمجر بلا قيـد ولا شرط . وليس يسع دولة عظمى ان تخاطب دولة اخرى بأكثر وضوح من هذا . »

ثم فى ٦ يوليه كلف برشتولد فورجاخ فى اللحظة التى تلقى فيها من برلين تقرير تسيجيينى عنحديثه مع الأمبراطور وبيتمان أن يبلغ الخبر إلى تيزا ثم دعا مجلس الوزراء للانعقاد فى يوم الثلاثاء ٧ يوليه للتصديق على اجراءات القمع فى البوسنه وعلى العمل الحربى الذى يرغب فى القيام به ضد صربيا . وقبل أن ينعقد المجلس رتب برشتولد اجتماعاتمهيدياًمنه ومن تيزا وشتيرج رئيسى وزارتى المجر والنمسا على التعاقب ، ومن تشيرشكى وهويوس أيضاً وكان قد وصل من برلين ولما يكد ، والآخر من أنشط المحرضين على الحرب مع صربيا . وقد تلا هويوس رسالتى تسيجيين ومذكرة بحديثه هو مع تسيمرمان بصوتعال ، فأعرب برشتولدلتشيرشكى عنشكره واعترافه بجميل الأمبراطور وبيتمان « لموقفهما الجلى المتفق وارتباطات المعاهدة والصداقة » لكنه تنصل بسرعة ممـا قاله هويوس لتسيمرمان عن نية النمسا تقسيم صربيا .

وقد عرض برشتولد على مجلس الوزراء فى ٧ يوليه المسألة الآتية وهى :
« ألم يحن الوقت لاستخدام القوة مع صربيا للمرة الأولى والاخيرة لجعلها عاجزة عن الأضرار بأحد . ثم قال إن مثل هذه الضربة الحاسمة لا يمكن أن توجه دون تمهيد ديلوماتيكى ، ولذا فقد اتصل بالحكومة الألمانية وأفضت المباحثات فى برلين الى نتيجة مرضية جداً إذ أكد الأمبراطور غليوم وبيتمان هولفيج تأييد ألمانيا بلا قيد ولا شرط فى حالة وقوع حرب مع صربيا . ولا يزال من الواجب أن يعمل حساب ايطاليا ورومانيا . وهو فى هذا متفق مع وزارة برلين على أنه يحسن العمل أولاً دون استشارتهما ثم انتظار ما يمكن أن تطلباه من تعويض .

« وهو — أى برشتولد — يعلم أن القتال مع صربيا قد يجر الى حرب مع الروسيا ، بيد أن الروسيا تتبع سياسة ترمى إذا تطلعنا إلى المستقبل إلى تشكيل حلف من دول البلقان يشتمل على رومانيا لاستخدامه ضد المملكة فى الوقت المناسب . ومن رأيه أنه يجب على النمسا أن لا تغفل من حسابها أن مركزها حيال سياسة كهذه خليق أن يزداد على مر الأيام سوءاً لاسيما وان احتمال النمســا هذا دون أن تحرك ساكناً يمكن أن يفسره سلافيو الجنوب والرومانيون بأنه أمارة ضعف فيقوى ساعد دولتى الحدود .
« والنتيجة المنطقية لمـا أسلف برشتولد قوله هو أنه ينبغى أن تبادئ النمسا أعداءها وان تضع بمحاسبة صربيا فى الوقت المناسب حداً للحركة التى باتت على أشدها فانها إن لم تفعل فقد يصبح هذا بعد الآن مستحيلا . »
وقد رد تيزا على ذلك وفاقا على الأقل لمـا أورده هويوس من تفاصيل ألمع اليها برشتولد فيما بعد فقال :
« إنه — أى تيزا — متفق مع برشتولد على أن الحالة قد تغيرت بعض الشىء فى بضعة الأيام الأخيرة كنتيجة للتحقيق فى سيراجيفو ولموقف الصحف الصربية ، وأكد انه هو ايضاً يرى ان احتمال الاشتباك مع صربيا

فى حرب بات اقرب مما كان يعتقد بعد جريمة سيراجيفو لكنه لن يوافق ابداً على مباغتة صربيا بالهجوم دون التمهيد لذلك بعمل سياسى وهو ما يلوح ان النية معقودة عليه ، وقد ذكره هويوس فى برلين لسوء الحظ . ذلك اننا فى هذه الحالة نضع أنفسنا فى مركز سيء جداً امام اوربا ويكون علينا بكل تأكيد ان نحسب حساب الدول البلقانية وعداوتها فيما خلا بلغاريا ، وبلغاريا فى الوقت الحاضر ضعيفة جداً فلن تستطيع مساعدتنا .

« ولا مشاحة فى أنه لا بد من اقتضاء صربيا بعض المطالب لكنه يجب أن لا يرسل اليها انذار نهائى إلا فى حالة عدم الاذعان لتلك المطالب وهذه بلا ريب يجب أن تكون قاسية ولكن على أن تكون مما لا تعجز عن إجابته. فاذا قبلتها صربيا أمكننا أن نسجل لأنفسنا نجاحاً سياسياً بيّنا وازدادت هيبتنا فى البلقان ، واذا لم تذعن لها فأنه أيضاً يوافق على العمل الحربى لكنه لايزال من واجبه أن يفوه بأن غرضنا انما هو انتقاص حجم صربيا لا القضاء التام عليها ، ذلك أن الروسيا لن تقر هذا دون حرب حياة أو موت وأنه كرئيس لوزارة المجر لن يوافق مطلقا على أن تضم المملكة الثنائية اليها أى جزء من صربيا . »

وقد أكد له برشتولد أن ألمانيا توافق على القيام بعمل حربى عاجل فأبى أن يتأثر بهذا وقال :

« انه ليس من شئون ألمانيا أن تقرر لنا ما إذا كنا نهاجم صربيا أولا نهاجمها فمن رأيه هو شخصياً أنه ليس من الضرورى بتاتاً أن نشتبك فى حرب فى اللحظة الراهنة وأنه بالنظر الى هياج الرأى العام فى رومانيا ينبغى أن نحسب حساب هجوم من جانبها ، وعلى كل ينبغى أن نستبقى فى ترنسلفانيا قوى كبيرة لأرهاب الرومانيين . ولقد مهدت ألمانيا الطريق لحسن الحظ لانضمام بلغاريا فبات الأمل فى الوقت الحاضر قوياً فى نجاح عملنا السياسى فى البلقان ، وبالاشتراك مع بلغاريا وتركيا وتحقيق انضمامها الى المحالفة الثلاثية نستطيع

أن نرجح كفتنا على كفة رومانيا وصربيا فتضطر بذلك رومانيا الى الرجوع الى المحالفة الثلاثية. أما عن أوربا فيجب أن نكون على ذكر من أن قوة فرنسا بالنسبة الى قوة ألمانيا تقل تدريجاً بالنظر الى نقص مواليدها وأن ألمانيا على ذلك سيتوفر لها فى المستقبل من الجنود ما يستطاع توجيهه ضد الروسيا. انه لا يستطيع أن يقرر الحرب بلا قيد ولا شرط ولكنه يرى أن إحراز نجاح ديبلوماتيكى بدلا من ذلك مع إذلال صربيا إذلالا قاسياً هو الوسيلة الملائمة لتحسين موقف النمسا وانجاح سياستنا فى البلقان. »

« وقد رد برشتولد على ذلك بقوله إن بضع السنوات الأخيرة قد أثبتت أنه وإن كانت الانتصارات الديبلوماتيكية قد رفعت من هيبة المملكة مؤقتا فهى قد زادت المشادة الحائقة بالعلاقات النمسوية الصربية. فأنه لا النجاح الذى أصبناه فى أزمة الضم (ضم البوسنه والهرسك) ولا الذى أحرزناه بخلق ألبانيا قد غير الموقف تغييراً مادياً. قال: إن حل المشكلة الناشئة من دعاية صربيا الكبرى حلا أساسياً لا يمكن أن يتم إلا بتدخل حازم، وهى دعاية مدبرة تديرها بلغراد ويتناول قوتها المخربة حتى أجرام وزارا، وهو لا يظن أن الخطر من رومانيا جدى أما عن القوة النسبية للدول العظمى فأن الزيادة المطردة فى عدد سكان الروسيا تغطى نقص المواليد فى فرنسا. »

لم يصل المجلس الى إتفاق تام بعد المناقشة الطويلة التى دامت من الصباح الى العصر والتى أعرب فى خلالها جميع الوزراء، فيما عدا تيزا، عن اتفاقهم الحقيقى فى الرأى مع برشتولد. وقد سرد فيها كونراد خططا عسكرية سرية طلب أن لا تثبت فى محضر الجلسة، وأصر تيزا على أن يطلع على المطالب التى توجه الى صربيا قبل إرسالها حتى لا يواجه مرة أخرى بأمر واقع. ومع ذلك فقد اتفق كافة الوزراء مع برشتولد على تيزا فى قوله: « إن الانتصار الديبلوماتيكى وحده لا قيمة له حتى ولو أدى الى إذلال مبين لصربيا ولذلك يجب أن تكون المطالب التى تقدم الى صربيا من الفداحة بحيث أن رفضها

يكون أمراً متوقعاً وبذا يمهد الطريق لتسوية أساسية بهجوم عسكرى » .

وقد جعل تيزا رايه فيما يتعلق بالاستعدادات العسكرية يسود الى حد أن الآخرين وافقوا على أن لا تكون هنالك تعبئة قبل أن تقدم مطالب صريحة يتبعها بلاغ نهائى ويكون قد رفض هذا وذاك .

وصرح برشتولد فى ختام الاجتماع بأنه سيرفع تتائجه الى فرانسوا جوزيف فى إيشل فى اليوم التالى . بيد أن تيزا الذى كان مقررا أن يعود الى بودابست خشى أن لا ينهى برشتولد الى الأمبراطور الشيخ بصورة فعالة ما أبدى هو من آراء ضد تعمد إرغام صربيا على الحرب ، فرجا برشتولد أن يؤخر مقابلته للأمبراطور ريثما يضع له مذكرة تقدم الى الأمبراطور مع تقرير برشتولد عن مجلس الوزراء ، وقد وافق برشتولد على هذا وأجل مقابلته للأمبراطور الى صباح الخميس ٩ يوليه .

وقد أبان تيزا فى مذكرته المؤرخة فى ٨ يوليه صواب برنامجه السياسى الأصلى الذى وضعه لكسب بلغاريا لكنه بالنظر الى إجماع مجلس الوزراء الرأى ضده فى اليوم السابق وقف الجانب الأكبر من مذكرته على ما أصبح إذ ذاك أهم مسألة سرية فى فينا وهى : هل تتخذ المطالب التى توجه الى صربيا شكل المذكرة المهذبة كما يريد تيزا فتذل صربيا دون أن يستحيل عليها قبولها وتسرد شكاوى صريحة تطالب بعلاج لها تكون النمسا مستعدة للرضا به بنية خالصة ، أو تكون المطالب كما يبغى برشتولد والأغلبية إتهاماً عاماً لصربيا فى صورة انذار نهائى يصاغ عمداً فى قالب يجعل الحرب العاجلة مع صربيا أمراً لا مفر منه ؟ وقد أدلى تيزا الى الأمبراطور بحججه دفاعا عن الرأى الأول كما فعل فى المجلس فقال :

« إنى لست مطالباً بالمرة بأن أسيغ كل هذه التحرشات بل إنى مستعد لأن أتحمل عواقب حرب تنشأ من رفض مطالبنا العادلة . لكنه فى رأيى يجب أن تمكن صربيا من تجنب الحرب بقبول هزيمة ديلوماتيكية قاسية . فاذ

وقعت الحرب بات جلياً للعالم اننا نتخذ موقف الدفاع المشروع عن النفس . واذن فيجب أن تقدم الى صربيا مذكرة مصوغة فى لهجة معتدلة لا تنطوى على التهديد نسرد فيها شكاوانا المعينة ونورد فيها بالدقة ما نريده فى شأنها . فاذا أجابت صربيا جواباً غير مرض أو حاولت أن تتلكأ أتبعنا تلك المطالب بلاغا نهائياً وشهرنا الحرب بانتهاء موعده . . . فاذا خرجنا من الحرب فائزين أمكن انقاص مساحة صربيا باعطاء بعض الأقاليم المغزوة لبلغاريا واليونان ورومانيا . أما نحن فلا ينبغى أن نطلب لأنفسنا سوى بعض تعديلات مهمة للحدود . ولا مشاحة فى انه يسعنا إذ ذاك أن نطالب بتعويض حربى يتيح لنا فرصة الضغط على صربيا أمداً طويلا . . . أما إذا سلمت صربيا بالمطالب فيجب أن يكون هذا حلا نقبله بخلوص نية ولا نجعل تراجعها مستحيلا . . »

هذا الحل السلمى الممكن الذى كان تيزا يحض عليه لم يكن مطلقاً مايريده برشتولد . وقد انتظر حتى غادر تيزا فينا لحاول مرة أخرى الاستفادة من موقف ألمانيا فزعم فى كتاب إلى تيزا فى ٨ يوليه :

« أن تشيرشكى غادرنى ولما يكد بعد أن أبلغنى انه تلقى برقية من برلين يكلفه فيها أمبراطوره بأن يعلن هنا بكل تأكيد أن برلين تنتظر أن تقوم النمسا بعمل ضد صربيا وأننا إذا أفلتنا هذه الفرصة دون أن نوجه ضربتنا فلن يكون عملنا هذا مفهوماً فى ألمانيا . . . وقد قال السفير من بين ما قال غير ذلك إنه يرى أن أى تساهل من جانبنا نحو صربيا سيفسر فى ألمانيا بأنه اعتراف بالضعف قد يكون له رد فعل فى موقفنا فى المحالفة الثلاثية وفى سياسة ألمانيا المستقبله .

« وهذه الأقوال من تشيرشكى تلوح لى من الأهمية بحيث يمكن أن تؤثر فى آرائك ولذا أحببت أن أحيطك علماً بها فى الحال وأن أرجوك اذا وجدت ذلك مناسباً أن تبعث الىّ ببرقية شفرية بهذا المعنى فى ايشل حيث أكون

غداً صباحا فيسعى أن أدلى برأيك الى جلالة الامبراطور .»

والظاهر أن تيزا لم يتأثر بهذا فلم يبعث بالبرقية كما طلب اليه وعلى ذلك لم ينجح برشتولد كما سنعلم من تقرير تشيرشكى فى ١٠ يوليه وان كان برشتولد قد ذهب الى إيشل ليحصل على تصديق فرنسوا جوزيف على تقديم مطالب الى صربيا « يكون قبولها من المستحيل » واليك التقرير :

« أطلع الوزير الأمبراطور على الطريقتين الممكنتين للعمل ضد صربيا وهما ما يتعلق بهما الأمر هنا ، فكان من رأى جلالته انه من الممكن ازالة التباين القائم بينهما . لكن جلالته يميل بوجه عام الى الرأى القائل بتوجيه مطالب صريحة الى صربيا والكونت برشتولد لا ينكر مزايا مثل هذا الاجراء ... ويرى انه يصح أن يطلب ضمن أشياء أخرى انشاء وكالة للنمسا والمجر فى بلغراد تراقب من هناك أعمال دعاية صربيا الكبرى وتشرف على حل الجمعيات ورفت الموظفين الضالعين فى المؤامرة ، وأنه ينبغى أن تكون المهلة المعطاة للجواب أقصر ما يمكن ، ربما ٤٨ ساعة . وحتى هذه المهلة القصيرة تكفى بالتأكيد لأن تتلقى بلغراد تعليمات من سان بطرسبورغ . فاذا قبلت صربيا جميع المطالب فسيكون قبولها هذا حلا « لا يرحب به أبداً » ولذا فهو يفكر فى كيفية صوغ مطالبه صوغا يجعل من المستحيل كل الاستحالة على صربيا أن تقبلها .

« وقد شكا الوزير أخيراً من موقف الكونت تيزا لأنه يجعل من المتعذر عليه اتخاذ عمل حازم ضد صربيا . ويستمسك الكونت تيزا بوجوب سلوك مسلك لا غبار عليه . لكن هذا يكاد لا يكون ملائماً ما دامت مثل هذه المصالح الهامة المتعلقة بالدولة محل نزاع وبخاصة حيال خصم كصربيا . »

وهكذا كان برشتولد فى ٩ يوليه حاصلا على موافقة فرنسوا جوزيف وتيزا على الفكرة القائلة بوجوب تقديم بعض المطالب الى صربيا لا على أن تكون فى صورة انذار نهائى يتعمد فى صوغه أن يكون مستحيلا قبوله .

ومع ذلك فقد لبث يعمل فى الخفاء لتحقيق هذا الغرض الثانى ، فقد أبلغ تشيرشكى فى ١١ يوليه انه دعا تيزا الى فينا لحضور اجتماع ينعقد فى ١٤ يوليه . وهو يأمل أن يتم فيه وضع الوثيقة نهائياً :

« والذى يسع برشتولد أن يقوله اليوم هو أن أهم ما سيوجه الى صربيا من مطالب هو مطالبتها بأن يعلن الملك بصفة رسمية عدول صربيا عن سياسة « صربيا الكبرى » وأن يصدر هذا الاعلان بصفة منشور للجيش ؛ ثانياً ان تنشىء حكومة النمسا والمجر من قبلها مكتباً يتولى الأشراف على تنفيذ هذا التصريح بدقة ؛ وأن تكون مهلة الرد على هذه المذكرة أقصر ما يمكن كأربع وعشرين ساعة . فاذا رأت فينا ان الرد غير مرض عبأت جيشها فى الحال .

تقرير ويزنر المؤرخ فى ١٣ يوليه

كان كل عمل يقترح القيام به ضد صربيا فى كلتا فينا وبرلين قائماً فى خلال الأسبوعين الأولين اللذين تلوا مقتل فرانتس فرديناند على الاقتناع بأن « الجريمة نتيجة مؤامرة مدبرة تدبيراً حسناً تتصل خيوطها ببلغراد . » ولاقامة الدليل على ذلك بعث برشتولد الدكتور ويزنر ، وهو مستشار قضائى لوزارة الخارجية الى سيراجيفو فى ١١ يوليه ليتحرى المسألة على المكان . وكان ويزنر محامياً حذراً محافظاً لا يريد أن يوجه الى صربيا سوى التهم التى يقوم عليها الدليل بالوثائق وتصمد للتمحيص فى ساحة القضاء . ولما كان لابد له ان يفحص مادته على عجل وفى يومين وليلتين يقضيهما فى سيراجيفو فانه لم يلم الا بالنزر اليسير مما نعلمه الآن عن الطريقة التى دبرت بها المؤامرة فى بلغراد . وقد ارتأى بناء على ماجمعه من أدلة : منع التعاون بين الوكالات الصربية الرسمية على تهريب الأشخاص والبضائع عبر الحدود ورفت موظفى الحدود فى شاباتز ولوزنيكا وكذلك موظفى الجمارك الضالعين ومحاكمة سيجانوفتش وتانكوستش وقد أطلع الدكتور ويزنر الجنرال بوتيوريك أيضاً على صورة من

برقية بعث بها الى برشتولد يخلى الحكومة الصربية من المسئولية المباشرة عن جريمة سيراجيفو وان لم يخلها من حملة التهييج الضارة بالنمسا. فرأى بو تيوريك أن النزعة المحافظة فى هذا التقرير مغالى فيها فكتب فى الحال الى كونراد يفضى اليه بارتياءاته هو وكانت ، كما نعلم الآن من أعمال « اليد السوداء » أقرب جداً إلى الحقيقة . ثم أعلن انه لا يمكن أن يتولى مسئولية البقاء فى منصبه ما لم تتخذ فى الحال اجراءات صارمة ، فان طلبات كالتى ارتآها ويزنر ليست كافية ومن الضرورى سحق الآلة القائمة وراء كل هذا التهييج ويعنى بذلك الجيش الصربى . « وقد كان كل هذا خليقاً أن لا يقع لو لم تعلمه الحكومة الصربية وتطيقه بل وتشجع عليه . »

وهذه الآراء التى كانت تعززها إقامة بوتيوريك الطويلة فى البوسنه واتصاله الوثيق بصربيا كانت أكثر مطابقة لما كان برشتولد وموظفو وزارة الخارجية يرونه الحقيقة من آراء ويزنر القانونية المحافظة . وقد أدمجت المطالب الثلاثة التى ارتآها ويزنر فى الانذار النهائى لصربيا ؛ لكنه يلوح فيما عدا ذلك أن برشتولد لم ينتفع بتقريره الا قليلا أو هو لم ينتفع به انتفاعا مباشراً . وقد ترك ويزنر يشتغل بفحص المواد ووضع ملف الأدلة الذى يقدم الى الدول ومضى فى تلك الخطة التى كان كونراد وبوتيوريك يرغبان فيها وهى الدخول مع صربيا فى حرب مانعة محلية .

تحويل تيزا

فى ١٤ يوليه وفق برشتولد نهائياً الى اقناع تيزا بالعدول عن معارضته فى ارسال بلاغ نهائى ذى مهلة وجيزة . لكنه لم يكن له بد من الاذعان لما كان تيزا يصر على طلبه وهو أن يوافق مجلس الوزراء قبل أن يقدم البلاغ النهائى على قرار رسمى مؤداه : « ان النمسا فيما عدا بعض التحويرات الطفيفة فى الحدود لا تسعى من وراء الحرب مع صربيا الى الحصول على أراض » .

وهو قرار يراد به تأمين ما يعتبره تيزا مصالح المجر الخاصة والحيلولة دون مطالبة ايطاليا بتعويض ومنع تدخل الدول . كذلك تقرر ألا يقدم البلاغ النهائى الا بعد التأكد من أن بوانكاريه غادر الروسيا . لأن برشتولد كان يخشى « أن يفسر اتخاذ اجراء كهذا فى وقت يحتفل فيه برئيس الجمهورية الفرنسية كضيف على القيصر بأنه اهانة سياسية وهو ما نحب أن نتجنبه . » كذلك كان يخشى أن يكون من خطل الرأى تهديد بلغراد فى اللحظة التى يقع « فيها القيصر المتردد والمحب للسلام وسازونوف الحذر تحت تأثير المحرضين بوانكاريه وايزفولسكى مباشرة . » لأن الروسيا وهى تحت تأثير « الشمبانيا » والأنخاب الفرنسية الروسية الحارة حقيقة بما يحوطها من تعصب الرئيس الفرنسى وايزفولسكى والغراندوق نيقولا أن تتدخل عسكرياً . فبعد أن بدل التاريخ عدة مرات تقرر أخيراً انه إذا لم يقدم البلاغ النهائى فى بلغراد قبل الساعة الخامسة من مساء الخميس ٢٣ يوليه فلن يصل الخبر إلى سان بطرسبورغ الا بعد ان يكون بوانكاريه وفيفيانى قد ركبا متن البلطيق وأصبحا بعيدين عن الاتصال بولاة الأمور الروسيين

فلماذا غير تيزا رأيه ووافق على تقديم بلاغ نهائى وعلى فكرة الدخول عاجلا فى حرب محلية مع صربيا ؟ إننا لا نستطيع أن نعرف هذا على التحقيق والراجح أن لاستخدام برشتولد « للعتلة » الألمانية علاقة بذلك . فلقد كتب تيزا الى تشيرشكى عقب هذا ببضعة أشهر ، بينما كان بعض الموظفين النمسويين والألمان يتشاحنون فيما بينهم على تبعة الحرب ، يقول : « لقد توجهنا الى ألمانيا نسألها النصح قبل أن نقدم على عملنا ضد صربيا . وعلى أثر تشجيع الحكومة الألمانية المباشر واعلانها انها تعتبر الحالة الحاضرة صالحة لتسوية مركز يزداد على مر الأيام خطراً قدمنا مذكرتنا الى بلغراد . » فهذا كما رأينا هو ما كان برشتولد يصوره على الدوام لتيزا بأنه موقف ألمانيا وما كان يتذرع به لانتهاز اللحظة الراهنة لمناقشة صربيا الحساب بصفة نهائية .

على أن هنالك تأثيرا أقوى حمل تيزا على تغيير رأيه على الرغم منه وهو تزايد اقتناعه بأنه اذا لم تعمل النمسا الآن فسوف يجندلها أعداؤها غدا .

وعامل حاسم آخر من العوامل التى غيرت رأى تيزا هو ترديد برشتولد لرأى كونراد العسكرى القائل بأنه « يجب أن نتجنب فى الطريق الديبلوماتيكى كل ما من شأنه أن يكسب العدو وقتاً لاتخاذ اجراءات عسكرية تجعلنا فى مركز غير حسن ، كأن نتباطأ أو نأخذ فى سلسلة اجراءات ديبلوماتيكية يتلو بعضها بعضا . » وهكذا عدل الكونت تيزا — كما أبلغ برشتولد فرنسوا جوزيف عقب اجتماع ١٤ يوليه ، عن المعارضة فى ارسال بلاغ نهائى ذى مهلة وجيزة بعد إذ أبان له المصاعب العسكرية التى يمكن أن يجرها الأبطاء فى العمل .

بذلك تغلب برشتولد على العقبات الرئيسية التى كانت تعترض إرساله بلاغا نهائياً الى صربيا لم يكن ينتظر أن تذعن له . ولم توضع صيغة المطالب بالضبط فى اجتماع ١٤ يوليه . لكن برشتولد وعد تشيرشكى فى مساء ذلك اليوم بأنه بمجرد وضع هذه الصيغة فى اجتماع ثان لمجلس الوزراء ينعقد فى ١٩ يوليه سيطلعه على صورة منها بصفة سرية جدا حتى قبل أن تعرض على فرنسوا جوزيف للتصديق عليها . بيد أن برشتولد لم ينجز وعده هذا كما سيتضح بعد .

فى تلك الأثناء أخذ برشتولد ومعه أحد سكرتيرى وزارة الخارجية وهو البارون موسولين يضع فى الحال صيغة البلاغ النهائى .

سعى النمسا لخديعة أوربا

بينما كان البلاغ النهائى يوضع وبرشتولد ينتظر فى تلك الأيام أن تجرى زيارة بوانكاريه للروسيا مجراها كان يبذل كل جهد فى سبيل تكتم محتويات البلاغ وعدم تسرب شىء منها . فزعم أنه كان ينتظر ريثما يعرف النتائج

النهائية للتحريات القائمة فى سيراجيفو قبل أن يطلب من صربيا شيئا .

ولكى يبدد برشتولد كل ارتياب فى أغراضه الحقيقية دبر أن يغادر رئيس هيئة أركان حرب النمسا ووزير حربيتها فينا كما لو كانا فى أجازة ، واستعمل كافة الموظفين النمسويين المجريين فى أحاديثهم لهجة أكثر انطواءا على السلم والمسالمة . وألغى برشتولد فوق ذلك مقابلاته الأسبوعية المعتادة تفاديا مما يمكن أن يوجه اليه من أسئلة مربكة ، وأمسك عن البحث فى حادث اعتداء سيراجيفو مع ممثلى الدول الأجنبية . فاذا كانت مع ذلك قد حدثت مناقشات فى وزارة الخارجية فقد كان من شأنها أن تبدد جميع المخاوف والريب فى تبييت النمسا لصربيا اجراءاً خطيرا . وقد كان موظفو وزارة الخارجية يسلمون بوجوب اتخاذ اجراء ما بمجردما تثبت التحريات الجارية فى البوسنة أن هنالك علاقة بين بلغراد وجريمة سيراجيفو . لكنه قيل فى نفس الوقت إن هذا الاجراء لن يكون بحيث يثير أى قلق . وقد بعث دومين السفير الفرنسى فى فينا يقول « إن المطالب التى تطلبها حكومة النمسا والمجر لمعاقبة المعتدين وللحصول على ضمانات للسيطرة والاشراف على البوليس مما تقبله كرامة الصربيين فيما يلوح . ومن رأى جوفانوفتش أنها ستقبل . وقد أعرب باشتش عن رغبته فى الوصول الى حل سلمى لكنه يوطن نفسه على المقاومة التامة » .

وتحدث شيكو سفير الروسيا فى فينا مع فورجاخ مرارا عن الحالة فى غيبة برشتولد فلم يستطع أن يستبين حقيقة نيات النمسا . وقد أخبره تسابارى سفير النمسا والمجر فى سان بطرسبورغ وكان موجودا فى فينا إذ ذاك لأسباب عائلية أن الاجراء الذى سيتخذ فى بلغراد سيكون منطوياً على المسالمة ولن يسبب للروسيا أى إستياء . فكان من جراء هذه الايضاحات المطمئنة أن سافر شيكو فى نزهة الى الروسيا ولم يكن حاضرا فى فينا فى خلال الأيام الأولى للأزمة التى سرعان ما حلت .

وفى بلغراد أكد البارون جيزل لصحفى مجرى فى ١١ يوليه أنه عند ما ينتهى التحقيق الجارى فى سيراجيفو « ستتخذ اجراءات على أعظم جانب من اللين وفى حدود الأصول الدولية الديبلوماتيكية المرعية » . وعقب ذلك بأسبوع أخبر زميله الانجليزى أنه « شخصياً لا يحبذ الضغط على صربيا أكثر مما يجب ما دام أنه مقتنع بأن الحكومة الصربية مستعدة لاتخاذ أية اجراءات يمكن أن تطلب فى تعقل وهو لذلك لا ينظر الى الحالة نظرة المتشائم » ومع ذلك فان جيزل هذا هو الجنرال الذى يمقت الصربيين والذى كان تعيينه فى بلغراد قبل هذا ببضعة أشهر بمثابة القاء عود يحترق من الثقاب فى مخزن بارود . وهو نفسه الذى كتب الى برشتولد فى ٢١ يوليه فى ختام حملة سرية على صربيا يعرب عن اقتناعه بأن خير ما يعمل هو « سحق العدو الذى يهددنا فيتم للنمسا الهدوء بعد سنى الأزمة . فان الاجراءات الناقصة وتقديم المطالب والمفاوضات الطويلة ثم الوصول فى النهاية الى تراض فاسد هو أقسى ضربة يمكن أن توجه الى هيبة النمسا والمجر فى صربيا والى مركزها فى أوربا . »

بهذا الغش المكيفالى كان برشتولد وموظفوه يسعون فى تخدير أعصاب أوربا وصرفها الى شعور كاذب بالطمأنينة قبل أن تنفجر القنبلة الديبلوماتيكية .

ومع ذلك فان برشتولد لم يكن موفقاً فى مجهوداته هذه الى درجة أن يخدع أوربا فى نياته الحقيقية كما زعمت الكتب الملونة التى نشرت فى سنة ١٩١٤ . فقد اجتهدت صربيا ودول الحلفاء فى بداية الحرب بقدر الامكان فى التظاهر بأن مذكرة النمسا الى صربيا أخذتها على غرة والحال ، مما نعرفه الآن من أحدث الوثائق المنشورة ، أن بريطانيا العظمى كانت ترتاب فى نيات برشتولد وتعرف منها أكثر مما كان يظن عادة . فقد أبرق السفير الانجليزى فى ڤينا فى ١٦ يوليه الى السير ادوارد غراى يقول :

« إن هنالك نوعا من الاتهام يعد للحكومة الصربية حيث ينسب اليها

الاشتراك فى المؤامرة التى أفضت الى اغتيال الغراندوق. وسيبنى هذا الاتهام على اجراءات محكمة سيراجيفو. ويقول مبلغى أن الحكومة الصربية ستطالب باتخاذ اجراءات محدودة معينة لكبح جماح الدعاية القومية والفوضية وأن حكومة النمسا والمجر لن تدخل فى أخذ ورد مع صربيا بل هى ستصر على الاذعان العاجل بلا قيد ولا شرط أو فتلجأ الى استخدام القوة. ويقال إن المانيا موافقة على هذا المسلك كل الموافقة. والمظنون أن بقية أوربا ستعطف على النمسا والمجر وتطالب بأن تقف صربيا فى المستقبل موقفاً يكون أكثر انطواء على الاذعان . . . .

« وقد سألت مبلغى عن الروسيا هل ينتظر أن تقف مكتوفة اليدين فى حالة استخدام العنف مع صربيا فقال انه يظن أن الروسيا لن ترغب فى حماية القتلة من الأجناس الأخرى على أن النمسا والمجر لن تغلو على كل حال فلا تعبأ بالنتائج. قال : وستخسر مركزها كدولة عظمى اذا هى أطاقت أى عبث آخر من ناحية الصرب » .

وكذلك تولى الرئيس بوانكاريه فى ٢١ يوليه وهو فى سان بطرسبورغ، وكان اعتقاده « أن النمسا تستعد لتوجيه ضربة » ، أن ينذر السفير النمسوى كما سنرى انذاراً خشناً قاسياً فقال له قولا ذا مغزى وهو « أن الشعب الروسى صديق حميم جداً للصربيين وفرنسا حليفة الروسيا » . وكان يريد حمل النمسا على ألا تفعل ما كان برشتولد ينتوى بالضبط فعله، وتشجيع سازونوف على الثبات فى تأييد صربيا .

ويلوح أيضاً أن ايطاليا كانت قد ألمت ببعض ما كانت فينا تعده فى الخفاء، اذ كان السفير الايطالى فى سان بطرسبورغ « يحس أن النمسا لا تحجم عن اتخاذ اجراء نحو صربيا يصعب الرجوع فيه » فنصح فى ١٦ يوليه للروسيا بأن تنذر فينا « بأن الروسيا لن تحتمل أى اعتداء من جانب النمسا على سلامة صربيا واستقلالها » . وفى مساء ٢٣ يوليه أبلغ مستشار فى السفارة الايطالية

البرنس تروبتسكى على التحقيق ، أن النمسا والمجر ستقدم اليوم الى صربيا بلاغاً نهائياً لا يمكن قبوله بالمرة » .

صوغ البلاغ نهائياً

لقد عرضت النصوص المضبوطة للبلاغ النهائى أو « المذكرة الممهلة » كما سميت على سبيل المجاز ، على مجلس وزارى ثان انعقد فى ١٩ يوليه بصفة سرية . ومضاعفة للسرية عقد الاجتماع فى الساعة العاشرة صباحاً بمنزل برشتولد بدلا من أن ينعقد فى وزارة الخارجية . وقد أقبل من حضروا الاجتماع فى سيارات عادية بدل سياراتهم الرسمية « غير المرقومة » . وفسر مجىء تيزا الى فينا مرة أخرى بأنه كان لحاجته الى معلومات جديدة ، وهو تفسير جدير بالثناء لأن المجلس المجرى كان لا يزال منعقداً يتعطش الى الأخبار . وعاد كونراد الى العاصمة فى طيارة على عجل وقيل فى تفسير ذلك إنه من جراء مرض ابنه .

« وقبل أن يدعو الرئيس (برشتولد) المجلس الوزارى المشترك الى المداولة جرت مناقشة غير رسمية فى صيغة المذكرة التى ترسل الى صربيا ووضع نصها النهائى . وعندئذ افتتح الرئيس المجلس وطلب الموافقة على تقديم المذكرة الى الحكومة الصربية حوالى الساعة الخامسة فى مساء يوم الخميس ٢٣ يوليه ليتيسر بعد انقضاء مهلة الثمانى والأربعين الساعة فى الساعة الخامسة من مساء يوم السبت ٢٥ يوليه ارسال الأوامر بالتعبئة ليلا بين السبت والأحد . وكان فى رأى الكونت برشتولد أنه ليس من الراجح أن تعرف سان بطرسبورغ ما أقدمنا عليه قبل رحيل رئيس الجمهورية الفرنسية . على أنه حتى اذا حدث هذا فانه لا يرى فيه ضيراً كبيراً إذ نحن قد راعينا المجاملة مراعاة كافية بانتظارنا الى أن تنتهى الزيارة . ومن جهة أخرى فانه لاعتبارات ديبلوماتيكية خليق أن يعارض كل المعارضة فى أى تأجيل آخر لأنهم كانوا قد أخذوا فى برلين يقلقون والأخبار عن نياتنا قد تسربت

بالفعل الى رومه ، حتى انه لن يأخذ على عاتقه تبعة حوادث لا يرغب فيها إذا اقتضى الأمر تأجيل المسألة أكثر من ذلك ، *

وبعد أن أدلى كونراد رئيس هيئة أركان الحرب ببيان عن العمليات العسكرية واطمأن تيزا على سلامة ترانسلفانيا من أية فتن أو غزو يقع من جانب رومانيا ، جدد تيزا طلبه الذى أبداه فى ١٤ يوليه وهو أن يعلن المجلس باجماع الآراء : « ان عمل النمسا حيال صربيا لا يتصل بأى تدبير من تدابير الفتح وان النمسا فيما عدا تصحيح الحدود تصحيحاً تقتضيه أسباب استراتيجية لا ترغب فى ضم أية بقعة من الأراضى الصربية . » فلاحظ برشتولد انه انما يقبل هذا مع « تحفظ بعينه » :

« فانه فى حالة انتصار النمسا على صربيا لا ينبغى لها أن تضم أرضاً من أراضيها ولكنها تسعى إلى انقاص حجمها بحيث لا تصبح بعد ذلك خطراً. وذلك باعطاء أكثر ما يمكن اعطاؤه من أراضى صربيا الى بلغاريا واليونان والبانيا ولامانع من رومانيا أيضاً . فقد تتغير الحالة فى البلقان ، وقد لا يستحيل أن تنجح الروسيا فى قلب الوزارة التى تكون قائمة فى صوفيا والاتيان بحكومة معادية للنمسا . وهو باعتباره الشخص المسئول عن السياسة الخارجية يجب أن يحسب حساباً لامكان الاضطرار إلى ضم شىء فى نهاية الحرب لظروف تكون قائمة إذ ذاك « هذا اذا كنا نريد أن تسود على الحدود خير من الأحوال السائدة فى الوقت الحاضر . »

وأشار الكونت سترج رئيس الوزارة النمسوية إلى أن النفى العلنى لأية نية لضم شىء من الأراضى الصربية لا يمنع « أن تعدل الحدود تعديلا استراتيجيكيا » أو « أن تجعل صربيا فى مركز يربطها بالنمسا وذلك بأسقاط الأسرة المالكة أو باتفاق عسكرى أو بأية وسيلة أخرى صالحة . »

---

* محضر جلسة مجلس الوزارة فى ١٩ يوليه

وقد وافق تيزا مع ذلك عن نفسه وعن الحكومة المجرية مع الشرط الذى لم يتحول عنه وهو قبول طلبه بالاجماع ، فأجمعوا على الأثر على ما يلى وهو :

« انه على أثر البدء فى الحرب يصدر تصريح للدول الأجنبية بأن المملكة لا تبغى بالحرب فتحاً ولا تنوى أن تضم اليها مملكة الصرب لكن هذا القرار لا يمنع بطبيعة الحال تعديل الحدود من الوجهة الاستراتيجيكية التعديل اللازم أو تخفيض مساحة صربيا لمصلحة دول أخرى أو احتلال بعض جهاتها بصفة مؤقتة وهو ما قد يرى ضرورياً . »

هذا الارتباط الخطير بأن يعلن الى الدول فى بدء الحرب انه لا مصلحة للنمسا فى أراضى صربيا كان من بين الوعود التى لم ينجزها برشتولد كما سنرى . فانه حتى عند ما أعطى هذا التصريح نهائياً كان عدم الاخلاص فيه ظاهراً من تلك التحفظات التى أدلى بها عدة وزراء ومن الملاحظة التى أبداها كونراد لوزير الحربية وهما خارجان من اجتماع المجلس إذ قال : « حسناً ، سنرى . لقد كانت الدول قبل حرب البلقان تتحدث عن الحالة الراهنة فلما انتهت الحرب لم يكترث أحد لها . »

وأرسلت المذكرة فى اليوم التالى وهو ٢٠ يوليه إلى جيزل فى بلغراد صحبة رسول ومعها تعليمات بتقديمها إلى الحكومة الصربية فى يوم الخميس ٢٣ . وقد أرسلت أيضاً فى ٢٠ يوليه ، وعليها خاتم السرية التامة ، إلى سفراء النمسا والمجر فى برلين وروما وباريس ولندن وسان بطرسبورغ والآستانة وإلى وزرائها فى ما هو دون هذه البلاطات أهمية . وقد أعطى كل من هؤلاء التعليمات المناسبة بأن يبلغ فى صباح الجمعة ٢٤ يوليه الحكومة التى يكون معتمداً لديها « المذكرة » التى تكون قد قدمت إلى صربيا فى الليلة السابقة ، وأن يدلى ببيان عن عدالة القضية النمسوية وأن يبدى فى بعض الحالات أن ملفاً يحتوى كامل تفاصيل القضية النمسوية ضد صربيا موجود تحت تصرف الدول للاطلاع عليه .

لقد بعث برشتولد بالبلاغ النهائى دون علم فرنسوا جوزيف أو موافقته. فان الأمبراطور الشيخ الذى كان غائباً فى إيشل وكان قد أبلغ أن « المذكرة » ستسوى فى جلسة لمجلس الوزراء تنعقد فى ١٩ يوليه، لم يسمع عنها بعد ذلك شيئاً ومن ثم أبرق فى ٢٠ يوليه يسأل عما تم فيها. وقد بادر برشتولد بالرد بأنه لم يمكن الفراغ منها فى ١٩ يوليه (!) ولكنها الآن حاضرة وسيحملها رسول الى إيشل. أما هو فيصل فى صباح اليوم التالى ٢١ يوليه ليحظى بمقابلة الأمبراطور. وليس ثمة ما يسجل الايضاحات التى ربما كان قد أدلى بها لفرنسوا جوزيف فى هذه المقابلة التى جرت صبيحة الثلاثاء اللهم الا ما أبرق به عند انتهائها الى مرؤوسه البارون ماتشيو فى فينا وهو: « لقد أقر جلالته نص المذكرة المقدمة الى صربيا والى الدول دون تغيير. فأرجوك أن تبلغ سفير ألمانيا تشيرشكى انه لا يمكن أن يعطى المذكرة قبل صبيحة الغد لأنه سيجرى فيها بعض تصحيحات. » فلماذا هذا الكذب؟ ولم أخلف برشتولد وعده الذى وعد تشيرشكى به قبل ذلك ببضعة أيام وهو أن يبلغ نص المذكرة الى الحكومة الامبراطورية (الألمانية) بصفة سرية جداً بمجرد وضع صيغتها فى يوم الأحد (١٩ يوليه بمجلس الوزراء) حتى قبل أن تعرض على فرنسوا جوزيف للمصادقة عليها؟ واذا كان « النص النهائى قد وضع » فى ١٩ يوليه وأرسل سراً الى جميع سفراء النمسا فى ٢٠ يوليه « وصادق عليه الامبراطور دون تغيير » فى ٢١ يوليه فلماذا كان برشتولد لا يزال يريد حبســـه عن تشيرشكى فيزعم أن تصحيحات ستجرى فيه؟

الراجح أن برشتولد كان يخشى أنه حتى وزارة خارجية برلين قد لا توافق على لهجة المذكرة تلك اللهجة المتطرفة العنيدة. وقد تمد يدها فى اللحظة الأخيرة لتقفها. وقد قال عن برلين لمجلس الوزراء فى ١٩ يوليه إنها باتت « قلقة » وإنه « لا يستطيع أن يأخذ على عاتقه تبعة حوادث لا يرغب فيها اذا اقتضى الأمر تأجيل المسألة أكثر مما أجلت. » واذن فيجب أن

لا تعلم برلين نص المذكرة حتى يفوت الأوان فلا يستطاع عمل شيء. وبرلين يجب أن تقبل الأمر الواقع وهو أن بلاغا نهائياً هو أقسى ما يكون قد أرسل وأنه لم يعد فى الامكان سحبه أو تعديله .

النمسا لا تأبه بنصيحة ألمانيا

من المهم فى هذا الصدد وبالنظر الى ما أبانته ألمانيا فيما بعد مراراً وتكراراً من أنها لم تكن تعلم بالبلاغ النهائى النمسوى قبل ارساله — أن نلاحظ التغيير الذى طرأ على معاملة برشتولد لألمانيا قبل ١٤ يوليه وبعده يوم انفاز بموافقة تيزا على إرسال بلاغ نهائى صارم . قبل ذلك التاريخ كان برشتولد يعلم المانيا بكل دقيقة وجليلة عن التدابير التى كانت تتطور لتنتهى الى تقديم بلاغ نهائى الى صربيا . وقد دل برلين على بعض الشروط التى كان يرجح ان يشتمل عليها هذا البلاغ فأنبأها انها ستكون من الصرامة بحيث يتعذر على صربيا قبولها ، وان قبولها اياها مما سوف يضايقه جداً . وقد سأل برلين النصيحة وبدا كما لو كان على استعداد لتقبلها والعمل بها . ولما كانت ألمانيا قد اطلقت يد النمسا فى ٥ يوليه فقد رضخت لهذه التدابير؛ ولما كانت تعلم عن برشتولد فى الماضى تردده وعدم استقراره على راى وكانت ترغب فى ان تبادر النمسا بالعمل قبل أن يتلاشى الرعب ويفتر العطف اللذان اثارهما فى اوربا جرم سيراجيفو — نقول لما كانت المانيا هكذا فانها لم ترضخ فحسب بل شجعت برشتولد على العمل السريع . وكانت ألمانيا تجهل نص المذكرة المنتواة بالضبط وكانت لاتزال متفائلة بأن تحصر الحرب — اذا هى وقعت — بين النمسا وصربيا فجعلت تتخذ الاجراءات وتقدم النصح الذى يساعد على ضمان حصر الحرب بين الدولتين . فالآن بعد أن وعد برشتولد من ألمانيا بالمساعدة وبعد ان حول تيزا عن رايه لم يعد بعد ١٤ يوليه يعنى عنايته السابقة بألمانيا أو يعبأ بنصحها ومطالبها .

مثال ذلك ان ياجو نصح لفينا بجمع الأدلة الكافية لاثبات ان هنالك حملة تهييج فى صربيا ترمى الى التوسع وتعرض المملكة الثنائية للخطر ، حتى يمكن ان يقتنع الراى العام الأوربى بعدالة القضية النمسوية . «والأصوب ان تنشر هذه الأدلة مجتمعة لا متفرقة وذلك قبل أن تقدم الى صربيا المطالب او الانذار النهائى كما تكون الحال . » لكن برشتولد لم يعبأ بهذه النصيحة الثمينة . والملف الذى كان يشرح شكاوى النمسا من صربيا ونتائج التحقيق الذى جرى فى سيراجيفو لم تعرض كلها على الدول الا بعد تقديم البلاغ النهائى بعدة ايام . وقد جاء هذا الملف متأخراً وبعد ان اخذت ازمة دبلوماتيكية خطيرة تستفحل ، فلم تعن الدول بالالتفات اليه وافلتت النمسا الفرصة التى كان يمكن أن تنتهزها للتأثير فى الرأى العام لمصلحتها وضد صربيا تمام الافلات .

كذلك حضت ألمانيا برشتولد على أن يتفاهم مع ايطاليا فى حينه ، فأن الحكومة الايطالية كانت قد أخذ قلقها يتزايد جداً من جراء تهور الصحف النمسوية مع صربيا وموقف الصمت المريب الذى كان ولاة الأمور فى فينا قد اتخذوه . وقد بعث البارون فلوتو السفير الألمانى فى رومه بتاريخ ١٤ يوليه تقريراً قال فيه « إن سان جوليانو متطير جداً خشية أن يكون برشتولد قد بيت أموراً مدبرة . وقد قال الوزير الايطالى انه لا يسلم فى القانون الدولى بتحميل حكومة مسئولية عمل اجرامى يقترفه فرد أو دعاية سياسية لا تكون جهاراً . لذلك يخشى أن لا تستطيع الحكومة الايطالية تأييد المطالب التى يشتبه فى أن النمسا ستقدمها لصربيا وخاصة لأنها ستكون مناقضة لاحساسات الشعب الايطالى العميقة ، مناقضة للمبادىء الحرة ولمبدأ القومية الذى تمنع إيطاليا تقاليدها من معارضته . » واستخلص فلوتو ان سان جوليانو « يريد على ما يظهر انذارنا بأن ايطاليا لن تبقى فى جانب النمسا اذا تعقدت الحالة أكثر مما هى » . وبعث فى الأيام التالية مجموعة برقيات تتزايد توكيداً

وانذاراً بأن ايطاليا لن تظاهر النمسا على صربيا لعداوة الشعب للنمسا وعطفه على الحركة الوطنية الصربية التي تماثل جهاد ايطاليا نفسها فى سبيل وحدتها ومغالبتها الاضطهاد الهابسبورغى من نصف قرن مضى . وقد قال أيضاً ان من المحال فى الواقع التأثير على الصحف الايطالية .

وقد أدرك ياجو أهمية الابتعاد بالايطاليين عن مظاهرة صربيا وصعوبة رشوتهم أو المساومة معهم فبعث ببرقية فلوتو الى تشيرشكى فى فينا وطلب اليه ان يباحث برشتولد فى مركز ايطاليا بصفة سرية . وقد صرح بأن أى توسع من جانب النمسا او أى سعى للاستزادة من النفوذ فى البلقان سيرعب ايطاليا لا محالة . فانه كلما هددت النمسا صربيا استحوذ القلق على ايطاليا وتوترت أعصابها . وتأييد ايطاليا لصربيا مما يزيد فى شهوة الروسيا للعمل ويغريها به . ومن ثم كان يرى ان تفاهم النمسا مع الوزارة الايطالية من الأهمية بأعظم مكان ، وانه ينبغى عليها ان تلوح لها ببعض التعويضات كفالونا التى تؤلف جزءاً من ألبانيا ولا تكلف النمسا شيئاً ؛ لكنها قد لاترضى ايطاليا او تمنيها بلقمة اضخم كالترنتينو الذى سوف يملأ بالتأكيد أفواه الراى العام الايطالى المعادى للنمسا .

وعملا بهذه التعليمات ولغياب تشيرشكى سأل شتولبرج مستشار السفارة الألمانية فى فينا برشتولد هل ينوى الاتصال بايطاليا قبل ان يلجأ مع صربيا الى عمل ما . فأجابه برشتولد بأنه الى الآن لم يلفظ بكلمة واحدة عن عمل كهذا وانه فى الحقيقة ينوى ان يواجه الحكومة الايطالية بأمر واقع لأنه ليس متأكداً كل التأكيد من انها تحفظ سراً ، ومن السهل ان تلمح لبلغراد بشىء ما نظراً لموقفها الذى تعطف فيه على صربيا . ولم يشأ شتولبرج ان يمضى فى الحديث مع برشتولد مؤثراً ترك مسألة التعويضات الدقيقة لتشيرشكى يعالجها هو بنفسه . على أن شتولبرج حادث هويوس موضع سر برشتولد حديثاً طويلا وحث على مسالمة ايطاليا لكنه لم يلق آذاناً صاغية .

وقد ارتاى هويوس تعويض ايطاليا بأرض اخرى لا تملكها النمسا وهى جزر الدوديكانيز .

بعد ذلك بيومين ، أى فى ٢٠ يوليه ، جرى لتشيرشكى حديث طويل مع برشتولد اكد له فيه حجج ياجو فيما يتعلق بأهمية استمالة ايطاليا وتعويضها قبل فوات الأوان . بيد انه لم يلق هو ايضاً نجاحا يذكر ، فأن برشتولد كان يصر اصراراً اعمى على انه لاحق لايطاليا فى تعويض ما ، وانه لا يحتاج الى تعاون ايطاليا او تأييدها بل يريد فقط ان تمتنع ايطاليا عن التدخل ؛ وان خير وسيلة لابعاد ايطاليا هو كتمان العمل المنوى عنها الى ان يصبح امراً واقعاً . وقد حظر على ميرى السفير النمسوى فى رومه ان يتكلم فى المسألة الصربية لانه واثق من ان اقل تلميح ستبلغه ايطاليا فى الحال الى سان بطرسبورغ وتتذرع به رومه للقيام بعمل معاكس او للمطالبة بتعويضات . وقد رفض برشتولد بتاتاً ان تعطى ايطاليا فالونا فحمل تشيرشكى بهذا على تحاشى الخوض معه فيما هو أدق : وذلك أن تنزل النمسا عن الترنتينو .

وبدلا من أن يعمل برشتولد بنصيحة ألمانيا ورأيها الحكيم وهو مساومة إيطاليا مساومة معقولة بعث الى ميرى ببيان طويل حاول أن يجادل فيه التفسير الذى ترتئيه ألمانيا وايطاليا على السواء للمادة السابعة من المحالفة الثلاثية وهى التى تتعلق بالتعويضات التى تكون من حق ايطاليا فيما لووقع تغيير فى البلقان لمصلحة النمسا . وفى نفس اليوم بعد أن أرسل الى ميرى نص البلاغ النهائى كلفه أن يقول لسان جليانو اذا سئل : « إنه لا يعلم شيئاً الى الآن بالضبط عن انتهاء التحقيق الدائر فى سيراجيفو وعن الاجراء الذى تتخذه النمسا فى بلغراد نتيجة لذلك » ، وقد نبهه الى وجوب تجنب أى بحث فى المادة السابعة بقدر الأمكان لأن « كلا من الفريقين لن يستطيع اقناع الآخر بتفسيره وأن هنالك خطراً من أن البحث فى هذا قد يهيج بعض العواطف الثائرة ويعرض معاهدة المحالفة الثلاثية فى النهاية للأخطار . »

وقد وعد بروشتولد تشيرشكى بأنه مجاملة لأيطاليا كخليفة سيعلم الوزارة الايطالية بالبلاغ النهائى قبل أن يسلم الى صربيا حتى لا يضطر سان جوليانو وزملاؤه الى العلم به من الصحف وأنه فى نفس الوقت سيعلن أن النمسا فيما تتخذه من اجراء حيال صربيا لا ترمى الى أى توسع أرضى لنفسها ، لكنه لم يف بأى من هذين الوعدين كل الوفاء . فأنه فيما يتعلق باحاطة ايطاليا علما بالبلاغ قبل ارساله أرسل الى ميرى مجموعة من الأوامر يناقض بعضها بعضا جعلته بحيث لا يدرى ما ذا يفعل . وأخيراً آوى الى فراشه وبعث سكرتيره الى سان جوليانو عصر يوم ٢٣ يوليه فاستقل اليه فى الريف سيارة فى الوقت الذى كان البلاغ النهائى يقدم فيه فى بلغراد . وحتى عندئذ لم تعط الى الوزير الايطالى صورة من البلاغ بل بلغ ما لا يغنى ولا يسمن وهو أن المذكرة الممهلة بثمان وأربعين ساعة تحتوى طائفة من المطالب تستند الى تحقيق سيراجيفو وترمى الى حماية النمسا من دعاية صربيا الكبرى .

كذلك لم يصرح برشتولد فى حينه تصريحاً جلياً سواء لايطاليا أو لأية من الدول بأن النمسا لن تسعى الى التوسع الأرضى على حساب صربيا وهو التصريح الذى رغب فيه تيزا كما رغبت فيه ألمانيا . ذلك أن بروشتولد بعد حول تيزا عن رأيه فى ١٤ يوليه لم يعد يعبأ بنصيحة ألمانيا فيما يتعلق بايطاليا أو بنشر الأدلة الخاصة بحادث سيراجيفو فى وقت واحد مع مطالب النمسا من صربيا .

ما الذى كانت ألمانيا تعلمه من أمر البلاغ النهائى ؟

كذلك لم يحفل بروشتولد كثيرا بما طلبته ألمانيا بعد ١٤ يوليه من أن تحاط علما بنيات النمسا النهائية وبشروط المطالب المنوى مطالبة صربيا بها بالضبط . وهذه الحقيقه وما أكده ياجو مرارا عقب ذلك ببضعة أيام من أنه لم يكن يعلم بمحتويات المذكرة النمسوية المجرية ، هذا الى الحقائق الجديدة

التى كشفت عنها الوثائق الألمانية التى نشرت بعد قد أثار كله جدلا كثيراً حول مبلغ ما كانت ألمانيا تعلمه من أمر البلاغ النمسوى .

لقد ظل برشتولد فى خلال الأسبوع التالى لحادثات بودتسدام كما أشرنا من قبل يطلع السفير الألمانى فى فينا على كل مايتعلق بخططه كما أحاطه بعدة من المطالب التى كان يرجح أن يضمنها البلاغ النهائى . وقد أبلغت هذه المعلومات الى القائم بالأعمال البفارى فى برلين فلخصها فى رسالة طويلة بعث بها فى ١٨ يوليه قال :

« ستحتوى المذكرة كما أخبرنى تسيمرمان وعلى قدر ما قر الرأى عليه الى الآن ، المطالب الآتية :

« ١ — أن يصدر ملك الصرب منشورا يبين فيه أن الحكومة الصربية لا علاقة لها بحركة صربيا الكبرى ويستهجنها .

« ٢ — اجراء تحقيق مع الاشخاص المدينين بالاشتراك فى حادث الاغتيال الذى وقع فى سيراجيفو واشتراك موظف نمسوى فى هذا التحقيق .

« ٣ — اتخاذ الاجراءات ضد جميع الاشخاص الذين اشتركوا فى حركة صربيا الكبرى .

« وستحدد لقبول هذه المطالب مهلة ثمان وأربعين ساعة ؛ وظاهر أن صربيا لن تستطيع قبولها لأنها لا تتفق وكرامتها كدولة مستقلة ؛ واذن فالنتيجة ستكون الحرب .

« وهنا فى برلين راغبون كل الرغبة فى ان تنتهز النمسا هذه اللحظه المناسبة حتى ولو ترتبت على ذلك تعقدات أخرى . ولكن الذى لا يزال ياجو وتسيمرمان يرتابان فيه هو أن تنتهز فينا الفرصه . وقد أعرب الاخير منهما عن رأيه فى أن النمسا والمجر لترددها وتفككها قد أصبحت هى رجل أوربا المريض كما كانت تركيا من قبل . وأصبح الروسيون والايطاليون والرومانيون والصربيون وأهالي الجبل الاسود يترقبون تقسيمها . فاذا هي قامت بحركة

قوية ناجحة ضـــد صربيا فسوف يترتب على ذلك أن يحس النمسويون والمجريون مرة انهم قوة وطنية فيبعثوا الحياة فى الهيكل الاقتصادى المتداعى ويقمعوا الأمانى الأجنبيه لعدة سنين مقبله . . .

« ويتوقف الموقف الذى تتخذه الدول حيال حرب تقع بين النمسا وصربيا فى الغالب ، كما يرون هنا ، على النمسا وهل تكتفى بتأديب صربيا أو تطلب أيضاً لنفسها أراضى تعويضاً لها . ففى الحالة الأولى يصبح فى الامكان حصر الحرب بين الدولتين وفى الحالة الاخرى لن يخلو الأمر من تعقيدات خطيرة أخرى

« وستفاتح ألمانيا الدول بمجرد تقديم المذكرة النمسوية الى بلغراد فى صدد حصر الحرب وجعلها محلية ؛ وستقول إن عمل النمسا باغتها كما باغت الدول مشيرة الى أن الامبراطور متغيب فى رحلته البحرية فى الشمال وأن رئيس هيئة أركان الحرب ووزير حربية بروسيا غائبان بالاجازة . . .

« ستؤكد انه من المصلحة العامة لكافة الحكومات الملكية أن ينبش « عش الفوضيين » فى بلغراد ويستأصل دفعة واحدة ؛ وستجتهد فى حمل الدول جميعا على الأخذ بالرأى القائل بأن تسوية ما بين النمسا وصربيا أمر يتعلق بهاتين الدولتين وحدهما ؛ وسيمتنع عن تعبئة الجيش الالمانى وسيعملون بواسطة السلطات العسكرية على منع النمسا من تعبئة جيشها كله وعدم تعبئة جيش غاليسيا خاصه تفاديا من أن ترد الروسيا من نفسها بتعبئة جيوشها : الأمر الذى لو حصل لحملنا بدورنا ثم حمل فرنسا بدورها على اتخاذ اجراءات مماثلة فيكون هذا سبباً فى حرب أوربية . »

ويدل الجزء الأول من هذا التقرير الشهير على أن المانيا لم تتلق الا خلاصة وجيزة لجزء من البلاغ النهائى الفعلى الذى تلا بعد ذلك . ومن جهة أخرى فأنه بينا قد ثبت أن الحكومة الألمانية لم يكن لها علم بنصف المطالب ولا بالصيغة الفعلية للبلاغ النهائى (الذى لم يكن فى الواقع قد وضع بعد بصفة نهائية فى فينا) فأن هذه الحكومة كانت تعلم جوهر بعض المطالب

المرجحة التى كانت على أعظم جانب من الأهمية . وكانت تعلم أن البلاغ النهائى سيصاغ بحيث لا ينتظر ان تسلم به صربيا . وإذن فقد كان ياجو كاذبا حينما أكد مرارا بعد ذلك ببضعة أيام أنه ليست له سابقة علم بالمذكرة النمسوية المجرية . وسنعود الى هذا الموضوع بعد قليل . ومع أنه ليس ثمة ما يبرر الكذب فانه يصح أن نشير الى أن السير ادوارد غراى الذى طالما أثر عنه أنه مثال الشرف والنزاهة قد تعمد كذلك الكذب حينما نفى سابق علمه بالشروط المرجحة للبلاغ النهائى . فقد علم فى ١٦ يوليه من صديق لبرشتولد أخبر السفير الانجليزى فى فينا « أن هنالك نوعا من الاتهام يعد للحكومة الصربية باشتراكها فى المؤامرة التى أفضت الى اغتيال الغراندوق . إذ سيطلب من الحكومة الصربية اتخاذ اجراءات معينة محددة لكبح الدعاية الوطنية والفوضية . وحكومة النمسا والمجر لن تأخذ بحال من الأحوال أو ترد مع صربيا ، ولكنها ستصر على الاذعان العاجل بلا شرط ولا قيد والا استخدمت القوة . » ومع ذلك فان السير ادوارد غراى وقد سأل السفير الألمانى فى ٢٠ يوليه ألم تصل اليه أنباء عما يقع فى فينا حيال صربيا ، وتلقى منه الجواب بالنفى أبدى انه هو أيضاً « لم يسمع أخيراً بشىء . » سوى أن الكونت برشتولد قد حادث السفير الايطالى بلهجة مطمئنة . فاما أن يكون السير ادوارد غراى لم يعلم برسالة بنسن الهامة التى تلقتها وزارة الخارجية الانجليزية قبل ذلك بأربعة أيام (وهذا يصعب أن يكون محتملا) واما أن يكون هو أيضاً قد أكد كذباً جهله بما كان يجرى فى فينا . وهذا النوع من الكذب الديبلوماتيكى ليس لسوء الحظ وقفا على دولة بمفردها بل كان يعم الجميع وينغمس فيه وزراء الخارجية والسفراء فى يوليه سنة ١٩١٤ فى كل مكان تقريباً .

وعلى أن المانيا كانت فى خلال الأسبوع الأول أو العشرة الأيام التى تلت اجتماع بوتسدام ، على مثل هذا العلم فيما يتعلق بالبلاغ النهائى كما أسلفنا

البيان فان هذا الشيء الذى علمته كان يعد فى برلين غير نهائى . فانها بعد ١٤ يوليه ظلت تطلب معلومات أخرى عن مقاصد النمسا النهائيـة وعن شروط البلاغ النهائى بالضبط كما تعد الرأى العام لتعضيدفكرة حصرالحرب وجعلها محلية ومن ثم استبان ياجو فى ١٧ يوليه أن خطط برشتولد يمكن أن « يؤثر فيها مجرى الحوادث أو يعدلها » لكنه زعم « أنه يتمثل صورة عامة للمقاصد التى يسعى اليها بما فى ذلك مسألة الأراضى » وكلف السفير الألمـانى فى فينا بناء على ذلك بأن يسعى للحصول على معلومات عن هذه النقطة وعن « الوجهة التى ينتظر أن تؤدى بنا الطريق اليها » . وفى ٢٠ يوليه كتب ثانية يقول « انه لكى يتيسر لنا معالجة الرأى العام نرى أن من الأهمية لنـا بمكان عظيم أن نبلغ الأشياء بالدقة قبل أن تأخذ مجراها وليس ذلك عن فحوى المذكرة فقط بل أيضـاً عن اليوم والســـاعة اللذين تنشر فيهما . الرد تلغرافيا » لكن برشتولد بات الآن لا يعبأ كثيراً بهذه الطلبات فأصبحت ألمـانيا فى الواقع لا تعلم شيئاً جديداً سوى ما يتعلق باليوم الذى ينشر فيـه البلاغ النهائى . وبعناد برشتولد فى رفض نصيحة المانيا الخاصة بايطاليا .

وقد لجأت وزارة الخارجية الالمـانية فى طلب المعلومات الى السفير النمسوى فى برلين وكانت التعليمات التى بيد سيجيينى تفرض عليه أن لا يرى البلاغ النهائى لألمانيا قبل يوم ٢٤ يوليه أى فى صباح اليوم التـالى لتسليمه فى بلغراد . بيد أن سيجيينى ألفى نفسه مضطراً الى أن يبرق الى برشتولد « بأنه يرى من الضرورى بلا قيد ولا شرط أن يعلم الحكومة الالمانية فى الحال أو بعبارة أخرى قبل الدول الأخرى وبصورة سرية جداً » . وقال فى خطاب له فى نفس اليوم : « ان ياجو قد أفهمنى جلياً أن المانيا ستظاهرنا بطبيعة الحال بلا قيد ولا شرط وبكل قواها ولكنه من المصلحة الحيوية لألمانيا لهذا السبب عينه أن تطلع فى حينه على الغاية التى تؤدى طريقنا اليها . » وعلى ذلك أبدى برشتولد فى عصر اليوم التالى أى فى ٢٢ يوليه موافقته نهائياً وأطلع سيجيينى

ياجو على نص البلاغ النهائى . وبعد ان قرأ ياجو البلاغ فى مساء الأربعاء ٢٢ يوليه أخبر سيجيينى أن البلاغ فى رأيه « أشد مما يجب » وأبعد فى المطالب مما ينبغى . ثم لام السفير النمسوى على تبليغه إياه فى اللحظة الأخيرة فقط فأجابه سيجيينى بأنه لم يعد فى الامكان عمل شىء فى شأنه لأنه أرسل فعلا الى بلغراد . وسيقدم هناك فى صباح اليوم التالى وتنشره شركة تلغرافات فينا رسمياً فى نفس الوقت .

وبينما كان ياجو ينظر فى البلاغ النهائى جاءته نسخة أخرى منه كانت قد وصلت من تشيرشكى ولما تكد . ومن الغريب أن فورجاخ وكان يجهل أمر برشتولد لماتشيو بأن لا يطلع تشيرشكى على نص البلاغ « لأنه لا تزال هنالك تصحيحات ستجرى فيه » — نقول من الغريب أن فورجاخ سلم الى تشيرشكى هذا البلاغ فى اليوم السابق فى فينا ليبعث به الى برلين . «وقد أكد فورجاخ أنه لاطلاع سعادتكم بصفة شخصية بحته لأن الامبراطور لم يصدق عليه بعد وان كان لا شك هنالك فى أنه سيصدق عليه . » وقد بعث به تشيرشكى بالبريد بدلا من أن يرسله برقيا والراجح أنه خشى ان نشره فيما بعد قد يعرض الشفرة الألمانية للخطر . لذلك لم يصل برلين الا فى مساء ٢٢ يوليه حيث كان ياجو مكباً على النسخة التى أعطاه إياها سيجيينى مقطب الجبين . أما بيتمان الذى كان فى هوهنفينو إذ ذاك فيظهر أنه لم يعلم بنص المذكرة الا فى ساعة متأخرة من ليل ٢٢ يوليه أو فى صباح ٢٣ لكنه لما اطلع عليه كان رأيه فيه كرأى ياجو أى أنه أشد مما يجب . وكان الأمبراطور غليوم فى عرض البحر على ظهر يخته هوهنتزولرن فلم يسمع بفحوى البلاغ النهائى الا بعد ذلك ، وكان سماعه به من شركة صحفية لا رسميا من وزارة الخارجية الألمانية كما نعلم من برقية حادة بعث بها الى « مستشاره المدنى » .

وهكذا كان صحيحاً أن ألمانيا عرفت خلاصة بعض شروط البلاغ النهائى وأنها كانت عالمة بأنها يحتمل أن تؤدى الى حرب محلية مع صربيا لكنها لم

تكن لها سابقة علم بنصه بوقت كاف لتعديله أو لسحبه . وقد حال دون ذلك ما كان يلجأ اليه برشتولد من وسائل الأمر الواقع . وفى الوقت الذى أطلع فيه ياجو نهائياً على النص أى فى ٢٢ يوليه كان باقياً على تقديم وزير النمسا المفوض إياه فى بلغراد أقل من ٢٤ ساعة ، إذ كان النص فى يده . ولو أنه كان يتيسر حينذاك ما يتيسر فى هذه الأيام الحديثة من المسارة والبرق لكان مع ذلك من المستحيل فعلا على الموظفين الألمان والنمسويين فى برلين وفينا وبلغراد أن يتصلوا بعضهم ببعض فى وقت وجيز كهذا وأن يتفقوا على إجراء تعديل فى البلاغ . وحتى لو كان بيتمان وياجو قد اطلعا على نصه قبل ذلك بكثير فليس من سبيل الى الزعم بأنهما كانا يعدلانه أو يقفانه . والراجح أنهما كانا يلتزمان السياسة التى اتخذاها فى ٥ يوليه وهى أن المسألة النمسوية الصربية « ليست من اختصاص ألمانيا » لكن على ألمانيا أن تؤيد حليفتها فى العمل الذى قررته لحماية نفسها من خطر « صربيا الكبرى » . ولقد شعرا بأن عليهما أن يرضيا الأمر الواقع الذى هيأه برشتولد . وقد كان هذا الأمر الواقع نتيجة جهالتهما إذ أطلقا يده فى العمل فى ٥ يوليه . ولو أنهما استنكرا عمل النمسا فى اللحظة الأخيرة لكان هذا أحكم بالتأكيد من حيث تطور الحوادث لكنه كان يكون معناه أن تضعف المحالفة الثلاثية كثيراً حيال الوفاق الثلاثى الذى كان يتوثق على الأيام ويقوى . وأن يعجل بانحلال النمسا فى الداخل ما يجده الرعايا السلافيون الدائبو الحركة من تشجيع ، ثم لكانت هيبة النمسا المتلاشية فى البلقان قد زالت تماماً ولسادت الروسيا البلقان بسكانها المتكاثرين وأطاعها المتزايدة وعجلت باليوم الذى تسيطر فيه على الآستانة والمضايق .

وقد استخلص بيتمان وياجو أنه كلما أيدوا النمسا بهمة كلما كان نجاحهم فى حصر النزاع ومنع الروسيا والدول الأخرى من التدخل أضمن . لذلك لما أبلغت النمسا الدول الأوربية فى صباح ٢٤ يوليه نص المذكرة الموجهة الى صربيا فى الليلة السابقة تبعتها ألمانيا فى الحال بتصريحات أيدت فيها النمسا فى

التهم التى وجهتها الى صربيا ونوهت بأهميـــة حصر النزاع . وأدلى ياجو بالتأكيدات التى أوردناها آنفا عن أن ألمانيا لم تكن لها سابقة معرفة بمحتويات البلاغ النهائى . بيد أن وزارة الخارجية الألمانية بادعائها أنها تجهل كل الجهل إجراء النمسا وموافقتها فى الوقت نفسه على هذا الاجراء عندما اتخذ ، وضعت نفسها فى مركز مصطنع متناقض لم يكن من غير الطبيعى معه أن تشتبه دول الوفاق فى أنها سيئة النية . فقد اشتبهت هذه الدول فى أن السلطات الألمانية مسئولة أكثر مما هى عن النمسا ، وأنها تدبر خططا أبعث على الأسف مما كانت فى الواقع . ولم تكن هذه الريب غير طبيعية فى تلك الظروف ؛ ومع أنها كانت بعيدة عن الحقيقة فقد أذيعت بهمة وخاصة بواسطة ممثلى فرنسا ، وساعدت كثيرا على أن تجرى الحوادث فيما بعد مجرى مشئوما . ذلك أنه لما أدركت ألمانيا مؤخرا أنه قد لا يكون فى الأمكان حصر الحرب بين النمسا والمجر بعـــد كل هذا وبذلت مجهودا صادقا فى ضبط النمسا وتجنب حرب أوربية عامة ، لم تلق أقوالها تصديقاً كثيرا من جراء هذه الشبه التى أثارها تأكيد ياجو أن ألمانيا كانت تجهل البلاغ النهائى . واذا تزعزع الاعتقاد بحسن النية مرة أصبح من الصعب تثبيته . وقد كان من الخطورة بمكان ارتكابها ، الى الغلطة التى ارتكبتها بأطلاق يد برشتولد فى ٥ يوليه ، غلطة ثانية هى قولها غير الصدق فيما يتعلق بسابق علمها بالبلاغ النهائى .

البلاغ النهائى

فيما يلى نص المذكرة التى وجهتها النمسا الى صربيا فى ٢٣ يوليه فى الساعة السادسة مساء وأبلغت الدول عنها فى صباح اليوم التالى .

« فى ٣١ مارس ١٩٠٩ أبدى وزير صربيا المفوض فى فينا بناء على تعليمات الحكومة الصربية التصريح الآتى للحكومة الأمبراطورية الملكية :

« تعترف صربيا بأن الأمر الواقع الخاص بالبوسنه لم يؤثر فى حقوقها

وعلى ذلك ستوافق على القرارات التى يمكن أن تتخذها الدول طبقا للمادة ٢٥ من معاهدة برلين ، واحتراماً لنصيحة الدول العظمى تتعهد صربيا من الآن فصاعدا بالعدول عن موقف الاحتجاج والمعارضة الذى اتخذته حيال الضم منذ الخريف الفائت . كما تتعهد بتعديل اتجاه سياستها حيال النمسا والمجر وبأن تعيش فى المستقبل مع هذه الدولة عيشة حسنة تقتضيها الجوار » .

« وقد دل تاريخ السنوات الأخيرة وخاصة الحوادث الأليمة التى وقعت فى ٢٨ يونيه الماضى على وجود حركة ضارة غرضها انتزاع جزء من أراضى النمسا والمجر من المملكة . وهذه الحركة التى ولدت تحت أعين الحكومة الصربية قد تفاقمت حتى باتت ظاهرة على جانبى الحدود الصربية فى صورة من أعمال الأرهاب والاعتداءات وجرائم القتل .

« فالحكومة الصربية الملكية بدلا من أن تقوم بتعهداتها الرسمية التى تضمنها تصريح ٣١ مارس ١٩٠٩ لم تعمل شيئا لقمع هذه الحركات . وسمحت بالأعمال الأجرامية التى وجهتها عدة جمعيات الى المملكة ، وتركت للصحف الحبل على الغارب فى لهجتها ، وأغضت عن تمجيد المعتدين واشتراك الضباط والموظفين فى حملة التهييج المؤذية . ولقد سمحت بدعاية بشعة فى المعارف العامة وبالجملة سمحت بكل المظاهر التى تدفع السكان الصربيين الى بغض المملكة واحتقار سننها .

« فهذا التهاون الجدير بالملام من جانب الحكومة الصربية الملكية لم ينقطع فى اللحظة التى أثبتت فيها حوادث ٢٨ يونيه أخيرا عواقبها الوخيمة للعالم باسره .

« وقد ثبت من شهادة مرتكبى جريمة ٢٨ يونيه واعترافاتهم أن اغتيالات سيراجيفو قد دبرت فى بلغراد وأن الأسلحة والمفرقعات التى زود بها القتلة قد أعطاهم إياها ضباط وموظفون صربيون ينتمون الى جمعية نارودنا أودبرانا ، وأخيرا أن مرور القتلة وأسلحتهم فى البوسنه قد دبره ونفذه رؤساء مصلحة الحدود الصربية .

« وهذه النتائج الآنفة الذكر التى توصل اليها التحقيق لا تسمح للحكومة النمسوية المجرية بعد الآن بالوقوف موقف من يضبط النفس انتظاراً لما يكون. وهو الموقف الذى وقفته عدة سنوات حيال الأعمال التى كانت تدبر فى بلغراد وتذاع من هناك فى أراضى المملكة . وهذه النتائج على النقيض من ذلك تحتم عليها وضع حد للدسائس التى تهدد على الدوام أمن المملكة .

« فلكى تصل الحكومة الأمبراطورية الملكية الى هذه الغاية ترى نفسها مضطرة الى أن تطلب من الحكومة الصربية الملكية تأكيداً رسمياً بأنها تستنكر هذه الدعاية الخطرة ضد المملكة ، وبعبارة أخرى ، كافة الميول والنزعات التى ترمى فى النهاية الى فصل أراض من المملكة تابعة لها ، وتتعهد بأن تقمع بكل الوسائل هذه الدعاية المجرمة المنطوية على الارهاب .

« ولكى يكتسب هذا التعهد صفة رسمية تنشر الحكومة الصربية الملكية على الصفحة الأولى من الجريدة الرسمية المؤرخة فى ٢٦/١٣ يوليه التصريح الآتى :

« تستنكر حكومة صربيا الملكية الدعاية الموجهة ضد النمسا والمجر وبعبارة أخرى النزعة العامة التى ترمى الى غاية هى فصل أراض تابعة لمملكة النمسا والمجر . وتأسف من قلبها للعواقب الوخيمة المترتبة على هذه الاعمال المجرمة . »

« تأسف الحكومة الملكية لاشتراك ضباط وموظفين صربيين فى الدعاية الآنفة الذكر واساءتهم بذلك الى علاقات الجوار الحسنة التى تعهدت بها الحكومة الملكية بتصريحها المؤرخ فى ٣١ مارس سنه ١٩٠٩ »

« الحكومة الملكية التى تستهجن وترفض كل فكرة للتدخل أو الشروع فى التدخل فى مصائر سكان أية جهة من جهات النمسا والمجر — ترى من واجبها أن تنذر رسمياً الضباط والموظفين وكافة أهالى المملكة بأنها من الآن فصاعدا ستتخذ أحزم الاجراءات ضد الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا مدانين بأعمال كهذه — وهى أعمال ستفرغ الحكومة قصاراها فى كشفها وقمعها » .

« يذيع جلالة الملك فى نفس الوقت منشوراً بهذا التصريح على الجيش الملكى ويعلن المنشور فى « النشرة الرسمية » المتعلقة بالجيش .

« تتعهد الحكومة الصربية الملكية عدا ذلك بما يلى .

١ — أن تعطل كل نشرة تحرض على كراهية مملكة النمسا والمجر واحتقارها وتكون نزعتها العامة موجهة ضد سلامة أراضيها .

٢ — أن تحل فى الحال الجمعية المسماة نارودنا أودبرانا وتصادر جميع الوسائل التى تستخدمها فى الدعاية وتسلك نفس هذا المسلك مع ما يشتغل بالدعاية الموجهة ضد مملكة النمسا والمجر من الجمعيات الأخرى وفروعها . وتتخذ الحكومة الصربية الملكية الاجراءات اللازمة لمنع الجمعيات المحلولة من متابعة أعمالها تحت اسم آخر أو بصورة أخرى .

٣ — أن تستأصل دون ابطاء من المعارف العامة فى صربيا كل شىء يعين أو يمكن أن يعين على ايجاد دعاية ضد النمسا والمجر وذلك سواء فيما يتعلق بهيئة التدريس أو وسائل التعليم .

٤ — أن تبعد من الخدمة العسكرية ومن السلك الادارى على وجه العموم جميع الضباط والموظفين المدانين بالدعاية ضد مملكة النمسا والمجر والذين تحتفظ الحكومة النمسوية المجرية بحق تقديم اسمائهم وإبانة أعمالهم للحكومة الملكية .

٥ — أن تقبل فى صربيا معاونة ممثلى الحكومة النمسوية المجرية على قمع الحركة المؤذية الموجهة ضد سلامة أراضى المملكة .

٦ — أن تتخذ الاجراءات القضائية مع من لهم ضلع فى الأراضى الصربية فى مؤامرة ٢٨ يونيه . وتشرك مندوبين من قبل الحكومة النمسوية المجرية فى التحقيق المتعلق بذلك .

٧ — أن تلقى القبض بلا إبطاء على الماجور فوجاتانكوستش وعلى المدعو ميلان سيجانوفتش من موظفى الحكومة الصربية وهما اللذان أسفر تحقيق سيراجيفو عن اشتراكهما .

٨ — أن تمنع باجراءات فعالة تعاون السلطات الصربية على النقل المحظور للأسلحة والمفرقعات عبر الحدود، وأن ترفت وتعاقب بشدة موظفى الحدود المدانين فى شابات ولوزنيكا بأنهم ساعدوا مرتكبى جريمة سيراجيفو بتسهيل مرورهم عبر الحدود.

٩ — أن تقدم الى الحكومة الأمبراطورية الملكية ايضاحات عن تصريحات لا مبرر لها صدرت عن بعض كبار الموظفين الصربيين فى صربيا والخارج إذ لم يترددوا منذ وقعت جريمة ٢٨ يونيه وعلى الرغم من مراكزهم الرسمية فى الاعراب عن عدائهم للحكومة النمسوية المجرية فى أحاديث لهم.

١٠ — أن تبلغ الحكومة الأمبراطورية الملكية دون إبطاء تنفيذ الاجراءات التى تشتمل عليها البنود السابقة.

« وتنتظر الحكومة النمسوية المجرية رد الحكومة الملكية فى الساعة السادسة من مساء السبت ٢٥ يوليه على الأكثر. »

ولا يسع من ينظر الى هذه المطالب فى ضوء ما أسلفناه فى الفصول السابقة عن اغتيال سيراجيفو وعن الظروف المؤدية اليه وعدم مبادرة صربيا الى اتخاذ اجراءات للاهتداء الى الشركاء والقبض عليهم واقتناع النمسا بأن كيانها فى خطر — نقول إنه لا يسع من ينظر الى هذه المطالب فى ضوء هذا كله أن يقول انها على رغم قسوتها المتناهية قد تجاوزت الحد من وجهة نظر النمسا. فلو أنه كان قد أريد بها فقط معاقبة أولئك الذين كانت لهم علاقة باغتيال سيراجيفو والحصول على ضمانات لصيانة الأمن فى المستقبل لكان ثمة ما يبررها. أما وهى قد صيغت وفى النية أن ترفض وأن يؤول رفضها الى حرب محلية مع صربيا فيجب أن يكون نصيبها الاستهجان من الوجهتين الأدبية والعملية والانحاء عليها كسبب رئيسى من أسباب الحرب العالمية. وألمانيا برضاها إياها وتصديقها عليها يجب أن تتحمل نصيبها من هذا الاستنكار.

الفصل السادس

الخطر الروسى

كان للأنباء الأولى التى وصلت عن اغتيال الغراندوق فرانتس فرديناند وقع أليم فى الروسيا وفى كل مكان من العالم المتمدين على السواء، بيد أن شعور الكراهية الذى كان يسود الروسيا من ناحية النمسا والمجر والذى كان يزداد باطراد منذ كانت أزمات البلقان، سرعان ما غمر جميع آيات العطف على العاهل النمسوى المسن فى أخرى محنه الأليمة الكثيرة. فكان السفير الألمانى لا يسمع فى الصحف وفى المجتمع على السواء الا تعليقات غير ودية عن الغراندوق النمسوى القتيل كقولهم إن الروسيا بموته قد تخلصت من عدو لدود

وفى أواسط يوليه كان سازونوف (وزير الخارجية الروسية) يقضى عدة أيام فى ضيعته بالريف على مقربة من جرودنو طلباً للراحة واستجماماً لقواه قبل زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية ورئيس وزارتها، وكانت قريبة يقدر أن تضنيه واجباتها. وقد كانت غيبته هذه عن سان بطرسبورغ لا ضير فيها؛ لكنه لما رجع الى وزارة الخارجية الروسية فى ١٨ يوليه أخذ القلق يساوره ويشد على أعصابه موقف ولاة الأمور فى فينا — ذلك الموقف المنطوى على صمت لا يبشر بخير، ثم تلك المجادلات الحامية التى كانت قائمة بين للصحف النمسوية والصربية والتهم التى كان كل فريق يكيلها للآخر. وكان السفير الايطالى قد أبلغ السكرتير البارون شيلنج ماكان يساوره من أن النمسا على وشك أن تلجأ مع صربيا الى اجراء لا يمكن إصلاحه. ومن ثم ردد سازونوف لسفيرى النمسا وألمانيا ما كان يراه من أنه من الظلم أن يؤخذ الشعب الصربى بأسره بجريرة فرد كما تفعل الصحف النمسوية. وقد قال

للسفير النمسوى « إن الروسيا لن تقابل بعدم الاكتراث أى سعى لاذلال صربيا ؛ والروسيا لن تسمح للنمسا بأن تستعمل مع صربيا لهجة التهديد أو أن تتخذ حيالها اجراءات عسكرية . وبالجملة إن سياسة الروسيا هى سياسة سلمية لكنها ليست سلبية » . فأبان له السفير بعبارات تنطوى على محبة السلام أن النمسا لا تنوى أقل نية أن تزداد علاقاتها بصربيا حدة . فهدأ هذا البيان روع سازونوف كل التهدئة حتى قال لشيلنج إنه لا حاجة الى الالتجاء الى التهديدات بعد إذ أكد له السفير حب حكومته للسلام . « فقد كان وديعاً كالحمل » .

زيارة بوانكاريه للروسيا

فى ينـاير ١٩١٤ سأل الفرنسيون سازونوف متى يكون من المناسب للرئيس بوانكاريه أن يكرر زيارته الصيفية للروسيا وهى التى قام بها فى أغسطس ١٩١٢ قبل نشوب الحرب البلقانية بأمد وجيز . فتم الاتفاق نهائياً على أن يصل الرئيس الى كرونشتات فى الساعة الثانية بعد ظهر ٢٠ يوليه ويسافر فى الساعة الحادية عشرة فى مساء ٢٣ يوليه . فلمـا وقع الاغتيال فى سيراجيفو تباحثت الوزارة الفرنسية فى هل يكون من المرغوب فيه أن يبارح الرئيس فرنسا ثم لم تلبث أن قررت أن الغاء ترتيبات مهمة سبق أن أعلنت عمـا يزعج الرأى العام على الحالة فى أوربا بخاصة والأمبراطور (غليوم) قد تحـاشى ذلك بالمضى فى نزهته الشمالية . لـكن جان جوريه مع ذلك ، وهو الاشتراكى والمؤرخ الفرنسى المجرب الذى كان يوجس شرا من سياسة ايزفولسكى وبوانكاريه ، رفض أن يجيز اعتمادات الرحلة معلنا أن من الخطر على فرنسا أن تزداد تورطا فى مشاكل الشرق الأدنى المنطوية على المغامرات وفى تدابير معاهدة لا يعرف الجمهور الفرنسى لا نصها ولا عواقبها . بيد أن رئيس الجمهورية الفرنسـية ورئيس وزارته أبحرا من دنكرك على ظهر الطرادة فرنسا فى ١٥ يوليه . وبعد خمسة أيام كان فى استقبالها بعيداً عن

بيترهوف كل من سازونوف وباليلوج وايزفولسكى فالقيصر بعد ذلك .

لقد كان من بين أغراض بوانكاريه تلطيف الانقسام الذى كان قائما بين بين انجلتره والروسيا على فارس ليتسنى له الوصول الى تعاون أوثق بين حليفة فرنسا وصديقتها فيمهد بذلك الطريق لتجديد المفاوضات لعقد اتفاق بحرى بين انجلترة والروسيا . وكانت هذه المفاوضات قد قطعت من جراء الاشاعات التى تسربت عنها وكراهية السير ادوارد غراى أن يمضى فى مفاوضات سبق أن نفى وجودها علانية فى البرلمان . لكنه كان بالتأكيد من بين الموضوعات الرئيسية التى تناولها بحثهم تقوية أواصر المحالفة الفرنسية الروسية ، والوفاق الثلاثى ، وخاصة الاجراءات التى تتخذ حيال الدلائل التى كانت تتزايد عن تبييت النمسا توجيه بلاغ نهائى جاف الى صربيا .

وفى كل الأحاديث التى دارت فى غضون الثلاثة الأيام التالية كان بوانكاريه كما ينتظر من شخصيته المؤثرة الوثابة ، هو الذى يقود زمام المناقشة « وينغم الآلات » وقد لاحظ باليلوج من المبدأ ، والضيفان يغادران الطرادة فرنسا فى زورق بخارى « أن القيصر والرئيس ، وكانا جالسين فى المؤخرة ، أخذا بأطراف حديث كان بوانكاريه هو الذى يديره حتى بات هو المتكلم وحده أما القيصر فكان يوافق فقط » . وفى الوليمة الرسمية ، التى أولمت فى المساء فى بيترهوف أعرب القيصر وهو يرحب بضيفه عن أمله فى أن يستمر البلدان يتمتعان بمزايا السلام الذى تضمنه كامل قوتهما ، بزيادة الروابط التى تربطهما إحكاما على الدوام . فرد بوانكاريه ردا مسهباً رأى باليلوج فيه قوة السلطة ولهجتها ذات المغزى ، فذكّر بأنه قد مضى على المحالفة الروسية خمس وعشرون سنة ثم أضاف الى ذلك قوله :

« ان المحالفة القائمة على اشتراك المصالح المقدسة بما يحدو الحكومتين من الرغبة فى السلام ، المؤيدة بالقوى المسلحة براً وبحراً — تلك القوى التى تعرف بعضها بعضا وتقدر بعضها بعضا ويعمل بعضها مع بعض كأخوة —

المعززة بالتجارب الطويلة والمتممة بالصداقة القيمة ، هذه المحالفة التى بدأها القيصر العظيم اسكندر الثالث والمأسوف عليه الرئيس كارنو قد اثبتت على الدوام الى الآن نفعها وبرهنت على قوتها التى لا تتزعزع . فتأكدوا جلالتكم أن فرنسا ستواصل فى المستقبل ما أدته فى الماضى من أعمال السلم والمدنية — تلك الأعمال التى لم تن الحكومتان ولا الشعبان عن القيام بها . »

وفى صباح اليوم التالى ٢١ يوليه تحدث بوانكاريه والقيصر عن الحالة الأوربية العامة وخاصة عن المسألة الفارسية . فأكد له القيصر أنه لن يسمح بأن تحدث فارس انقساما بين انجلتره والروسيا . وفى عصر ذاك اليوم توجه الضيفان الى سان بطرسبورغ لاستقبال الجالية الفرنسية والهيئة الديبلوماتيكية وما كان أشد دهشتهما حينما لم يرافقهما القيصر . والراجح أن سبب ذلك يرجع الى الاعتصابات الشديدة التى نشبت هنـاك حيث كان العمال أكثر اهتماما بشكاواهم منهم بممثلى الرأسمالية الفرنسـيـة . وقد قدم باليلوج فى الاستقبال الذى جرى فى قصر الشتاء زملاءه أعضاء الهيئة السياسية الى رئيس الجمهورية الفرنسية فتلطف مع الجميع فى الحديث فيما عدا السفير النمسوى ، وحدث بورتاليس عن أسلافه الفرنسيين لكنه لم يخاطبه بكلمة عن السياسة ، وأبدى لموتونو موافقته الفعلية على اشتراك اليابان مع الوفاق الثلاثى فى العمل ، وكرر لبوكانان تأكيدات القيصر عن فارس ثم تناول بهذه المناسبة الكلام فى الراجح عن اقتراح السير ادوارد غراى الأول الذى ارتأى فيه الالتجاء فى حل المشكلات الأوربية التى قد تنشأ عن المسألة النمسوية الصربية الى « محادثات مباشرة » بين الروسيا والنمسا ، فرفض هذا الاقتراح رفضاً باتاً وان كان باليلوج لم يذكر لا هو ولا بوانكاريه شيئا عن ذلك فى مذكراتهما . ولما جاء دور تسابارى السفير النمسوى انتهز بوانكاريه الفرصة لجس نبضه فيما يتعلق بنيات برشتولد وتحذيره بلهجة تقرب أن تكون تهديدا من اعتبار صربيا مسئولة :

« لقد سأل الرئيس تساباري بعد أن عزاه بيضع كلمات عن مقتل الغراندوق فرانتس فرديناند فقال :

« أعندك أنباء عن صربيا ؟ » .

« فأجابه تساباري فى برود « إن التحقيق القضائى يتقدم » .

« فعقب بوانكاريه على ذلك بقوله :

« ان نتائج هذا التحقيق تثير قلقي ياحضرة السفير . فأنى لأذكر تحقيقين سابقين لم يحسنا علاقاتكم بصربيا فهل تذكر قضية فريد يونج وقضية بروشاسكا ؟ » .

« فأجابه تساباري فى جفاء :

« إننا يا حضرة الرئيس لا نطيق من أية حكومة أجنبية أن تسمح بأن تدبر فى أرضها جرائم القتل لمناهضة سيادتنا .

« فحاول بوانكاريه أن يريه فى لهجة هي غاية فى المسالمة أنه يجدر بجميع الحكومات أن تسلك سبيل الحكمة فى مثل الحالة النفسية التى تتملك أوربا فى الوقت الحاضر . قال « إن قليلا من حسن الارادة خليق أن يسهل تسوية المسألة الصربية . ومن السهل كذلك أن تستفحل . فلصربيا فى الشعب الروسى أصدقاء حميمون . وللروسيا حليفة هى فرنسا . فما أكثر ما يخشى هنا من ارتباكات ! » . هذا الوصف من باليلوج لمحادثة بوانكاريه مع السفير النمسوى قد أيده فى جوهره تساباري نفسه الذى ختم تقريره الطويل عنها بهذه الملاحظة الأريبة :

هذا المسلك من الرئيس ، الخلو من الكياسة والصادر عن رئيس دولة أجنبية يقوم هنا بزيارة — المسلك المنطوى على التهديد والمختلف اختلافاً بيناً عن موقف سازونوف المنطوى على التحفظ والحذر يثبت ما توقعنا من انه لن يكون من بوانكاريه الا كل ما يثير الحالة . »

ولما انحني تساباري وانصرف أبدى بوانكاريه لباليلوج أن الحديث لم

يترك فى نفسه أثراً طيباً : « فالظاهر ان النمسا تبيت ضربة مباغتة يتكتمها تساباري . فيحب أن يثبت سازونوف ، وعلينا نحن أن نؤيده » ، وهذه العبارة خير مايفصح عن مغزى زيارة بوانكاريه للروسيا . فقد كان يعلم عن سازونوف مزاجه الزئبقى السريع التحول ووطنيته الروسية الحارة التى تنقلب مع ذلك الى رغبة سلبية صادقة ، وتهيبا بعينه جعله يحجم فى أوقات عصيبة عن تأييد الصربيين الى درجة الحرب ، فأراد بوانكاريه أن يشد أزر سازونوف حيال النمسا ، وأراده على أن يحذرها من إرهاق صربيا بمطالب لا تقبل ، كما أراد أن يمنعه عند اللزوم من قبول أى تراض يمكن أن يعتبر هزيمة سياسية للوفاق الثلاثى على يد ألمانيا والنمسا .

وقد قوت زيارة بوانكاريه أيضاً من ساعد الحزب العسكرى الروسى كثيراً وكان يرأسه الغراندوق ويريد أن يتخذ سازونوف موقفاً أكثر نزوعا الى العدوان ويجتهد خلال ذلك فى الضغط على القيصر المحب للسلام . وقد أجاد باليلوج فى وصف روح الحرب « وحالة الشمبانيا » — وهو ما أثاره وجود الزائرين الفرنسيين — فى تقريره عن المأدبة التى أقامها الغراندوق تكريماً لبوانكاريه فى مساء ٢٢ يوليه عقب استعراض عسكرى فى كراسنوسيلو فقد وصل باليلوج قبل الميعاد ببضع دقائق فوجد أميرتى الجبل الأسود اناستاسيا وميلتسا زوجتى الغراندوق نيقولا والغراندوق بطرس على التعاقب تنمقان المائدة فأخذتا معا فى محادثته فى لهجة تدل على الانفعال :

« أتعلم اننا تم[illegible] تاريخية ، أيام مباركة ! فغداً لن تعزف الجوقات فى الاستعرا[illegible] سوى مارش اللورين والسومبر والموز . وقد تلقيت اليوم برقية من والدى يبلغنى فيها أن الحرب ستقع قبل أن ينتهى الشهر . فياله من بطل ، والدى ! انه جدير بالألياذه . انظر هنا الى هذا الصندوق — انها لا تفارقنى ففيها تراب اللورين ، أجل ، تراب اللورين الذى جمعته وراء الحدود عند ما كنت مع زوجى فى فرنسا من سنتين والآن انظر الى مائدة الشرف !

إنها مزدانة كلها بالعوسج ! وما كنت لأرضى بأن تزينهـــا أزهار أخرى ! والآن ! انه عوسج من اللورين . وقد انتزعت بضعة عيدان من الأرض المضمومة وأحضرتها معي وبذرت حبها فى حديقتى . ميلتسا ، حدثى السفير أيضاً وقولى له ما يعنى هذا اليوم لنا بينما أذهب وأستقبل القيصر » .

« وفى أثناء تنـــاول الطعام كنت جالساً فيما يلى الغراندوقة أناستاسيا فاستأنفت هذه الأناشيد ممزوجة بالتنبئات فقالت « ان الحرب ستنشب ولن يبقى شيء من النمسا قائما . سنسترد الألزاس واللورين وستتلاقى جيوشنا فى برلين . وسنقضى على ألمانيا . »

« ثم قالت فجأة — « يجب أن أضبط نفسى فأن القيصر ينظر الى . »

وفى ساعة متأخرة من تلك الليلة نفسها أى فى الساعة الرابعة صباحا بعث سازونوف الى القائم بالأعمال الروسى فى فينا بالبرقية المنذرة التى قال لشلنج قبل زيارة بوانكاريه أنها لا لزوم لها وهى :

« أرجو أن تبين بصورة ودية لكن فى حزم، العواقب الخطرة التى تترتب على أى عمل تقوم به النمسا ويكون ماساً بكرامة صربيا . وقد كلف السفيران الفرنسى والانجليزى بأن يدعوا الى الاعتدال . »

وقد صادق بوانكاريه على هذا تمام المصادقة وأرسلت التعليمات التى تتفق مع ذلك الى السفير الفرنسى فى فينا . بيد أن وزارة الخارجية البريطانية أدركت الخطر الذى ينطوى عليه تهديد مقنَّع كهذا ، فقد لاحظ السير أيركرو « أن مثل هذا التبليغ لفينا خليق أن يحدث تهيجا شديدا دون أى نفع يرجى » . وكان السير ارثر نيكولصن يخشى « أن لا تنطوى هذه الحركة على الفطنة » . وقرر السير ادوارد غراى أن يرجىء اى اجراء الى اليوم التالى .

ان هذه الحركة التى حاولت بها فرنسا والروسيا صرف النمسا عن مطالبة صربيا بشىء لم تفد مع ذلك شيئا ، لأن القائم بالأعمال الروسى فى فينا لم يتلق تعليماته إلا فى الساعة الثالثة بعد ظهر ٢٣ يوليه . وقد ذهب من فوره الى وزارة

الخارجية لكنه أبلغ أن برشتولد مشغول جداً ولا يستطيع مقابلته الا فى صباح اليوم التالى . وفى تلك الأثناء قدم البلاغ النهائى فى بلغراد فى الساعة السادسة من مساء ٢٣ يوليه . وحتى لوكانت هذه التعليمات وصلت قبل ذلك لما منعت برشتولد بالتأكيد من تنفيذ ما أراد بخاصة لموقف انجلتره وتحاشيها القيام بشىء ولتصميم الوزارة النمسوية الثابت .

لقد حققت زيارة بوانكاريه كما أبلغ سازونوف وباليلوج السفير الانجليزى فى صباح اليوم التالى بصفة سرية ، النقط الآتية :

١ — الاشتراك التام فى الآراء فى مختلف الوسائل التى تواجه الدول فيما يتعلق بالمحافظة على السلام العام والتوازن الدولى فى أوربا وخاصة فى الشرق .

٢ — قرارا بالسعى لدى فينا للحيلولة دون مطالبة صربيا بايضاحات أو مطالب أخرى تعتبر بمثابة تدخل فى شئونها الداخلية وتبرر أن تعتبرها هذه اعتداء على سيادتها واستقلالها .

٣ — توكيداً رسمياً للواجبات التى تفرضها محالفة البلادين .

وقد أفسدت النمسا ثانيةَ هذه النقط كما رأينا بمبادرتها الى العمل فى بلغراد قبل أن يستطيع السفيران الروسى والفرنسى تنفيذ تعليماتهما . أما النقطتان الأولى والثالثة فتفسرهما الحوادث التى تلت . فقد استخدمهما السفير الفرنسى فى سان بطرسبورغ بمثابة « تحويل على بياض » وعدت به فرنسا بتأييد الروسيا تأييداً تاماً فى كل ما يمكن أن تتخذه لمنع النمسا من تنفيذ خططها التى قرر برشتولد تنفيذها ، والتى لم تكن معروفة بعد لبقية أوربا . وهذا ظاهر من التأكيدات التى لم ين باليلوج عن إعطائها لسازونوف عند ما أقدم الأخير على اتخاذ اجراءات عسكرية سرية فى الروسيا تمهيداً للتعبئة ولحرب أوربية عامة .

خطة سازونوف الخاصة « بالتعبئة الجزئية »

فى ٢٤ يوليه

فى صباح يوم الجمعه ٢٤ يوليه أحاط سفراء النمسا فى كل الجهات حكومات تلك البلاد بالبلاغ النهائى الذى كان قد قدم فى بلغراد فى مساء اليوم السابق. فكان لمطالبه الصارمة ولهجته العنيدة وقع أليم فى كل مكان ما عدا برلين وهجست بالخواطر من أجله شر الهواجس.

وقد وصفه السير ادوارد غراى بأنه « أهول وثيقة رأى أن دولة وجهتها الى دولة أخرى مستقلة ». لكنه لم يعن بالبحث فى ماهية الخلاف بين النمسا وصربيا لأن الأمر لم يكن من شأن انجلترا. فهو ان أهتم بالموضوع فانما يهتم به من وجهة السلام الأوربى ولذا سينتظر حتى يسمع آراء الدول الأخرى. وبعد أن حادث السفيرين الفرنسى والألمانى أخذ يرتئى طائفة من الاقتراحات للمحافظة على سلام أوربا سنعرض لها فيما بعد.

وفى باريس ارتبك بيانفنى - مارتان وزير الحقانيـة الذى كان وزيراً للخارجية بالنيابة فى غيبة بوانكاريه وفيفيانى ارتباكا لا مزيد عليه. فلم يعرف ما يفعل سوى إبلاغ الرئيس والوزير الغـائبين ما جد من تطور وتقديم بعض النصح الى صربيا مقروناً بالحذر. لكنه سرعان ما تلقى باللاسلكى تعليمات من الطرادة فرنسا حيث كان بوانكاريه وفيفيانى قد علما بجوهر البلاغ النهائى من برقية لاسلكية تلقياها من الروسيا. فقد أرسل فيفيانى على الأثر رسائل لاسلكية الى سان بطرسبورغ ولندن وباريس « بأن من رأيه (١) أن تقدم صربيا فى الحال كل الترضية التى تتناسب مع شرفها واستقلالها (٢) أن تطلب مد مهلة الأربع والعشرين الساعة [هكذا] التى تطلب النمسا الرد فى خلالها (٣) أن تؤيد انجلترة والروسيا وفرنسا هذا الطلب.

(٤) أن تنظر دول الوفاق الثلاثى فى هل من الممكن أن يستبدل تحقيق دولى بالتحقيق النمسوى . »

أما فى سان بطرسبورغ فقد أحدث البلاغ النهائى أعظم انفعال وانزعاج . فلم يأو الوزراء الروسيون وسفيرا الوفاق الثلاثى الى فراشهم الا بعد منتصف الليل بزمن طويل وبعد أن كانت الطرادة فرنسا قد ابتعدت تمخر عباب البحر الى خليج فنلندة وتحمل بوانكاريه تحت نجوم السماء . وقد بلغ من هؤلاء التعب والمجهود الفكرى فى خلال الأسبوعين التاليين اللذين واصلوا فيهما الليل بالنهار فلم تكد تغمض لهم عين — نقول بلغ منهم التعب والمجهود الفكرى فى تلك الأيام مبلغاً لا يقاس به ما أضناهم من زيارة بوانكاريه .

وقد وصل سازونوف فى الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعه الى وزارة الخارجية الروسية قادماً من تسارسكوسيلو فكان أول ما حيا البارون شيلنج به هو « انها للحرب الأوربية ! » ثم أبلغ القيصر الخبر تليفونياً فصاح هذا قائلا : « ان هذا لمقلق » وأصدر أوامره بأن يحاط بكل ما يجد .

ووصل تساباري بعد بضع دقائق ليتلو نص البلاغ النهائى ويوضح مسلك النمسا ويبرره فقابله سازونوف — وكان لم يجد بعد متسعاً من الوقت لمشاورة غيره من الوزراء الروسيين وليعلم مبلغ استعداد انجلترة لمظاهرته — بقوله انه يعلم ما هو آت به لكنه لا يستطيع أن يبين الموقف الذى ستتخذه الروسيا . وتلا تساباري البلاغ النهائى بعد ذلك بصوت عال لكن سازونوف كان يقاطعه كثيراً بأسئلته واعتراضاته . وعند ما جاء ذكر الملف الذى كان يراد به عرض جميع الأدلة التى تسوقها النمسا ضد صربيا على الدول ، سأله سازونوف لماذا تضايق النمسا نفسها به بعد أن قدمت البلاغ النهائى ودلت به على أنها تريد الحرب لا التحقيق النزيه . ثم قال انه ليس بحال ما تواقا الى معرفة ما بالملف بعد الذى وصلت اليه الأمور بالبلاغ النهائى « فالحقيقة هى انكم تريدون الحرب وقد حرقتم سفنكم » . فلما احتج تساباري بأن النمسا

تحب السلام وانها انما تريد أن تؤمن أراضيها من حملة أجنبية تنطوى على التهييج والثورة وتدفع عن أسرتها المالكة القنابل ، أبدى سازونوف متهكما «اننا لنرى مبلغ حبكم للسلام وأنتم تضرمون النار فى أوربا » . ودارت بينهما على أثر ذلك مناقشة استغرقت ساعة ونصف ساعة فكان سازونوف يدفع عن صربيا التهم التى وجهتها الروسيا وينقد صيغة المطالب وصرامتها وخاصة قصر المهلة المعطاة . كان يقول الفينة بعد الفينة : « أنا أعرف خبيئة الأمر . إنكم تريدون أن تحاربوا صربيا . انى أرى ما يحدث فالصحف الألمانية تحرضكم . فأنتم تشعلون النار فى أوربا . انها لمسئولية عظيمة تلك التى تضطلعون بها وسترون ما يكون لهذا من وقع هنا وفى لندن وباريس وربما فى غيرها فهم سيرون هذا اعتداء لا مبرر له » . وقد وقع من نفس تسابارى أن الوزير الروسى إنما كان مكتئباً أكثر مما كان منفعلا ، وانه كان حريصاً على ألا يقول شيئاً يؤثر على موقف الروسيا فى المستقبل . وبالجملة فقد كان رأى تسابارى أن سازونوف « كان هادئاً نسبياً » .

ومع ذلك فقد كان سازونوف أكثر إنفعالا وقلقاً مما ظنه تسابارى فقد كان مضطرب المزاج . أسخطته بصفة خاصة طرق برشتولد إذ كان من الخداع البين أن النمسا ظلت ثلاثة أسابيع تزعم أن المطالب ستكون معتدلة بحيث تستطيع صربيا قبولها بالتأكيد وبعد ذلك تواجه تلك المملكة الصغيرة بأنذار نهائى بدا منه أن النمسا تريد الحرب وانها لا بد مجتازة الحدود الصربية فى القريب . هذا الى أن بوانكاريه ورئيس الوزارة الفرنسية كانا قد بارحا الروسيا قبل ذلك ببضع ساعات فكان من المتعذر عليه أن يتصل بهما . وفوق ذلك فقد كان يرتاب فى صحة كل ما قاله تسابارى ، واذن فيجب أن تستعد الروسيا للحرب أو على الأقل للعبة ديبلوماتيكية كبيرة ويجب أن تستوثق من تأييد انجلتره ورومانيا . وعلى هذا كلف البارون شلنج — بينما كان يتحادث مع تسابارى — أن يحيط وزراء الحربية والبحرية والمالية علماً بمجرى الحوادث

وأن يدعوهم الى مجلس وزراء ينعقد فى الساعة الثالثة بعد الظهر . وقد أخطر شلنج ايزفولسكى وشيبكو بالعودة الى مقـــر وظيفتهما فى باريس وفينا . واستدعى نيراتوف والبرنس تروبتسكى وغيرهما من مستشارى وزارة الخارجية من أجازاتهم . كذلك أبان لوزير الماليةِ الضرورة الماسة الى أن يسحب بأقرب فرصة ممكنة جميع ودائع الدولة الموجودة فى ألمانيا .

وشاور سازونوف نفسه الجنرال إيانو شكيفتش رئيس هيئة أركان الحرب فى الأمر، واقترح عليه أن يتخذ الاستعدادات اللازمة لتعبئة الجيش الروسى تعبئة جزئية توجه ضد النمسا فقط ويكون إعلانها بمثابة انذار لألمانيا وخدعة فعالة لمنع النمسا من مهاجمة صربيا . وهذا على كل حال هو مايستنتج من القصة التالية التى رواها الجنرال دوبرورلسكى . ودوبرورلسكى كان رئيس قسم التعبئة فى هيئة أركاب الحرب فى سنة ١٩١٤ ، فهو لذلك قادر على أن يعرف معرفة وثيقة جميع التفاصيل والاستعدادات الفنية الخـــاصة بأجراءات التعبئة الروسية . وقد دفعت به الثورة البلشفية الى المنفى فكتب حكايته سنة ١٩٢١ فى بلغراد دون أن تكون تحت يده مذكراته وأوراقه فخانته الذاكرة فى بضع مسائل خيانة لا تذكر . بيد أن صراحته البينة ومعلوماته الوثيقه ودقته العامة قد أثبتتها جميع الوثائق التى ظهرت من ذلك الحين والأحاديث التى اختص بها كاتب هذه السطور فى سنة ١٩٢٣ . قال دوبرورلسكى:

فى ١١ يوليه بين الساعة الحادية عشرة والظهر استدعانى الجنرال إيانو شيكيفتش رئيس هيئة أركان الحرب الى التليفون وطلب الىَّ أن ألحق به فى مكتبه فى الحال .

فلما دخلت عليه قال لى : « ان الحالة خطيرة جداً . فقد وجهت النمسا الى الحكومة الصربية بلاغاً نهائياً لا يمكن قبوله بتاتاً . وليس يسعنا أن لا نكترث للأمر ولذا تقرر أن يعلن ذلك بصورة حاسمة . فغداً ينشر فى « روسكى انفاليد » انذار رسمى وجيز فحواه أن الروسيا بأسرها تتبع بانتباه شديد مجري المفاوضات بين حكومة النمسا والمجر والحكومة

المصرية وانها لن تظل ساكنة اذا تهددت الأخطار كرامة الشعب الصربى وسلامته إذ هم اخواننا الأدنون . فهل أعددت كل شيء لمنشور تعبئة جيشنا ؟

فلما أجبته بالايجاب قال لى : احضر لى بعد ساعة جميع الأوراق المتعلقة بأعداد جيوشنا للحرب والتى تنص عند اللزوم على إعلان التعبئة الجزئية ضد النمسا والمجر وحدها . ويجب أن لا تخلق هذه التعبئة لألمانيا مناسبة لأن تجد فيها عملا عدائياً نحوها .

فأبنت له أن التعبئة الجزئية أمر غير ممكن . لكنه أمرنى من جديد أن أكتب له بعد ساعة تقريراً مفصلا يتفق وقراره الذى اتخذه . . . والاستحالة المطلقة لتعبئة الجيش تعبئة جزئية كانت ظاهرة . وانى لأتساءل أية بواعث هى التى كانت ستكون رائد خططنا الحربية ؟ بواعث سياسية . (وهنا أوضح دوبرورلسكى انه بالنظر الى نظام التحالف كانت الروسيا مقتنعة بأن حرباً تقع بين النمسا والروسيا لابد أن تجر ألمانيا وعلى ذلك لم توضع خطة تعبئة تتناول النمسا وحدها) .

فما الغرض اذن من تعبئة جزئيه ضد النمسا وحدها ؟ ان التهديد الذى لا يسنده دليل مقنع على قوة المرء قد يحمل على الشروع فى ازدراء هذا التهديد . وتعبئة جزء من قواتنا كان يصبح لها من العواقب نقيض ما كنا نتوقعه .

فالتعبئة الجزئية من الوجهة الاستراتيجكية جهالة بلا ريب . وقد كانت النية ان تعبأ أربعة أقاليم عسكرية هى كييف وأودساوموسكو وقزان . وفى الأراضى التى تضم هذه الأقاليم العسكرية ثلاثة عشر فيلقا لها ثكناتها الثابته فى وقت السلم .

ومضى دوبرورلسكى يوضح كل الأخطار والمصاعب الفنية التى تعترض التعبئة الجزئية بالصورة التى اقترحت . فقال انه قد يرى من الضرورى بعد التعبئة أن تتقدم جنود هذه الأقاليم الأربعة الى الحدود . ولكى يؤثر الضرب فى النمسا من الشرق والشمال يجب أن يزحف بعض هؤلاء الجنود فى إقليم فارصوفيا . لكنه يراد أن لا يمس إقليم فارصوفيا حتى لا تنزعج المانيا . فاذا

لم تتخذ استعدادات فى إقليم فارصوفيا بات الجزء المتاخم للنمسا منه مكشوفاً غير محمى . فضلا عن انه إذا اقتضى الأمر أن تتلو التعبئة الجزئية تعبئة عامة ضربت الفوضى أطنابها لأن احتياطى اقليم فارصوفيا يسحب جزء منه من إقليمى موسكو وقزان حيث تكون التعبئة الجزئية قد وقعت . وهذه الأخطار والصعوبات لم يدركها سازونوف فى أول الامر تمام الادراك كما يظهر . كذلك كان حال أيانوشكيفتش الذى لم يكن قضى فى منصبه سوى بضعة أشهر وقد شرع فى تنفيذ خطة التعبئة الجزئية كما سنرى والفنيون العسكريون أمثال دوبرورلسكى والجنرال دانيلوف فى فزع تام من جراء ذلك .

لقد سارع سازونوف الى السفارة الفرنسية عقب حديثه مع تساباری وتدبيره مع أيانوشكيفتش فتناول طعام الغداء مع باليلوج وبوكانان . وقد دعى دياماندى وزير رومانيا المفوض أيضاً لانه من النفع العظيم لنا أن نجذب رومانيا الى صفنا بينما يكون اشتراك رومانيا مع الدول العظمى فيما يتخذنه من اجراءات ديبلوماتيكية كندلهن بمثابة مجاملة ظاهرة لها ، وقد قال سازونوف « ان الاجراء الذى اتخذته النمسا معناه الحرب وأمّل أن تعلن انجلترة تضامنها مع فرنسا والروسيا » . قال ان سلوك النمسا سلوك « معيب ومثير » وان بعض مطالبها لا يمكن بحال قبوله ، وانها ما كانت لتقدم على ما أقدمت عليه دون استشارة ألمانيا أولا . وأخبر بوكانان ان فرنسا والروسيا اتفقت آراؤهما أثناء زيارة بوانكاريه اتفاقا تاماً . وزاد باليلوج على ذلك « ان فرنسا لن تقدم الى الروسيا يد المعونة السياسية فقط بل هى اذا لزم الأمر ستؤدى جميع الواجبات المفروضة عليها بواسطة المحالفة » وأجاب بوكانان بأنه لا يستطيع ان يتكلم عن انجلتره ولكنه سيبلغ غراى تلغرافيا كل ما قالاه . وهو شخصياً لا يستطيع أن يعلل بالآمل فى أن تعلن انجلتره أى تضامن يمكن أن يستلزم تأييد فرنسا والروسيا بالسلاح . فانجلترة ليست لها مصلحة مباشرة فى صربيا والرأى العام فى انجلترة لن يوافق أبداً على حرب من أجلها . فرد سازونوف

بأن المسألة الصربية ليست سوى جزء من المسألة الأوربية العامة وأن انجلتره لاتستطيع أن تنكر نفسها ، وانه شخصيا يرى أن تعبىء الروسيا جيشها لكنه لن يتخذ قرار قبل أن يجتمع مجلس الوزراء .

فارتأى بوكانان عندئذ التأثير على النمسا لمد المهلة ، بيد أن باليلوج أجاب بان الوقت لا يسمح بهذا فالنمسا اما أنها تخدع واما أنها قد عقدت النية على العمل فى الحال . وفى كلتا الحالتين ليس سوى الموقف الثابت المتحد فرصة للتفادى من الحرب

ولما مضى سازونوف وباليلوج يضغطان على بوكانان للحصول على تصريح بالتضامن التام قال انه سيبعث بالبرق تقريراً كاملا الى السير ادوارد غراى . بل لقد ذهب الى حد الاعراب عن رأيه الشخصى فى « أن غراى قد يكون مستعداً لأن يبين بقوة لفينا وبرلين الخطر الذى تتعرض له السلم فى اوربا من اعتداء النمسا على صربيا . . . وانه اذا امست الحرب عامة فقد يصبح من المتعذر على انجلتره ان تبقى على الحياد .» ولاحظ سازونوف انه اذا نشبت الحرب فستجر اليها انجلترة ان عاجلا وان آجلا وانها اذا لم تشترك مع فرنسا والروسيا فى العمل جعلت الحرب اكثر احتمالا ولم تلعب فى ذلك « دوراً جميلا »

واستخلص بوكانان من أقوال باليلوج « انه كان يلوح تقريباً كما لو كانت فرنسا والروسيا مصممتين على المقاومة حتى لو أبينا الانضمام اليهما »

وخاب أمل سازونوف من عجزه عن حمل انجلتره على اعلان تضامنها مع الوفاق الثلاثى فى الحال اعلانا أمل ان ينفع فى التأثير على النمسا فتحاشى مقابلة السفير الألمانى . ذلك انه لم يكن قد استعد بعد ليبين له السياسة التى تتخذها الروسيا . هذا الى أنه كان يرغب فى مشاورة زملائه الوزراء أولا . ولذا فانه ما كاد يغادر السفارة الفرنسية فى الساعة الثالثة بعد اجتماع الغذاء حتى توجه الى اجتماع مجلس الوزراء حيث استقر الرأى على أن يسعى فى حمل الدول العظمى على النظر فى المسألة النمسوية الصربية فتصبح مسألة أوربية

بدل أن يعمل على ابقائها محايدة . فاذا لم ينجح هذا المسعى عمل على أن يقيد أكبر جانب ممكن من الجيش النمسوى فى صربيا فى اللحظة التى تكون الروسيا فيها قد لجأت فى النهاية الى سلاحها . ولذا أبرق سازونوف الى بلغراد بأنه اذا كان مركز صربيا فى الواقع من العجز بحيث لا يترك مجالا للشك فى نتيجة حرب تنشب بينها وبين الروسيا فيخلق بصربيا أن لا تقاوم بل تتراجع وتترك النمسا تحتل أراضيها دون قتال وتناشد هى الدول أن تتدخل . كذلك أرسل الى الدول برقية يحضها على طلب مد أجل المهلة المعطاة فى البلاغ النهائى كى يستطيعوا النصح لصربيا بما يلزم اذا ما مكنت النمسا الدول من الاطلاع على نتائج تحقيق سيراجيفو .

ولما كان فى حيز الامكان أن لا تثمر هذه المساعى فقد أقر مجلس الوزراء «مبدئياً» خطة «التعبئة الجزئية» التى ارتآها سازونوف ، أى تجنيد ١,١٠٠,٠٠٠ جندى هم مجموع الفيالق الثلاثة عشر الموجودة فى الأقاليم الاربعة الجنوبية الواقعة ، على مقربة من النمسا . وقد تقرر أن لا يعلن ذلك الا اذا قرر سازونوف ضرورته . ولم يكن قرار مجلس الوزراء هذا نهائياً قبل أن يصدق عليه القيصر فى اليوم التالى .

وهكذا لم يستقبل سازونوف بورتاليس الا حوالى الساعة السابعة مساء . فلما حاول هذا ، وفاقاً للتعليمات المعطاة له ولبقية السفراء الألمان ، أن يبرر عمل النمسا ويحث على حصر النزاع بين النمسا وصربيا أبان له سازونوف ، « وكان شديد الانفعال لا يقف عند حد فى توجيه اللوم الى النمسا والمجر » ، فى صورة تدل على أعظم تصميم ، ان من المستحيل على الروسيا أن تسلم بأن يسوى النزاع النمسوى الصربى بين الطرفين ذى الشأن ، ثم أبدى فى فطنة أن الوعود التى قطعتها صربيا وأشار اليها البلاغ النهائى لم تعط للنمسا وحدها بل للدول . لذلك كانت مسألة البت فى أن صربيا أنجزت هذه الوعود أو لم تنجزها مسألة أوربية . فعلى أوربا أن تطلع على الملف وترى هل تقوم

التهم الموجهة من النمسا على أساس صحيح . هذا فضلا عن أن النمسا لا يصح أن تكون مدعية وحكما فى وقت واحد .

فأجابه بورتاليس بأنه ليس عملياً أن تعرض المسالة على الدول الست للفصل فيها لأن الموقف السياسى العام الذى تتخذه الدول وحلفاؤها يصبح العامل الفاصل فى حكمهم على هذه المسألة . وما الفائدة العملية من اتخاذ « اجراءات قضائية » اذا وقف أصدقاء النمسا السياسيون فى جانب ووقف خصومهم فى جانب آخر ؟ من الذى يفصل فى هذه الحالة ؟ ثم وعد مع ذلك أن يبلغ برلين فكرة سازونوف لكنه أبدى « شكه فى أن تتوقع ألمانيا من حليفتها أن تعرض نتائج تحقيقها على محكمة أوربية . فالنمسا كأية دولة عظمى سوف ترفض أن تعرض للتحكيم مسألة تتعرض فيها مصالحها الحيوية للخطر ». ونقل سازونوف الحديث الى الكلام عن أنه لا سبيل الى أخذ حكومة وأمة بأسرها ، بجريرة فرد ، وأن التهم التى توجهها النمسا ليست مقنعة بحال من الأحوال ؛ ثم جعل يكيل التهم للنمسا جزافاً حتى أبدى بورتاليس خشيته من أن يكون حقده على النمسا قد أعماه . فأجابه سازونوف « إن الحقد ليس من طبيعتى . فانى لا أحقد على النمسا ولكن أحتقرها » . واخيراً صاح قائلا : « ان النمسا تتلمس حجة لألتهام صربيا وفى هذه الحالة لا مناص للروسيا من محاربة النمسا » .

فى الوقت الذى غادر فيه بورتاليس مكتب سازونوف كان باليلوج ينتظر بدخول عليه ليعلم قرارات مجلس الوزراء ونتيجة حديثه مع بورتاليس . اليد أن ما رواه هذا عن حديثه مع وزير الخارجية الروسية مما نشر لم يعط صورة مرضية من هذا الحديث .

التكهن بالحرب فى كراسنوسيلو فى ٢٥ يوليه

فى يوم السبت ٢٥ يوليه كانت موجة الحر التى ظلت عالقة فوق سان بطرسبورغ فى أواسط الصيف شهرا من الزمان قد بلغت منتهاها ، وكانت القطر مكتظة بأناس يحبون السلام قد استقلوها الى حيث يقضون عطلتهم الصيفية ، وفى سهل كراسنوسيلو الذى تلفحه الشمس قد اجتمع القيصر ومجتمع بطرسبورغ الراقى بأسره لمشاهدة الاستعراض الصيفى للجنود الروس . فى ساعة متأخرة قبل ظهر ذلك اليوم عقد الوزراء مجلساً هاماً تحت رياسة القيصر . وطال اجتماع الوزراء الى حد أن أجلت المناورات ساعة . ولم تكد هذه المناورات تجرى حتى وقفت واستولى على الضباط جميعاً إنفعال عسكرى غير عادى حتى لقد وقع من أنفس الملحقين العسكريين الأجانب أن مجلس الوزراء قد نظر فى تعبئة الجيش الروسى وربما قد أمر بها فى الأربعة الأقاليم الجنوبية المواجهة للنمســـا على الأقل . وقد تحدث الجنرال أولربرج حاكم سان بطرسبورغ مع الجنرال الألمانى شيليوس فزل لسانه أثناء الحديث بالكلام عن إجراءات تتعلق بالتعبئة . وكان البارون جرينفالد كبير نظار اسطبلات القيصر جالساً فى مأدبة ذلك المساء فيما يلى شيليوس فقال له « إن الحالة خطيرة جداً . وليس يجوز لى أن أخبرك بما تقرر ظهر اليوم فانك ستعلمه بنفسك قريباً . لكن صدقنى إذا قلت لك ان الحالة تبدو خطيرة جداً » وقرع كأسه بكأس شيليوس وشرب نخبه قائلا « نأمل أن يرى أحدنا الآخر ثانية فى خير من هذه الأوقات . »

بعد أن جرت المناورات باختصار غير مألوف أعلن أنها ستفض فى كراسنوسيلو وبقية أنحاء الأمبراطورية وأن الجنود ستعود فى الحال الى معسكراتها الدائمة كما لو كانوا فى حالة حرب .

وقد قوى فكرة التعبئة والحرب وأنهما وشيكتان ماحدث فى نفس المساء من ترقية طلبة الأكاديمية الحربية فى سان بطرسبورغ الى ضباط نظاميين فى الجيش بدل ترقيتهم فى وقت آخر من أوقات السنة كما كانت العادة . وقد قال الملحق العسكرى الألمانى إنه فى المأدبة التى تلت خطاب القيصر لهؤلاء المعينين « أعرب الىّ بعض صغار الضباط عن سرورهم بأنه قد آن لهم أخيراً أن يبدأوا عملا ضد النمسا . وغير هؤلاء فريق كان يطلق لغضبه العنان ضد الادعاء النمسوى . حتى البرنس بطرس أمير الجبل الأسود الذى كان موجودا فى ذلك الحين رأى أن يخبرنى بأن بلاده يسودها التحمس للحرب بشكل بين وأن التعبئة على قدم وساق . وكأنى بهم جميعاً لم يذكروا أننا (الألمان) حلفاء للنمسا ! » .

وأعقب المأدبة حفلة تمثيلية ساهرة تحت رعاية الغراندوق نيقولا كانت مناسبة لمظاهرة عظيمة فى مصلحة الحرب ، وقد أزعجت بطرسبورغ فى نفس هذا المساء من هدوئها أصوات أبواق الحرس الأمبراطورى وهو يعود على جناح السرعة الى العاصمة وسط الضباب مع أنه كان مقدرا أن يقيم رجاله فى كراسنو سيلو شهراً آخر . وكتب باليلوج يقول : « ذهبت فى الساعة السابعة الى المحطة لأودع ايزفولسكى الذى كان عائداً الى مقر وظيفته على عجل فألفيت على الأرصفة حركة نشيطة : قطراً مكتظة بالضباط والجنود كما لو كانت هنالك تعبئة فتبادلت وإياه آراءنا سراعا وانتهى كلانا الى أن الحرب واقعة هذه المرة » وفى اليوم التالى بعثت البرنسيس بالى وكانت وثيقة الصلة بالغراندوقات برقية مستعجلة الى أمها وابنتها اللتين كانت فى حمام كيسنجن بألمانيا تحثهما على السفر فى الحال الى سويسره أو إيطاليا . وأبرق الجنرال دانيلوف الذى استدعى على عجل من رحلة فى القوقاز إلى أسرته فى بودوليا على مقربة من الحدود النمسوية يرجوها العودة حالا الى سان بطرسبورغ

« الفترة السابقة للحرب فى الروسيا »

فما الذى حدث فى يوم ٢٥ يوليه فى ذلك المجلس الوزارى الهام (الذى سمى خطأ مجلس التاج) فى حضرة القيصر حتى يقع فى النفس كل هذا منبئا بوقوع الحرب ؟ إننا لا نملك نصاً مضبوطا لما قاله كل من كان حاضراً ، لكننا نعلم القرارات النهائية التى اتخذت . ولنا أن نفرض أن نزاعا وقع بين سازونوف الذى كان يستمسك بخطة التعبئة الجزئية وزعماء العسكرية بقيادة الغراندوق نيقولا وكانوا يخشون أن تفضى الصعوبات الفنية والسياسية التى تعترض التعبئة الجزئية الى كارثة . . .

وعلى كل فقد فاز سازونوف بخطة التعبئة الجزئية برغم مادار فى المجلس وما أدلى من حجج . بيد أنه قد تسوهل للعسكريين فى اتخاذ طائفة من الاجراءات العسكرية التمهيدية التى أريد بها أن تسهل التعبئة العامة اذا أُقنع القيصر أخيرا بالموافقة عليها . وقد كانت جملة القرارات التى اتخذها مجلس الوزراء خمسة أبقيت تفاصيل خامسها وأهمها طى الكتمان الشديد . أما البقية فسرعان ما أذيعت أو أبلغت الى باليلوج وبوكانان فى الحال ، ثم الى بورتاليس بعد ذلك بقليل .

فماذا كانت هذه القرارات الخمسة ؟

١ — موافقة القيصر « مبدئياً » على القرار الخاص بالتعبئة الجزئية فى حينها ضد النمسا . وهو القرار الذى كان مجلس الوزراء قد أصدره فى عصر اليوم السابق . وقد أبلغ الى الحكومة الفرنسية فى باريس فاستطاعت أن تبلغه فى يوم ٢٦ يوليه الى بوانكاريه أثناء عودته الى الوطن واليك القرار :

« ان مجلس الوزاء المنعقد فى ٢٥ الجارى فى حضرة القيصر قد نظر فى تعبئة ثلاثة عشر فيلقا لتوجيهها عند اللزوم ضد النمسا .وهذه التعبئة لن يترتب عليها أثر الا اذا استخدمت النمسا الضغط المسلح ضد صربيا ، وإلا بعد أن

يأذن بذلك وزير الخارجية الذى يقع على عاتقه واجب تحديد اليوم . فقد تركت له الحرية فى المضى فى المفاوضات حتى ولو احتلت صربيا . والآراء فى الروسيا تجعل من الجلى أن من المستحيل على الروسيا سياسياً وأدبياً أن تسمح بسحق صربيا . »

فهذا القرار الذى اتخذ فى مصلحة التعبئة الجزئية وقت اللزوم للتمويه على النمسا تؤكده شهادة ايانوشكيفتش أثناء محاكمة سخو ملينوف فى سنة ١٩١٧ قال : « لقد تقرر أولا إعلان التعبئة الجزئية فى الأقاليم الأربعة لتخويف النمسا والمجر ، وكان سازونوف يرحب بها لأنه كان يؤمل أن تجدى فى صد النمسا وتوجيه المفاوضات الديبلوماتيكية وجهة تفضى الى تسوية تقبلها صربيا والروسيا . وقد تحوشى بهذا القرار خطر التعبئة العامة التى كان الزعماء العسكريون يطلبونها والتى كانت خليقة ان تحمل ألمانيا على مقابلتها بالمثل فيترتب على ذلك حرب اوربية عامة . كذلك كان هذا مما يتيح الوقت للمفاوضات الديبلوماتيكية التى كان يمكن ان تتخذ فى خلالها اجراءات واسعة النطاق على سبيل الاستعداد للحرب وفاقا للائحة سرية « عن الفترة الممهدة للحرب » سنذكرها بعد .

فانه فى سنة ١٩١٢ والحروب البلقانية على أشدها وهنالك ازمة سياسية مع النمسا تشبه فى اعتبارات كثيرة أزمة ١٩١٤ تناولت لجنة روسية عسكرية سرية الأمر القاضى بأن اعلان التعبئة هو بمثابة اعلان الحرب فقالت وهو قول ذو مغزى :

« إن من المنفعة إتمام التعبئة دون البدء بالقتال حتى لا يقضى قضاء مبرما على أمل العدو فى أنه لايزال فى استطاعته تجنب الحرب ويجب أن تستر اجراءتنا الخاصة بذلك بستار من المفاوضات الديبلوماتيكيه الماهرة كيما يخدع العدو بقدر الامكان فى مخاوفه . »

بهذا كان إعلان التعبئة اذا لم ينجح فى صد النمسا فلا أقل من أن

يستخدم فى صورة ملائمة فى تنفيذ اجراءات « الفترة المعدة للحرب » وسترها . وهو ما تقرر أن يقع فى كافة أنحاء الأمبراطورية فيسهل بذلك التعبئة العامة ضد ألمانيا والنمسا على السواء تسهيلا عظيما اذا لزم الأمر . وقد ابتهج سازونوف بتدبيره ابتهاجاً لا مزيد عليه . كذلك كان من المفاجآت السارة له أن يجد أن النمسا لم تهاجم صربيا بمجرد انتهاء المهلة المحدودة وعقب انقطاع العلاقات الديبلوماتيكية بين النمسا وصربيا بعد ظهر يوم السبت نفسه . وفى خلال الأيام الثلاثة التى تلت ودارت فيها « محادثات مباشرة » مع فينا لاح عليه انه أكثر تفاؤلا وميلا الى المسالمة ، حتى لاحظ عليه ذلك فى الواقع عدة أشخاص . على أن السلطات العسكرية الروسية لم تشاطره هذا التفاؤل وقد كانت خاتمته ورود الأنباء بأعلان النمسا الحرب على صربيا فى ٢٨ يوليه .

٢ — وثانى القرارات التى أصدرها مجلس الوزراء فى ٢٥ يوليه كان دعوة الجنود الى معسكراتهم الدائمة . فانه فى اللحظة التى وقعت فيها جريمة القتل فى سيراجيفو وفى خلال الأسابيع التى تلت كانت الجنود الروسية فى كافة نواحى الأمبراطورية موزعة على معسكرات للمناورات والتمرينات الصيفية بعيدة فى الغالب كثيراً عن معسكراتها النظامية الدائمة . ففى هذه المعسكرات الدائمة كان يحتفظ بكامل المعدات اللازمة للحرب ، والتى يجب أن تكون بأيدى الجنود قبل أن يتوجهوا الى الميدان . لذلك كان من الضرورى أن يستدعوا بأسرع ما يمكن الى النقطة التى يزودوا منها بكامل معداتهم ويكونوا فيها على قدم الاستعداد للرحيل الى الجهة المعينة للاحتشاد على الحدود . ومن ثم فض معسكر كراسنو سيلو عند ختام المناورات التى جرت عصر يوم السبت كما أسلفنا البيان . ولم يأل إيانو شكيفتش جهداً فى تنفيذ هذا القرار أيضاً فيما يتعلق ببقية جنود الأمبراطورية .

على أن فض المناورات على هذا المنوال وعودة الجنود الى معسكراتهم

الدائمة لا يعادل التعبئة بحال من الأحوال . لقد كان بالتأكيد خطوة تمهيدية لازمة للتعبئة لكنه لم يكن بحال عملا ينطوى على التهديد أو العداء . ومع ذلك فان تنفيذهذا الأمر الغير المنتظر الذى ابتدأ فى يوم الأحد ٢٦ يوليه قد انطوى على تحرك أكثر من مليون جندى فى جميع نواحى الامبراطورية وأثار انفعالا عسكرياً بين الضباط الروسيين فى كل مكان يشبه ذلك الانفعال الذى ساد كراسنوسيلو فى المساء السابق . فمن الطبيعى أن ترسل من جرائه تقارير مقلقة الى برلين وفينا من معتمديهما فى الروسيا .

٣ — ترقية الطلبة الى ضباط .

٤ — اعلان « حالة الحرب » فى المدن المشتملة على حصون وفى مناطق الحدود المواجهة لألمانيا والنمسا .

وقد ترتب على هذا الأمر حادث يدل على الرغبة فى السلام وفى قيام العلاقات الحبية بين الروسيا وألمانيا ، وهى رغبة كانت تحدو القيصر وبورتاليس سفير ألمانيا بأخلاص . وذلك أن السفينة التجارية الألمانية « برنس ايتل فريدريك » كانت راسية فى الميناء القريب من قلعة كرونشتات فأثار وجودها ريبة قومندان القلعة لأنه كان بها جهاز لاسلكى وكان يلاحظ أنها ترسل برقيات لاسلكية . ولما كانت « حالة الحرب » معلنة فى منطقة القلعة وكان يمكن أن يستخدم الجهاز اللاسلكى فى التجسس فقد رفع قومندان القلعة هذا الأمر الى الغراندوق نيقولا الذى كان يتولى قيادة إقليم بطرسبورغ العسكرى كله وفى جملته كرونشتات . فأمر الغراندوق فى الحال باعتقال القبطان الألمانى وبمصادرة الجهاز اللاسلكى وحجز السفينة فى الميناء . وكانت ألمانيا والروسيا لا تزالان فى حالة سلم فأفضى هذا العمل التعسفى الى احتجاج بورتاليس لدى نيراتوف فى وزارة الخارجية احتجاجا قوياً ، فبعث القيصر فى نفس اليوم كتابا بخطه الى الغراندوق يأمره باطلاق سراح القبطان وعدم حجز السفينة وينحى باللائمة على الاجراءات التى اتخذت حيال سفينة تابعة

لدولة صديقة . وتكلم أيضاً سازونوف تليفونيا بصورة ودية واعتذر من عمل الغراندوق وعندئذ قال بورتاليس انه يعتبر الحادث منتهياً وانه لن يبلغ حكومة برلين شيئاً عنه .

٥ — الأوامر السرية الخاصة « بالفترة المعدة للحرب »

لم يكن العسكريون وهيئة أركان الحرب العامة يرون ما يراه سازونوف والقيصر بجد فى القرار الخاص بالتعبئة الجزئية المتخذ احتياطا للطوارىء من انه اجراء عسكرى مرض عند الضرورة . فكانت هيئة أركان الحرب الروسية العامة تعتبر التعبئة الجزئية مشروعا على أعظم جانب من الجهالة . ومع ذلك فقد بادروا - مادام مجلس الوزراء والقيصر قد قررا التعبئة - الى وضع خطط لها آملين سرا أن لا تنفذ هذه الخطط . بيد أنهم فى نفس الوقت أقنعوا القيصر بالمصادقة على تنفيذ اجراءات واسعة النطاق على سبيل الاستعداد للتعبئة العامة وهى الاجراءات الخاصة بالفترة الممهدة للحرب باعتبار أن هذا أعظم أهمية وأسلم عاقبة . وكان مقررا أن يؤخذ فى تنفيذ تلك الاجراءات فى ٢٦ يوليه فعكف أيانوشكيفتش على تنفيذها كما ظهر من برقيتين شفريتين سريتين مرقومتين ١٥٦٦ ، ١٥٧٥ بعثت بهما هيئة أركان الحرب العامة قبيل فجر يوم الأحد ٢٦ يوليه الى قواد الجنود فى أقليم فارصوفيا العسكرى .

فما هو المعنى الخفى « للفترة الممهدة للحرب ؟ »

لقد كان من أعظم العوائق التى كانت الى الآن تعترض الروسيا وتحول دون بدئها حروبها بداية ناجحة بطؤها النسبى فى التعبئة . فأنه نظراً لمساحاتها الشاسعة ونظم سككها الحديدية غير الوافية ، والى قلة كفاية السلطات العسكرية المحلية لم تكن أداة التعبئة الروسية فى الماضى قادرة على السير بمثل سرعة الأداة العسكرية الألمانية بله النمسوية . فكان استعمال هذا النقص على قدر الامكان غرضاً سعى اليه سوخوملينوف باصلاحاته . وقد جرى البحث فى هذا الصدد فى ربيع ١٩١٢ وحلت المسألة أخيراً فى مؤتمر سرى عقد فى

فبراير ١٩١٣ تحت رئاسة الجنرال لوكومسكى وحضره مندوبون عن البحرية والادارات الداخلية والحربية . وقد وضع هذا المؤتمر مشروعا أقره القيصر فى ٢ مارس ١٩١٣ وهو لائحة سرية جداً تتعلق بالفترة المعدة للحرب .

وتنص هذه اللائحة على أن :

« الفترة المعدة للحرب » هى فترة التعقدات الديبلوماتيكية السابقة للبدء فى القتال وهى التى يجب فى خلالها ان تتخذ كل المصالح الاجراءات التحضيرية اللازمة لضمان الأمن والنجاح أثناء تعبئة الجيش والأسطول والحصون وكذلك لزحف الجيش على الحدود المهددة .

وهذه الاجراءات التحضيرية تقع تحت عنوانين معروفين بالقائمة الأولى والقائمة الثانية .

فالتنظيمات المفصلة الخاصة بالقائمة الأولى تنص على أن تجعل مخافر الحدود على قدم الاستعداد للتعبئة وان تسلح تسليحاً كاملا لحرب الميدان وأن يعهد اليها فى حراسة الحدود ، وجميع الأوامر الخاصة بالتعبئة والمتعلقة بالتقدم نحو منطقة الاحتشاد ، كذلك الأوامر المتعلقة بحماية هذا التقدم يجب أن تفحص بدقة . . . وكل من يشتبه فى أنه يتجسس يقبض عليه . ويجب أن تتخذ الاجراءات لمنع تصدير الخيول والمواشى والحبوب ، وأن تسحب الى الداخل الأموال والسندات القيمة المودعة فى بنوك قريبة من الحدود ، وأن تعود السفن الحربية الى موانئها وتذود بالميرة والذخيرة الحربية الكاملة

وتدل القائمة الثانية على مرحلة أخرى فى الاجراءات التحضيرية فتنص على أنه بناء على أمر وزير الحربية تكون دعوة الاحتياطى بحيث تتجاوز نفقاتها اعتمادات السنة الجارية المخصصة للتدريب والتعبئة التجريبية وأن تتضمن أيضاً فيما يتعلق بأقاليم الحدود شراء الخيول والعربات لقطر البضاعة ونقل الأمتعة الى مقرها ؛ وتنقل أسر الضباط مجانا من الحدود الى حيث تكون فى الداخل بمأمن ، ولا يسمح لعربات العفش التى لهـا مقياس

السكك الحديدية الأوربية (وهو أربعة أقدام وثمانى بوصات ونصف بوصة بدل المقياس الروسى وهو ٥ أقدام) بمغادرة الروسيا بعد الآن ، وأن توصد الموانى بوضع الألغام فيها وتحجز السفن التجارية الروسية التى يراد استخدامها فى الأغراض الحربية والبحرية فى الموانئ .

وهنالك بند مرن هام فى اللائحة ينص أيضاً على أن مجلس الوزراء يقرر بعد ذلك ما اذا كانت هنالك اجراءات أخرى غير التى ورد ذكرها فى القائمتين يخلق اتخاذها فى خلال « الفترة المعدة للحرب . »

وبذا فأنه يصبح فى مكنة وزير الحربية أن يأمر تحت ستار التعبئة التجريبية « والفترة المعدة للحرب » باجراءات عسكرية لا تتطلب تصديق القيصر أو إعلان التعبئة جهاراً ولكنها مع ذلك تعادل التعبئة فى أقاليم الحدود . ومثل هذه « التعبئة الجزئية » كان قد شرع فيه على مقربة من الحدود الألمانية فى أزمة ١٩١٢ وفى نطاق واسع فأثار احتجاجاً قوياً من جانب مولتكه رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية العامة . وقد بدا على سازونوف فى ذلك الحين انه يسلم بوجاهته .

ومما له مغزى كبير ما سلم به دوبرورلسكى من أن العسكريين وهيئة أركان الحرب كانوا فى ٢٥ يوليه على الأقل يعتبرون الحرب أمراً لا مفر منه ، وأن السلطات المحلية على الحدود ربما كانت فى حميتها وحالتها العصبية قد تجاوزت ما تسمح به اللائحة فى الواقع .

ومن ثم كان الخطر قائماً من أن تتخذ السلطات العسكرية الروسية من « الاجراءات التحضيرية » الواسعة النطاق ما يزعج ألمانيا ويجعلها تلجأ الى اجراءات تقابلها تفضى بدورها الى حرب أوربية عامة . وقد تلقت وزارة الخارجية الألمانية فى الواقع ، كما تدل « وثائق كاوتسكى » ، ثمانية وعشرين تقريراً عن الاستعدادات العسكرية الروسية ومنها ما لا يقل عن ستة عشر تقريراً تتعلق بالحدود الروسية المتاخمة لألمانيا ، وذلك بين ٢٦ يوليه صباحاً

و٣٠ يوليه مساء . هذا فوق ما تلقته هيئة أركان الحرب الألمانية العامة والبحرية . لكن ألمانيا برغم ذلك تجنبت أن تقابل هذه الاجراءات التحضيرية بمثلها الى أن تلقت فى ٣١ يوليه نبأ رسمياً بأن الروسيا قد اتخذت آخر اجراء عسكرى بأعلانها تعبئة الجيش والأسطول بأسرهما تعبئة عامة ألصقت بها إعلانات . فهذه « الاجراءات التحضيرية » السرية التى تقررت فى مجلس الوزراء فى عصر يوم ٢٥ يوليه وأمر بها قبل فجر ٢٦ يوليه مكنت الروسيا عند نشوب الحرب من مفاجئة العالم بالسرعة التى تدفقت بها جيوشها الى بروسيا الشرقية وغاليسيا .

المفاوضات الديبلوماتيكية والاستعدادات العسكرية

لقد وجدت السلطات العسكرية مع معارضتها الشديدة فى « التعبئة الجزئية التى تتناول فقط الأقاليم الجنوبية الأربعة المواجهة للنمسا ان هذه التعبئة ضرب من التمويه ملائم جداً تمكن به محاولة خديعة الألمان عن « الاجراءات التحضيرية » السرية التى كان الجنرال إيانوشكيفتش قد أمر باتخاذها فى كافة أراضى الروسيا الأوربية فى ٢٦ يوليه فى الساعة الثالثة والدقيقة ٢٦ والتى كانت تقع بينما سازونوف يقوم بمفاوضاته الديبلوماتيكية . وليس من الضرورى أن يعنى هذا كما يعتقد الكثيرون من الألمان أن التعبئة الجزئية قد اتفق عليها قصداً ومن بادىء الأمر لتكون حيلة لخدع الألمان أو أن مفاوضات سازونوف الديبلوماتيكية فى سبيل الوصول الى حل سلمى كانت محض رياء لأن الحرب كما قال دوبرورلسكى كانت أمراً مقرراً . فانه يكاد لا يكون ثمة شك كما أبنا آنفاً فى أن سازونوف والقيصر كانا جادين فى اعتبار خطة التعبئة الجزئية وسيلة طيبة لصد النمسا دون استثارة ألمانيا . أجل كان هذا رأى سازونوف والقيصر وان لم يكن رأى هيئة أركان الحرب العامة ؛ كما أن الرأى كان أن تنتظر الروسيا ألمانيا حتى تشهر عليها الحرب أو تبدأها بالأعتداء فيما

لو أثارتها التعبئة كما توصم أمام العالم بأنها المعتدية. كذلك لاشك فى ان سازونوف بين ٢٦ و ٢٨ يوليه كان مخلصاً فى مفاوضاته الديبلوماتيكية يحدوه أمل المتفائل بالوصول الى حل سلمى مرض للروسيا وان كانت السلطات العسكرية الروسية لم تشاطره هذا الرجاء. وقد كان بورتاليس كبوكانان كثير الخشية من خطر التعبئة الجزئية ضد النمسا، وكان ثاقب الفكر الى درجة أنه أدرك أن التعبئة الجزئية وسيلة من أخطر الوسائل للضغط الديبلوماتيكى، وانه اذا لجأت الروسيا الى خدعة من هذا القبيل فانه يخشى أن يقوى نفوذ العسكريين فى كل مكان فتخرج المسألة من أيدى المتفاوضين الديبلوماتيكيين بحجج فنية واستراتيجيكية محضة يعرف العسكريون جيداً كيف يدلون بها. وقد تلقى من بيتمان هولفيج البرقية الآتية:

« انه بعد أن أعلن الكونت برشتولد الى الروسيا أن النمسا لا ترمى الى الحصول على شيء من أراضى صربيا ولكنها ترغب فقط فى الوصول الى الهدوء والسكينة أصبحت المحافظة على السلام الأوربى تتوقف على الروسيا وحدها. واننا لنثق بحب الروسيا للسلام ونؤمن بالعلاقات الودية التقليدية التى تربطنا بها ثقة تجعلها لا تقدم على شيء يمكن أن يعرض سلم أوربا تعريضاً جدياً للخطر »

لذلك رأى بورتاليس من الحكمة وقد سمع إشاعات كثيرة عن الأجراءات التحضيرية التى اتخذتها الروسيا للتعبئة أن ينـــذر فى مساء الأحد ٢٦ يوليه سازونوف انذاراً ودياً لكنه حازم، « فيما يتعلق بالنبأ المستفيض بين الملحقين العسكريين الأجانب بما يحمل على افتراض ان أوامر بالتعبئة قد صدرت الى عدة فيالق روسية على الحدود الغربيـة » إذ « لفت نظره الى الخطر العظيم الذى يترتب على مثـــل هذه الاجراءات التى يمكن بسهولة أن تؤدى الى اجراءات مقـابلة ». فرد سازونوف « بأنه يستطيع أن يؤكد أنه لم يصدر بالتعبئة أمر من هذا القبيل وأنه على النقيض من ذلك قد تقـرر فى مجلس الوزراء أن يرجأ كل أمر من هـذا النوع إلى أن تتخذ النمسا والمجر موقفاً

عدائياً ضد الروسيا . وقد سلم المسيو سازونوف بأنه قد اتخذت اجراءات عسكرية معينة كى لا يؤخذ على غرة » .

وقد شعر سازونوف أنه نزع الى الغموض فى تأكيده بأن أمر التعبئة « قد أرجىء الى أن تتخذ النمسا والمجر موقفا عدائياً ضد الروسيا » فقرر أنه من الخير أن يكلف من يدلى ببيان أوضح نخاطب وزير الحربية تليفونياً ورجاه أن يوضح للملحق العسكرى الألمانى ، باعتبار كونه عسكرياً يخاطب عسكرياً مثله ، أنه ليس فى النية سوى اجراءات تمهيدية لتعبئة جزئية يمكن أن تقتضيها الظروف ضد النمسا . وعليه دعى ايجلنج لمقابلة سوخوملينوف فى ساعة متأخرة من مساء الأحد . وروى ايجلنج ما دار مستخلصاً منه بدهائه ما يلى قال :

لقد طلب سازونوف الى وزير الحربية أن ينورنى عن الحالة العسكرية فأقسم لى هذا بشرفه أنه لم يصدر بعد أمر ما بالتعبئة كائناً ما كان نوعه . وكل ما اتخذ فى الوقت الحاضر هو اجراءات تمهيدية ، فلم يجمع حصان ولم يستدع من الاحتياطى جندى واحد فاذا اجتازت النمسا الحدود الصربية فان التعبئة تقع فى الأقاليم العسكرية التى تكون مواجهة للنمسا مثل كييف واودسا وموسكو وقزان . أما الجبهة الألمانية وفيها فارصوفيا وفلنا وسان بطرسبورغ فلن يقع فيها شىء بحال من الأحوال فأن العيش بسلام مع ألمانيا هو ما يرغب فيه رغبة جدية .

ولما استفسرت عن الغرض من التعبئة ضد النمسا هز كتفيه . . . وقد وقع فى نفسى أن ثمة اضطراباً عصبياً وقلقاً شديداً . وفى ظنى أن الرغبة فى السلام ، حقيقية وأن البيانات العسكرية صحيحة الى هذا الحد ، وأن التعبئة الكاملة لم يصدر بها أمر فى الراجح . لكن الاجراءات التحضيرية واسعة النطاق . فهم يسعون كما يبدو لكسب الوقت لمفاوضات جديدة وليمضوا فى تسلحهم . والشعور العام هو : الأمل فى ألمانيا وفى توسط جلالته (الامبراطور) .

خلاصة الخطر الروسى

كان الخطر الروسى كائناً فى أن سازونوف كان يشعر ، وهذا منه طبيعى ، بأنه ملزم بحماية صربيا التى شجعت الروسيا آمالها وآمانيها فى الماضى والتى لم يكن يسعها أن تهجرها دون أن تتأثر هيبتها لديها ولدى دول الوفاق . وفوق ذلك فقد كان مصمما على منع النمسا من انتزاع شىء من أراضى صربيا وقلب الحالة الراهنة فى البلقان . وقد أدرك أن هذا ما تعنيه النمسا ببلاغها النهائى وأن غزو هذه لصربيا سيبدأ بمجرد انتهاء مهلة الثمانى والأربعين الساعة. وقد شجعه السفير الفرنسى كثيرا على الثبات فى موقفه نحو حماية صربيا وصد النمسا . ولذا فأنه فى ٢٤ يوليه ، حتى قبل أن يسمع أقوال السفير الألمانى فى تبرير عمل النمسا وتسويغ حصر الحرب ، قرر أن يقف الى جانب صربيا اذا لزم الأمر ولو جر هذا الى الحرب . واتخذ خطة التعبئة الجزئية ، تلك الخطة التى كانت وسيلة خطرة للضغط الديبلوماتيكى . ولا ريب أنه كان يرغب فى التفادى من الحرب ، فقد اقترح عدة مقترحات كأن يأمل أن تؤدى الى عدم وقوعها . فرجا بوكانان أن تعلن انجلترة تضامنها مع دول الوفاق وهو ما شعر بوكانان أنه لا يستطيعه وارتأى مد أجل المهلة واتاحة الفرصة للدول الأوربية لأن تتناول المشكلة النمسوية الصربية وهو اقتراح راغت منه برلين ورفضته فينا .

وفى ٢٥ يوليه حتى قبل أن تقطع النمسا العلاقات السياسية بصربيا تساهل سازونوف والقيصر مع العسكريين الروسيين باتخاذ اجراءات عسكرية مختلفة فى جملتها الاجراءات الخاصة بالفترة المعدة للحرب ، وهى التى جعلت الضباط الروسيين يتوقعون الحرب وأوقعت فى النفس ما قاله دوبرورلسكى من أن الحرب باتت مقررة . ومن ذلك الحين جعل قادة

الجيش وهم الذين أدركوا أن التعبئة الجزئية جهالة لمـــا تنطوى عليه من الصعوبات الفنية والسياسية ، يضغطون ضغطا متواصلا لتقرير التعبئة العامة . وكان الخطر كل الخطر أن يقبل سازونوف آراءهم ويضم صوته الى أصوات هيئة أركان الحرب العـامة لاقناع القيصر بالمصادقة على الاجراء العسكرى الختامى الذى لا شك فى أنه يجعل الحرب العامة أمراً محققا . وحتى فى مساء السبت ٢٥ يوليه كان يلوح على سازونوف نفسه بالرغم من آماله فى أن لا يقع هذا ، انه يرى الحرب محتملة وأنه مستعد لأن يلجأ اليهـا اذا لم تثمر خدعة التعبئة الجزئية . وقد قابل باليلوج وبوكانان مرة أخرى فأخبرهم بخطة التعبئة الحزئية وتلق من باليلوج تشجيعاً ايجابياً كما سنرى الآن من فقرات هامة من رسالة بوكانان التى منع نشرها أو غيرت لما نشرت فى سنة ١٩١٤ :

« قال السفير الفرنسى إنه تلق عدة برقيات من الوزير القائم بأعمال وزارة الخارجيه لا تدل واحدة منها على أقل تردد وأنه يستطيع أن يعطى سعادته [سازونوف] تأكيداً رسمياً بأن فرنسا تقف بلا تحفظ الى جانب الروسيا .

[وبعد أن شكر سازونوف باليلوج التفت الى السفير الانجليزى وسأله « وحكومتكم ؟ » فأجابه بوكانان أن السير ادوارد غراى لم ييأس بعد من الحالة وأن أعظم شىء هو كسب الوقت . وكرر] أن انجلتره تستطيع أن تقوم بالتوسط لدى برلين وفينا باعتبارها صديقة يمكن أن تتحول يوما ما الى حليفة اذا لم يلتفت الى نصائحها بالاعتدال ؛ وهـذا انفع من أن تعلن فى الحال أنها حليفة للروسيا . فقال سازونوف إن ألمانيا لسوء الحظ مقتنعة بأنها لا تستطيع أن تعتمد على حيادنا (انجلتره) . وهو لا يعتقد أن ألمانيا تريد الحرب حقيقة لـكن موقفها قد يقرره موقفنا . فاذا نحن ثبتنا إلى جانب فرنسا والروسيا فلن تكون حرب أما اذا نحن خذلناهما فستجرى فى رأيه أنهار من الدماء ثم نحن فى النهاية سننساق الى الحرب .

« وقد لاحظ السفير الفرنسى أن الحكومة الفرنسية تريد أن تعرف فى

الحال ما اذا كان أسطولنا مستعداً للقيام بالدور المخصص له فى الاتفاقية الانجليزية الفرنسية البحرية ، وأبدى أنه لا يعتقد أن انجلتره لن تقف الى جانب صديقتيها اللتين تعملان يداً واحدة فى هذا الأمر .

« [وحض بوكان سازونوف على التزام جانب الحكمة وحذره من أنه اذا عبأت الروسيا جيشها فلن تقنع ألمانيا بالتعبئة فقط أوتدع للروسيا الوقت الكافى للقيام بتعبئتها . بل الأرجح أنها تعلن الحرب فى الحال . فكرر سازونوف] أنه لا يريد أن يعجل بالحرب لكنه ما لم تكبح المانيا جماح النمسا فلن يرى الحالة إلا موئسه ولن يسع الروسيا أن تسمح للنمسا بسحق صربيا وان تصبح بذلك الدولة السائدة فى البلقان . وهى ستواجه كل اخطار الحرب واثقة من تأييد فرنسا . »

وفى ختام هذا الاجتماع بين ممثلى الوفاق الثلاثى هدد سازونوف انجلتره بنقطة تقع عند السير ادوارد غراى ومستشاريه على وتر حساس جداً . وقد روى بوكانان : « ان المركز بالنسبة لنا ينطوى على اعظم جانب من المخاطر وعلينا ان نختار بين تأييد الروسيا ايجابياً او الاستغناء عن صداقتها . واذا نحن خذلناها الآن فلن نستطيع ان نأمل فى المحافظة على التعاون الودى معها فى آسيا ولهذا اهمية حيوية لنا » .

وقد كانت بعض مخاوف سازونوف فى نيات النمسا ترجع الى ان تسابارى لم يعلن فى الحال ما وعد تيزا به وهو أن النمسا لا تسعى الى اى مغنم ارضى على حساب صربيا . ولم يهدأ روع سازونوف هدوءاً ظاهراً ويعاوده تفاؤله إلا بعد أكد له بورتاليس وتسابارى بعده أن النمسا لا تطمح فى أرض ما وإلا بعد أن بوغت مباغتة سارة بعدم قيام النمسا بهجوم على أثر انتهاء مهلة البلاغ النهائى . وعلى ذلك مضى من ٢٦ يوليه الى ٢٨ يفاوض مفاوضات ديلوماتيكية تنطوى على المسالمة بينما كانت السلطات العسكرية الروسية تستعد سراً استعدادات عسكرية واسعة النطاق تسهل عند اللزوم

التعبئة « العامة » أو « الجزئية » على السواء . وقد أحدث ماراج عن هـذه الاستعدادات من الاشاعات انزعاجا فى المانيا ، واستمرت هذه الحال الى ان أعلنت النمسا الحرب على صربيا فى ٢٨ يوليه فقضى نبأ هـذا الاعلان دفعة واحدة على تفاؤل سازونوف ، ووجه الخطر الروسى وجهة جديدة مشئومة . لـكنا قبل أن نعالج ذلك يجب ان ننظر فى رد صربيا على البلاغ النمسوى النهـائى وفى عدة اقتراحات مختلفة ارتأتهـا الدول لحل المسألة حلا سلميا .

الفصل السابع

الرد الصربى

كان للأنباء التى وصلت إلى بلغراد بادئ الأمر عن اغتيال سيراجيفو أكبر فزع بين موظفى الحكومة فقد ذهب المسيو باشتش رئيس الوزارة الى فراشه ليخلو بنفسه فى التفكير فى هذه المشكلة . وقد أبدى لأول زائر زاره قوله : « إن هذا شنيع جداً . فان معناه الحرب » واستولى القلق الشديد على المسيو ليجوبا جوفانوفتش وزير المعارف فلم يشك لحظة فى أن النمسا والمجر ستتذرع بهذا الحادث لمحاربة صربيا . ويقال إن هارتفيج وزير الروسيا المفوض فى بلغراد صاح قائلا : يا لله ! لعله ليس صربياً » .

ولقد أدركت الحكومة الصربية فى الحال أن الحكومة النمسوية نظراً الى كل ما روج من دعاية فى الماضى ضد النمسا والى حقيقة واقعة هى أن المؤامرة أعدت فى بلغراد — نقول أدركت الحكومة الصربية نظراً لذلك ان المنتظر أن تعتبر الحكومة النمسوية حملة التهييج الصربية ، إن لم تكن الحكومة الصربية ، مسئولة عن الحادث ، وأن تتذرع بذلك لاعلان الحرب . لهذا اجتهدت الحكومة الصربية أن تتخذ بقدر الامكان موقفاً لا غبار عليه . فألغت الاحتفالات التى كانت قائمة بمناسبة عيد فيدوف دان وأنحت فى الصحيفة الرسمية انحاء قاسياً على الجريمة وأعربت عن التعازى الواجبة ، ثم أبدت استعدادها لأن تسلم إلى العدالة كل من يظهر أن له ضلعاً فى الجريمة . لكنها مع ذلك لم تتخذ أيا من الاجراءات الواجبة لاجراء تحقيق من ناحيتها عن أصول المؤامرة فى بلغراد . فان الدكتور جرووتش السكرتير العام فى وزارة الخارجية الصربية على النقيض من ذلك أبلغ القائم بالأعمال النمسوى فى أول يوليه انه « إلى الآن لم يعمل شىء ، وإن المسألة ليست من شأن الحكومة

الصربية ، ذلك أنها كانت تنتظر لترى مبلغ ما تستطيع النمسا اكتشافه وأى التهم توجه .

كذلك لم تتخذ الحكومة الصربية أى اجراء فعال لتلطيف الحملات العنيفة التى كانت الصحف فى بلغراد توجهها الى النمسا . وقد روى السفير البريطانى فى فينا ان تعليقات تلك الصحف على حادث الاغتيال اشتملت « عبارات تكاد أن تكون بمثابة تسويغ للجريمة الشنعاء وموافقة عليها » . ووقف المسيو باشتش حيال هذا موقف العاجز عن كبح هذه المجادلات المثيرة لأنه يرى أن الدستور الصربى قد ضمن للصحافة الحرية المطلقة وحظر كل رقابة أو مصادرة للصحف . وليس شك فى أن حملات الصحف الصربية يرجع جانب منها الى حملات الصحف النمسوية المجرية التى كانت تشبهها مرارة وإهانة والتى أخذت بعد ذلك تعنى عناية زائدة بنشر مقتطفات من الصحف الصربية لتذاع فى اوربا وتحول الرأى العـــام ضد حكومة بلغراد . وهكذا كانت الثلاثة الأسابيع التى تلت مقتل الغراندوق حافلة بحملة صحفية مرة قاسية قوامها المثالب تتبادلها النمسا وصربيا ، وتثير روح الحرب بين الجماهير فى كلا البلدين . وهى حملة كانت بمثابة الاستعداد النفسى للحرب .

وقد كانت دعاية الصحف النمسوية التى كانت أوسع انتشاراً ، اكثر توفيقاً على العموم من الدعاية الصربيـة فى بادىء الأمر وأبلغ فى التأثير على الرأى العام الأوربى وخاصة فى انجلتره . فقد أنحت التيمس اللندنية فى ١٦ يوليه « على اللهجة المستهترة المثيرة التى ينسب استعمالها إلى عدد كبير من الصحف الصربية قبل وقوع الجريمة التى أزعجت أوربا وبعدها » ثم أنذرت بأنه ينبغى على صربيا أن تجرى من تلقـاء نفسها تحقيقاً لديها هى ما يحملها على افتراض أن النمسا ستطالبها به ثم ترفع إلى الدول تقريراً وافياً عن اجراءاته . وكتبت صحيفة الوستمنستر غازيت النافذه الكلمة تبرر رغبة النمسا فى تسوية علاقاتها مع صربيا عقب جريمة يعتقد أن جذورها فى بلغراد وانها جزء من محاولة

متعمدة لانتزاع الأقاليم الصربية من المملكة الثنائية . قالت « فالنمسا لا ينتظر منها أن تبقى مكتوفة اليدين ، وانه ليخلص لصربيا من محضها النصح ، لتدرك أن جارتها العظيمة محقة فى قلقها فتعمل كل ما فى وسعها على إزالته دون أن تنتظر ضغطاً فى هذا السبيل » . فهذا الموقف من جانب بعض الصحف الانجليزية ذات النفوذ قد شجع آمال النمسا كثيراً فى أن انجلتره ستظل ساكنة حيال حرب « محلية » تنشب بين النمسا وصربيا . بيد أن هذا الموقف أحدث من ناحية صربيا قلقاً عظيما واضطربت له أعصابها اضطراباً شديداً حتى كان سبباً لاحتجاج ديبلوماتيكى ولتعليقات كثيرة .

وقد أنزعج باشتش أخيراً انزعاجاً جدياً من موقف الصحف الألمانية والنمسوية والانجليزية ومن صمت فينا الذى لم يكن يبشر بخير ، وربما أيضاً من الأنباء التى تسربت الى السلطات البريطانية فى ١٦ يوليه بواسطة الكونت لوتزوف عن نيات برشتولد . وقد حولت هذه الاخبار الى المعتمد البريطانى فى بلغراد ، ولا يبعد أن يكون لمح بها لوزير صربيا المفوض فى لندن فقد بعث هذا الى باشتش فى ١٧ يوليه يقول : « إن السفارة النمسوية هنا تبذل مجهودات عظيمة لاكتساب الصحف الانجليزية ضدنا وحملها على تأييد الفكرة القائلة بأن النمسا يجب أن تعطى صربيا درسا قاسيا . . . ويجب ان لا يوثق بأقوال الدوائر الرسمية النمسوية المجرية السلمية فى الظاهر لان الطريق يمهد لضغط ديبلوماتيكى على صربيا قد يتطور الى اعتداء مسلح » .

وفى ١٨ يوليه لما أشار القائم بالأعمال البريطانى فى بلغراد الى مقال التيمس وارتيائها أن أحكم طريق تسلكه صربيا هو أن تجرى بنفسها تحقيقاً عن المؤامرة فى الأراضى الصربية أجابه الدكتور جرووتش الموظف بوزارة الخارجية الصربية بقوله إنه عند ما ينتهى تحقيق سيراجيفو ستكون صربيا مستعدة للرضوخ لأية مطالب تتفق والعرف الدولى ويكون من ورائها اجراء تحقيق آخر ، وقبل أن يقع هذا لن تستطيع عمل شىء . ثم حاول أن يخدع

القائم بالأعمال البريطانى فيما يتعلق بمعرفة الحكومة الصربية بالقتلة فقال إن الحكومة الصربية لا تعرف شيئا عن برنسيب . وهو قول ظاهر البطلان بالنظر الى ما سلم به وزير المعارف الصربية وهو أنه كان يعرف برنسيب شخصياً وأنه امتحنه مرتين ، وأيضاً بالنظر الى ماذكر آنفا فى الفصلين الخاصين بمؤامرة القتل والمسئولية عنها . ثم أضاف جرووتش الى ذلك قوله إنه اذا ساءت الأمور وأعلنت النمسا الحرب فلن تقف صربيا وحدها ، ولن تبقى الروسيا هادئة اذا اعتدى على صربيا بلا مبرر ، وبلغاريا ستمنعها رومانيا عن الحركة

وفى اليوم التالى بعث باشتش برقية مستفيضة الى وزراء صربيا المفوضين فى الخارج يضرب فيها على هذه النغمة ويستنكر أعمال الصحف النمسوية المسئولة — فى قوله — عن إفراط الصحف الصربية . وقد كلف ممثليه السياسيين ان يقنعوا الحكومات المعتمدين لديها برغبة صربيا « فى المحافظة على العلاقات الودية بالنمسا والمجر واستعدادها اذا طلب اليها ذلك « لأن تقدم للمحاكمة فى محاكمنا المستقلة كل شريك فى الجريمة يكون فى صربيا ، اذا وجد فيها شركاء . » لكنه أضاف الى ذلك قوله « اننا لا نستطيع بحال من الأحوال الاذعان لمطالب يكون من شأنها أن لا تمتثل لها أمة تحترم استقلالها وتحافظ عليه . » وقد غادر باشتش بلغراد عقب ذلك بقليل ليقوم بحملة انتخابية اقتضاها حل مجلس السكوبشتينا . فهو لذلك كان غائبا عن العاصمة فى اللحظة التى قدم فيها وزير النمسا المفوض البارون جيزل بلاغ النمسا النهائى بعد ظهر ٢٣ يوليه .

صوغ الرد الصربى

لقد عنى برشتولد بأن لا تروغ صربيا من تقديم ردها فى الميعاد فى خلال ٤٨ ساعة . فلا غياب باشتش ولا إمكان استقالة وزارته كان ليسمح بأن يكون عذراً من التأخير لأن الوزارة المستقيلة تعتبر مسئولة عن موالاة

العمل الى أن يؤلف غيرها . ولكى يستوثق من أنه سيكون هنالك من يتلق البلاغ النهائى حين يقدم وليستطاع استدعاء باشتش على جناح السرعة أشعر جيزل وزارة الخارجية الصربية فى صباح يوم ٢٣ يوليه بأنه سيقدم تبليغاً هاماً بين الساعة الرابعة والخامسة مساء . وفى الساعة الموعودة اجتمع الدكتور جرووتش والثلاثة الوزراء الذين اتفق وجودهم فى بلغراد بوزارة الخارجية يساورهم القلق . وكانوا قد بعثوا الى باشتش برسالة تليفونيـــة ورتبوا له قطاراً خاصاً يعود به إلى العاصمة . لكن جيزل لم يحضر وأرسل سكرتيراً يقول انه سيحضر فى الساعة السادسة وقد كان السبب فى تأخيره ورود تعليمات فى الساعة الأخيرة من فينا . ذلك ان برشتولد أراد ، بعد أن تلق معلومات جديدة من برلين عن تنقلات بوانكاريه ، أن يستوثق جيداً من أن رئيس الجمهورية الفرنسية سيكون فى بحر البلطيق قبل أن يصل نبأ البلاغ النهائى إلى الروسيا ، وعلى ذلك أجل جيزل تسليمه ساعة .

وأخيراً وصل جيزل فى الساعة السادسة وسلم المذكرة ثم شفعها بقوله انه « إذا لم أعط جواباً مرضياً عن جميع النقط الى الساعة السادسة من مساء يوم السبت بعد غد فسأغادر بلغراد مع جميع موظفى مفوضيتى » . فأخبر أن الاجابة على بلاغ هام كهذا فى هذا الأمد الوجيز أمر صعب وخاصة فى غيبة عديد من وزراء الوزارة . فأجاب بأن الأمر لا يستغرق بضع ساعات فى بلد صغير كصربيا وفى عصر السكك الحديدية والتلغرافات والتليفونات ، وانه سبق أن أبدى فى صباح اليوم ان من المرغوب فيه عودة باشتش ، وخرج جيزل دون أن يدخل فى مناقشة أخرى تاركا وراءه الوزراء الفزعين يدرسون المذكرة التى كانت لا تزال على المنضدة ولم تكن قرئت بعد .

وأخذ الوزراء الصربيون يطلعون على الوثيقـة المشئومة فلما انجلى لهم مضمونها واستوعبوا أغراضها ازداد تأثرهم ووجموا حتى لم يعن منهم أحد بأن يكون البادئ بالكلام . وأخيراً نهض لجوبا جوفانوفتش وقال : حسناً ،

انه ليس أمامنا الا أن نموت ونحن نقاتل » . وغنى عن البيان أن أول ما عمل هو ابلاغ وزراء صربيا المفوضين فى البلاد الأجنبية خبر ما فعل جيزل . وقد شفع هذا التبليغ ببيان أن المطالب بحيث لا يسع أية حكومة صربية أن تقبلها على علاتها . كذلك أشعر ممثلو الدول بالأمر فى الحال ، وأرسل على الفور نداء خاص الى الروسيا تنشد فيه صربيا المساعدة ، وشفع هذا النداء بمناشدة مؤثرة وجهها الأمير الوصى على عرش صربيا الى القيصر إذ يقول . « إننا عاجزون عن الدفاع عن أنفسنا ونناشد جلالتكم أن تبادروا الى مساعدتنا بأسرع ما يمكن . ان ارادة جلالتكم الحسنة التى نقدرها قدرها والتى طالما أظهرتموها جلالتكم نحونا تلهمنا اليقين بأن مناشدتنا سيستجيب لها مرة أخرى قلبكم السلافى النبيل » . كذلك تضرعت صربيا إلى ملك ايطاليا بأن يستخدم نفوذه لحمل حليفه النمسوى على مد أجل المهلة وتخفيف المطالب .

واستدعى فى تلك الأثناء الوزراء الذين كانوا غائبين يشتركون فى الحملة الانتخابية حيث طلبت اليهم العودة الى العاصمة على جناح السرعة . فوصل باشتش فى بضع ساعات فى الساعة الخامسة من صباح يوم الجمعه ٢٤ يوليه . وفى الساعة العاشرة عقدت الوزارة جلسة طويلة مظلمة دون أن تصل فيها الى قرار بالرد . واستأنف الوزراء الجلسة فى المساء ثم فى صباح السبت عالمين انه لا بد من الاجابة بأى شكل من الأشكال قبل الساعة السادسة مساء . وقد قابل باشتش وزيرى الجبل الأسود واليونان المفوضين فأكد له أولهما أن الجبل الأسود سيسير مع صربيا جنباً الى جنب . أما وزير اليونان فلم يكن متأكداً من الموقف الذى ستتخذه حكومته . وقد كان المسيو فينزيلوس رئيس الوزارة غائباً عن أثينا لكنه خاطب برلين تليفونيا من مونيخ فى صباح اليوم التالى قائلا انه اذا انتهزت بلغاريا فرصة النزاع بين النمسا والمجر لمهاجمة صربيا فان اليونان ستعارض مثل هذا التدخل من جانب بلغاريا . وأهم من هذا بكثير ما تتخذه دول الوفاق الثلاثى من موقف .

وقد اتفق لسوء حظ صربيا أن الدول الثلاث العظمى لم يكن يمثلها فى ذلك الحين فى بلغراد وزراء مفوضون بالصورة المـــألوفة . فوزير الروسيا المفوض هارتفيج ذلك السياسى النشيط والمؤيد القوى لصربيـا سقط ميتا قبل ذاك ببضعة أيام وهو يحادث جيزل ولم يكن خلفه قد وصل . وانجلترة لم يكن لها وزير مفوض فى بلغراد حينذاك وان يكن المستر دى جراتز كان فى طريقه الى هناك من لندن . ووزير فرنسا المفوض كان يعـانى انحلالا عصبياً ولا يراه أحد وكان خلفه المسيو بوب قد وصل من الآستانة ولمايكد، ولم يألف بعد منصبه الجديد . وهكذا كان القائمون بالأعمال فى مفوضيات دول الوفاق عاجزين عن أن يفعلوا شيئا لصربيا سوى إبلاغ حكوماتهم نبأ مطالب النمسا غير المقبولة وانتظار تعليمات تلك الحكومات . وهى تعليمات كانت تصل بطيئة وكانت فى الواقع من البطء بحيث لم تأت فى أوانها لـكى تؤثر تأثيراً حاسما فى قرار صربيا .

وقد حادث سازونوف وزير صربيا المفوض فى الساعة السابعة من مساء الجمعة ويقـال إنه « نصح بالتزام منتهى الاعتدال فى الرد الصربى » . لـكن نصيحة كهذه لم ترد فى رواية الوزير الصربى لهذا الحديث . فأن هذا الوزير على النقيض من ذلك قابل سفير ألمانيا عند خروجه من عند سازونوف وقال له : « إنه سيرى قريباً أن هذه ليست مسألة تتعلق بصربيا والنمسا وحدهما بل مسألة أوربية » . وبعد ذلك فى نفس المساء أبرق سازونوف الى القائم بالأعمال الروسى فى بلغراد يقول له إنه خير للصربيين اذا أحسوا أنهم لاحول لهم ولا قوة بأزاء غزوة تقوم بها النمسا أن لا يقاوموا بل يتراجعوا دون قتال ويطلبوا حماية الدول . بيد أنه يقال إن أية نصيحة صدرت عن سازونوف لم تصل الى بلغراد إلا بعـد أن سلم الرد الصربى الى جيزل فى الساعة السادسة من يوم ٢٥ يوليه .

وقد أبرق السيرادوارد غراى فى منتصف الساعة العاشرة من مساء الجمعة

ينصح « بأنه ينبغى بالتأكيد أن تعرب صربيا عن اهتمامها وأسفها لأن يكون لأى موظف مهما كان مرؤوساً ، ضلع فى مقتل الغراندوق، وأن تعد اذا ثبت هذا الاشتراك بأن تقدم أعظم ترضية ، وعن الباقى « أن ترد وفاقا لما ترى أن مصالح صربيا تتطلبه » ولكى تحول دون التجاء النمسا الى أى عمل عسكرى « أن ترد رداً موفقاً على أكثر عدد ممكن من النقط فى خلال المهلة المعطاة فلا تقابل النمسا بالرفض البات » ثم أضاف الى ذلك قوله وهو يضع نصب عينه المحافظة على تضامن دول الوفاق : « شاور زميليك الروسى والفرنسى فى تبليغ هـذا للحكومة الصربية . وقد توسل الينا الوزير الصربى هنا أن نبدى شيئاً من آرائنا لكنى لا أستطيع أن أتحمل تبعة النصح بأكثر مما نصحت به آنفا . ولست أحب أن أفعل ذلك دون أن أعرف ما تقوله الحكومتان الروسية والفرنسية فى بلغراد . » وهـذه النصيحة أيضاً وصلت متأخرة عن أن تؤثر تأثيراً مادياً فى وزارة بلغراد . وقد رد كراكاتورب فى منتصف الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التالى يقول إن زميليه لا يزالان بلا تعليمات وأنه نظراً لذلك وللهجة المسالمة التى ارتئى أن يكتب بها الرد الصربى وهو ما أبلغه الدكتور جرووتش خلاصته مقدماً ، قد أمتنع عن تقـديم نصيحة غراى الى الحكومة الصربية .

ونصح المسيو برتيلو مدير الأدارة السياسية بوزارة الخارجية الفرنسية للوزير الصربى فى باريس بتاريخ ٢٤ يوليه بأنه يجب أن « تحاول صربيا أن تكسب وقتاً بتقديم الترضية عن جميع النقط التى لا تتعارض مع كرامتها وسيادتها وبطلب معلومات جديدة عن النقط الأخرى . وفوق هذا يجب أن تحاول صربيا الأفلات من قبضة النمسا مباشرة بأعلان استعدادها للرضوخ لتحكيم أوربا . » وليس أكيداً ما اذا كانت هذه النصيحة قد بلغت بلغراد فى وقت يسمح بالتأثير على الرد الصربى بيد أن كون الرد الصربى قد جاء فى جوهره مطابقا لما رسمه برتيلو يجعل هذا محتملا .

وعلى كل فأنه يجب مع ذلك أن يعود باشتش وزملاؤه أكثر من غيرهم من ساسة الدول العظمى بأكبر قسط من الفضل للمهارة التى عالج بها موقفاً صعباً. فأنهم قد صاغوا رداً لم يصادف فقط قبول الدول جميعاً وعطفها فيما عدا النمسا، بل قد نال أيضاً إعجاب الرجل الذى صاغ البلاغ النمسوى النهائى نفسه فوصفه بأنه «أروع مثال للمهارة السياسية عرفته فى حياتى». فلقد قرروا فى الحال أنه « ما من حكومة صربية تستطيع أن تقبل المطالب النمسوية بحذافيرها. »

وما دام هذا هكذا فقد استنتجوا أن النمسا ستعتبر أى رد يردون به غير غير مرض وتعلن الحرب. لذلك فهم « سيناشدون حكومات الدول الصديقة أن تحمى استقلال صربيا. واذا كان لا مفر من الحرب فستخوض صربيا غمارها » وما دامت النمسا سترفض كما يلوح كل رد لا يسلم بكل النقط فباستطاعتهم أن يصوغوا الرد فى قالب مسالم جداً ويسلموا بشكل ظاهر بكثير من النقط بل أيضا يرتأوا عرض المسألة على محكمة لاهاى، فأن هذا النوع من المسالمة فى الرد مما يساعد على كسب عطف الدول وحمايتها والزام النمسا الحجة اذا هى رفضته. على أن الرد كان أكثر تساهلا فى الشكل منه فى الموضوع. ومما له مغزى أنهم قبل تسليم الرد الى جيزل عند انتهاء المهلة المحددة ببضع ساعات أمروا بتعبئة الجيش الصربى بأسره تعبئة عامة. وفى الواقع لقد أخذوا من فورهم فى الاستعداد للدفاع استعدادا عسكريا حماسيا يتناول نقل محفوظات الحكومة وخزائنها وموظفيها من بلغراد المعرضة للخطر الى داخل البلاد، حتى لقد ضُلل وزير ألمانيا المفوض فبعث الى حكومته فى منتصف الساعة الثانية عشرة من مساء يوم الجمعة برقية يقول فيها: « إن التعبئة على قدم وساق ».

فهذا الأمر بالتعبئة الصربية قبل تسليم الرد المسالم الذى كان يعتبر مظهراً سياسيا اكثر منه مجهودا جديا لترضية النمسا، له مزية اخرى. فقد كانت

الحملة الصحفية قد استثارت احقاد صربيا ضد النمسا وكان الضباط العسكريون الصربيون التابعون لجمعية « اليد السوداء » تواقين الى الحرب ومستعدين لأسقاط باشتش لدرجة أنه لو كان ضمن رده المسالم شيئاً من التساهل المذل لكان ثمة خطر من انتقاض عسكرى ضد الحكومة المدنية . وحتى قبل تقديم البلاغ النهائى كان بعض الموظفين الصربيين قد أشار الى خطر الشعور الوطنى المهتاج فى البلاد . وقد كتب وزير ألمانيا المفوض يقول إن موقف باشتش « صعب جداً نظراً للانتخابات المقبلة ولحملة التهييج القائمة فى طول البلاد وعرضها . فكل تساهل حيال المملكة المجاورة ستعتبره المعارضة المتحدة ضعفاً منه .هذا فضلا عن أن الدوائر العسكرية التى أعماها حب العظمة والتعصب القومى ترغمه على الخشونة التى ليست من طبعه المسالم . » وقد تجلى صدق هذا بعد أن بات البلاغ النهائى معروفاً . « فالعسكريون يطلبون الحرب ورفض المذكرة بتاتاً » « ويخشى أن تحدث فتنة عسكرية اذا أعلن المنشور الذى تطلب النمسا إذاعته فى نشرة الجيش الرسمية . » بيد أن الاستعداد للحرب واعلان التعبئة قبل أن يذاع أن الحكومة أذعنت لبعض المطالب النمسوية أرضى الضباط العسكريين وحول الخطر .

وقد صيغت النقط الأساسية للرد الصربى فى الاجتماع الوزارى الطويل الذى عقد فى صباح السبت . وأعطى ممثلو الدول الصديقة مقدماً خلاصة بالرد وأبلغوا انه سيصاغ بعبارات غاية فى المسالمة وأنه سيجيب النمسا الى مطالبها على قدر الامكان . » وقد وضع النص الفعلى وزير الداخلية ستوجان بروتتش لكن كل جملة فيه قد قتلها بقية الوزراء بحثا ، فكانوا يتناولونه بالتبديل حتى آخر لحظة وحتى أصبح النص الأخير للرد الصربى كما سلم لجرووتش لترجمته الى الفرنسية وكتابته على الآلة الكاتبة — حافلا بالشطب والتصحيح الى درجة انه لم يكن يسع غير المشتركين فيه أن يستجلوا معناه . وبينا كان يملى النص على الكاتب والوقت ينقضى سراعا كسرت الآلة الكاتبة

الباقية واضطر سكرتير الى أن ينقل النص فى نهايته بيد قلقه . وقد أعطى إذ ذاك الى باشتش لحمله قبـــل السادسة بقليل ليسلمه بشخصه الى وزير النمسا المفوض .

موضوع الرد الصربى

كان الرد الصربى أكثر انطواء على المسالمة من حيث الشكل منـه من حيث الموضوع . والذى يبين هذا هو أن السلطات النمسوية أخرت إذاعته الى أن يتسع لها الوقت للتعليق عليه وقد نشرت التعليق الى جانب الرد الصربى لتدل على أن التساهل فى كثير من النقط كان محاطا بتحديدات وشروط تسلبه قيمته وتجعله غير صالح لأن يكون ضمانة للأمن فى المستقبل فوق انه لم يكن بالموافقة التامة التى طلبوها . بيد أنهم لم يستطيعوا نشر الرد الصربى بالتعليق الموازى له الا فى ٢٨ يوليه . وعند ما نشر كان قد فات أوان تأثيره فى أوربا التأثير الذى كان مأمولا . أما صربيا فانهـا كانت فى تلك الأثناء قد أذاعت ردها وخلاصته قبله ، فأحدثت بذلك الأثر الطيب الذى كانت ترجوه .

والى القارئ خلاصة الرد الصربى .

« إن الحكومة الصربية « المقتنعة بأن ردها سيزيل أى سوء فهم يمكن أن يهدد بفصم علاقات الجوار الحسنة » بين البلادين تحتج بأنهـــا لا هى ولا رجالها حاولوا فى أى وقت منذ الوعود التى قطعتها فى سنة ١٩٠٩ أن يغيروا الحالة التى أوجدت فى البوسنة والهرسك سواء من الوجهـــة السياسية أو الشرعية . والحكومة الصربية لا يمكن أن تعـد مسئولة عن مظاهرات ذات صبغة فردية كمقالات الصحف أو عمل الجمعيات السلمى . . وهى مستعدة لأن تحيل الى المحاكمة كل صربى من رعايا الحكومة كائنا ما كان مركزه أو درجته إذا قام الدليل على اشتراكه فى جريمة سيراجيفو . كذلك توافق الحكومة على أن تنشر فى الصفحة الأولى من الجريدة الرسمية تصريحا تستنكر فيـه كل

دعاية ، يمكن أن توجه ضد النمسا والمجر وتأسف لأن بعض الضباط والموظفين الصربيين ، وهو مايقول به تبليغ الحكومة الأمبراطورية الملكية ، اشتركوا فى الدعاية الآنفة الذكر .»

وقد تعهدت الحكومة الصربية فيما يتعلق بالمطالب النمسوية العشرة بمايلى :

١ — أن تدخل فى أول اجتماع عادى لمجلس السكوبشتينا نصا على قانون الصحافة يقضى بأقصى عقاب للتحريض على كراهة المملكة النمسوية المجرية وازدرائها وترتئى أيضا ادخال تعديل على الدستور يسمح بمصادرة الصحف

٢ — أن تحل نارودنا أودبرانا وكل جمعية أخرى يمكن أن تكون موجهة مساعيها ضد النمسا والمجر . وان كانت الحكومة الصربية لا تملك دليلا ولا النمسا قدمت دليلا على أن أعضاء هذه الجمعيات ارتكبوا أعمالا إجرامية .

٣ — أن تستأصل بلا ابطاء من المعارف العموميه فى صربيا كل ما من شأنه أن يساعد على اختمار الدعاية ضد النمسا والمجر كلما دلت الوقائع وقامت الأدلة على ذلك .

٤ — أن تبعد من السلك العسكرى جميع الأشخاص الذين يثبت التحقيق القضائى اداناتهم بأعمال موجهة ضد النمسا والمجر بعد أن تقدم الأخيرة المعلومات اللازمة .

٥ — أما ما يتعلق بما طلب من قبول تعاون ممثلى النمسا فى صربيا على إخماد الدعاية الضارة فالحكومة الصربية ، لا تفهم جليا معنى هذا الطلب ومرماه ... لكنها ستسمح بالتعاون الذى يتفق ومبادئ القانون الدولى والاجراءات الجنائية وعلاقات الجوار الحسنة .»

٦ — ترى الحكومة الصربية من واجبها أن تجرى تحقيقا مع كل الأشخاص الذين لهم أو يظهر فيما بعد أن لهم ضلعا فى المؤامرة ، لكنها ، فيما يتعلق باشتراك مندوبين عن النمسا والمجر فى هذا التحقيق لا يمكن ان تقبل تدبيراً كهذا لأنه يكون خرقا للدستور ولقانون التحقيقات الجنائية .

٧ — قد قبضت الحكومة الصربية على تانكوشتش فى نفس المساء الذى سلم فيه البلاغ النهائى لكنها لم تستطع القبض على سيجانوفتش [وقد دبر حكمدار بوليس بلغراد رحيل سيجانوفتش ثم أعلن أنه لا يوجد فى بلغراد رجل بهذا الاسم .]

٨ — ستتخذ الحكومة الصربية الاجراءات اللازمة لمنع تهريب السلاح والمفرقعات عبر الحدود وستعاقب بشدة موظفى الحدود الذين سمحوا لقتلة سيراجيفو باجتيازها .

٩ — ستقدم الحكومة الصربية بكل ارتياح الايضاحات اللازمة فيما يتعلق بالملاحظات التى أبديت فى أحاديث موظفيها فى صربيا أو فى الخارج وقيل إنها عدائية للنمسا وذلك بمجرد تعيين مواضع هذه الملاحظات وظهور أنها أبديت فعلا .

١٠ — ستبلغ الحكومة الصربية النمسا عن تنفيذ الاجراءات الآنفة الذكر بمجرد تنفيذها .

فاذا لم يرض النمسا هذا الرد فالحكومة الصربية « مستعدة كما كانت دائما لقبول اتفاق سلمى بعرض المسألة إما على محكمة العدل الدولية بلاهاى وإما على الدول العظمى التى اشتركت فى وضع التصريح الذى أعلنته الحكومة الصربية فى ٣١ مارس ١٩٠٩ لاصدار قرار فيها . »

مما تقدم يتضح أن المطالب الأول والثانى والثالث قبلت الى حد معقول جداً وأن المطلبين الثامن والعاشر قبلا بحذافيرهما . أما المطالب الرابع والخامس والتاسع فقد راوغت الحكومة الصربية فى الأجابة عنها أو أجابت عنها بتحفظات خطيرة . والمطلب السابع يتضمن شيئاً عن سيجانوفتش لم يكن صحيحاً . والمطلب السادس يتعلق بتعاون موظفين نمسويين فى صربيا على البحث عن الشركاء الصربيين فى مؤامرة الاغتيال (لا محاكمتهم والحكم عليهم) وقد رفض هذا المطلب على كونه على أعظم جانب من الاهمية إما

لأن باشتش وزملاءه أساءوا فهمه قصداً أوعفواً وإما لأنه لاح أن به مساساً بالسيادة الصربية ، أو لأنهم خشوا أن يؤدى الى اكتشافات غير سارة فيما يتعلق باشتراك جمعية اليد السوداء وموظفين صربيين آخرين وكذلك فيما يتعلق بعلم الحكومة الصربية بمؤامرة لم يمنعوها .

على أن الرد الصربى كان له على العموم لدى المعاصرين وقع حسن . وقد أبدى السير أيركرو بوزارة الخارجية البريطانية « أن الجواب معقول . فأذا كانت النمسا تطلب الأذعان التام للبلاغ النهائى فمعنى هذا أنها تريد الحرب » . ولاحظ الأمبراطور غليوم بعد تلاوته فى صباح يوم ٢٨ يوليه ودون فى نهايته « أنه مشهد باهر لأندار محدود بثمان وأربعين ساعة . وهذا يفوق ما كان يمكن أن ينتظر ! فأنه لنجاح أدبى عظيم لفينا وبه ينتفى كل سبب للحرب . وقد كان ينبغى أن لا يغادر جيزل بلغراد بحال ! وما كنت أنا لآمر بالتعبئة بعد مثل هذا ! — غ » .

ومع ذلك فقد كانت التعليمات تقضى على جيزل برفض الرد باعتباره غير مرض . وليس يسع أحداً أن يقبل الحجج التى يسوقها النمسويون أحيانا على أن رفض الرد الصربى كان يسوغه أنه لم يكن يحتوى الضمانات الكافية لطمأنينة النمسا . ذلك بأن الضمانات لم تكن هى التى قصدت اليها النمسا بادىء الرأى ببلاغها النهائى وانما الذى قصدت اليه والتمسته هو الذريعة لاضعاف صربيا ووضع حد للخطر الذى كانت تخشاه من طلب صربيا للتوسع ، باعلان الحرب عليها .

انقطاع العلاقات السياسية بين النمسا وصربيا

كانت الساعة السادسة من مساء يوم السبت ٢٥ يوليه هى الوقت المحدد لانتهاء المهلة . فقبل أن تكتمل السادسة ببضع دقائق وصل باشتش الى المفوضية النمسوية وسلم الرد الصربى . فقال جيزل إن عليه أن يقارن بينه وبين التعليمات التى بيده وأنه سيرد عليه حالا . ولما كان يعلم أن صربيا قد أمرت فعلا بالتعبئة فأنه لم يكن يتوقع كثيراً أن يكون الرد مرضياً من كل الوجوه ؛ والمرجح أنه كتب رده قبل أن يطلع عليه . ثم ألقى عليه نظرة عجلى ليستوثق من ان صربيا لم تسلم تمام التسليم بكل نقطه وأنه يسعه كرغبة برشتولد ان يرفضه باعتباره غير مرض ويقطع العلاقات السياسية . ولذا فأن باشتش لم يكد يعود الى مكتبه بوزارة الخارجية حتى تلقى مذكرة من جيزل يقول فيها إنه بما أن المهلة « قد انتهت الآن ولم أتلق جواباً مرضياً فأنى أتشرف بأن ابلغ سعادتكم أنى سأغادر بلغراد الليلة مع موظفى المفوضية الأمبراطورية الملكية . . . وأنه منذ اللحظة التى يصل فيها هذا الكتاب الى سعادتكم يكون انقطاع العلاقات السياسية بين صربيا والنمسا والمجر قد بات أمراً واقعا . » ولقد كانت سرعة جيزل بالغة الى حد أنه وجميع موظفيه أمكنهم ان يلحقوا قطار السادسة والنصف المسافر من بلغراد وليس من شك انه احرز قياسا فى سرعة قطع العلاقات العسكرية .

وكان برشتولد قد اتخذ التدابير المحكمة لتلقى الأنباء من جيزل بأقصى سرعة حتى يمكن أن تتلو التعبئة الجزئية النمسوية انقطاع العلاقات السياسية بأسرع ما يستطاع . فبعد أن يغادر بلغراد فى منتصف السابعة مساء يصل الى محطة سيملين عبر الحدود فى الساعة السادسة والدقيقة الأربعين وهناك يستعمل تليفون السكة الحديدية التى يترك مفتوحا له لتبليغ تيزا فى بودابست وهذا بدوره يبلغ الرسالة فى الحال الى فينا . أما برشتولد فكان قد توجه الى

إيشل ليحضر وليمة أقامها الامبراطور فرانسوا جوزيف للدوق اوف كمبرلند والدوقة قرينته . وكان عند الظهر قد تلقى برقية مستعجلة من القائم بالأعمال الروسى يرجوه فيها مد أجل المهلة بدعوى أن الدول قد بوغتت وانها لم تتح لها الفرصة بعد للاطلاع على ملف قضية سيراجيفو الذى وعدتها النمسا به . لكن برشتولد رد عليه بقوله انه لا يستطيع ان يمد اجل المهلة ، وزاد على هذا قوله انه يمكن مع ذلك الوصول الى تسوية سلمية حتى بعد ان تكون العلاقات السياسية مع صربيا قد قطعت . وذلك بقبول صربيا مطالب النمسا بحذافيرها . بيد ان النمسا فى مثل هذه الحالة تنتظر ان تعوضها صربيا من النفقات التى تكون الاستعدادات العسكرية قد اقتضتها . واذن فقد كان واضحا انه كان واثقا يتوقع ان تتخذ اجراءات عسكرية ضد صربيا على اثر انقطاع العلاقات السياسية معها .

كان برشتولد جالسا مساء فى غرفة الامبراطور فى إيشل معيل الصبر ينتظر وصول الرسالة الموعودة وأخيراً خرج يجول جولة فى الهواء فلما كانت الثامنة الا ربعا دق التليفون وكان الكونت كيتسكى قد تلقى الرسالة فى فينا فجاء يبلغها الى إيشل :

« أبلغ الوزير جيزل بودابست من سيملين أن الرد سلم قبل السادسة مساء بدقيقتين ولما كان غير مرض فى عدة نقط فقد قطع البارون جيزل العلاقات السياسية وسافر . وكانت صربيا قد أمرت بالتعبئة العامة فى الساعة الثالثة بعد الظهر وانتقلت الحكومة والهيئة السياسية الى كراجويفاتش . »

فتلقى البارون مارجوتى الرسالة على قطعة من الورق وأسرع بها الى فرنسوا جوزيف فتناولها الشيخ بين يديه المرتجفتين وتداعى فى مقعده وهو يتمتم بصوت أجش غير مألوف « لقد حدث إذن ! » كما لو كان قد أمل واعتقد إلى النهاية أن فى الامكان تجنب قطع العلاقات . وبعد أن حملق هنيهة فى الورقة استغرقته

أفكاره وقال كمن يخاطب نفسه مع الناس : « ومع ذلك فانقطاع العلاقات السياسية لا يعنى الحرب ».

ودعى برشتولد فى تلك الأثناء لمقابلة الأمبراطور وخلوا بنفسيهما وكان قد حثه تيزا وكونراد والسفير النمسوى فى برلين على وجوب الأمر بالتعبئة فى النمسا فى الحال لأن أى ابطاء أو تردد سيعتبر دلالة على الضعف ويزيد فى احتمال تدخل الروسيا فلم يلق كبير عناء وهو يورد هذه الآراء فى اقناع الأمبراطور الشيخ بضرورة الأمر فى الحال بالتعبئة الجزئية المنوية فى حالة الحرب مع صربيا والجبل الأسود . وبلغت موافقة الأمبراطور هيئة أركان الحرب فى الساعة التاسعة والدقيقة الثالثة والخمسين مساء فنفذت على الأثر وكان يوم ٢٧ يوليه هو يوم «الاستنفار» و ٢٨ يوليه أول أيام التعبئة الفعلية

ولم يكن كونراد وبرشتولد واثقين مما اذا كانت الروسيا ستتدخل أو لا . وقد أملا طبعا ان لا تتدخل وان تحصر الحرب مع صربيا وثمة دلائل كثيرة على ان هذا هو ما كانا يتوقعانه على الرغم من استعدادهما لمواجهة خطر تحرك الروسيا .

ولما كانت النمسا وصربيا قد قطعتا العلاقات السياسية الآن وكانتا تعبئان جيشهما فقد اخذت الدول العظمى ترتئى عدة اقتراحات للمحافظة على السلام

الفصل الثامن

اقتراحات للمحافظة على السلام

كان يتوقع فى كل مكان أن يفضى حادث اغتيال سيراجيفو الى استحكام التوتر الذى كان يلم من زمن طويل بالعلاقات النمسوية الصربية استحكاماً خطرا . لذلك تقدمت كل الدول العظمى بعدة اقتراحات للحيلولة دون تطور هذا التوتر الى حرب بين البلادين المهتاجين ، فاذا قدر لها أن تنشب فليمنعوا تورط الدول الأخرى فى حرب أوربية عامة . وقد قدم بعض هذه الاقتراحات قبل نشر مطالب برشتولد فى صربيا كاقتراح « المحادثات المباشرة » الذى ارتأى السير ادوارد غراى أن تدور بين النمسا والروسيا ، وكالخطة التى وضعتها ألمانيا لجعل الحرب « محلية » ، وكمسعى بوانكاريه وسازونوف لصرف النمسا عن تقديم انذارها النهائى . فلما بات البلاغ النهائى الجاف معروفا وخاصة عقب انقطاع العلاقات السياسية والشروع فى التعبئة فى صربيا والنمسا تكاثرت المقترحات للمحافظة على السلام . فكان بعضها يتجه موازيا بعضه، وبعضها يتعارض أحيانا مع بعض. وكثيراً ما كانت هذه المقترحات تأتى مضطربة غامضة فلم تكن دائما جلية واضحة كل الجلاء والوضوح حتى فى أذهان أصحابها. مثال ذلك أن السير ادوارد غراى أثناء أن كتب مذكراته وفى يوليه ١٩١٤ لم يدرك تماما أهمية التفريق بين التوسط بين النمسا والروسيا والتوسط بين النمسا وصربيا .

ولقد وضع سازونوف أيضا أثناء إضطراب أعصابه اقتراحات كثيرة يترى بعضها إثر بعض فى صورة مربكة . فمنها اقتراح للتفادى من البلاغ النمسوى النهائى، وآخر لمد المهلة ، وثالث لحمل صربيا على الاستغاثة بالدول العظمى، ورابع

لحمل انجلتره وايطاليا على معاونة النمسا على تفريج الحالة، وخامس لحمل النمسا على تعديل إنذارها النهائى حتى بعد أن قدم وأجيب عليه، وسادس ليجعل الدول العظمى تقيم على صربيا نوعا من الاشراف الدولى غير الرسمى لمنع كل مؤامرة ضد النمسا فى المستقبل، وسابع فى مقدمة الجميع هو حمل انجلتره على صد النمسا وألمانيا بأعلان تضامنها صراحة مع فرنسا والروسيا. ولا عجب أن يشكو بعد ذلك السير أرثر نيكولصن بوزارة الخارجية البريطانية فى ٢٧ يوليه فيقول: « إن هذا مربك ففى ثلاثة أيام متعاقبة ارتأى المسيو سازونوف رأيا وقدم اقتراحين كل منهما يختلف عن الآخر... والحقيقة أن المرء لا يعرف أين هو مع المسيو سازونوف. وقد أخبرت الكونت بنكندورف بذلك بعد ظهر اليوم. »

وكان أهم حل ارتأته ألمانيا حصر النزاع حصراً ظلت تحض عليه أسبوعاً حتى قرأت الرد الصربى المنطوى على المسالمة فأخذت تدرك بصفة جدية أن الروسيا لن تظل ساكنة. بيد أن هذا الحصر لم تكن لترضاه الروسيا وفرنسا بتاتاً كما لم ترضه انجلتره تبعاً لهما. وقد كتب السير أرثر نيكولصن إلى بوكانان يقول. « ان القول بحصر الحرب معناه الوحيد هو أن تقف جميع الدول تتفرج على النمسا بينما هى تردى صربيا. وهذا فى رأيى لا يقبله العقل إن لم أقل انه جائر ».

وايطاليا التى كانت واجباتها نحو العصبتين المتحالفتين من الدول تحيرها وتجعلها من أجل ذلك ترغب فى منع الحرب الأوربية أملت أن تعمل مع انجلتره لهذه الغاية. ففى ٢٧ و ٢٨ يوليه اقترحت اقتراحاً بديعا هو انه اذا نصحت الدول لصربيا حتى بعد أن قطعت العلاقات السياسية فى ٢٥ يوليه بقبول المطالب النمسوية بحذافيرها فقد تحملها هذه النصيحة على القبول فترضى النمسا وتكون صربيا قد سترت وجهها بالأذعان للدول لا للنمسا وحدها. وعندئذ يسع الدول أن تضع التفاصيل التى تنفذ صربيا مطالب

النمسا بموجبها . وقد بدا أن وزير صربيا المفوض فى روما لا يمانع فى جوهر هذا الاقتراح ، لكنه فى النهاية لم يثمر شيئا لأن دول الوفاق فى الغالب لم تقابله بجد ولأن اقتراحاتها هى غطت عليه ، ثم لأن النمسا سرعان ما عقدت الموقف باعلان الحرب على صربيا .

ومحاولة سرد جميع هذه المقترحات العديدة التى أراد بها أصحابها فى يوليه ١٩١٤ المحافظة على السلام محاولة كريهة غير مجدية ، لكنه قد يفيد أن نستعرض فى ايجاز بعض الاقتراحات التى قدمت قبل ٢٨ يوليه والتى كانت ذات مغزى خاص أو كان يلوح الأمل فى نجاحها عظيما جداً ، أو التى كانت غالبا غير مفهومة جيداً . وهذه المقترحات هى التى أبداها السير ادوارد غراى وهو ما يقال له « محادثات مباشرة » بين فينا وسان بطرسبورغ .

مركز انجلتره المسيطر

فى كثير من المقترحات السلمية كان يرى على وجه العموم أن انجلتره هى التى تقبض على مفتاح الموقف لعدة أسباب . فمصالحها المباشرة فى البلقان كانت دون مصالح الدول العظمى الأخرى، والخلاف النمسوى الصربى كما كرر غراى لم يكن يهمه . فاهتمامه بالأمر انما جاء فقط من ناحية السلام الأوربى وهذا السلام كانت تساوره المخاوف عليه . وبذا كان ينظر اليه كما نظر اليه فى خلال حرب البلقان باعتباره أنزه وأقدر رجل على اتخاذ اجراءات تكون غايتها عقد مؤتمر دولى أو ابتكار الوسيلة التى تحول دون تطاحن فريقى الدول العظمى . وفوق ذلك فان انجلتره لم تكن مرتبطة نحو أى من الفريقين بأية محالفة رسمية . وقد أدرك أخيراً أن انجلتره بقوتها البحرية العظيمة يرجح أن تكون قادرة على الضغط بصورة حاسمة على فرنسا والروسيا والنمسا والمانيا وايطاليا والتأثير فى سياسة هذه الدول بأى موقف تقفه . لذلك ناشدت الروسيا وفرنسا غراى أن يحفظ السلام بأن يبين لألمانيا بحزم انه اذا وقعت

الحرب فسيؤيدهما كما ناشدته ألمانيا أن يضغط على الروسيا لتلتزم الهدوء محافظة على السلام .

بيد أن غراى لم يكن راغباً فى بدء الأزمة فى تحذير ألمانيا بصفة حازمة ذلك أن وزارته كانت منقسمة على مسألة تدخل انجلتره عند اللزوم فلم يكن يستطيع أن يهدد خشية أن لا يستطيع التنفيذ . فضلا عن أنه كان يكره أن يقول شيئا يمكن أن يشجع فرنسا والروسيا على الاقدام على الحرب معتمدين على تأييد قد لا تكون الوزارة الانجليزية والبرلمان مستعدين له اذا وقعت الواقعة . ولذا فانه لم يلن لالحاح الروسيا وفرنسا الا تدريجا وشجعه على ذلك سكرتيراه كرو ونيكولصن فلمح لألمانيا محذرا فى صورة تصريحات تتعلق بالأسطول البريطانى ، ثم استخدم بعد ذلك لهجة أصرح مع السفير الألمانى . ومن جهة أخرى فأنه لم يكن يرغب فى التضييق على الروسيا خشية ان يقضى هذا التضييق على تضامن الوفاق الثلاثى ويحدث « سوء فهم » وخوفا من أن يذهب الوفاق الانجليزى الروسى فيما يتعلق بالشرق الأوسط ضحيته .

وقد كان السير ادوارد غراى بغض النظر عن أن وقته وانتباهه كانا الى حد كبير تستغرقهما فى ذلك الحين مشاغل البرلمان وحالة ايرلنده الحرجة ، يجد أسبابا كثيرة جعلته فى بادىء الأمر لا ينزعج انزعاجا جديا على السلم فى أوربا ، ذلك بأنه على الرغم من تيار الخلاف الخفى الجوهرى الحاد الذى أحدثته سياسة ألمانيا البحرية كانت علاقاته بألمانيا على العموم خيرا مما ظلت عليه عدة أشهر ، فقد كانت المعاهدتان الخاصتان بسكة بغداد الحديدية والمستعمرات البورتغالية تامتين موقعتين بالأحرف الأولى لا ينقصهما إلا التوقيع النهائى الذى تأخر لأنه كان على ألمانيا ان تتم بعض التدابير المتعلقة بالسكة الحديدية مع تركيا ، ولأن السير ادوارد غراى كان يحب أن ينشر التصريح الانجليزى البورتغالى السرى المؤرخ فى ١٨٩٩ مع المعاهدة الألمانية فى وقت واحد بينما كانت المانيا ترغب فى تأخير النشر . وقد أمل السير ادوارد غراى ان

يؤدى امضاء المعاهدتين اللتين كانتا تسويان مشكلتين ظلتا طويلا سبباً للانفعال إلى تحسين الجو السياسى بين ألمانيا وانجلتره .

وقد كانت زيارة الأسطول البريطانى لكيال فألا حسناً آخر لأنها وان كان قد قطعها نبأ سيراجيفو المحزن ، كانت فى رأى الملحق البريطانى البحرى توفيقا كبيراً يزيد من قيمته انه لم تكن لها صبغة سياسية . وقد سر الألمان حقاً أن يروا ضيوفهم وكانوا يتطلعون بشغف الى رد الزيارة لميناء انجليزى بعد أن باتوا يتبرمون كثيراً برؤية هيلجولند وهى التى كان عملهم البحرى للمضجر لا يعدو محيطها . وقد كان روح الزمالة الحسنة سائداً بين الفريقين ضباطا وبحارة وتعليقات الصحف أخف حدة وأقل انفعالا من المألوف .

كذلك الانزعاج والريبة اللذان أثارهما فى ألمانيا « تسرب » خبر المفاوضات السرية لعقد اتفاق بحرى بين انجلتره والروسيا يقوى تضامن الوفاق الثلاثى ويرضى الروسيا وفرنسا كمقابل للاتفاقين الخاصين بسكة بغداد الحديدية والمستعمرات البورتغالية والمعقودين مع ألمانيا — نقول ان هذا الانزعاج وتلك الريبة خفا فيما يلوح بتكذيبات غراى فى البرلمان ان لم يكونا بددا تماما . وقد كان غراى يعتقد انه يستطيع أن يمضى موفقاً فى متابعة الأغراض الرئيسية لسياسته الخارجية وهى ايجاد علاقات حميمة مع فرنسا والروسيا ليدفع بذلك شر ألمانيا ، وتلطيف الخلاف مع ألمانيا والمحافظة على السلام الأوربى فى نفس الوقت بالحيلولة دون تطاحن المحالفتين .

ولقد قيل كثيراً إن الحرب كانت خليقة أن لا تقع فى سنة ١٩١٤ لو أن الدول عقدت مؤتمراً وبحثت فيه النزاع النمسوى الصربى . وهذا قول راجح كل الرجحان لأنه لما لم يكن بين الساسة المسئولين من يرغب فى حرب أوربية فقد كان ممكناً بل مرجحاً أن يهتدى مثل هذا المؤتمر الى مخرج من

هذه المشكلة البلقانية البالغـــة التعقيد كما وجد المخرج من الأزمة التى أثارتها حروب البلقان .

وقد أكد كتّاب « الوفاق » على وجه عام أن السير ادوارد غراى قد أفرغ قصارى جهده لعقد مؤتمر لكن ألمانيا عارضت فيه ، وأن هذه المعارضة توقر عاتقها بقسط آخر من مسئولية الحرب العالمية . وهذا هو الأثر الذى تتركه مذكرات الفيكونت غراى فى النفس . فقد أفرد ما يقرب من فصل لمسألة هذا « المؤتمر » فقال « إن سازونوف كان مستعداً لترك المؤتمر ينعقد اذا كفت النمسا يدها ؛ وفرنسا وايطاليا كانتا مستعدتين للتعاون ؛ ولم تبد ألمانيا المعارضة التى كنت أخشاها لكنها بينا هى قد وافقت مبدئياً عطلت المؤتمر . . . فهما (بيتمان وياجو) عطلا الوسيلة الأكيدة الوحيدة لتحقيق التسوية السلمية دون أن يلجأ حتى الى عرضها على النمسا فيما أعلم . . . وإنى لأذكر انى كنت أحس الدافع لأن أقول انه ما دامت ألمانيا قد عطلت المؤتمر فلن أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت وانه على ألمانيا سوف تقع تبعة الحرب اذا هى نشبت . » غير أن هذا القول أبسط مما يجب وهو بعيد عن أن يكون صحيحاً كله . فأن الفيكونت غراى لم يبين بيـاناً كافياً جميع الأدوار التى تقلبت فيها فكرته الخاصة بالمؤتمر . وهى تقلبات نشأت من أعمال أخرى مختلفة صدرت عنـه ومن المعـارضة والتردد الذى قابلت به الروسيا وفرنسا وألمـانيا والنمسا فكرته على السواء . فهو فى الواقع لم يلتزم أى اقتراح جلى محدود فيما يتعلق بالمؤتمر بل ساقته الرغبـــة الأكيدة فى عمل أى شىء وكل شىء لمنع وقوع الحرب الى ارتياء طائفة مختلفة من الآراء يمكن تلخيص بعضها فيما يلى قبل أن نبحثها بالتفصيل :

(١) ارتأى أولا إجراء « محادثات مباشرة » بين فينا وسان بطرسبورغ فعارض الرئيس بوانكاريه هذا الرأى . أما « المحادثات المباشرة » التى دارت بالفعل بين النمسا والروسيا من ٢٦ الى ٢٨ يوليـه وعدها غراى ونيكولصن

« خير وسيلة » والتى آثرتها الحكومتان الروسية والألمانية على المؤتمر فلم تكن من إرتياء غراى بل كانت من ارتياء السفير الألمانى فى سان بطرسبورغ .

(٢) اقترح التوسط بين النمسا والروسيا على يد الدول الأربع التى هى اقل من غيرها مصلحة مباشرة ، فقبلت ألمانيا الاقتراح مبدئياً لكن الروسيا وفرنسا كرهتاه .

(٣) اقترح التوسط بين النمسا وصربيا فى مؤتمر للسفراء وكان اقتراحه تحت تأثير الروسيا والمسيو بول كامبون . فرفضته ألمانيا والنمسا فى مبدأ الأمر ثم عادت ألمانيا فقبلته مخلصة فى صيغة معدلة ولم تقبله النمسا .

اقتراح غراى الخاص بالمحادثات المباشرة

بين فينا وسان بطرسبورغ

فى ٩ و ١٥ و ٢٠ يوليه جرى للسير ادوارد غراى فى الفترات التى تخللت الأضطراب الايرلندى أحاديث مع البرنس ليشنوفسكى السفير الألمانى وكان يحض انجلتره على صد الروسيا . لكن السير ادوارد غراى كان قد بات اكثر محاذرة والتفاتاً لوجهة نظر الروسيا ، فقال لليشنوفسكى ان كل شىء يتوقف على نوع ما يمكن ان تتخذه النمسا من اجراءات « فاذا أهاجت النمسا شعور الروسيا بما قد تتخذه من اجراءات عسكرية إهاجة شديدة فلن يكون فى مركز يسمح له بمعارضة السياسة الروسية . وسيكون عليه ان يهتم بأحساسات الروسيا نظراً لتغيظها من انجلتره فى الآونة الراهنة . » ثم لمح بلطف الى انه « كلما امكن للنمسا ان لا تشتط فى طلباتها وان تبرر هذه الطلبات كلما قوى الأمل فى تفريج الضائقة . » وزاد على ذلك قوله إنه « يكره فكرة الحرب بين أى من الدول العظمى وانه مما يمقته ان تجر صربيا إحداهن الى الحرب . » اما ليشنوفسكى فقد ظل متطيراً من ناحية نيات حكومته متفائلا من نحو مجهودات غراى فى سبيل السلم واعتقاده « بأنه سوف يهتدى الى

حل سلمى . ولما أعرب عن أمله فى أن تتمكن الروسيا وانجلترة بنفوذهما من اقناع صربيا بالموافقة على مطالب يكون هنـاك ما يبررها أجابه غراى « إن كل شيء يتوقف على شكل الترضية المطلوبة . » ورجا (غراى) أن يسوى النزاع ويحصر لأن فكرة الحرب بين دول أوربا العظمى يجب أن تقـاوم مهما كانت الظروف .

فى تلك الأثناء كانت مطاعن الصحف الصربية مع ذلك قد ازدادت حدة وخطراً والتقارير الواردة من البلقان أدعى الى الانزعاج . وقد وصلت الى السير ادوارد غراى من فينا تقارير رسمية مبنية على معلومات وثيقة من الكونت ليتزو السفير النمسوى السابق فى روما وصديق الكونت برشتولد الحميم إذ ذاك معلومات تنبئ بيلاغ نهائى فى منتهى الجفاء . وتلقى غراى من باريس قصاصات من الماتان والطان ذات نزعة عسكرية وكانت أخراهما تنشر سلسلة من المقالات لمكاتبها فى الروسـيا تنطق بالتعصب الشديد وتسرد ما عليه الروسيا من تزايد كبير فى القوى العسكرية واستعداد لمحاربة ألمانيا . وروى بوكانان من سان بطرسبورغ فى عبارة أكيدة ما قاله سازونوف من « أن الروسيا لن تقف مكتوفة اليـدين بأزاى أى شيء يمكن أن يتخذ شكل بلاغ نمسوى نهـائى يقدم الى بلغراد . وقد تضطر الى أن تتخذ بعض الاجراءات العسكرية على سبيل الاحتياط » .

فلما لاحظ السير ادوارد غراى دلائل الاضطراب تتزايد فى البارومتر السياسى الهابط رأى أن من الملائم أن يطرح اقتراحاً سلمياً ينطوى على الحذر . ولما كان لا يريد إجابة ليشنوفسكى الى رغبته فى الضغط على الروسيا وتقييدها وهو يعرف ان مثل هذا الضغط يغضب عضوى الوفاق الثلاثى ، أو إجابة الروسيا الى رغبتها من الضغط على النمسا وتقييد حركتها وهو يخشى أن يكون نصيب ذلك السخط أيضاً فى فينا وبرلين ، فقد اختار طريقاً وسطا وأكثر حذراً . فأسر الى السير جورج بوكانان فى الروسيا بالرأى الذى أطلق

عليه فيما بعد اسم « المحادثات المباشرة » بين فينا وسان بطرسبورغ قائلا :

« من الممكن أن تكون الحكومة الصربية أهملت وأن تظهر المحاكمة الجارية فى سيراجيفو أن مقتل الغراندوق دبر فى أرض صربية . فاذا التزمت النمسا فى مطالبها جادة العقل وأمكنها أن تقيم الدليل على أن هنالك ما يبررها فانى آمل أن كل مجهود سيبذل للحيلولة دون تكدير السلم . ومن المرغوب فيه جداً اذا تعقدت الأمور أن تبحثها النمسا والروسيا معاً . وفى استطاعتك أن تتكلم بهذا المعنى اذا عرضت مناسبة . . » .

وبعد يومين عرض السير ادوارد غراى فكرته عن « المحادثات المباشرة » بتوسع على السفير الروسى فى لندن الذى ظهر انها لم ترقه كما عرضها على بوكانان . وكان هذا من السير ادوارد غراى رأياً سديداً لكن الرئيس بوانكاريه استنكرها فى الحال وبقوة لما عرضها عليه بوكانان أثناء زيارته لسان بطرسبورغ قال :

« فقد أبدى فخامته (الرئيس بوانكاريه) أن حديثاً يدور بين النمسا والروسيا وحدهما ليكونن خطراً جداً فى الوقت الحاضر . ويلوح أنه يحبذ أن تنصح فرنسا وانجلتره فينا بالاعتدال . . »

« أخطر جداً » أن تتباحث النمسا والروسيا بقصد الوصول الى حل ودى سلمى للخلاف النمسوى الصربى ؟ ان المرء ليدعك عينيه ليتبين هل ما قرأه صحيح . وخطر جداً على أى شىء ؟ ليس على سلام أوربا بالتأكيد . لكنه قد يكون الخطر منه على سياسة المسيو بوانكاريه الذى كان يرمى الى ان تقف دول الوفاق الثلاثى كتلة صامدة فى وجه ألمانيا والنمسا ، رافضاً كل تدبير مع اى منهما ينطوى على المسالمة ومعداً ما يرغمهما على قبول الهزيمة السياسية أو القتال ضد قوى متفوقة . ولقد لبث يسعى سنتين لتوثيق عرى الوفاق الثلاثى بكل طريقة ممكنة وليمنع كل تفاهم على إنفراد بين أى من دول الوفاق وألمانيا أو النمسا . . . وقد روى ايزفولسكى أن المسيو بوانكاريه زعم أنه حال دون نجاح بعثة هولدين والمفاوضات الانجليزية الألمانية فى سبيل

التفاهم البحرى وفى خلال الحروب البلقانية لم يرد ان يدخل سازونوف فى مفاوضات على انفراد قبل ان يتفق على سياسة مع العضوين الآخرين فى الوفاق الثلاثى .

وتلغرافات بوانكاريه فى ذلك العصر ومذكراته التى نشرها بعد ذلك تردد رغبته فى أن يرسم الوفاق الثلاثى دائما خطة العمل قبل أن تفاتح أية من دوله ألمانيا أو النمسا فى شىء . وهكذا رأى فى أزمة يوليه سنة ١٩١٤ التى كانت أشد خطورة من غيرها أن « حديثاً يجرى على انفـــراد بين النمسا والروسيا ليكونن خطرا جداً » تشبثاً منه بسياسته التى أتبعها منذ أصبح وزيراً للخارجية فى يناير سنة ١٩١٢ .

ومن المشكوك فيه بعد رفض بوانكاريه الخاسم « للمحادثات المباشرة » أن يكون بوكانان ذكر حتى الفكرة لسازونوف إذ أن برقيتـه التى بعث بها الى غراى وأوردناها آنفاً لم تشر بكلمة الى ذلك فقد مضى يقول فى برقيته :

« وقد تحدثت الى وزير الخارجية الذى قابلته بعد ذلك فقال لى سعادته انه اذا أثبتت النمسا أن المؤامرة دبرت فى صربيا فليس من يعارض فى مطالبة الحكومة الصربية بأجراء تحقيق قضائى . وصربيـا مستعدة لقبول هذا فيما يعتقد . ومع ذلك فأنه يرى أن الأصوب أن تنصح ثلاث دول (الروسيا وفرنسا وانجلتره) فينا بالاعتدال . وهذا ينبغى أن يحدث فى صورة ودية جداً فلا يتخذ شكل العمل الاجماعى . وقد رجانى أن أبرق اليكم بهذا المعنى قائلا انه سيتحدث اليوم الى رئيس الجمهورية فى الموضوع . »

فهذه البرقية من السـير جورج بوكانان تدل على أن كلا بوانكاريه وسازونوف أرادا أن تضغط الروسـيا وفرنسا وانجلتره على النمسا ضغطاً يرغمها على العدول عن تدابيرها نزولا على إرادة الوفاق الثلاثى . وفى الواقع لقد أخبر سازونوف بوكانان قبل سفر الرئيس بوانكاريه بأن السفير الروسى فى فينا قد اعطى التعليمات بأن يتفق مع زميليـه الفرنسى والبريطانى « على النصح

بصفة ودية بالتزام جانب الاعتدال، وأمل أن يعطى غراى مثل هذه التعليمات. يد ان سكرتيرى وزارة الخارجية البريطانية لم يستحسنوا هذا الرأى وقرر غراى أن لا يعمل به الى اليوم التالى. وفى صباح اليوم التالى أبلغ نص البلاغ النهائى الذى كان قد قدم فعلا الى بلغراد فى الليلة السابقة. ولما كانت انجلترة لم تنضم الى خطة بوانكاريه سازونوف وكان البلاغ النهائى قد قدم فأن سفيرى فرنسا والروسيا فى فينا لم ينفذا تعليماتهما فى أن الوفاق الثلاثى ينذر النمسا الانذار الذى كان منوياً.

وبذا فشل اقتراح السير إدوارد غراى السلمى الأول وهو أن تجرى «محادثات مباشرة» بين فينا وسان بطرسبورغ نظراً لرفض بوانكاريه البات ورغبتـه فى الاستعاضة من هذا الاقتراح بضغط الوفاق الثلاثى على فينا. أما المحادثات المباشرة التى رضى سازونوف بأجرائها عقب ذلك من ٢٦ — ٢٨ يوليه بعد أن بارح بوانكاريه الروسيا ولم يعد له ذلك التأثير المباشر على وزير خارجية الروسيا فلا ترجع الى رأى السير إدوارد غراى بل الى رأى سفير ألمانيا فى بطرسبورغ.

اقتراح غراى التوسط

بين النمسا والروسيا

فى صباح يوم الجمعة ٢٤ يوليه زار الكونت منسدورف دونج ستريت لتبليغ المذكرة النمسوية الموجهة الى صربيا والأسباب التى حدت اليها. وقد دون السير ادوارد غراى هذا الحديث فجاء ناطقا بانزعاجه على السلام فى أوربا قال:

قلت... إنى أرى أن من المؤلم حقا أن يقدم هذا الانذار الممهل والوجيز الأمد فى هذه المرحلة. فقد بدا من أمر المذكرة أنها أصرم وثيقة رأيت دولة تقدمها الى دولة أخرى مستقلة.

ولم أكن مع ذلك أبدى هذه التعليقات بحثاً منى فى ماهية الخلاف بين النمسا والمجر وصربيا فأن هذا لم يكن من شأننا . انما كان ما أبديت من الاهتمام بالمسألة من وجهة نظر السلام الأوربى . وقد شعرت بمخاوف عظيمة .

وعلىّ أن أنتظر حتى أسمع آراء الدول الأخرى . ولا شك أنه ينبغى علينا أن نشاورها لنرى ماذا نستطيع أن نفعل لتذليل الصعوبات . »

وكان هذا اليوم لغراى كثير المشاغل والارتباكات فقد كان المؤتمر الذى انعقد فى سراى بكنجهام قد انفض ولما يكد بعد أن أخفق فى ايجاد حل للمشكلة الايرلندية . وكان قد تقرر أن تعقد الوزارة اجتماعا بعد الظهر فلما حمل منسدورف نبأ البلاغ النمسوى النهائى المشئوم زاد المتاعب الناشئة عن هذه المشكلة . وقد كان على غراى أن يحادث المسيو كامبون والبرنس ليشنوفسكى فبدأ بطبيعة الحال بالسفير الفرنسى واقترح عليه أن تتوسط بين النمسا والروسيا الدول الأربع التى هى أقل من سواها مصلحة مباشرة ، فتمثل ألمانيا وإيطاليا المحالفة الثلاثية وتمثل انجلتره وفرنسا الوفاق الثلاثى . ولما كان هذا يمكن أن يعنى أن ينتظر من فرنسا التأثير على حليفتها بالتزام الاعتدال لم ترق كامبون هذه الفكرة وآثر عليها التوسط بين النمسا وصربيا وهو مايعنى فى الراجح أن تتساهل النمسا فى بعض مطالبها وترضى بهزيمة سياسية . . كان غراى يقول بالتوسط بين فينا وسان بطرسبورغ ولكن فقط بعد أن يتضح أن هنالك متاعب بين النمسا والروسيا ، وكان كامبون يقول بالتدخل والتوسط لدى فينا بين النمسا وصربيا وحمل ألمانيا على اقتراح ذلك .

واستقبل السير ادوارد غراى البرنس ليشنوفسكى بعد ظهر يوم الجمعة عقب حديثه مع كامبون وبعد اجتماع الوزارة من أجل المشكلة الايرلندية ذلك الاجتماع الطويل المرهق . فبعد أن قدم الأخير البيان الألمانى الذى يبرر عمل النمسا ويحض على حصر النزاع أجاب السير ادوارد غراى بقوله

إنه اذا لم يؤد البلاغ النهائى الى متاعب بين النمسا والروسيا « فلا شأن له به » بيد أنه يخشى ما يمكن أن تتخذه الروسيا من رأى . ثم تناول الأمل الذى أعرب عنه ليشنوفسكى وهو أن يؤثر (غراى) فى سان بطرسبورغ ليلطف من حدتها فأبدى أنه بالنظر الى صبغة المذكرة النمسوية المتناهية فى الجفوة « يشعر الآن بعجزه التام عن أن يعمل شيئا فيما يتعلق بالروسيا . » ثم عرض اقتراحه الخاص بالتوسط وأضاف اليه خطة كامبون فى الضغط على النمسا .

ولما سمع السير ادوارد غراى فى اليوم التالى من بوكانان أن المسيو سازونوف « يرى أن الروسيا سيكون عليها أن تعبىء جيشها على كل حال » عرض على الروسيا اقتراحه القاضى بأن تتوسط الدول الأربع التى هى أقل مصلحة مباشرة بينها وبين النمسا . ومن المهم ، بالنظر الى الأقوال الشائعة التى طالما رددت عن أن ألمانيا عارضت جميع المقترحات التى عرضها السير ادوارد غراى فى مصلحة السلم ، أن نبين موقف ألمانيا ونقابل بينه وبين موقف الروسيا وفرنسا .

لقد أبدت ألمانيا فى الحال موافقتها على هذا الاقتراح . ففى صباح السبت ٢٥ يوليه عند ما قدمه القائم بأعمال السفارة الانجليزية فى برلين كانت وزارة الخارجية الألمانية لاتزال متفائلة بأمكان حصر النزاع ، إذ بلغها أن برشتولد أخبر السفير الروسى فى فينا أن النمسا والمجر لا تنوى اغتصاب شىء من الأراضى الصربية فظنت أن هذا التأكيد قد يفضى الى تهدئة الأفكار فى سان بطرسبورغ . فأن لم يصر هذا حظه وباتت العلاقات بين النمسا والروسيا تهدد بالخطر « فأن ألمانيا مستعدة كل الاستعداد لتأييد اقتراحكم (اقتراح غراى) القاضى بأن تعمل الدول الأربع على حمل فينا وسان بطرسبورغ على الاعتدال » فى تلك الأثناء كان السير ادوارد غراى والسفير الألمانى يتباحثان قبل وصول هذا الى لندن ، فى اقتراح التوسط بين النمسا والروسيا . فقال البرنس ليشنوفسكى أنه يظن أن النمسا قد لا تجد فيه مايمس كرامتها فتقبله » . وأعرب

عن موافقته شخصياً عليه . فصدق غراى على هذا وقال ، إنى أشعر بانه لا حق لى فى التدخل بين صربيا والنمسا ولكن المسألة اذا أصبحت بين النمسا والروسيا باتت مسألة تتعلق بسلام أوربا ويجب علينا جميعاً أن نتعاون فيها ... فاشتراك ألمانيا ضرورى لأى عمل ديبلوماتيكى من أجل السلام » فلما نقل ليشنوفسكى هذا الحديث الى وزارة الخارجية الألمانية ونصح بقوة بالتعاون مع انجلتره ردت عليه هذه الوزارة فى الحال مؤكدة من جديد موافقتها على التوسط بين النمسا والروسيا اذا بات من المحال حصر النزاع . قالت :

« إن تفريق السير ادوارد غراى بين نزاع نمسوى صربى وآخر نمسوى روسى فى محله تماما . فى النزاع الأول لا نريد أن نتدخل أكثر من تدخل انجلتره ، لأننا الى اليوم نرى أن المسألة ينبغى أن تبقى محصورة بعدم تدخل الدول جميعاً . . . فاذا نشبت الحرب بين النمسا وصربيا فاننا مستعدون للتوسط بين النمسا والروسيا .

فلما تلقى ليشنوفسكى هذا أبلغ غراى الذى لم يكن فى لندن كتابة « أن حكومتى توافق على ما ارتأيتموه من توسط الدول الأربع . »

فماذا كان موقف الروسيا وفرنسا حيال المقترح البريطانى الخاص بالتوسط لقد عارض فيه السفير الروسى كما نرى من رسالة لغراى بعث بها الى بوكانان وحذفت من الكتاب البريطانى الأزرق سنة ١٩١٤ :

« لقد أخبرت الكونت بنكندورف اليوم بما قلته للسفير الألمانى فى صباح اليوم عن امكان تعاون ألمانيا وايطاليا وفرنسا وايانا لدى فينا وسان بطرسبورغ على المحافظة على السلام بعد أن عبأت النمسا والروسيا .

فأبدى الكونت بنكندورف أنه يخشى جداً أن يقع فى نفس ألمانيا مما قلته أن فرنسا وانجلتره انفصلتا عن الروسيا .

كذلك سلكت فرنسا مسلك الروسيا فاتخذت حيال السير ادوارد غراى واقتراحه القاضى بالتوسط بين النمسا والروسيا موقف الرفض . فقد

عرض هذا الاقتراح على كامبون كما أشرنا آنفا حوالى ظهر يوم الجمعة ٢٤ يوليه فلم يؤثر فيه فتيلا وربما كان ذلك لأنه كان جد تواق الى اقناع غراى بخطته هو القاضية بالتوسط بين النمسا وصربيا الأمر الذى كان قد اتفق عليه هو وبنكندورف. وعبثا ظل السير ادوارد يترقب الجواب من الفرنسيين حتى اضطر فى اليوم التالى الى أن يقول لليشنوفسكى «إنه لم يعلم بعد ما اذا كانت فرنسا ستشترك فقد حادث كامبون لكنه لم يتلق الى الآن ردا منه. وهو يعتمد على موافقة فرنسا كل الاعتماد وان كان لا يعلم مدى تضامنها مع الروسيا.»

واذن فلم تكن ألمانيا بل الروسيا وفرنسا هما اللتان لم يوافقا على اقتراح السير ادوارد غراى توسط الدول الأربع اذا عبأت كل من النمسا والروسيا جيوشهما.

اقتراح غراى عقد مؤتمر للسفراء
فى ٢٦ يوليه

فى مساء السبت ٢٥ يوليه ازدادت الحالة الأوربية حرجا بشكل حاسم. فالنمسا كانت قد قطعت علاقاتها السياسية مع بلغراد، والنمسا وصربيا أمرت كلتاهما بالتعبئة ضد الأخرى. أما الروسيا فكانت هائجة والحزب العسكرى فيها فى صعود، فقد صادق القيصر مؤقتاً على تعبئة ١,١٠٠,٠٠٠ وكانت اجراءات «الفترة المعدة للحرب» على وشك التنفيذ. بيد ان أنباء هذه الحوادث المشئومة لم تكن قد وصلت الى لندن بعد حيث كانت فى اليوم السابق أكثر رجاء لما أن بلغتها أولى أنباء البلاغ النمسوى النهائى... ولما لاح على الحالة عندئذ من الرجاء غادر بعض أعضاء الوزارة البريطانية لندن لقضاء يوم الأحد فى الريف... لكنه فى صباح الأحد أخذ الوزراء الذين بقوا فى لندن يدركون أن الخطر بات أعظم مما كان فاستدعت الأميراليه

ونستون تشرشل عند الظهر فقرر العودة الى لنـدن فى المساء . وفى الساعة الرابعة بعد الظهر أصدرت الأميرالية دون أن تنتظره ولـكن بموافقته أمراً سرياً ذا معنى هو أن لا يتفرق الأسطول للمناورات كما كان متفقا عليه من قبل بل أن يبقى محتشدا فى بورتلند . وفى وزارة الخارجية وجد السير أرثر نيكولصن (الذى كان ينوب عن السيرادوارد غراى أثناء غيبته) أنباء سيئة وصلت ليلا . وكانت النمسا وصربيا قد قطعتا العلاقات السياسية وأمرت صربيا بالتعبئة وانتقلت حكومتها من بلغراد الى نيش . وروى بنسن فى فينا أنه « يظن أن الحرب واقعة » كما روى أن الأسطول الألمانى قد تلقى الأوامر بالأحتشاد بعيـداً من شاطىء النرويج ، وأن الأمبراطور عدل عن رحلته الشمالية وشرع فى العودة رأساً الى كيال . وهو عمل أسفت له وزارة الخارجية الألمانية باعتبار أنه خليق أن يثير الأفكار ويحمل على التكهن . وبعث بوكانان ببرقية مستفيضة من سان بطرسبورغ يقول :

« يرى (سازونوف) ان الحـكومة الصربية ستهجر بلغراد فى حالة حدوث هجوم من جانب النمسا وتسحب جنودها الى الداخل بينا تدعو الدول فى الوقت نفسه الى مد يد المساعدة اليها . وسعادته يحبذ هذه الدعوة . . . فاذا كانت صربيا ستناشد الدول هذه المساعدة فسوف تكون الروسيا على استعداد للوقوف بمنأى وتترك المسألة فى أيدى انجلتره وفرنسا وايطاليا وألمانيا » .

(وبعد أن أورد بوكانان أن القيصر صادق على تعبئة ١٫١٠٠٫٠٠٠ استعدادا للطوارىء وأن باليلوج أكد رسمياً « أن فرنسا ستقف الى جانب الروسيا دون تحفظ » وأنه استفسر عما « اذا كان الأسطول البريطانى مستعداً لأن يقوم بالدور المخصص له فى الاتفاق البحرى الانجليزى الفرنسى » مضى يقول : لقد أكد لى سعادته (سازونوف) مرة أخرى انه لا يرغب فى التعجيل بالتطاحن لـكنه اذا لم تكبح ألمانيا جماح النمسا فنى امكانى أن أعتبر الحالة موئسة . فالروسـيا لا يمكن أن تسمح للنمسا بسحق صربيا وأن تصبح الدولة السائدة فى البلقان . فهى

ستواجه كل مخاطر الحرب واثقة من تأييد فرنسا . والموقف بالنسبة لنا محفوف بالمكاره وهو أخطر ما يكون . وعلينا أن نختار إما تأييد الروسيا بالفعل وإما الاستغناء عن صداقتها . فاذا نحن خذلناها الآن تعذر علينا أن نأمل المحافظة على ذلك التعاون الودى معها فى آسيا وهو التعاون الذى له هذه الأهمية الحيوية بالنسبة لنا . »

فهذه البرقية الدالة على « أن الروسيا ستواجه كل مخاطر الحرب واثقة من تأييد فرنسا » لا يبعد أنها حفزت السير ادوارد غراى الى الاعتقاد بأن الوقت قد أزف للشروع فى التأثير على سان بطرسبورغ بالتزام الاعتدال إذا هو آثر أن يقدم المحافظة على سلام أوربا على الوفاق الثلاثى . لكنه لم يفعل ومع أن بوكانان شرع فى سان بطرسبورغ فى أولى مراحل الأزمة فى الضغط على الروسيا فأن مثل هذا المجهود لم تبذله لندن . فقد اتخذت وزارة الخارجية البريطانية الموقف الذى شرحه السير ا . كرو فى ٢٥ يوليه فى مذكرة وجيزة قال :

لقد فات الوقت الذى كان يمكن فيه أن نضمن تأييد فرنسا لمسعى يقصد به ضبط الروسيا .

فمن الجلى أن فرنسا والروسيا مصممتان على الرد على التحدى الذى وجه اليهما . وكائنا ما كان رأينا فى ماهية التهم التى توجهها النمسا إلى صربيا فأن فرنسا والروسيا تعتبرانها ذرائع ، وتريان أن ما هو أهم منها وهو قضية المحالفة الثلاثية ضد الوفاق الثلاثى هو محور الأمر .

وأظن أنه ليس من السياسة ، ان لم يكن من الخطر ، أن تحاول انجلتره مجادلة هذا الرأى أو تجتهد فى جعل الأمر الواضح غامضاً بأى مسعى لدى سان بطرسبورغ وباريس .

ان مصالحنا مرتبطة بمصالح فرنسا والروسيا فى هذا العراك الذى لم يقم لامتلاك صربيا وانما هو قائم بين ألمانيا الرامية الى بسط ديكتاتوريتها السياسية على أوربا والدول التى ترغب فى الاحتفاظ بحريتها الفردية .

كانت انجلتره تنتظر من ألمانيا أن تصد النمسا عن صربيا فاذا لم تفعل ألمانيا ذلك فانجلتره لن تضغط بحال على صديقتى « الوفاق » . وهنا مضار

نظام المحالفات . لم تكن أية دولة من هذا الجانب أو ذاك ترغب فى الضغط على حليفتها أو صديقتها خشية أن تقضى على المحالفة أو الصداقة . وبذا لم تفعل انجلتره إذ ذاك شيئاً سوى أن تقرر عرض اقتراح سلمى جديد بدلا من إرسال برقية الى بطرسبورغ تحض فيها على الاعتـــدال . وقد لاحظ السير أرثر نيكولصن ما ارتآه سازونوف لبوكانان وأسلفنا بيانه فكتب الى السير ادوارد غراى فى اتشن أباس يقول :

أظن أن الأمل الوحيد فى تجنب الحرب العـامة هو . . . أن تبرق الى برلين وباريس ورومه تطلب أن تخول سفراءها هنا الانضمام اليك لعقد مؤتمر يتلمس المخرج تفادياً من التعقيدات ويطلب من فينا وصربيا وسان بطرسبورغ الامتناع عن الأعمال الحربية الى أن تظهر نتيجة المؤتمر .

فوافق غراى فى الحال . وفى الساعة الثالثة بعد ظهر يوم ٢٦ يوليه أرسل الى باريس وبرلين ورومه ذلك الاقتراح الخاص بعقد مؤتمر من سفراء الدول الأربع . وقد كرره على ممثلى بريطانيا فى سان بطرسبورغ ونيش وفينا ومعـــه تعليمات بأن يجتهدوا بمجرد ما يتلقون مثـل هذه التعليمات من زملائهم ممثلى ايطاليا وفرنسا وألمانيا فى منع الالتجاء الى عمليات حربية انتظاراً لنتيجة المؤتمر .

وهذا الاقتراح الخاص بمؤتمر للسفراء يعقد فى لنـدن لاح لأول وهلة اقتراحاً حسناً وقد عرض بالتأكيد بأخلاص . ومؤتمر للسفراء كهذا انعقد فى لندن برياسة السير ادوارد غراى فى خلال حروب البلقان ووفق الى منع هذا الاضطراب السرطانى من السريان الى بقية أوربا . ومع ذلك فقد اتفق أن ضايقت قراراته ولاة الأمور فى فينا وبغضت لديهم كلمة « المؤتمر » غير أن مؤتمر السفراء الذى انعقد فى خلال الحرب البلقانية لم يكن بالضبط كالذى يرتئيه غراى الآن . فقد كان مؤتمر لندن لسنة ١٩١٢ — ١٩١٣ مؤلفاً من سفراء جميع دول أوربا العظمى ممن كانوا يمثلون الفريقين المتعارضين

اللذين انقسمت اليهما أوربا لا من ممثلى أربع دول فقط كما يقترح غراى . وجميع أعضاء مؤتمر لندن مع إمكان استثناء النمسا كانوا فى ذلك الحين يرغبون رغبة أكيدة فى المحافظة على سلام أوربا . فنى سنة ١٩١٢ — ١٩١٣ لم تكن الروسيا مستعدة للحرب ولم ترد فرنسا حرباً من جراء مسائل البلقان . وألمانيا لم تكن ترغب فى أن تجر الى حرب من أجل متاعب النمسا . لكن هذه الدول كانت فى سنة ١٩١٤ أقل زهداً فى الحرب منها فى سنة ١٩١٢ المتداخلة فى ١٩١٣ وذلك لأسباب مختلفة . هذا الى أن مؤتمر لندن فى سنة ١٩١٢ — ١٩١٣ كان قد دعى الى الانعقاد ليسوى خلافاً بين تركيا ودول البلقان وآخر بين دول البلقان ذاتها . ومع أن التنافس بين النمسا والروسيا كان شديداً فأن مؤتمر لندن لم يكن مرغماً على أن يقرر مسائل حيوية قائمة بين هاتين الدولتين العظيمتين .

أما الآن فى سنة ١٩١٤ فقد كان غراى يقترح مهمة أدق من تلك بكثير وهى الشروع فى تقرير مسألة تتناول مكانة المحالفة الثلاثية والوفاق الثلاثى . كان فى الحقيقة يقترح محكمة ظاهر أنها منصفة وعكنه ، مؤلفة من حليفين للنمسا هما ألمانيا وايطاليا وصديقتين للروسيا هما انجلتره وفرنسا . لكنه بالنظر الى عداوة ايطاليا القومية للنمسا ولما تبغيه فى البلقان من أطماع تتعارض مع أطماع النمسا ونظراً لاتفاقاتها السرية مع فرنسا فى سنة ١٩٠٠ و ١٩٠٢ ومع الروسيا فى راكونيجى سنة ١٩٠٩ كان من المحتمل أن تكون ايطاليا أميل الى مظاهرة الوفاق الثلاثى منها الى تأييد حليفتها . وعلى ذلك كان المنتظر من المؤتمر المقترح أن تقف « الدول الأقل من غيرها مصلحة مباشرة » « بنسبة ثلاث الى واحدة بدلا من أن تتكافأ : اثنتان قبالة اثنتين . وهذه الحقيقة تفسر فى الراجح والى حد كبير رفض ألمانيا النهائى لهذه المحكمة » الأوربية . فهذا الاقتراح كانت ألمانيا تعارض فيه فوق معارضتها إياه لسبب آخر هو أنه وان كانت « العمليات الحربية » ستقف الى أن تعرف نتيجة

المؤتمر فسيكون فى استطاعة الروسيا أن تمضى فى « إجراءاتها التحضيرية » وبذا تحرم ألمانيا من مزية القدرة على التجنيد بأسرع من الروسيا بكثير .

ولقد تجنب نيكولصن عند وضع مشروعه ، متعمداً أو غير متعمد ، أن يبين ما اذا كان ينوى أن يتوسط مؤتمر السفراء الأربعة بين النمسا وصربيا وهو ما لا تسيغه برلين وفينا أو بين النمسا والروسيا وهو ما لا تسيغه باريس وسان بطرسبورغ . ومع ذلك فقد كان فى جوهره يعنى التدخل بين النمسا وصربيا لمنع النمسا من غزو الأراضى الصربية . وقد كان هذا واضحاً من الطريقة التى فسر بها للسفير الألمانى فى لندن . واليك ما قال :

لقد فرغت الساعة من التحدث الى السير نيكولصن والسير تيرل... وكلاهما يعتبر اقتراح السير ادوارد غراى القاضى بعقد مؤتمر من أربعة الوسيلة الوحيدة لتجنب الحرب العامة . وهما يأملان أن يحصل المؤتمر للنمسا على الترضية التامة إذ تكون صربيا أكثر استعداداً للاذعان للدول والرضوخ لرغباتها المشتركة منها لتهديدات النمسا . غيرأن الشرط الذى لا محيص عنه لنجاح المؤتمر والمحافظة على السلام هو أن لا تقع حركات عسكرية . فاذا اجتيزت الحدود الصربية ضاع كل شىء لأن الحكومة الروسية لن تطيق هذا . . . وما ترجوه برلين من حصر الحرب يريانه مستحيلا كل الاستحالة وليس من السياسة العملية .

وبعبارة أخرى فأن اقتراح غراى الجديد كان هو التوسط الذى أراده بول كامبون من مبدء الأمر — أى التوسط بين النمسا وصربيا . ومع أن الاقتراح قد ارتئى بأخلاص فأن نيكولصن كان عديم الرجاء حينما كتب الى غراى بعد ظهر يوم الأحد يقول : « إنه يلوح لى أنه الفرصة الوحيدة لتجنب الحرب — وهى فرصة أسلم بأنها ضئيلة . ولكننا على كل حال نكون قد افرغنا قصارى جهدنا . إن برلين تلعب بنا . . . فأنا منقطع الرجاء . ومع ذلك فلا ينبغى أن نهمل فرصة ما . »

فماذا كان موقف كل دولة حيال الاقتراح الجديد الذى تقدم به السير

ادوارد غراى لعقد مؤتمر السفراء فى لندن ؟ لقد رحبت ايطاليا بالاقتراح على الفور كما رحبت من قبل باقتراح التوسط بين النمسا والروسيا .

وليشنوفسكى فى لندن كان من رأيه قبول مقترح غراى لأنه كان يعتقد أن « الحصر » الذى كانت تأمله ألمانيا لم يعد أمراً عملياً وأن الأخلق إغفاله . فأذا كانت ألمانيا مع ذلك تتعاون مع غراى على حفظ السلام ، فأن هذا خليق أن يقيم علاقات ألمانيا وانجلتره على أساس ثابت الى الأبد ، أو فكل شىء يصبح بحيث تكتنفه الشكوك ومن الضرورى أن « تكفى الأمة الألمانية مؤونة عراك لا تجنى منه شيئاً بل تخسر فيه كل شىء . » بيد أنه لما عرض الاقتراح على برلين أبرق بيتمان الى ليشنوفسكى يقول :

نحن لا يسعنا أن نشترك فى مؤتمر كهذا لأننا لا نستطيع أن ندعو النمسا الى المثول أمام محكمة عدالة أوربية فى قضيتها مع صربيا . والسير ادوارد غراى يفرق تفريقا بيناً ، كما أكدتم سعادتكم ، بين النزاع النمسوى الصربى والنزاع النمسوى الروسى وكلانا لا يهمه النزاع الأول فمساعينا فى التوسط يجب أن توقف على التصادم النمسوى الروسى إن وجد . أما ما يتعلق بالنزاع النمسوى الصربى فأن طريقة التفاهم المباشر بين سان بطرسبورغ وفينا . . . تلوح لى عملية . . . لذلك أرجوك رجاء حاراً أن تدافع فى لندن عن ضرورة حصر النزاع وإمكانه .

وقد كتب السير ادوارد جروشن السفير البريطانى فى ألمانيا ، وكان قد عاد الى مقر وظيفته ولما يكد وتحدث مع ياجو ، فأورد مثل ذلك فى تقرير بعث به الى غراى . . .

فألمانيا برفضها مقترح غراى الخاص بالمؤتمر قد فعلت ذلك لعدة أسباب فلم تكن قد قطعت الرجاء بعد فى إمكان حصر النزاع النمسوى الصربى بين الدولتين وان كانت قد اضطرت الى قطع هذا الرجاء بعد بضع ساعات ؛ ثم كانت تأمل كما أبلغ ياجو جروشن أن تصبح « المحادثات المباشرة » التى

كانت بدأت بين سان بطرسبورغ وفينا خيرا من غيرها أداة وطريقة لتسوية الأمور بين هاتين الدولتين ؛ وكانت تعلم أن مؤتمراً كالذى كان يقترح مما لا تسيغه حليفتها . وكان بيتمان يخشى بطبيعة الحال أن تصبح ألمانيا فى مؤتمر كالذى يقترحه السير ادوارد غراى أقلية بنسبة ١ الى ٣ إذ من المقرر أن ايطاليا كانت تقف فى صف الوفاق الثلاثى أكثر من وقوفها الى جانب حليفتيها الاسميتين وبذا تقف ألمانيا فى المؤتمر وحدها تمثل وجهة نظر النمسا حيال انجلتره وفرنسا وايطاليا . فضلا عن أن مؤتمر السفراء كان يمكن ألاّ يكون مصلحة ألمانيا من الوجهة العسكرية وقراراته كان ينتظر أن تستغرق أياماً بل أسابيع فى حين أن الروسيا فى تلك الأثناء كانت تقوم باستعدادات عسكرية فعالة . فاذا حدث أن فشل المؤتمر ووقعت الحرب أصبحت ألمانيا محرومة من كثير من المزايا العسكرية التى تبقى متمتعة بها اذا استطاعت أن تكون أسرع من الروسيا فى تعبئة جيشها . وهذه مزية كانت ألمانيا تعتمد عليها بعض الاعتماد فى التغلب على الزيادة فى عدد جيوش فرنسا والروسيا . وسبب أخير ربما كان حاسما فى رفض اقتراح غراى الخاص بالمؤتمر هو أن وزارة الخارجية الألمانية كانت قد تلقت فى نفس الوقت مذكرة شديدة اللهجة من الامبراطور غليوم يرفض فيها بقوة اقتراح غراى السابق المتعلق بالتوسط بين النمسا وصربيا .

وعلى أن هنالك تلك الاسباب الكثيرة التى حملت ألمانيا بطبيعة الحال على رفض اقتراح غراى الخاص بالمؤتمر ، ومع أن ألمانيا نفسها صرفت بعد بضع ساعات نظرا عن خطة حصر النزاع بين النمسا وصربيا ، فقبلت فكرة التوسط وأخذت تضغط على النمسا لقبولها ، فأن رفض المؤتمر كان منها غلطة سياسية خطيرة . كان خطأ آخر من تلك الأخطار المنطوية على الغباء المماثلة لأطلاق يد النمسا فى العمل فى بوتسدام بتاريخ ٥ يوليه وللتصديق على البلاغ النمسوى النهائى وتبريره بالحث فى ٢٤ يوليه على حصر الحرب بين النمسا

وصربيا . . وقد قوى هذا الخطأ ريبة دول الوفاق فى أن المانيا لم تكن مخلصة فى الاحتجاج بأنها راغبة فى الاحتفاظ بسلام أوربا ، وجعل هذه الدول تشك فى اخلاصها عند ما سعت بعد ذلك بقليل سعياً صادقاً فى كف النمسا وحملها على قبول التوسط .

لقد كانت فرنسا فى الواقع راغبة عن الضغط على حليفتها الروسيا لمصلحة السلام رغبة ألمانيا عن ذلك فيما يتعلق بحليفتها النمسوية . فأن مثل هذا الضغط كان يمكن ان يثير سوء الظن بين الحليفتين فى نفس اللحظة التى هما أحوج ما تكونان فيها الى سند احداهما الاخرى كما كان خليقاً أن لا يقابل بالترحاب فى العاصمة التى يستخدم فيها . وهذا فيما يتعلق بفرنسا والروسيا ظاهر من فقرات فى رسائل ايزفولسكى وسازونوف حذفت من الكتاب البورتقالى الروسى إذ أبرق ايزفولسكى فى ٢٧ يوليه عقب عودته من سان بطرسبورغ الى سازونوف يقول :

« لقد باحثت بيانفنى مارتان فى الحالة عقب عودتى الى باريس مباشرة وكان برتيلو وآبل فيرى حاضرين . فأكدا تفاصيل ما جرى من السفير الألمانى بما أبلغكم اياه سيفاستوبولو فى تلغرافيه الرقيمين ١٨٧ و ١٨٨ . إذ نوه « شون » (سفير ألمانيا فى باريس) تنويها خاصاً بضرورة الأعراب عن تضامن ألمانيا وفرنسا . ويعتقد وزير الحقانية (بيانفنى — مارتان) ان هذه الخطوات من جانب ألمانيا ترمى الى غرض واضح هو التفريق بين الروسيا وفرنسا وحمل الحكومة الفرنسية على الاعتراض على سان بطرسبورغ واحراج حليفتنا بذلك حيالنا ، فاذا نشبت الحرب أخيراً لم تلق المسئولية على ألمانيا التى تبذل كل مجهود للمحافظة على السلام فى الظاهر بل تلقى على الروسيا وفرنسا . . . وانى ليدهشنى مبلغ استيعاب وزير الحقانية وزميليه للحالة وفهمهم إياها هذا الفهم الصحيح ، أعجب لتصميمهم الثابت الهادىء على تأييدنا كل التأييد وتجنب أقل مظهر للخلاف بيننا » .

من حسن حظ وجهة النظر الفرنسية أن اقتراح السير ادوارد غراى كان قابلا لأن يفسر بأنه توسط بين النمسا وصربيا وبين النمسا والروسيا على السواء ،لأنه تناول « فينا وبلغراد وسان بطرسبورغ » . وقد تبين فيفيانى هذا فأبلغ بيانفنى مارتان من ظهر الطرادة فرنسا « أن عمل الدول الأربع التى هى دون غيرها «صالحة لا يمكن . . . أن يؤدى فى فينا وسان بطرسبورغ فقط. فالسير إدوارد غراى بارتيائه القيام به أيضاً فى بلغراد — ومعنى هذافى الواقع أن يكون بين فينا وبلغراد — قد أدرك منطق الحالة . وهو بعدم إخراجه سان بطرسبورغ يتيح من جهة أخرى لألمانيا طريقة للأنسحاب موفورة الكرامة والكف عن المسلك الذى أدخلت به الحكومة الألمانية فى روع باريس ولندن انها ترى فى الأمر مسألة نمسوية صربية ليست لهاصفة عامة » .

وقد قبلت وزارة الخارجية الفرنسية أخيراً اقتراح غراى فى ٢٧ يوليه دون أن تنظر رد فيفيانى ، وبناء على الحاح لندن لكنها لم ترد أن يعمل بالأقتراح قبل أن تضغط ألمانيا على النمسا إذ أن « وزارة الخارجية ترى أن من الخطر أن يخاطب سفراء الوفاق فينا قبل أن يعرف أن الألمان قد فعلوا هذا ولقوا فى سبيله شيئاً من النجاح . » ومن ثم كان من الصعب تصديق ما قاله الأستاذ أومان من أن « باريس ردت فى الحال رداً فى مصلحة الاقتراح من كل الوجوه . »

ولما قدم اقتراح غراى الى سان بطرسبورغ لم توافق عليه ، لأن سازونوف كان قد دخل مع فينا فى محادثات « مباشرة » أملا فى أن يحمل النمسا على تعديل مطالبها من صربيا فأن سازونوف لو تمكن من اتمام ذلك بمفاوضات ودية فى وقت كانت الاستعدادات العسكرية تجرى فيه على سبيل الاحتياط للفشل ، لأحرز بمساعيه رأسا انتصاراً ديبلوماتيكياً عظيما للروسيا دون أن يكون مكلفاً بقبول حل للأزمة يأتى به مؤتمر الدول أو توجده فرنسا بنصحها للروسيا بالاعتدال . ولذا آثر أولا أن يتابع « المحادثات المباشرة »

على ان يجعـــل السير ادوارد غراى يتقدم بدعوة مؤتمر للسفراء . وبهذه الطريقة يضمن اذا هو فشل فى الأولى أن يلجأ الى الثانيـة . واليك ما بعث به الى ايزفولسكى مما يفسر رفضه لاقتراح السير ادوارد غراى :

لقد سألنى السفير البريطانى على أثر تعليمات تلقـاها من حكومته أتوافق الروسيا على أن تتقدم انجلتره الى دعوة مؤتمر فى لندن من ممثلى انجلتره وفرنسا وألمانيا وايطاليا ليبحث رابعتهم فى إمكان الاهتداء الى مخرج من الحالة الحاضرة .

فأجبت السفير بأنى بدأت فعـلا محادثات مباشرة مع سفير النمسا والمجر بما يبشر بالخير وأنى لم أتلق بعد رداً على ما اقترحته من تعديل كلتا الوزارتين لمذكرتيهما . فاذا لم تسفر محادثاتنا المباشرة مع وزارة فينا عن نتيجة كنت مستعداً لقبول اقتراح انجلتره أو أى اقتراح آخر يمكن أن يؤدى الى حل النزاع حلا سلمياً .

ومع ذلك فأنى أريد من الآن أن أضع حداً لما بدر من سوء الفهم . فأنه اذا كان الغرض التـأثير فى سان بطرسبورغ باعتدال فأننا نرفض ذلك مقدماً لأننا قد وقفنا من مبدء الأمر موقفاً لا قبـل لنا بالحيد عنه إذ نحن قد أجبنا النمسا والمجر الى كل ما يمكن قبوله من مطالبها .

فرد ايزفولسكى مطمئناً يقول :

انه بناء على ما جرى لى أمس من حديث فى وزارة الخارجيـــة الفرنسية فأن وزير الخارجية بالنيابة لا يسلم لحظة بأمكان التـأثير فى سان بطرسبورغ بالاعتدال لـكنه أجاب السفير الألمانى بأن النمسا هى التى تهدد سلام أوربا لا الروسيا ، وانه على أية حال اذا كان لا بد من التأثير بالاعتدال فليكن فى فينا قبل أن يكون فى سان بطرسبورغ . وقد كان نتيجة حديث الوزير مع البارون شون (سفير ألمانيا) انه — أى الوزير — رفض اقتراح ألمانيا .

والفقرة الأخيرة من برقية سازونوف ورد ايزفولسكى كله ، وكلاهما قد حذف من الـكتاب البورتقالي الروسي مع عبارات أخري لا تتفق وزعم

الروسيا بأن ألمانيا هى الملومة وأن الروسيا قد فعلت كل شيء يمكن لمنع الحرب ، يلقى كله ضوءاً جديداً على الديبلوماسى الروسية فى أزمة يوليه . فالروسيا وحليفتها فرنسا كانتا تصران على أن تؤثر المانيا فى فينا لتحملها على الاعتدال بينا الروسيا نفسها ترفض من المبدأ مثل هذا التأثير بالنسبة لها تؤيدها فرنسا . ولما لم تكن واحدة من الدول ، فيما عدا ايطاليا ، قد قبلت اقتراح المؤتمر قبولا عاجلا بلا قيد ولا شرط ، ولما كانت الروسيا وألمانيا قد صممتا على انتظار نتيجة المحادثات المباشرة أولا مؤثرين ذلك على الاقتراح فقد رضى غراى بأهمال اقتراحه إذ ذاك .

ونحن نتساءل ماذا كانت تلك « المحادثات المباشرة » التى نشأت بين سازونوف وتسابارى فى سان بطرسبورغ فى وقت واحد مع اقتراح غراى الخاص بالمؤتمر ودارت محاذية له ، ثم كانت الى حد ما سبباً لأهماله ؟ .

المحادثات المباشرة

بين فينا وسان بطرسبورغ فى ٢٦ — ٢٨ يوليه

فى صباح الأحد ٢٦ يوليه بعد فض مناورات كراسنوسيلو واتخاذ قرارات عسكرية فى مساء اليوم السابق ، تقابل الكونت بورتاليس والمسيو سازونوف اتفاقاً على إفريز محطة كراسنوسيلو فاستقلا عربة واحدة وسافرا معا الى سان بطرسبورغ .

ورأى بورتاليس أن سازونوف كان قد هدأ انفعاله كثيراً عما كان عليه فى اليوم السابق فانتهز هذه الفرصة غير الرسمية وأبان له أن النمسا لا تحدوها نيات عدائية نحو الروسيا وأنها انما تطلب اجراءات تضمن سلامتها وتحميها من الخطر الصربى الجاثم فوق حدودها . فرد سازونوف بأن الروسيا كذلك لا تحدوها أية رغبة فى الحرب وانه لابد من ايجاد حل يرضى من جهة مطالب النمسا التي يسلم بأنها مشروعة فيما يتعلق بالمحرضين على ارتكاب

الجريمة ، ويجعل من جهة أخرى قبول هـذه المطالب ممكناً لصربيا إذ بعض هذه المطالب يجب أن تخف غلواؤه . ثم حض على أن تقوم الدول جميعاً بعمل مشترك للوصول الى ذلك . فأشار عليه بورتاليس عندئذ بأن يحادث تساباري السفير النمسوى فى سان بطرسبورغ حديثـاً صريحاً ودياً وكان سازونوف لم يتبـادل وإياه كلمة بعد حديث يوم الجمعه العنيف يوم ووجـه بالبلاغ النمسوى النهائى أول مرة . ولما وصل بورتاليس الى سان بطرسبورغ ذهب لزيارة تساباري وأخبره بما وجد عليـه سازونوف من هدوء النفس والمسالمة ثم أشار عليه بالسعى الى التحدث الى الوزير الروسى رأساً حديثاً صريحاً ودياً .

وقد عمل تساباري بمشورة السفير الألمـانى وتوجه على الفور لزيارة سازونوف وجرى له معه حديث ودى مهد له بورتاليس الطريق . (ونحن نورد طرفاً من هذا الحديث) لأن أهم نقطه حذفت من الـكتاب البورتقالى الروسى الصادر فى سنة ١٩١٥ ولأنه يلقى ضوءاً شيقاً جداً على سازونوف .

« لقد بالغ سازونوف فى الحفاوة بى بخلاف موقفه معى فى يوم الجمعة ذلك الموقف الجارح ، وذكر لى حديثه مع الـكونت بورتاليس ثم قال لو أنى لم أقصد اليه من تلقاء نفسى لـكان رجانى أن أزوره ليتمكن من محادثتى بصراحة . فقد بوغت يوم الجمعة الفائت بعض الشىء فلم يضبط نفسه كثيراً كما كان يحب فضلا عن أن حديثنا إذ ذاك كان حديثاً رسمياً محضاً .

وقد أجبته بأنى أيضاً كنت أرغب فى أن تتاح لى فرصة محادثته بصراحة لأنه قد وقع فى نفسى أن آراء خاطئة عن طبيعة عملنا تسود الروسيا . . . فالغرض الذى نسعى اليه من وراء هذا العمل هو المحافظة على النفس والدفاع عنها من دعاية عدائية بالقول والـكتابة والفعل . وهى دعاية تهدد كياننا . ولن يخطر ببال أحد من النمسا والمجر أن يهدد مصالح الروسيا أو يلجأ الى محاربتها . لـكننا مصممون كل التصميم على

تحقيق الغرض الذى وضعناه نصب أعيننا ونرى أن الطريق الذى سلكناه هو خير الطرق من الوجهة العملية. ولما كان العمل الذى يتناوله البحث هو من قبيل الدفاع عن النفس فأنى لا أخفى عنه أننا حسبنا حساب كل ما يمكن أن يترتب عليه ومع ذلك فأنى موقن تماما أنه اذا نشبت حرب بين الدول العظمى فأن العواقب ستكون أوخم ما تكون ويصبح النظام الدينى والأدبى والاجتماعى فى العالم فى خطر. ثم أبنت بصريح العبارة ما يمكن أن يقع اذا نشبت حرب أوربية وهو ما أرجح أن السير ادوارد غراى فعله هنا.

وقد وافقنى سازونوف كل الموافقة وبدا منه ما يدل على ارتياحه الى بياناتى ثم أخذ يطمئننى على الروسيا فليس هو فقط بل الوزارة بأسرها بل مليكه — وهو ما له أعظم أهمية — يحدوهم جميعاً مثل هذا الشعور نحو النمسا والمجر. قال إن المذكرة التى قدمناها ليست موفقة فى صيغتها وقد كان يدرسها فى تلك الأثناء ويحب أن يمر بها معى مرة أخرى اذا اتسع وقتى لذلك. فأبديت أنى تحت تصرفه غير أنى غير مفوض لا فى البحث فى نص المذكرة معه ولا فى تفسيرها. لكن ما يبديه عليها من ملاحظات ستقابل بالاهتمام طبعاً. وهنا تناول الوزير المذكرة نقطة نقطة وهو يجد اليوم أن سبعاً منها يمكن قبولها دون كبير عناء وأن ليس سوى النقطتين (٥ و ٦) اللتين تتعلقان باشتراك الموظفين النمسويين والمجريين والنقطة (٤) المتعلقة بأبعاد بعض من الضباط والموظفين المدنيين نعين نحن أسماءهم، ما يراه هو غير مقبول فى صيغته الراهنة. فأما عن النقطة الخامسة فكان فى إمكانى أن أفسرها تفسيرا صحيحاً يطابق ما جاء ببرقية سعادتكم الرقيمة ١٧٢ والمؤرخة فى ٢٥ يوليه لكن عن النقطتين الأخريين قلت إنى لا أعرف كيف تفسرهما حكومتى بيد أن كلتيهما مطلبان ضروريان...

وصفوة القول أن الوزير أعلن أن المسألة فيما يتعلق بالمذكرة (البلاغ النهائى) هى فى الحقيقة مسألة صيغة فقط وأنه قد يكون فى الامكان ايجاد طريقة نقبلها تذلل بها هذه المصاعب وقد سألنى أنقبل توسط حليفنا ملك ايطاليا أو ملك انجلتره؟ فأجبته أنى لا أستطيع أن

أبدى فى هذا رأياً وأنى لا أعلم مايمكن أن تكون حكومتى قائمة به الآن وأن الأمور أخذت تجرى بالفعل وأن بعض الأشياء لا قبل بوقفها اذا هى بدأت تتحرك . هذا الى أن الصربيين قد عبأوا جيشهم أمس (يوم السبت ٢٥ يوليه) وما يمكن أن يكون وقع من ذلك الحين لا أعلمه .

وفى ختام الحديث أعرب المسيو سازونوف ثانية عن سروره بالايضاحات التى أبديتها وهدأت على التحقيق من روعه وأفصح عن ذلك بلهجة حارة . ثم قال انه سيرفع هـذا الحديث الى القيصر نيقولا عندما يراه بعد غد (فى يوم الثلاثاء ٢٨ يوليه) وهو اليوم الذى يحظى فيه برؤيته .

لقد تطورت السياسة الروسية فى يومين اثنين تطورا كبيرا . فمن الرفض الخشن لمسلكنا ومن اقتراح اجراء تحقيق قضائى فى « ملفنا » ليجعلوا من الأمر كله مسألة أوربية ، من هذا تحولت السياسة الروسية الى التسليم بشرعية مطالبنا والى طلب التوسط . ومع ذلك فيجب أن لا نعمى عن الواقع وهو أنه الى جانب سياسة التقهقر التى يجرى عليها الساسة نشاط كبير من جانب العسكريين . ونتيجة هذا أن مركز الروسيا العسكرى والسياسى تبعاً له يهدد كل يوم بأن يصبح أقل موافقة لنا .

لقد كانت النصيحة التى أسداها بورتاليس يوم الأحد الى سازونوف وتساباري تبشر بأنها ستؤتى ثمارها بفتح الطريق لمحادثات مباشرة « بصورة تدعو الى الاعجاب ولأن كلا الرجلين شكراه من قلبيهما لما رأياه بعد ذلك فى نفس اليوم . وقد كتب فى المساء تقريرا بعد أن حادث كليهما مرة أخرى فقال :

لقد جرى للكونت تساباى حديث مستفيض مع سازونوف مساء اليوم . وكان لهذا الحديث وقع حسن فى نفس الرجلين اللذين حادثتهما على أثره . . . وقد رجانى الوزير باهتمام أن أبدى اقتراحا ما اذا وسعنى ذلك فأجبته بأنى غير مأذون فى ابداء اقتراحات ما وإذن فأنى أعرب فقط عن آرائى الشخصية . قلت لكن الطريقة الآتية تلوح لى عملية . وهى أنه اذا رضيت الوزارة النمسوية بتحوير صيغة مطالبها بعض الشىء وهو

ما تدل عبارات الكونت تساباري على أنه ليس مستحيلا ، فقد يستطاع الشروع ، وهذا نصب العين ، فى الاتصال بالنمسا رأساً . فاذا أسفر هذا عن اتفاق فعندئذ ... [هنا الشفرة ناقصة] يمكن أن تنصح الروسيا صربيا بقبول مطالب النمسا وإبلاغ الحكومة النمسوية ذلك على يد دولة ثالثة .
وقد صرح سازونوف الذى جعلته يعتقد بأنى لا أتكلم باسم حكومتى بأنه سيبرق فى الحال الى السفير الروسى فى فينا بمعنى اقتراحى .

وهكذا أبرق سازونوف فى مساء الأحد الى السفير الروسى فى فينا يبلغه حديثه مع تساباري ، ويكلفه أن يرجو برشتولد الأذن لتساباري بالبحث فى سان بطرسبورغ فى صوغ بعض نقط البلاغ النهائى من جديد صيغة ترضى مطالب النمسا الرئيسية وتكون مع ذلك مقبولة من صربيا . وبهذا فتح الطريق « للمحادثات المباشرة » التى آثرتها برلين على اقتراح غراى الخاص بالمؤتمر ووافقت عليها وزارة الخارجية الانجليزية والتى اعتقد بالليلوج أيضاً « أنها تفضل كل إجراء آخر وينتظر أن تنجح » . فخلاصة ما اقترحه سازونوف كما أوردها هو : « اسحبوا بلاغكم النهائى ، حوروا صيغته ، وأنا أضمن لكم النتيجة »
لكن هذه الآمال كلها كانت لسوء الحظ فى غير موضعها نظراً لعناد برشتولد وتصميمه على المضى فى خطته القاضية بمحاربة صربيا . فهو بدلا من أن يقبل الاقتراحات التى عرضت للمحافظة على السلام قرر أن يحبطها بمواجهة أوربا بالأمر الواقع وهو إعلان الحرب على صربيا .

الفصل التاسع

مساعى المانيا المتأخرة فى سبيل السلام

كان بيتمان وزملاؤه فى برلين الى يوم الأثنين ٢٧ يوليه لا يزالون مستمسكين بسياستهم التى كانوا يأملون من ورائها ويصرون على أن النزاع النمسوى الصربى يمكن وينبغى ان يحصر بينهما . ففى ساعة مبكرة بعد ظهر الأحد ٢٦ يوليه شرح بيتمان موقف ألمانيا مرة أخرى بعد إذ سمع ببعض القرارات العسكرية التى اتخذتها الروسيا فى كراسنو سيلو « وبأن كافة الاستعدادات تجرى لتعبئة الجيش ضد النمسا » وسعى فى صرف الروسيا عن اتخاذ اجراءات يمكن أن تعرض سلام أوربا للخطر. كذلك كان بيتمان فى نفس الوقت يحض انجلتره وفرنسا على استخدام نفوذهما لدى سان بطرسبورغ لحملها على الاعتدال. لكن هذه المساعى لم تثمر النتيجة المرغوب فيها . . . وفى صباح الاثنين ٢٧ يوليه بعث بيتمان ، بعد أن رفض اقتراح غراى الخاص بالمؤتمر مؤثراً عليه « المحادثات المباشرة » ، نقول بعث بيتمان الى باريس برقية يقول فيها : « اننا لا نستطيع التوسط فى النزاع القائم بين النمسا وصربيا ولكن قد نستطيعه فيما بعد بين النمسا والروسيا » فكان هذا الرأى الخاص بالتوسط بين النمسا والروسيا دلالة على بدء التحول فى موقف بيتمان ودلالة أولى على إمكان العدول عن فكرة حصر الخلاف (بين الدولتين المتنازعتين) وامكان القيام بشىء من الوساطة للوصول الى اتفاق بين فينا وسان بطرسبورغ . وقد أرسلت برقيات بورتاليس المتضمنة نبأ « المحادثات المباشرة » الى تشيرشكى فى فينا فى الحال ، وأخبر ياجو القائم بأعمال السفارة الروسية بأنه « لا يستطع أن ينصح للنمسا بالتساهل لكن

تحويل برقية بورتاليس الى فينا أقرب الى أن يفيد بأنه يوصى بذلك للتخلص من الحالة الراهنة . » وفى مساء الاثنين كانت هنالك دلائل أخرى على ان بيتمان أخذ يسائل نفسه عن حكمة سياسة حصر الخلاف فى دائرته .

شكوك ألمانيا فى مسألة الحصر

من العوامل المهمة فى اتخاذ ألمانيا قرارات عاجلة عودة الامبراطور على جناح السرعة الى بوتسدام فى مساء يوم ٢٧ يوليه . فانه يروى عن ياجو أنه قال « إن وزارة الخارجيـة لتأسف لهذا العمل الذى قام به جلالته من تلقاء نفسه . فهم يخشون أن تكون عودة جلالته سبباً للتكهن وثورة الخواطر » وقد كان الامبراطور أثناء رحلته الشمالية يتلقى من بيتمان تقارير وجيزة غير وافية لـكنها تحمل على التفاؤل . وكان غرض بيتمان منها أن يظل الامبراطور هادئا وأن يمنعه من اعطاء أوامر الى الاسطول الألمانى يمكن أن تحدث انزعاجا ، لـكن بيتمان لم يوفق . فقد علم من إمارة البحر أن الأمبراطور بناء على برقية لشركة وولف أمر الاسطول بالاستعداد للعودة الى الوطن فتجرأ بخضوع على أن ينصح له بأن « لا تأمروا جلالتكم بعودة الاسطول قبل الاوان » فترتب على هذا أن أشر الامبراطور تأشيرة تتفق وما هو مأثور عنه .

ان هذه لدعوة غريبة ! لم أسمع بمثلها ! ولم أكن لأسيغها يوما ! لقد حدث هـذا بناء على ما اتصل بى من وزيرى عن التعبئة فى بلغراد ! وهذا قد يسبب التعبئة فى الروسيا وسيسبب التعبئة فى النمسا . وفى هذه الحالة يجب أن أبقى قوى قتـالى فى البر والبحر مجتمعة . فأنه ليس فى البلطيق سفينة واحدة ! ! فضلا عن انى لم أعتد أن أتخذ اجراءات عسكرية لمجرد برقية من وولف ولـكن لمـا تقتضيه الحالة العامة . وهذه الحالة لا يدركها الى الآن المستشار « المدنى » . . .

وعاد أيضاً القادة العسكريون والبحريون الى برلين فى مساء ٢٧ يوليه .

وكان مولتكه قبل أن تنشأ الأزمة قد قدر أن يعود من مستشفاه فى كارلسباد فى ٢٥ يوليه لكنه تأخر يوماً. وعند وصوله تحدث مع بيتمان وأقره على أن موقف الهدوء هو الذى ينبغى أن يسود. لكنه أرسل من قبيل الاحتياط الى وزارة الخارجية مشروعاً وضعه بيده للبلاغ النهائى الذى يرسل الى بلجيكا فى حالة الحرب. وبعد أن حادث بيتمان مرة أخرى فى صباح اليوم التالى ٢٧ يوليه كتب الى زوجته « ان الموقف لا يزال غامضاً بشكل بين. ولن تنجلى الحالة سريعاً فأنه لا بد من انقضاء أربعة عشر يوماً قبل أن يستطاع الالمام بشىء أو قول شىء معين. »

ورجا بيتمان الأميرال تربتس فى ٢٤ يوليه أن لا يعود من مصيفه فى سويسره حتى لا تثير عودته تعليقاً مزعجاً قد يربك وزارة الخارجية فيما تجرى عليه من سياسة « الحصر » ومع ذلك فقد رجع أيضاً الأميرال الأكبر فى ٢٧ يوليه الى برلين على مسئوليته معتقداً أن بيتمان يسلك طريقاً محفوفة بالمكاره بسماحه لهذا التوتر أن يتطور مع الروسيا، مؤملا أملا أخرق فى أن من الممكن حصر النزاع النمسوى الصربى وأن انجلتره تقف على الحياد حتى فى حرب تقع فى القارة...

لقد غاظ الأمبراطور وموظفيه الذين عادوا الآن الى برلين أن المستشار أبقاهم بعيدين عن العاصمة ولم يحطهم بالحالة إحاطة كافية. وقد أزعجهم بصفة جدية أن بيتمان سمح لبرشتولد بأن يذهب الى هذا المدى البعيد فى استخدام الحرية المطلقة التى خولت له فى ٥ يوليه. وقد قيل لهم إنه لا بد من الهدوء للنجاح فى حصر النزاع النمسوى الصربى. لكنهم بلا ريب كانوا من رأى الأمبراطور الذى أشروهو لا يزال فى البحر على إحدى نصائح بيتمان بالتزام الهدوء على الرغم من اشاعات التعبئة الروسية فقال متهكما: « ان التزام الهدوء هو أول واجب على المواطنين!! فتعلقوا بأهداب السكينة!! تعلقوا دائماً بها!! الا ان التعبئة الحادثة لشىء بالتأكيد جديد! »

لقد رأوا أن أزمة خطيرة تتطور بسرعة عظيمة دون أن تتخذ من أجلها استعدادات عسكرية خاصة وهى التى أخذ وجه الحالة السياسية يتجهم من جرائها . فالروسيا التى تستمد التشجيع من فرنسا وانجلترة ترفع صوتها بالاعتراض وتتخذ من الاستعدادات العسكرية الواسعة النطاق ما لم يكن فى الحسبان . وتقارير ليشنوفسكى الوارده من لندن تنطوى على التطير . . . وقد أعلن وزير خارجية ايطاليا سان جوليانو أنه ما دامت النمسا لم تستشر حليفتيها « قبل القيام بحركة عدوانية تنذر الى هذا الحد بالشر . . . فايطاليا لا يسعها أن تعتبر نفسها ملزمة فيما يتعلق بما يلى من العواقب . . »

وهكذا أخذ يبدو أن تفاؤل بيتمان وسياسة « الحصر » التى يجرى عليها مما يمكن أن يثبت فى شأنه أنه كان خطأ مرعباً .

وقد عقد فى ساعة متأخرة من بعـــد ظهر الاثنين ٢٧ يوليه اجتماع فى بوتسدام من الأمبراطور وبيتمان وياجو ومولتكه وبعض الموظفين الآخرين فظهر على الرغم من الانفعال من المستشار انه لا يزال هنالك تضامن جوهرى فى الرأى على أن المستشار محق فيما يرتئيه من إمكان حل الأزمة حلا سلمياً فلم يتخذوا قرارات عسكرية مهمة . وهكذا ظلت سياسة « الحصر » فيما بدا البرنامج الذى تجرى عليه ألمانيا .

نصيحة ألمانيا للنمسا

بيد أنه عند عودة بيتمان وياجو من بوتسدام الى برلين وجدا طائفة من البرقيات الجديدة تدل على أن الحالة تزداد خطورة وتظهر أن المضى فى الاستمساك بسياسة « الحصر » الدقيق لايخلو من مطعن . وإذن فيجب أن تعبأ ألمانيا أكثر من ذى قبل باقتراحات التوسط وأن تنصح لبرشتولد بالاكتراث لها . يجب أن تشرع ، دون أن تمس احساسات النمسا أو تجعلها ترتاب فى مضيها فى تعضيدها ، فى استرداد حرية العمل فى المسألة الصربية .

وهو ما سبق لها دون حكمة أن نزلت عنها فى ٥ يوليه . وبدلا من أن تقول ألمانيا لفينا كما فعلت من ثلاثة أسابيع مضت ، ان الأمبراطور « لا يسعه بطبيعة الحال أن يتخذ موقفاً حيال المسائل القائمة بين النمسا وصربيا لأنها دون اختصاصه » — نقول بدلا من أن تقول ألمانيا هذا فأنها يجب أن تقوم بدور الوسيط وتنصح للنمسا بالنظر بعين الأعتبار الى مقترحات انجلتره والروسيا فى شأن السلام ، أو فأن ما ينشره سفراء فرنسا من الريبة والشبه فى أن ألمانيا تحرض النمسا وانها تعرف نص البلاغ النهائى من مبدأ الأمر وانها تريد الحرب وانها سيئة النية فى دعواها حب السلام ، — هذه الشبه خليقة أن تزداد فضلا عن التعرض الخطر لخصومة انجلتره التى قد لا تحافظ على موقف الحياد اذا نشبت الحرب فى القارة. وهو حياد كانت ألمانيا تأمله وكانت تعتقد أن الملك جورج وعد به البرنس هنرى أوف بروسيا ولما يكد .

كان من بين ما وجده بيتمان وياجو من البرقيات برقية بالنص الكامل للرد الصربى سلمته المفوضية الصربية الى وزارة الخارجية فى ساعة مبكرة بعد الظهر . ومع أن بيتمان قد أفهم أن الرد « موافق لكل النقط تقريباً » فأن قراءة النص أرته بصورة بينة أنه ينطوى على المسالمة وأن صربيا ذهبت الى مدى بعيد فى التسليم بالمطالب . وربما كان قد غاظه من برشتولد أنه لم يكن قد أرسل الى برلين نسخة منه بعد .

وكانت هناك أربع برقيات جديدة تنبئ بالاستعدادات العسكرية التى قامت بها الروسيا على امتداد الحدود الألمانية . فكوفنو ضربت عليها حالة الحرب ومصب الدويناسد بالألغام والجنود يتنقلون فى عدة مواضع .

وجاء فى برقية من فينا أن النمسا قررت بغتة « أن تعلن الحرب رسمياً غداً أو بعد غد على الأكثر ليقطع الطريق أولا على كل محاولة للتدخل » وذلك بدلا من أن تلتزم الخطة التى سبق أن أبلغتها برلين إياها وهى الانتظار الى ١٢ أغسطس وعندئذ يفكر فى حشد الجنود .

ووجدا برقية من ليشنوفسكى تدل على حقيقة مقلقة هى أن السير ادوارد غراى أخذ ينفد صبره من ناحية ألمانيا . وكان غراى قد فرغ توة من قراءة الرد الصربى ووجد أن « صربيا قد وافقت على مطالب النمسا الى درجة لم يكن ليعتقد مطلقاً بامكانها » فأذا رفضت النمسا قبوله أساساً للمفاضات أو احتلت بلغراد « فلن تستطيع الروسيا أن تقف رابطة الجأش حيال عمل كهذا وسوف تعتبره تحدياً مباشراً لها . ونتيجة ذلك أن تقع أشد الحروب التى عرفتها أوربا رعباً . وحرب كهذه لن يستطيع أحد أن يقول الى أين تسوق » لذلك رجا غراى ألمانيا أن تستخدم نفوذها لحمل فينا على قبول الرد الصربى إما باعتباره مرضياً واما كقاعدة لمفاوضات. وهو يعتقد أن فى إمكان ألمانيا أن تسوى المسألة باعتراضها الاعتراض المناسب قال ليشنوفسكى : « وقد رأيت الوزير لأول مرة محنقاً . وكان يتكلم فى جد بالغ ويلوح انه يتوقع على كل حال أن نستخدم نفوذنا بنجاح لتسوية المسألة . . . وانى أعتقد أنه اذا وقعت الحرب بعد هذا كله فلن يكون فى استطاعتنا الاعتماد على عطف بريطانيا أو تأييدها إذ كل دليل على سوء النية سوف يرى فى مسلك النمسا » .

بالنظر الى كل هذه الأنباء الخطرة قرر بيتمان أن الوقت قد حان لاجابة غراى الى ما طلبه من التوسط فأبرق الى تشيرشكى فى فينا بنص برقية ليشنوفسكى بما احتوته من إنذار واقتراح من غراى بقبول المذكرة الصربية قاعدة لتسوية . ثم أضاف الى ذلك قوله :

ما دمنا قد رفضنا اقتراحاً انجليزياً بعقد مؤتمر فمحال علينا أن نرفض هذا الرأى الانجليزى أيضاً . فأننا برفض كل اقتراح للتوسط نعرض أنفسنا لأن يعتبرنا العالم بأسره مسئولين عن الحرب ، ويقدمنا على أننا المحرضون الأصليون عليها . وهذا أيضاً مما يجعل مركزنا فى بلادنا مستحيلا حيث يجب أن نظهر بأننا أرغمنا على الحرب ارغاماً . وكلما ظهر أن صربيا قد سلمت الى درجة كبيرة جداً كلما ازداد مركزنا صعوبة

لذلك لا يسعنا أن نرفض دور الوسيط ويجب أن نعرض المقترح الانجليزى على وزارة فينا لتنظر فيه بخاصة ولندن وباريس ماضيتان فى جعل سان بطرسبورغ تشعر بنفوذهما . انى أرجو أن يبدى الكونت برشتولد رأيه فى المقترح الانجليزى وكذلك ما يراه فى رغبة المسيو سازونوف المفاوضة رأساً مع فينا .

فى الوقت الذى كان تشيرشكى يقدم فيه هذا التبليغ الى برشتولد اجابه الوزير النمسوى « إنه مذ بدأت صربيا بالقتال وأعلنت النمسا الحرب عليها أصبحت خطوة انجلتره هذه متأخرة . » وهكذا واجه برشتولد حليفته كما واجه أوربا بالأمر الواقع وهو محاربة صربيا وبذا « قطع الطريق على أية محاولة للتدخل » .

وقد دار بحث كثير حول عمل بيتمان فى هذا الشأن وهل كان فيه مخلصاً وقد أبرق فى المساء عينه سفير النمسا فى برلين سيجينى الى برشتولد فى التاسعة والربع يقول :

(١) لقد أبلغنى وزير الخارجية (ياجو) فى صورة حاسمة وبصفة سرية جداً أن الحكومة الألمانية ستحيط سعادتكم قريباً بمقترحات يمكن أن يقدمها الانجليز بقصد التوسط .

(٢) والحكومة الألمانية تؤكد انها لا دخل لها البتة بهذه المقترحات بل هى تمانع كل الممانعة فى بحثها وهى انما تبلغها إجابة لرجاء الانجليز .

(٣) انها حين تفعل ذلك تضع نصب عينها أن من الأهمية بأعظم مكان أن لا تتضامن انجلتره مع الروسيا وفرنسا فى الوقت الحاضر . ولذا فأنه يجب أن يتجنب كل ما من شأنه أن يقطع الصلة التى بين ألمانيا وانجلتره والتى كانت الى الآن ذات فائدة تذكر . والا فلو قالت ألمانيا للسير ادوارد غراى فى صراحة انها لن تبلغ رجاءه الى النمسا والمجر وهو الرجاء الذى ترى انجلتره أن من المنتظر أن ينظر اليه بعين الاعتبار اذا قدم بواسطة ألمانيا ، لكان هذا خليقاً بأن يؤدى الى حالة تجنبها جوهرى جداً .

(٤) هذا الى أن الحكومة الألمانية فى كل طلب منفرد من هذا القبيل تقدمه انجلتره لفينا تقول لها بأوكد عبارة انها لن توافق للنمسا والمجر على محاولات كهذه للتدخل وانها انما تبلغها عملا برغبة انجلتره .

(٥) لقد فاتحت الحكومة الانجليزية ياجو أمس كما قال لى ، على يد السفير الألمانى فى لندن وبواسطة ممثلها هنا رأساً لتقنعه بتأييد طلب انجلتره القاضى بتعديل المذكرة (البلاغ النهائى) المقدمة الى صربيا . وقد رد ياجو انه سيعمل بالتأكيد برغبة السير ادوارد غراى فيبلغ طلب انجلتره الى سعادتكم لكنه نفسه لا يوافق عليه لأن النزاع الصربى مسألة تتناول هيبة النمسا والمجر وهو ما تهتم له ألمانيا أيضاً .

(٦) وعلى ذلك أبلغ الوزير مذكرة السير ادوارد غراى الى الهرفون تشيرشكى ولكن دون أن يكلفه بعرضها على سعادتكم . وعلى ذلك أمكنه أن يبلغ الوزارة الانجليزية انه لم يرد رغبة انجلتره مباشرة بل لقد حولها الى فينا .

(٧) لقد كرر الوزير موقفه فى الختام ورجانى ، تفادياً من حدوث أى سوء فهم ، أن أؤكد لسعادتكم أن قيامه فى هذه الحالة بدور الوسيط لا يعنى مطلقاً انه يحبذ قبول المقترح الانجليزى .

ولدينا عدة ملاحظات نبديها على تلغراف سيجيينى ، ذلك التلغراف الذى لا يخلو من الاضطراب وعدم الصحة والتكرار .

(١) انه ليس واضحاً كل الوضوح فى الفقرة الرابعة ما اذا كانت كلمة لها تعنى انجلتره أو فينا . فأقدر الأخصائيين الفرنسيين والألمان وهما رينوفان ومونجيلاس يفسرانها بأنها تعنى انجلتره . فاذا كان هذا هكذا فأن سيجيينى يكون مناقضاً نفسه فى الرأى الجوهرى الذى أعرب عنه فى الفقرات الثلاث الأولى . أما اذا كان المعنى بها فينا فأن قول سيجيينى ينقضه أن الحكومة الألمانية لم تصرح أبداً فى فينا « بأنها لن توافق للنمسا بحال من الأحوال على مثل هذه المحاولات للتدخل . »

(٢) ليس واضحاً من الفقرة الخامسة مايشير اليه سيجيينى . فأن انجلتره

لم تبد فى ٢٦ يوليه (أمس) رغبة فى تعديل المذكرة (البلاغ النهائى) المقدمة الى صربيا . وقد يكون الأمر قد التبس على سيجيينى فأراد طلب غراى الذى يرجع تاريخه الى ٢٥ يوليه (لا أمس) والذى وصل برلين فى نفس اليوم . وكان مؤداه أن ألمانيا قد تشعر بأنها قادرة على التأثير على الحكومة النمسوية فترضى عنه (عن الرد الصربى) . وهذا الطلب كما ذكر سيجيينى فى الفقرة السادسة أرسل على الفور فعلا الى تشيرشكى فى فينا وأبلغت انجلتره ذلك . ويصعب أن سيجيينى كان إذ ذاك يفكر فى اقتراح انجلتره الخاص بمؤتمر السفراء والذى قدم فى لندن الى تشيرشكى فى ٢٦ يوليه وقدمه جوشن فى ٢٧ يوليه الى برلين (وكلا التاريخين لا يمكن أن يطلق عليهما « أمس ») — وهو اقتراح رفضته ألمانيا فى الحال صراحة — لأنه بعث عنه تقريراً فيما بعد

(٣) ليس من دليل على أن ياجو قال لانجلتره أن النزاع الصربى مسألة تتعلق بهيبة النمسا والمجر ، وهو ما تهتم له ألمانيا أيضاً ، كما زعم سيجيينى فى ختام الفقرة الخامسة .

(٤) كان سيجيينى فى ذلك الحين قد بلغ من السن ما تقرر معه استدعاؤه واختيار خلف له . وسنه واجهاد تلك الأيام لأعصابه يفسران الخلط وعدم الدقة فى برقيته ثم هما يجعلان الثقة التامة فى هذه البرقية موضعاً للشك بخاصة وهذه المرة ليست الوحيدة التى ثبت فيها عدم دقته فى هذه الأزمة وانه لا يمكن التعويل على كلامه .

(٥) والملاحظة الأخيرة والأهم هى أن سيجيينى وهو يقول فى الفقرة الأولى : إن الحكومة الألمانية ستحيط سعادتكم قريباً بما يمكن أن يقدمه الانجليز من مقترحات للتوسط . » كان مفروضاً أنه يشير الى برقية ليشنوفسكى التى يقترح فيها التوسط على أساس الرد الصربى والتى أبلغت مع تعليق بيتمان وأسلفنا نحن بيانها . فأذا كان هذا هو الواقع وكانت برقية سيجيينى جديرة بالثقة (وهو ما يشك فيه) لشاب ذلك إخلاص بيتمان فى عمله ووصمه وصمة

شنيعة . لكنه من المحتمل كل الاحتمال أن الذى فهم سيجيني من ياجو أنه سيبلغ فينا قريباً لم يكن برقية ليشنوفسكى وانما الاقتراح الانجليزى الخاص بعقد مؤتمر من الدول الأربع . وقد رفض ياجو الاقتراح صراحة بتاتاً ولم يكن هنالك خداع أو غش فى قوله لسيجيني أن الحكومة الألمانية تعارض مطلقاً فى النظر فيه ، وانها إنما تبلغه عملا برغبة انجلتره . وقد يعترض بأن ياجو لا يلوح انه أبلغ اقتراح المؤتمر الى فينا . وهذا سهل تفسيره . فأنه فى صباح ٢٧ يوليه لم تكن برلين تعلم باقتراح المؤتمر الذى تضمنه البرقية التى أرسلها ليشنوفسكى فى مساء الأحد الا بصورة غير نهائية وصفة غير رسمية . وليس بعيد أن يكون قيل لسيجيني أن ألمانيا لا توافق عليه وانها اذا أبلغته لفينا فلن يكون معنى ذلك انها تقره بحال من الأحوال .

بعد ذلك تقدم جوشن بطلب المؤتمر رسمياً فرفض الطلب ، لكن ياجو وبيتمان فى عجلتهما الى بوتسدام أهملا ابلاغه الى فينا ، فلما عادا من بوتسدام وتلوا نص الرد الصربى ثم وجدا برقيـة ليشنوفسكى تشتمل اقتراحا حسناً بالتوسط أبلغا هـذا الاقتراح الأخير بدلا من اقتراح المؤتمر . واعتراض آخر يمكن أن يعترض به على أن سيجيني كان يفكر فى اقتراح بمؤتمر قد يبلغ فينا قريباً هو الحقيقة الواقعـة فى أن برقيته أرسلت فى الساعة التاسعة والربع مساء ولا يمكن أن تكون هذه البرقية متعلقة بحديث جرى عند الظهر ويرد على هذا الاعتراض بأن سيجيني كثيراً ماتأخر عدة ساعات فى الحصول على أخبار من وزارة الخارجية الألمانية وفى إبلاغها الى فينا . فهذا التـأخير الذى يتناول تسع ساعات ليس من غير المألوف منه . مثال ذلك أن ألمـانيا طلبت من فينا نص الرد الصربى فى منتصف الثانيـة عشرة صباحاً فلم يبلغ سيجيني الطلب الا فى الساعة السادسة الا عشر دقائق مساء ، وان جوشن أبلغ رفض اقتراح المؤتمر فى الساعة السادسة والدقيقة ١٧ من مساء الاثنين أما سيجيني فلم يبلغه الا بعـد أكثر من أربع وعشرين ساعة أى فى يوم

الثلاثاء فى الساعة الثامنة الا ثلثا مساء . هذا الى أنه من المشكوك فيه أن يكون بيتمان وياجو عادا من بوتسدام مبكرين بزمن يكفى لقراءة برقية ليشنوفسكى وابلاغ سيجيينى انهما لا يوافقان عليها وانهما يوصلانها ارضاء لانجلتره ثم يكون بعد ذلك ما يكفى سيجيينى لأن يضع كل ما وضع بالشفرة ويرسله فى الساعة التاسعة والربع .

لذلك يلوح أنه هنالك كل ما يحمل على الاعتقاد بأن برقية سيجيينى كانت تشير الى اقتراح المؤتمر الذى رفض صراحة لا الى الاقتراح الذى قدم بعد ذلك بالتوسط وأبلغه بيتمان حوالى منتصف الليل .

ومن ثم يصح أن نستخلص أن بيتمان كان مخلصاً فى مساء ٢٧ يوليه فى اتخاذه دور الوسيط الى درجة أنه دعا برشتولد الى النظر فى مقترحات السير ادوارد غراى والمسيو سازونوف للوصول الى تسوية تقبل بها النمسا رد صربيا كقاعدة مرضية ارضاء كافياً للقيام بمباحثات أخرى . وليس شك فى أن بيتمان كان متأثراً الى حد كبير برغبته عن مخاصمة انجلتره لكنه لو كان هذا هو باعثه الوحيد على تبليغ الاقتراح الانجليزى كما تعتقد طائفة من مفسرى برقية سيجيينى لما كانت به حاجة الى إدخال « محادثات سازونوف المباشرة » ضمن المقترحات التى طلب الى برشتولد أن ينظر فيها . كذلك لا ريب فى أنه كان أخلق ببيتمان أن يكون أقوى نصحاً مما كان اذا كان أراد أن يستوثق من اعتدال النمسا . لكنه لم يشأ أن يمس إحساسها أو يثير شكوكها حول ولاء المانيا كحليفة . ومع ذلك فلو أنه خاطبها بأحزم مما خاطبها به لكان حال دون إعلان النمسا الحرب على صربيا لأن برشتولد كان قد قرر الالتجاء الى ذلك « ليقطع الطريق على أية محاولة للتدخل . » فلما قدم تشيرشكى رسالة بيتمان قال له انه ما دامت النمسا وصربيا فى حالة حرب بالفعل « فحركة انجلتره قد جاءت متأخرة » .

اعلان النمسا الحرب على صربيا

فى ٢٨ يوليـــه

كان الخوف عاماً فى أوربا من أن تتبع النمسا قطع العلاقات السياسية مع صربيا بأعلان الحرب أو البدء بالعداء. وهذا أيضاً ما كانت ألمانيا تنتظره وتنصح به قبـــلا لضمان « حصر » النزاع وتقليل احتمال تدخل الروسيا بالسرعة فى العمل. فلما لم يقع هـذا تنفسوا الصعداء وقوى الأمل فى نجاح « المحادثات المباشرة » لـكن السبب الذى من أجله لم تأت الأعمال العسكرية على أثر قطع العلاقات السياسية هو أن أول يوم من أيام التعبئة الجزئية النمسوية لم يكن ليقع قبل ٢٨ يوليه ولم يكن ليمكن احتشاد الجيوش قبل مضى أسبوعين من ذلك اليوم، ولم يكن كونراد يريد الحرب قبل أن يتم احتشاد جيوشه. وقد أبلغ تشيرشكى ذلك عند ظهر يوم ٢٦ يوليه وعلمت به برلين فى صباح ٢٧ يوليه ولذا لم تكن تتوقع إعلان الحرب أو بدء العـداء قبل ١٢ أغسطس ... لـكنه فى ٢٧ يوليه عند ما اتصل بالنمسا نبأ الاستعدادات والمظاهرات العسكرية (الروسية) فى كراسنو سيلو قررت « اعلان الحرب غداً أو بعد غد على الأكثر، لتقطع الطريق على أية محاولة للتدخل . »

ومثل هذا التدخل كان يلوح أكثر احتمالا فى غضون المساء عند ما وصلت رسالة تساباری التى يقترح فيها اجراء « محادثات مباشرة » وجاء نبأ اقتراح غراى الخاص بعقد مؤتمر . لذا كلف برشتولد تسابارى أن فى إمكانه أن يحادث سازونوف ولـكن دون أن يرتبط بشىء. » وفى نفس الوقت كانت صيغة اعلان الحرب على صربيا توضع ومعها مذكرة لاقناع الامبراطور فرنسوا جوزيف بأن يأذن بأرسالها فى ساعة مبكرة من صباح الغد ...

وهكذا أحبطت النمسا بمبادرتهـا الى إعلان الحرب مقترحات انجلتره والروسيا باتخاذ الرد الصربى قاعدة لمفـــاوضات، وخلقت حالة جديدة. ولمعالجة هذه الحالة الجديدة بادرت ألمانيا وانجلتره الى تقديم عدة مقترحات

للمحافظة على سلام أوربا ولأرضاء النمسا وصربيا فى الوقت نفسه (أما الروسيا فلم تعد تقدم شيئاً) ومن بين هذه المقترحات ما وضعه الأمبراطور الألمانى قبل أن يعلم بأن النمسا أعلنت الحرب بعدة ساعات، من خطة كانت تعرف على العموم « بخطة الرهينة » أو « قفوا فى بلغراد »

« خطة رهينة الامبراطور »

كان الأمبراطور قد وقع الرد الصربى من نفسه موقعاً حسنا لما انطوى عليه من روح المسالمة والأذعان واعتبر أن النمسا قد أحرزت به نجاحاً سياسياً كما يبدو من تعليقه عليه :

« هذه نتيجة باهرة لأنذار محدد بثمان وأربعين ساعة. وهذا أكثر مما كان فى الأمكان توقعه ! انه نجاح معنوى عظيم لفينا ينتفى معه كل داع للحرب. وقد كان خليقا بجيزل أن يبقى هادئاً فى بلغراد ! وما كنت أنا لآمر بتعبئة بعد شيء كهذا. »

وقد كتب فى الحال الى ياجو يقول : «... انى اقترح أن نقول للنمسا إن صربيا قد أرغمت على التقهقر بصورة مذلة جداً ونحن نقدم تهانينا. ونتيجة ذلك بطبيعة الحال انه لم يعد هنالك داع للحرب. لكنه من المرجح أن يكون الحصول على ضمانة، بأن الوعود التى أعطيت ستنفذ، ضرورياً. وهذه يمكن الحصول عليها باحتلال عسكرى مؤقت لجزء من صربيا شبيه بالطريقة التى خلفنا بها جانباً من جيشنا فى فرنسا سنة ١٨٧١ الى أن دفعت البلايين. على هذه القاعدة أنا مستعد للتوسط فى السلم لدى النمسا . . . فقدم لى اقتراحا بهذا ليرسل الى فينا. »

لكنه قبل أن يضمن اقتراح الأمبراطور فى رسالة تبلغ الى النمسا كانت الأخيرة كما قدمنا قد أعلنت الحرب على صربيا. وقد بقى أن نرى هل أظهرت النمسا وخاصة الروسيا استعداداً لقبول اقتراح الأمبراطور الخاص بالتوسط وهو ما قدر بأخلاص أن يحول دون وقوع حرب أوربية.

قبل أن يحمل كتاب القيصر الى ياجو من بوتسدام الى برلين ويوضع فى صيغة اقتراح بين لفينا كان بيتمان قد تلقى أنباء مثيرة عن شروع برشتولد فى التلويح بالحسام الألمانى واهماله المتواصل لنصيحة ألمانيا القاضية بارضاء ايطاليا وتبييته النية على تقسيم صربيا . وقد كان بيتمان يفهم فى ٥ يوليه انه يوافق على تأييد النمسا فى مصالحهـــا الحيوية بوضع حد لدعاية « صربيا الكبرى » الخطرة . فهذا الخطر قد عنى به الرد الصربى الآن اذا أنجزت الوعود التى تضمنها . لكن الذى لم يكن يفهمه أو ينتويه هو أن ترغم ألمانيا على السير وراء برشتولد فى خططه السرية التى كتمتها النمسا عن حليفتها والتى قد تجر الى تفكك المحالفة الثلاثية بانسحاب ايطاليا منها ، بل ربما كدرت سلام أوربا فى صورة تظهر ألمانيا والنمسا بمظهر المسئولتين ؛ وهو لم يكن ليسمح بأن تظاهر الروسيا والصحافة التى تدعو الى الجامعة السلافية صربيا فى المضى فى دعاية التوسع لكنه من جهة أخرى كان يرى أن الأخلق بالنمسا أن ترضى رغبة الروسيا فى عدم تقسيم صربيا .

لذلك رفض بيتمان أن يسمح لبرشتولد بالتلويح بالسيف الألمانى . وكان برشتولد وكونراد قد طلبا الى تشيرشكى أن تنذر برلين سان بطرسبورغ بأن الاستعدادات العسكرية المتخذة ضد النمسا قد باتت من التهديد بحيث يتحتم اتخاذ اجراءات تقابلها . لكن بيتمان بدلا من أن يجيب هذا الطلب اجتهد فى تهدئة ولاة الأمور فى فينا وكبحهم بقوله لهم : « ان التقارير العسكرية الواردة عن الروسيا ليست ، على قدر ما هو معلوم هنا ، سوى اشاعات لم تثبت بعد . فأبداء تصريح بهذا المعنى لدى سان بطرسبورغ يلوح اليوم فى رأى الجنرال مولتكه سابقاً لأوانه . » وقد رد فى نفس الوقت على سازونوف الذى سلم « بأنه يجب أن توجد طريقة تعطى صربيا الدرس الذى تستحقه وتحفظ لها فى الوقت عينه حقوق السيادة » وكان رده أن كلف بورتاليس بأن يخبر سازونوف أنه شاكر له رسالته وروحها الودية مؤمل أيضاً أن يكون اعلان

النمسا انها لا ترمى الى غرض بعملها مرضياً للروسـيا وصالحا لأن يكون قاعدة لاتفاق تال . » . . .

والذى أثار بيتمان أكثر من غيره هو ما تلقاه من لندن عن أعمال النمسا . فمع أن برشتولد كان قدنفى أية نية على ضم شىء من الأراضى الصربية وأعلن أنه لا مصلحة للنمسا فى الأراضى الصربية فقد أسر السفير النمسوى فى لندن الى ليشنوفسكى أن صربيا « ستمرغ فى التراب ، وان النية معقودة على تقديم جهات من صربيا الى بلغاريا وربما أيضاً الى البانيا . » وهذه نيات خفية أبديت فى مجلس الوزراء النمسوى المنعقد فى ١٩ يوليـه لكنها كانت على نقيض ماكان بيتمان يتوقعه وعكس ماكان يقوله للدول بأخلاص . لذلك أثبت فى غضب أن هذا الخداع لايحتمل من النمسا : « هم يرفضون أن يحيطونا بير نامجهم ويعلنون صراحة أن أقوال الكونت هويوس التى اقترح فيها تقسيم صربيا لا تعبر الا عن شخصه . يتظاهرون لسان بطرسبورغ بأنهم حملان لا تنطوى ضلوعهم على نية سيئة ، وفى لندن تتحدث سفارتهم بأعطاء قطع من الأرض الصربية لبلغاريا والبانيا . »

وهكذا تناول بيتمان اقتراح الأمبراطور الذى عرض فيه التوسط على قاعدة « خطة الرهينة » وضمنه البرقية الآتية الى فينا :

« . . . ان الحكومة النمسوية المجرية على الرغم من استفساراتنا المتكررة عن أغراضها قد تركتنا على غير هدى . والرد الذى بيدنا الآن من الحكومة الصربية على البلاغ النمسوى النهائى يظهر أن صربيا قد قبلت فى الواقع مطالب النمسا الى مدى بعيد جداً حتى انه لينتظر أن ينقلب الرأى العام الأوربى على الحكومة النمسوية المجرية اذا هى اتخذت موقفاً لا هوادة فيه على الأطلاق . . . (والمفروض أنه مما يدعو الى ارتياح الروسيا) أن تكرر وزارة فينا فى سان بطرسبورغ ما أعلنته بصورة بينة من أنها لا ترمى الى الحصول على شىء من أراضى صربيا وأن تصرح بأنها لا تبغى باجراماتها العسكرية سوى الاحتلال المؤقت

لبلغراد ونقط أخرى معينة فى الأرض الصربيـة كما تضطر الحكومة الصربية الى تنفيـذ المطالب تنفيذاً تاماً ، وليكون من ذلك ضمانة لحسن سلوكها فى المستقبل وهو ما لا ينازع حق النمسا فيه بعد الذى خبرته من صربيا . ويمكن اعتبار هذا الاحتلال من قبيل احتلال المانيا لفرنسا بعد صلح فرانكفورت ضماناً لأداء الغرامة الحربية . فأذا ما نفذت مطالب النمسا أنسحب النمسويون . . . ان عليكم فى الحال أن تبدوا ذلك للكونت برشتولد بهذا المعنى وبقوة ، وأن تحملوه على أن يخطو الخطوة المناسبة لدى سان بطرسبورغ . وعليكم أن تعنوا بأن تتجنبوا أن يقع فى النفس اننا نقيد حركة النمسا . فالمسألة هى أننا نريد الاهتداء الى طريقة تحقق غرض النمسا وهو القضاء على دعاية صربيا الكبرى دون أن نسبب حرباً أوربية ، فاذا وقعت هذه الحرب فى النهاية فأن نحسن على قدر المستطاع الأحوال التى نخوض فيها غمارها . »

لقد كانت برقية بيتمان هذه خطوة فى الطريق السوى . . . لكن لهجتها لم تكن من القوة بحيث تكفى لأرغام برشتولد على الموافقة فى الحال . وهى لم تكن تتفق تماماً مع تعليمات الأمبراطور التى كانت أحسم منهـا إذ أمر بأن يقال لفينا « انه لم يعد ثمت ما يدعو الى الحرب » فبيتمان كان يخشى أن يمس احساس النمسا أكثر مما يجب وكان معنياً أكثر مما يجب بمنع المسئولية عن الحرب أن تقع على ألمانيا والنمسا منه بمنع هذه الحرب نفسها من الوقوع .

برقيات « ويللى ونيكى »

لقد أبلغ بيتمان سازونوف بالطرق الديبلوماتيكية المعتاده أن ألمـانيا تتوسط لدى فينا لحمل النمسا على الاتفاق رأساً مع الروسـيا اتفاقاً مرضياً لكنه الى جانب ذلك قرر فى مساء ٢٨ يوليـه نفسه أن يلتجئ الى وسيلة أخرى هى أن يتبادل الأمبراطور والقيصر البرقيات رأساً . وقد كانت المراسلات بين ويللى ونيكى فيما مضى مما أدى كثيراً الى توطيـد الصداقة الموروثة والعلاقات الحسنة بين بروسيا والروسيا . فهى قد تنفع فى الوقت

الحاضر فى التخلص من المتاعب . وعلى ذلك وضعت وزارة الخارجية مشروع برقية رفعتها الى الأمبراطور فأدخل عليها عدة تغييرات ثم أرسلها من برلين فى الساعة الثانية الا ربعا من صباح يوم ٢٩ يوليه :

« لقد أثار أشد الاهتمام فى نفسى ما سمعته عن وقع الاجراء الذى اتخذته النمسا ضد صربيا فى بلادكم . ولقد كانت تلك الجريمة الشنعاء التى ذهب ضحيتها الغراندوق فرديناند نتيجة لحملة التهييج المنطوية على الاستهتار القائمة فى صربيا منذ عدة سنين ، فلا تزال الروح التى دفعت بالصربيين الى قتل ملكهم وزوجته سائدة فى البلاد . وليس شك فى أنك توافقنى على أن لكلينا ، أنت وأنا ، كما لكافة الملوك مصلحة مشتركة فى الاصرار على أن الأشخاص المسئولين أدبياً عن هذا القتل الخسيس ينبغى أن يقتص منهم الاقتصاص الذى يستحقونه . والسياسة لا شأن لها فى هذا الصدد بحال من الأحوال .

على أنى من جهة أخرى أفهم تماماً أن من الصعب عليك وعلى حكومتك أن تواجهوا تيار رأيكم العام . لذلك وللصداقة القلبية الخالصة التى تربط كلينا بأوثق الروابط من زمن مديد ، فأنى استخدم أقصى نفوذى لحمل النمسويين على أن يصلوا رأساً الى اتفاق مرض معكم ولى ملء الثقة أنك ستعيننى على مجهودى لتذليل المصاعب التى لا يزال فى الامكان أن تنشأ .

صديقك وأخوك المخلص جداً «ويللى»

وقد خطرت هذه الفكرة للقيصر ولفئة الناصحين القليلة المحيطة به فى وقت واحد تقريباً إذ كانت هذه الفئة تتوق مخلصة الى الحيلولة دون تطور النزاع النمسوى الصربى الى حرب بين الروسيا وألمانيا . وقد أخبر البرنس تروبتسكوى شيليوس ممثل الأمبراطور الشخصى لدى القيصر أن رد صربيا واستعدادها لعرض المسألة على التحكيم ينبغى أن يجعل فى الامكان تجنب الحرب الأوربية . . . ثم أعرب عن رجائه فى أن ينصح الأمبراطور

للنمسا بأن لاتشد القوس أكثر مما يجب بل أن تسلم بوعود صربيا المنطوية على المسألة وتقبل التحكيم أمام محكمة لاهاى ، قال : « ولقد كانت عودة أمبراطوركم مما جعلنا كلنا أروح بالا لأننا نثق بجلالته ولانزيد حربا وكذلك القيصر نيقولا . وأنه لمن الخير أن يصل الملكان بالبرق الى تفاهم »

وفكرة عرض النزاع النمسوى الصربى على محكمة لاهاى كانت فكرة عزيزة على القيصر فالفضل فى هذه المحكمة يرجع اليه . وقد كتب الى سازونوف بذلك فى ٢٧ يوليه . . . . . وكتابه فى هذا الشأن إحدى الدلائل على رغبته الأكيدة فى استخدام كل وسيلة للمحافظة على السلام .

لكن سازونوف لم يلتفت اليه بل كان يعتمد على خديعة النمسا وحملها على التقهقر سياسياً بما كان يهدد به من التعبئة الجزئية فى وقت كان يتخذ فيه تلك الاجراءات الواسعة التى تستلزمها « الفترة المعدة للحرب » ليسهل بذلك الاسراع فى التعبئة العامة . فبينما كان القيصر يقترح تحكيم محكمة لاهاى كان وزير خارجيته يرسل تعليماته الى رجاله فى الخارج بأن يبرقوا اليه بكل معلوماتهم عن حركات الجنود ، وكان يرفض مقدماً كل نصيحة لسان بطرسبوغ بالاعتدال ويطمئن الجبل الأسود بأن الروسيا لن تقف ساكنة لما يصيب صربيا وأنه لذلك ينبغى أن يلائم الجبل الأسود بين سياسته وسياسة صربيا. على أنه لم يكن ثمة أى احتمال للنجاح لو أنه اتخذ الاجراء الذى طلبه القيصر فقد كان من المؤكد أن النمسا ترفضه وملاحظة الأمبراطور التى أبداها فى تقرير شيليوس على هذا الاجراء كانت كلمة « هراء ! » . . . والحقيقة هى أن أحداً من كبار الساسة فى أوربا لم ينظر من بدء الأزمة بعين الجد الى ما اقترحه باشتش من عرض هذه المسألة السياسية المشئومة للتحكيم . . .

لقد كان القيصر كالبرنس تروبتسكوى ويتمان يعلق الأمال على تبادل البرقيات رأساً مع الأمبراطور (فكتب اليه :)

« إنى مسرور بعودتك وأناشدك فى هذه اللحظة العصيبة أن تعيننى .

فقد أعلنت حرب ذرية على دولة ضعيفة . والسخط الذى أشاطر الروسيا إياه كل المشاطرة هائل . وأنى لأتنبأ أنه عما قريب سيغمرنى الضغط الذى يستخدم معى فأضطر الى اتخاذ اجراءات متطرفة ستؤدى الى الحرب . فسعياً وراء تجنب نكبة كالحرب الأوربية أرجوك باسم صداقتنا القديمة أن تفعل ما فى وسعك لوقف حلفائك عن المضى الى أبعد مما يجب . »

وقد رد الأمبراطور على ذلك فشاطر القيصر رغبته فى المحافظة على السلام ثم أبدى . . . « أن الاجراءات العسكرية التى تتخذها الروسيا والتى ستراها النمسا مهددة لها ستعجل بالنكبة التى يرغب كلانا فى تجنبها وستحرج مركزى كوسيط وهو ماقبلت بارتياح أن أكونه بعد الذى كان من مناشدتك صداقتى ومعونتى » . وقد أثر هذا المجهود فى سبيل السلام تأثيراً عميقاً فى القيصر ونجح هذا المسعى، كما سيظهر بعد ، الى حد أن حمل القيصر على وقف أمر التعبئة العامة فى الروسيا وكان رئيس هيئة أركان الحرب قد انتزعه منه وأوشكت أن تهتز الأسلاك به . وقوي أمل القيصر فأبرق الى الأمبراطور .

« أشكرك من قلبى على ردك السريع وسأرسل تاتيشيف فى مساء اليوم مزوداً بالتعليمات . وقد كانت الاجراءات العسكرية التى اتخذت الآن قد تقررت من خمسة أيام مضت لداعى الدفاع بسبب استعدادات النمسا . فآمل من كل قلبى أن لا تعوقك هذه الاجراءات عن القيام بدور الوسيط — ذلك فى الدور الذى أقدره كثيراً . إننا بحاجة إلى ضغطك القوى على النمسا لكى تتفاهم معنا . »

بيد أن أنباء الاستعدادات العسكرية الواسعة النطاق التى اتخذتها الروسيا مع التعبئة الجزئية ضد النمسا والتى سلم القيصر الآن بأنها كانت « قد تقررت من خمسة أيام مضت لداعى الدفاع بسبب استعدادات النمسا » فى حين أن النمسا كانت قد عنيت بأن تتجنب القيام باستعدادات ضد الروسيا — نقول

إن نبأ تلك الاستعدادات أثار الأمبراطور وأسخطه ، إذ كان يجتهد مخلصاً فى التوسط وحمل النمسا على قبول « خطة الرهينة » وإرضاء الروسيا بالمفاوضات المباشرة ، لكن الروسيا فى تلك الأثناء سبقت فى استعداداتها العسكرية بخمسة أيام ، فقال : « إنى لا يسعنى أن أوافق على أى توسط بعد الآن مادام أن القيصر الذى رجانى فيه كان فى نفس الوقت يعبىء الجيش سراً من ورائى . ان هذه مناورة يراد بها وقفنا والتقدم علينا أكثر مما تقدموا . لقد انتهت مهمتى » . . .

لقد تبودلت بعد ذلك عدة برقيات بين « ويللى » و« نيكى » لكنها كانت دون أمل ما فى النجاح لأن التعبئة الروسية العامة التى صدر الأمر بها فى الساعة السادسة فى مساء ٣٠ يوليه كانت قد جعلت الحرب الأوربية العامة أمراً لامفر منه فى الواقع .

ضغط بيتمان على فينا

أرسل بيتمان كما رأينا آنفاً « خطة الرهينة » إلى فينا فى مساء ٢٨ يوليه ومعها تعليمات لتشيرشكى بمخاطبة برشتولد « بقوة » . وفى نفس الوقت أشعر انجلتره والروسيا بأنه يفرغ قصاراه لاقناع فينا بالتقدم الى مباحثة سان بطرسبورغ مباحثة صريحة ودية وانه يرغب فى التعاون على المحافظة على السلام العام . وقد قال للسفير البريطانى انه « يجب تجنب الحرب بين الدول العظمى . » لكنه أخذ الآن يتولاه الارتباك فى صورة جدية لأنه لم يتلق من برشتولد جواباً عن « خطة الرهينة » وقد ظل طول اليوم التالى ينتظر الرد عبثاً مع أن البرقيات كانت تنقل عادة بين برلين وفينا فى ثلاث أو أربع ساعات حتى فى ذلك الوقت الذى كانت الأسلاك البرقية فيه مثقلة . ولقد أربكه صمت برشتولد لعدة أسباب ، أربكه : لأن السلطات العسكرية الألمانية كانت قد أخذت تحث على وجوب اتخاذ ألمانيا بعض الاجراءات العسكرية على سبيل الاحتياط للأنباء التى كانت

ترد من الروسيا ، كما سنبينه بعد ، ولأنه لم يكن يسعه أن يرد على لندن وسان بطرسبورغ عن مبلغ نجاح مساعي التوسط لدى فينا ، ولأن اعلان النمسا الحرب كان قد ترك فى تلك الأثناء أثراً سيئاً ، ثم لأنه تلقى من العواصم الأخرى أخباراً لاح انها تدل على سوء نية حليفته أو غباوتها . لذلك أرسل فى مساء ٢٩ يوليه الى تشيرشكى ثلاث برقيات مستعجلة أحاطه فى بعضها بالتقارير المتعلقة بأعمال النمسا وطلب فى البعض الآخر أن يرد عليه عاجلا فيما يتعلق « بخطة الرهينة » . وقد بعث اليه فى البرقية الأولى برسالة ليشنوفسكى المتعلقة بما أبداه السفير النمسوى فى لندن وزاد عليها استهجانه الشديد لعمل النمسا فى قوله : « . . . انى أنظر الى موقف الحكومة النمسوية ومسلكها الذى لا مثيل له نحو الحكومات المختلفة فى دهشة متزايدة . . . وانى لأستخلص انها تبيت النية على تدابير ترى من المناسب إخفاءها عنا لتضمن لنفسها فى كل الأحوال تأييد ألمانيا ولتتجنب الرفض الذى يمكن أن ينتج عن البيان الصريح . »

وكان تشيرشكى فى صباح ٢٩ يوليه قد نفذ فى الحال التعليمات الأصلية المتعلقة « بخطة الرهينة » لكنه لم يلق الا رداً ينطوى على المماطلة والروغان : فبرشتولد كان مستعداً لأن يكرر تصريحه الخاص بتجرد النمسا عن أية مصلحة فى أراضى صربيا ، لكنه « فيما يتعلق بالتصريح الآخر عن الاجراءات العسكرية يرى الكونت برشتولد أنه لا يستطيع أن يرد فى الحال . وعلى الرغم من اعتراضى بأن المسألة لا تحتمل الأمهال فأنى لم أتلق الى مساء اليوم تبليغاً جديداً » .

وفى نفس اليوم ، يوم الأربعاء ٢٩ يوليه تلقى بيتمان بينما كان يترقب عبثاً رد برشتولد على « خطة الرهينة » مقترحين آخرين ارتئيا محافظة على السلام وأيدهما لدى فينا بحزم . وكان أحدهما ما اقترحه سازونوف من « المحادثات المباشرة » بين فينا وسان بطرسبورغ . . . فلما علم بيتمان من

سازونوف أن برشتولد رفض بتاتاً أن يدير أية محادثات مباشرة وكان يخشى أن يكون هنالك شيء من سوء الفهم أبرق الى فينا بعد ذلك بساعتين يقول بأشد لهجة من ذى قبل :

« ان رفض كل تبادل للرأى مع سان بطرسبورغ ليكونن غلطة خطيرة لأنه يدفع بالروسيا الى التدخل المسلح بعينه وهو ماتدعو مصلحة النمسا أولا الى تجنبه . ولا مراء فى إننا مستعدون للقيام بواجباتنا كحليف لكننا يجب أن نرفض أن تجرنا فينا بطيشها وعدم اكتراثها لنصائحنا الى حرب عالمية . أرجوك أن تبلغ ذلك الى الكونت برشتولد فى الحال بكل قوة وفى صورة جدية جداً . »

والتدبير الآخر الذى تلقاه بيتمان بكل ارتياح فى ساعة متأخرة من ليل الأربعاء كان اقتراح غراى المتعلق بالتوسط بين النمسا والروسيا اما على يد الدول الأربع واما بواسطة ألمانيا وحدها على قاعدة الرد الصربى . وكانت الأنباء قد وردت من روما بأن صربيا مستعدة الآن لأن تسيغ المادتين ٥ ، ٦ وبعبارة أخرى كل البلاغ النمسوى النهائى على شريطة أن تفسرا تفسيرات بعينها . وقد رحب بيتمان باقتراح غراى هذا وتلقاه بلهفة باعتباره حلا سعيداً وعندما أرسله الى فينا « ضغط الزر » مرة أخرى ضغطاً شديداً بقوله .

« أرجوك أن تطلع برشتولد عليه فى الحال وأن تضيف اليه أننا نعتبر مثل هذا الاذعان من جانب صربيا قاعدة ملائمة للمفاوضات مع احتلال جزء من الأراضى الصربية كرهينة . »

لكن برشتولد كان لايزال على صممه لايسمع النداء وكل ما فعله انه أجاب اجابة تدل عليه وهى « ان قبول مذكرة النمسا بحذافيرها كان يكون مرضياً قبل بدء الأعمال العدائية . أما الآن وقد أعلنت حالة الحرب فشروط النمسا يجب بطبيعة الحال أن تتخذ لهجة أخرى . »

وقد بعث بيتمان على الأخص على الترحيب باقتراح غراى والتلهف عليه ان غراى سرعان ما ألحق به النقطتين اللتين كانت ألمانيا نفسها قد حثت

فينا وسان بطرسبورغ عليهما فى «خطة الرهينة» وهما أن تدلى النمسا من جديد ببيان عن نياتها نحو صربيا يرضى الروسيا، وأن تكون هنالك رهينة فى صورة الاحتلال العسكرى المؤقت لبلغراد إرضاء للنمسا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى انه كان قد انزعج لأول «انذار» من ناحية غراى وهو أنه لا يمكن أن يعتمد على بقاء انجلتره على الحياد اذا نشبت حرب عامة. فغراى كما يروى عنه ليشنوفسكى :

يلوح له شخصياً أن القاعدة المناسبة لمثل هذا التوسط هو أن تعلن النمسا شروطها بعد احتلال بلغراد أو غيرها من الأماكن. فاذا قبلتم سعادتكم التوسط مع ذلك كما ارتأيت له فى الصباح الباكر انه فى حيز الامكان، فان هذا سيوافقه... وقد قال لى انه يجب أن يدلى إلىّ ببيان ودى خاص ... إنه قد يكون فى وسع انجلتره أن تقف بعيدة طالما كان النزاع محصوراً بين النمسا والروسيا، لكنه إذا دخلنا نحن وفرنسا فيه فان الحالة تصبح فى الحال غير ما كانت وعندئذ قد ترغم الحكومة البريطانية على اتخاذ قرارات سريعة حسبما تقتضيه الظروف. وفى هذه الحالة لن يكن فى الامكان الوقوف بعيداً والانتظار «والحرب اذا نشبت فسوف تكون أعظم كارثة شهدها العالم.». انه لم يكن يقصد أن يبدى أى نوع من التهديد وكل الذى أراده هو أن يمنعنى من أن أفهم غير الحقيقة وأن يدفع عن نفسه تهمة عدم الاخلاص ولذا اختار صيغة الايضاح الخاص.

فلما سمع بيتمان بهذا الاحتمال المزعج الذى لم يكن فى حسابه ولا فى مرجوه وهو أن انجلتره قد لا تلتزم الحياد بادر الى نقل حديث غراى وليشنوفسكى بأكمله الى فينا ومضى «يضغط على الزر» بكل قوة :

إننا اذا رفضت النمسا كل مفاوضة نصبح وجهاً لوجه أمام حرب تكون فيها انجلتره ضدنا ولا تقف فيها رومانيا وايطاليا الى جانبنا كما تدل كل الدلائل. وبذا نقف اثنتين قبالة أربع دول. وسيكون من جراء معارضة

انجلتره أن تنزل بألمانيا أكبر ضربة . انه ليمكن الاحتفاظ بهيبة النمسا السياسية وشرف جيشها العسكرى واجابة مطالبها العادلة من صربيا بما فيه الكفاية ، باحتلال بلغراد أوغيرها من المواضع ؛ وباذلالها صربيا ستعيد الى مركزها فى البلقان والى علاقاتها بالروسيا سابق قوتها . فهذه الظروف توجب علينا أن نحض وزارة فينا بصفة مستعجلة و نلح عليها فى قبول التوسط وفاقا للشروط الشريفة الآنفة . فاذا لم تفعل فستكون تبعة العواقب التى تترتب على عملها ثقيلة على النمسا وعلينا بشكل غير مألوف .

هذا الرجاء الحار الذى وجهته ألمانيا الى النمسا كيما تقبل حلا كان يمكن حتى حينئذ أن يحول دون التهاب أوربا لم يلق من برشتولد رداً معيناً صريحاً. وقد سلمت برقية بيتمان المتضمنة حديث ليشنوفسكى مع غراى بعــــد حل رموزها الى تشيرشكى فى يوم الخميس ٣٠ يوليه بينما كان يتناول طعام الغذاء مع برشتولد « وقد أصغى برشتولد ممتقع اللون صامتاً الى البرقية وهى تتلى مرتين . وكان الكونت فورجاخ يدون ملاحظاته وأخيراً قال برشتولد إنه سيعرض المسألة فى الحال على الأمبراطور » . . . وقد لبث تشيرشكى عصر ذلك اليوم زمنا طويلا يشرح لفورجاخ وهويوس كل آراء بيتمان شرحا مستفيضاً جدياً . ولكن دون فائدة . ذلك أن هذين المستشارين الحميمين لبرشتولد أبلغاه فى استخفاف : « ان وقف العمليات العسكرية الجارية مستحيل بالنظر الى شعور الشعب والجيش .... وان كونراد فون هوتسندورف [رئيس هيئة أركان الحرب] سيعرض مساء اليوم أمر التعبئة العامة على الأمبراطور كرد على الاجراءات التى اتخذت . » ثم أخبر أخيراً أن برشتولد لا يمكنه أن يرد قبل صباح اليوم التالى لأنه يجب أن يستشير تيزا الذى لن يتيسر وجوده فى فينا قبل ذلك .

فى ذلك الحين ، أى فى مساء ٣٠ يوليه ، كانت الروسيا قد أمرت بالتعبئة العامة وان كانت الأنباء الرسمية عن هذه التعبئة لم تكن قد عرفت فى برلين

وفينا إلا فى اليوم التالى. وكانت ألمانيا قد أفهمت الروسيا مراراً وتكرارا أن مثل هذا الاجراء الذى يوجه الى ألمانيا كما يوجه الى النمسا والذى تفهم السلطات العسكرية كافة أن معناه تقرير الحرب سيؤدى بلا ريب الى التعبئة الألمانية فالحرب . وهكذا فشلت مساعى بيتمان للتوسط وكانت قد أتت متأخرة ولم تكن من الشدة بحيث ترغم حليفته على التفاهم مع الروسيا فى حينه. ثم هى لم تكن مما تنظر اليه دول الوفاق بعين الجد وهى التى كانت قد تزعزع ايمانها برغبة ألمانيا الخالصة فى السلام من جراء تأييدها الظاهر للسياسة النمسوية قبل ذلك وللفشل الذى لقيه ضغطها المتأخر على فينا وإخفاقها فى الوصول الى نتائج محسوسة .

الفصل العاشر

التعبئة الروسية

فى مجلس الوزراء الذى عقد فى كراسنو سيلو بعد ظهر يوم ٢٥ يوليه كما أسلفنا فى الفصل الخاص « بالخطر الروسى » قرر وزراء القيصر عدة إجراءات عسكرية تمهيدية تضمنت الاستعدادات الواسعة النطاق الخاصة « بالفترة المعدة للحرب » وهى التى كان الغرض منها تسهيل التعبئة العامة ضد ألمانيا والنمسا على السواء. وكان الأمر قد صدر بها قبل فجر ٢٦ يوليه فقامت الاستعدادات على قدم وساق من ذلك الحين وأحدثت انزعاجا فى برلين على الرغم من التأكيدات المخدرة للأعصاب التى كان سازونوف وسوخوملينوف يؤكدان بها أن ليس فى النية اتخاذ اجراءات للتعبئة ضد ألمانيا. وقد كانت قرارات ٢٥ يوليه تتضمن التعبئة الجزئيه عند الطوارىء على أن تتخذ ضد النمسا فى الوقت الذى يرى سازونوف أن الحالة السياسية تقتضيها . . . وبينما كانت هذه الاستعدادات العسكرية قائمة لتمكين الروسيا من التغلب على بطئها النسبى فى التعبئة اذا أصبحت الحرب أمراً لا مفر منه كان سازونوف فى تلك الأثناء وبين ٢٥ و ٢٨ يوليه يبدو متفائلا ومستعداً للقيام بدوره فى سبيل « محادثات مباشرة » مع فينا بقصد الوصول الى تسوية توفق بين مطالب النمسا وردصربيا . . .

غير أنه بعد ظهر يوم الثلاثاء ٢٨ يوليه وفى ساعة مبكرة منه زار السير جورج بوكانان وزارة الخارجية الروسية فوجد سازونوف قد تلقى أنباء مقلقة من فينا غير إعلان النمسا الحرب على صربيا وهو ما لم يكن قد تلقاه بعد — وأنه ينظر الى الحالة بعين التشاؤم. فسأله بوكانان ألا يرضيه أن

تطمئنه النمسا على استقلال صربيا وسلامة أراضيها ثم قال ان انجلتره ترحب بكل تدبير يحول دون وقوع الحرب الأوروبيه . «لكنه من المهم أن نعرف نيات الحكومة الأمبراطورية (القيصرية) الحقيقية» — كلمة تدل على أن بوكانان لم يكن يرى أن سازونوف كان صريحاً كل الصراحة معه فرد عليه سازونوف بقوله « ان أى تعهد يمكن أن تتعهد به النمسا فيما يتعلق بهاتين النقطتين [استقلال صربيا وسلامة أراضيها] لن يرضى الروسيا وأنه فى اليوم الذى تجتاز النمسا فيه حدود صربيا سيصدر الأمر بالتعبئة ضد النمسا . » ثم زاد على ذلك قوله أن ليس ثمة ما يدعو الى الخوف من حدوث قلاقل داخلية فى الروسيا وأنه « فى حالة الحرب ستظاهر الأمة الحكومة عن بكرة أبيها . » فارتأى بوكانان أن يناشد القيصر فرانسوا جوزيف شخصياً أن يلزم النمسا دائرة تقبلها الروسيا باعتبار ذلك آخر ما يلجأ اليه . بيد أن سازونوف عاد فأصر على أن الطريقة الوحيدة لمنع الحرب هى أن تعلن انجلتره بصورة واضحة أنها ستنضم الى فرنسا والروسيا . وقد وقع فى نفس بوكانان أن الروسيا « جادة كل الجد » وأنها ستحارب اذا هاجمت النمسا صربيا .

واستقبل سازونوف بورتاليس بعد محادثته لبوكانان واجتهد فى إقناعه بأن رد صربيا مرض وأنه لذلك ينبغى أن تنضم ألمانيا فى الحض عل التوسط لدى فينا . . . بيد أن بورتاليس قابله بالشكوى من اللهجة العدائية التى تستعملها الصحف الروسية ومن أنه قد ظهر جلياً لألمانيا من تقارير يعتمد عليها أن استعدادات الروسيا العسكرية تتجاوز ما أبانه سوخوملينوف للملحق العسكرى الالمانى فى مساء ٢٦ يوليه الى مدى بعيد . . . ثم حذر سازونوف من الخطر البالغ الحد الذى قد ينجم فى الحالة الراهنة العصيبة عن استعدادات الروسيا العسكرية الواسعة النطاق .

واستقبل سازونوف سفير النمسا بعد ذلك لكنه خيب أمله أن تسابارى لم يتلق رداً على ما كان قد اقترحه مزز بومين من « المحادثات المباشرة » . . . ثم

جعل هو وتساباري يرددان حججهما القديمة عن البلاغ النمسوى النهائى والرد الصربى فى صورة هادئة ودية ولكن دون أن يصلا الى نتيجة مرضـــية . واستأذن تساباري فى الانصراف « لأن الوزير كان على موعد مع القيصر فى بيترهوف .. » .

على أن الظاهر مع ذلك ان سازونوف لم يتوجه الى بيترهوف فى الحال فقد تحدث الى باليلوج اولا وخاطب رئيس هيئة اركان الحرب فى الأمر بالتعبئة فى الروسيا نظراً لنبأ اعلان النمسا الحرب على صربيا وهو النبأ الذى كان قد وصل ولما يكد .

إعلان باليلوج تأييد فرنسا

اختلى باليلوج الذى يقول إنه انتظر قصداً حتى انتهى سازونوف من أحاديثه مع غيره من السفراء بوزير خارجية الروسيا بعد ذلك ودار بينهما حديث لدينا عنه روايتان تختلف احداهما عن الأخرى اختلافاً بيناً . فالبارون شيلنج الذى اعتـاد أن يدون بدقة كل مساء زبدة أهم الأحاديث التى تكون قد جرت لسازونوف يقول :

« لقد أبلغ السفير الفرنسى وزير الخارجية بنـاء على تعليمات من حكومته أن فرنسا مستعدة كل الاستعداد للقيام بارتباطاتها عند الحاجة بصفة كونها حليفة . »

فهذا التصريح لباليلوج كان فى هـذا الظرف بعينه من الأهمية العظيمة للروسيا بحيث غطى على كل ما عداه فى ذهن شيلنج فى يوم ٢٨ يوليه ، لأنه كان كل ما دونه فى مفكرته فى ذلك اليوم فيما خلا الخلاصة التى كان يكتبها للبرقيات . وكون باليلوج قد أدلى بهذا التصريح وأن هذا التصريح شجع سازونوف من جديد على الثبات والمصادقة على التعبئة الروسـية يؤيده ما حدث فى اليوم التالى من سازونوف وهو يحيط ايزفولسكى بقراره القاضى

بالتعجيل بالتسلح وافتراض أن الحرب لا مفر من وقوعها إذ زاد على ذلك قوله .

أرجوك أن تعرب للحكومة الفرنسية عن امتناننا الخالص من التصريح الذى أدلى لى به السفير الفرنسى باسمها وهو أن تعتمد كل الاعتماد على مساعدة حليفتنا فرنسا . فأن هـذا التصريح فى الظروف الراهنة له قيمة خاصة لنا .

ومع ذلك فأن باليلوج يأتى فى مذكراته برواية مختلفة كل الاختلاف . فهو لا يذكر كلمة واحدة عن هذا التصريح الهام بل يسهب بدلا من ذلك فى الكلام عن أهميته هو كممثل لبلاد تركها غياب بوانكاريه واتصالها به اتصالا متقطعاً بلا رأس ، وذلك بعد حكاية لعلها روائية أكثر منها حكاية دقيقة ، عن اضطراب أعصاب بورتاليس وهدوء سازونوف . فهو يزعم أنه بالنظر الى المسئولية العظيمة التى القيت على عاتقـه من جراء ذلك باعتباره سفيراً لفرنسا قد رجا سازونوف أن يكون حذراً فى اتخاذ أية اجراءات عسكرية قد تبعد تأييد انجلتره ، وان سازونوف قال له انه يجد صعوبة كبيرة مع هيئة أركان الحرب الروسية وانه — باليلوج — حمله عندئذ على أن يعد بقبول كل الأجراءات التى ترتئيها فرنسا وانجلتره للمحافظة على السلام ، وأن يأذن له فى إبراق وعده هذا الى باريس . ومع ذلك فمن المشكوك فيه جداً أن يكون سازونوف قد رغب فى إعطاء وعد كهذا واذا كان أعطاه فهو لم يف به لأنه سرعان ما صادق على الأقل على التعبئة الجزئيـــة وهو ما يصعب أن يعتبر اجراء ارتأته فرنسا وانجلتره للمحافظة على السلام . فالمحتمل هو أن رواية البارون شيلنج لحديث باليلوج مع سازونوف هى الصحيحة ؛ وأن باليلوج كان فى الراجح مطلقاً لخياله فيما قبل الحرب العنان .

ولا يزال غير مؤكد ، الى أن ينشر الفرنسيون كامل الوثائق المتعلقة بهذه الفترة ، ما اذا كان باليلوج باعلانه تضامن فرنسا والروسيا لسازونوف

كان يعمل حقيقة ، وفاقاً لتعليمات من حكومته كما يقول شيلنج أو كان يقول غير الحقيقة أو أن شيلنج وسازونوف نسبا اليه خطأ ما لم يقله . وقد يكون تصريحه هذا هو ما رأى انه يتفق والبرقية التي أرسلها اليه فيفياني في ٢٧ يوليه إذ قال له : « أرجوك أن تقول للمسيو سازونوف أن فرنسا ، وهي تقدر كالروسيا الأهمية العظيمة التي تعلقها الدولتان على تأكيد تفاهمهما التام فيما يتعلق بالدول الأخرى ، وعلى عدم إهمال أي مسعى لحل النزاع ، ان فرنسا هذه مستعدة لأن تؤيد كل التأييد في مصلحة السلام العام عمل الحكومة الامبراطورية . » وعلى كل فأن تصريح باليلوج كان متفقاً والتأكيدات التي أعطاها الرئيس بوانكاريه نفسه قبل ذلك بأسبوع على أثر زيارته للروسيا كما يتفق وبرقية ايزفولسكي التي بعث بها من باريس في ٢٧ يوليه إذ يقول : لقد أدهشني أن يفهم وزير الخارجية بالنيابة وزملاؤه الحالة هذا الفهم التام . وأن يكون قرارهم القاضي بمؤازرتنا أتم مؤازرة مع تجنب أدنى شيء يمكن أن يثير الاشتباه في أنهم غير متفقون معنا ، أقول ان يكون قرارهم هذا بهذا الثبات والهدوء . »

نبأ إعلان النمسا الحرب على صربيا

وصلت الأنباء الى الروسيا بعد ظهر يوم ٢٨ يوليه بأن النمسا أعلنت الحرب على صربيا . وقد تكون وصلت وسازونوف يحادث باليلوج وبذا تكون بعض السبب في اعلان الأخير تأييد فرنسا . واذا كان سازونوف على شيء من التفاؤل حينذاك فقد قضى عليه هذا النبأ وجعله يخشى أن تغزو النمسا صربيا عاجلا وأكد لديه الاعتقاد المتزايد بأن المانيا من وراء النمسا تظاهرها وانها ماضية في مناصرتها ، الا اذا أوضح جلياً أن الروسيا مصممة على تهديد النمسا بالقوة كيما تحمي صربيا . وقد انتهى من ذلك الى أن الوقت قد حان لأن يأمر بالتعبئة الجزئية ، وهو ما كان قد صادق عليه « مبدئياً » في

٢٥ يوليه . ولذا أعلن فى مختلف العواصم الأوربيـة انه بالنظر الى إعلان النمسا الحرب على صربيا ، قد باتت محادثاتى المبـاشرة مع سفير النمسا دون فائدة ظاهرة » .

وبعبارة أخرى لقد عدل عن « المحادثات المباشرة » باعتبارها حلا سلمياً قبل أن يتلقى رفض النمسا البات بعـدة ساعات وهو الرفض الذى لم يعلم به الا بعد ظهر اليوم التالى . كذلك كلف سفراءه فى الخارج أن يبلغوا الحكومات أن الروسيا قد قررت نتيجة لاعلان النمسا الحرب على صربيـا أن تأمر فى اليوم التالى بالتعبئة الجزئية فى الأقاليم العسكرية الجنوبية الأربعة وهى أودسا وكييف وموسكو وقزان . لكنه أضاف الى ذلك « أن الروسيا لا تحدوها أية نية عدوانية حيال ألمانيا » .

ويلوح ان هذه البرقيات لا تترك ظلا من الشك فى أن سازونوف رغب فى أن يقع من نفس أوربا انه الآن ينفذ وسائل الضغط التى كانت قد تقررت فى كراسنو سيلو فى ٢٥ يوليـه وأبينت للدول عدة مرات وأن السبب فى ذلك هو إعلان النمسا الحرب على صربيا . ومن رأى بورتاليس أيضاً أن تغير موقف سازونوف « لم يحدث الا فى ٢٨ يوليه عند ما علم أن الموقف المهدد الذى وقفته الروسيا لم يكف فى منع النمسا عن إعلان الحرب على صربيا . والذى لا ريب فيه هو أن تبدل شعور سازونوف يرجع أولا الى تلك الخطوة التى خطتها وزارة فينا . »

بعد أن تحدث سازونوف الى السفراء واتخذ قراره القاضى بالتعبئة الجزئية على أية حال توجه الى بيترهوف ورفع الى القيصر نبأ إعلان النمسا الحرب وما يراه فى الحـالة العامة . وليس أكيداً ما اذا كان قد حبذ رأى أيانوشكيفتش وهو أن الوقت قد حان للتعبئـة العامة أو أنه كان لا يزال ينصح للقيصر بخطته السابقة القاضية بالتعبئة الجزئية . فانه ليس لدينا ما يثبت ما قاله للقيصر . وأكبر الظن أنه صور الحـالة صورة مظلمة فان النتيجة

الواضحة الوحيدة التى ترتبت على زيارته كانت تلك البرقية التى بعث بها القيصر الى الامبراطور فى ساعة متأخرة من تلك الليلة نفسها وهى التى يقول فيها : «ان حربا دنيئة قد أعلنت على دولة ضعيفة ، وأن السخط الذى أشاطر الروسيا اياه هائل . . . وانى أتنبأ بأنه عما قريب سيغمرنى الضغط الذى يستخدم معى فاضطر الى اتخاذ اجراءات متطرفة تؤدى الى الحرب...» فهل « الضغط » الذى كان القيصر يخشى أن يدهمه كان آتيا من الزعماء العسكريين وحدهم او من حاشيته أو ربما من سازونوف نفسه ؟

رضاء القيصر بالتعبئة الروسية العامة

ان آراء دوبرورلسكى والزعماء العسكريين عن التعبئة الجزئية ونعتهم إياها بأنها جهالة قد قوتها عودة الجنرال دانيلوف . فقد كان يقوم بالتفتيش فى القوقاز ثم استدعى على جناح السرعة الى سان بطرسبورغ فى ٢٦ يوليه فأخذ يستخدم الآن كل نفوذه ليصدر الأمر بالتعبئة العامة بدلا من التعبئة الجزئية . وقد أورد فى مذكراته جميع المصاعب الفنية والسياسية التى تترتب على التعبئة الجزئية فى صورة مستفيضة مقنعة كالصورة التى أوردها بها دوبرورلسكى . . .

فهذه الأسباب الفنية وغيرها جعلت دانيلوف يصر على عقد مجلس عسكرى بحثت فيه الآراء والحجج الموجهة ضد خطة التعبئة الجزئية التى يرجع تاريخها الى ٢٤ و٢٥ يوليه . والراجح أن هذا المجلس انعقد بعد ظهر ٢٨ يوليه أو فى مسائه وحضره أيانوشكيفتش ودوبرورلسكى ودانيلوف ورونزين رئيس مصلحة التشهيلات العسكرية . وقد كان من جراء هذا المجلس أن اقتنع أيانوشكيفتش بأن كل مجهود يجب أن يبذل لاقناع القيصر بالمصادقة على التعبئة العامة . ولما سمع من سازونوف انه ينبغى ألاّ تبطىء التعبئة اكثر مما أبطأت أعد مرسومين أمبراطوريين أحدهما بالتعبئة الجزئية

«والآخر بالتعبئة العامة على أن يستعمل الأول إذا أصر القيصر على الاستمساك بخطة ٢٥ يوليه ، أما موافقته على الثانى فيعمل للحصول عليها ان أمكن. وقد ذهب ايانوشكيفتش وفى حافظته مشروعا الأمرين الى بيترهوف فى صباح ٢٩ يوليه وحصل على توقيع القيصر بالتأكيد على الامر القاضى بالتعبئة العامة دون كبير عناء كما يظهر ، والراجح انه حصل ايضاً على قرار التعبئة الجزئية على ان ينفذ اذا طرأ شيء من التحسن على الحالة السياسية . . .

وعاد ايانوشكيفتش من بيترهوف وفى جيبه الأمر القاضى بالتعبئة العامة موقعاً عليه من القيصر فاستدعى ايجلنج الملحق العسكرى الالمانى ، واخبره انه آت لساعته من عند القيصر لكن كل شيء باق تماما كما شرحه سوخوملينوف من يومين . قال ايجلنج « وقد اقسم لى بشرفه بكيفية متناهية فى الجد وقدم لى تأكيداً كتابياً بانه الى تلك اللحظة : الساعة الثالثة بعد الظهر لم تقم تعبئة فى أى مكان أى لم يدع رجل او يجمع حصان واحد. قال وهو لا يستطيع أن يضمن المستقبل لكنه يطمئننى بأوكد عبارة على أن جلالته لا يزال الآن كما كان من قبل غير راغب فى التعبئة على الميادين المواجهة لحدودنا . » قال لكن هذا البيان أشكل عليه الأمر بالنظر الى التقارير الكثيرة الخاصة بدعوة الاحتياطى وفى جملته احتياطى اقليمى فارصوفيا وفلنا المقابلين لألمانيا . «فرد ايانوشكيفتش بأنه يقسم بشرفه كضابط أن هذه التقارير خطأ وأن المسألة لا تعدو شيئاً من الانزعاج الكاذب هنا وهنا . » وقد اضطر ايجلنج الى أن يستخلص من ذلك أن ايانوشكيفتش حاول تضليله . والمؤرخ يكاد لا يسعه غير هذا الحكم . فأنه بينا ايانوشكيفتش يلتزم حرفية الصدق بقوله ان القيصر لم يرغب فى التعبئة على الجبهة الألمانية ، فقد كان يعرف أن بجيبه أمر القيصر بتعبئة من هذا النوع وانه سيشرع فى تنفيذه بمجرد حصوله على توقيعات الوزراء الثلاثة الآخرين الذين لا بد من توقيعهم . . .

وقد حدث فى آخر لحظة ما غير القرار القاضى بالتعبئة العامة فجأة ،

لـكنه قبل أن نوضح ذلك يجب أن نرجع الطرف لحظة الى ما كان يجرى بين سازونوف والسفراء بينما كان ايانوشكيفتش فى بترهوف ودوبرورلسكى يجمع التوقيعات اللازمة لأمر التعبئة العامة .

حوالى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ٢٩ يوليـه زار بورتاليس سازونوف ليحمل اليـه « تبليغاً طيباً » وهو أن النمسا قد جددت تصريحها بأنها لا تنوى الاستيلاء على شيء من الأراضى الصربية وأن ألمـانيا تجاهد فى حملها على مباحثة الروسيامباحثةصريحة وارضائها فيما يتعلق بالغرض الذى تسعى اليه من وراء مسلـكها مع صربيا والمدى الذى تذهب اليـه . لـكن سازونوف رد بقوله انه ما دام لم يتلق رداً على اقتراحه القاضى « بالمحادثات المباشرة » وما دامت النمسا أعلنت الحرب على صربيا فصدق النمسا قد بات عرضة للشكوك ولذا فقد قررت الروسيا تعبئة الأقاليم العسكرية الكائنة على الحدود النمسوية وسيصدر الأمر فى نفس هذا اليوم ، وهذا لا يعنى الحرب . « فأن الجيش الروسى سيظل تحت السلاح أسابيع بلا ريب قبـل أن يجتاز الحدود . » فأشار بورتاليس الى الخطر الذى ينجم من أن هيئات أركان حرب الدول المجاورة للروسيا قد تلح فى اتخاذ اجراءات مقابلة .

وليس من الضرورى أن يكون سازونوف حين أشعر بورتاليس بأن الروسيا على وشك أن تأمر بالتعبئة الجزئية ضد النمسا وحدها غير مخلص فى قوله لأنه لم يكن قد عرف بعـد ما اذا كان إيانو شكيفتش قد أقنع القيصر بأمضاء التعبئة العامة والجزئية على السواء . لـكنه بعد الغداء ساعة أن حادث السفير البريطانى يصعب أن يقال عنه انه كان صريحاً كل الصراحة حين أفهم بوكانان ان « أمر التعبئة الجزئية قد أمضى اليوم » وانه « تقرر أن لا يصدر أمر بالتعبئة العامة التى كانت السلطات العسكرية توصى بهـا بقوة » . . . فهو على كل قد أعطى بوكانان فكرة معينه عن القرارات الروسية العسكرية لا تتفق والواقع . وغرضه بلا ريب واضح : فقد كان يرغب فى تجنب إزعاج

الرأى البريطانى العام وفقد عطفه ولذلك قرن تبليغه الخاص بالتعبئة الجزئية بقوله إن التعبئة ستستغرق أسبوعا أو أكثر وأن الروسيا لن تستعجل الحرب باجتيازها الحدود عاجلا ثم أعرب عن أمله فى أن تستطيع انجلتره فى تلك الأثناء الاهتداء الى حل سلمى مرض .

وقد قابل بورتاليس سازونوف فى عصر ذلك اليوم مرة أخرى وكان سازونوف قد أرسل فى طلبه ليقص عليه النبأ الذى تلقاه من السفير الروسى فى فينا بأن برشتولد قد رد على ما طلبه من « محادثات مباشرة » « بالرفض البات » . ولذا فقد رغب سازونوف الذى كان « يتعلق بكل قشة » فى العودة الى مقترح غراى الخاص بمؤتمر السفراء . وقد قال له بورتاليس مع ذلك انه لا يعرف رأى حكومته فى هذا لكنه « لا يسعه الا أن يشعر بأن أمر التعبئة الروسية ، إذا كانت حقيقة وشيكة الوقوع ، غلطة كبيرة . . . ولم ينكر سازونوف قرب وقوع التعبئة لكنه قال ان النمسا هى التى أرغمت الروسيا على اتخاذ هذا الاجراء . ومع ذلك فالتعبئة ليس معناها الحرب . »

واستقبل سازونوف بعد ذلك السفير النمسوى الذى جاء « ليزيل سوء فهم واضح » فقد كان تلقى ساعتئذ برقية برشتولد التى يرفض فيها البحث فى نص البلاغ النمسوى النهائى فكان عليه أن يبلغ أن النمسا تكره أن تجرى محادثات مباشرة فى هذا الموضوع لكنها على تمام الاستعداد للتحدث على قاعدة أوسع فى شأن العلاقات النمسوية الروسية ، وأن يقول إن النمسا لا تحدوها أية رغبة فى المساس بالمصالح الروسية وانها لا تطلب أرضاً ولا تنوى أن تتعرض لسيادة صربيا .

وقد رد سازونوف بقوله إنه وإن كانت النمسا قد لا تأخذ شيئاً من الأراضى الصربية الا انها مع هذا تعتدى على سيادة صربيا بتخفيضها فى الواقع من شأنها وجعلها بمثابة دولة تابعة . وهذا خليق أن يقلب التوازن الدولى فى البلقان ويضر بالمصالح الروسية تبعاً لذلك . وتلت مناقشة طويلة

على غير جدوى فى حلقة مفرغة . وأخيراً قال سازونوف : « ان مرسوماً بالتعبئة فى نطاق واسع نوعاً ما سيمضى اليوم لكنه يستطيع أن يؤكد لى بأعظم صفة رسمية انهم لا يريدون أن تهاجمنا جنودهم فهى ستقف فقط بسلاحها على قدم الاستعداد للدفاع عن مصالح الروسيا فى البلقان اذا تعرضت للخطر . وستؤكد ذلك مذكرة تفسيرية » (لم تصدرمع ذلك مذكرة من هذا القبيل .) .

كان سازونوف يجتهد فى إلقاء مسئولية هذا الأمر على السلطات العسكرية وحدها كما يقول تساباري فى تقريره فأنه لما ذكر تساباري انه سمع أن الروسيا تولاها الانزعاج من تعبئة النمسا لثمانية فيالق ضد صربيا أكد له سازونوف « انه لم يكن وهو يجهل هذا هو الذى أظهر هذا الانزعاج بل القيصر نيقولا وذلك بناء على ما تلقاه من رئيس هيئة أركان الحرب . » وعندئذ أبان تساباري « انه حتى الأطفال فى الشئون العسكرية كان ينبغى أن يروا أن تعبئة النمسا صوب الجنوب لا يمكن أن تهدد الروسيا . ثم حث على وجوب وضع حد سريع لأعمال السلطات العسكرية اذا كان لا بد من المحافظة على السلام . ذلك أن تلك السلطات تهدد بتولى الأمور بنفسها بناء على ما تتلقاه من الأنباء الكاذبة . » وقد أبدى سازونوف فى صورة ذات دلالة انه يسعه أن يقول ذلك لرئيس هيئة أركان الحرب لأنه يرى جلالته كل يوم . أما هو فمع هذا الظرف الحاضر لم يذهب لمقابلة القيصر الا يوم الثلاثاء كالمعتاد ، وعندئذ علم لأول مرة من جلالته ما يلح به العسكريون عليه . »

ومضى تساباري يقول : « وبينا نحن مشغولون نتبادل الرأى بهذه الصورة الخاصة تلقى سازونوف بالتليفون أننا ضربنا بلغراد بالقنابل فخال شخصاً آخر وعاد الى حججه السابقة يفيض بها فيضاً يتنافى مع المنطق ثم قال الآن قد رأى أن القيصر كان محقاً ، فأنتم لا تبغون بالمفاوضات إلا كسب الوقت لكنكم تنطلقون فتطلقون القنابل على مدينة عزلاء ! » ثم مضى ينحى باللائمة

على النمسا وهو أشد ما يكون انفعالا . وعندئذ استأذن تساباری فى الانصراف

وعقب هذه المقابلة بقليل بينا كان سازونوف لايزال على انفعاله الشديد جاء بورتاليس بين السادسة والسابعة الى وزارة الخارجية الروسية لينفذ تعليمات تلقاها لساعته من برلين . فأن بيتمان كان قد أزعجته الاشاعات التى راجت بأن الروسيا تتخذ استعدادات عسكرية واسعة النطاق — لاقرار التعبئة الروسية الجزئية الذى لم يعلم به إلا بعـــد ذلك بقليل — فأبرق الى بورتاليس بأن « الفت نظر المسيو سازونوف بلطف الى أن مضى الروسيا فى إجراءات التعبئة الى أبعد من ذلك يضطرنا الى التعبئة وفى هذه الحالة يندر أن تمنع الحرب الأوربية . »

وقد قال بورتاليس حين افضائه بذلك الى سازونوف : « إن هذا لاينطوى على التهديد وانما هو رأى ودى فقط » لكن سازونوف تلقى هذا البيان « وهو فى حالة انفعال شديد » وقال انه سيبلغه الى القيصر . ومع ذلك فقد فسر سازونوف التبليغ فيما يظهر بأنه تهديد ورد بحدة قائلا : « الآن لم يعد يخامرنى شك فى السبب الحقيقى لعناد النمسا . » فوثب بورتاليس من مقعده محتجاً وافترق الاثنان على جفاء .

وأبلغ سازونوف القيصر على الأثر تليفونياً ماتلقاه من تبليغ بورتاليس فكلفه القيصر أن يبحث فى الحال مسألة التعبئة العامة مع ايانوشكيفتش وسوخوملينوف بينما بعث هو الى الأمبراطور بالبرق يقول : « أشكرك على برقيتك المنطوية على المسالمة والود . أما الرسالة الرسمية التى بلغها سفيرك لوزيرى فقد نقلت بلهجة تختلف جداً (عن لهجة برقيتك) أرجوك أن توضح لى هذا التنافر . هـذا وأنه ليكون من الصواب أن تحال المشكلة النمسوية الصربية على مؤتمر لاهاى . وانى واثق بحكمتك وصداقتك »

لقد جاء نبأ ضرب بلغراد بالقنابل يتلوه انذار بورتاليس قاضياً على كل شك لدى سازونوف فى ضرورة التعبئة العامة عاجلا. وقد وافق أثناء البحث

الذى دار بينه وبين إيانوشكيفتش على أنه ما دامت الحرب مع ألمانيا أصبحت فى الراجح لا مفر منها فأنه ليكونن من الخطأ تأجيل التعبئة العامة أكثر من ذلك أو التعرض لتنفيذها بنجاح بالأمر بالتعبئة الجزئية . وقد أبلغ هذا القرار « تليفونياً الى القيصر الذى أذن باتخاذ الاجراءات المطابقة لذلك ، وقوبل أيضاً على قول البارون شيلنج « من الفئة القليلة التى كانت ملمة بما كان يجرى بالتحمس . »

فى تلك الأثناء كان دوبرورلسكى قد جمع الامضاءات الثلاث اللازمة وذهب الى مصلحة التلغرافات لأذاعة أمر التعبئة العامة . وبعث سازونوف الى سفيرى الروسيا فى باريس ولندن برقية . . . جاء فيها [بعد الاشارة الى انذار ألمانيا وموقف النمسا] « إننا ما دمنا لا نستطيع إجابة ألمانيا الى رغباتها فليس أمامنا إلا أن نعجل بتسليحاتنا وأن نرى أن الحرب لا مفر منها فى الراجح . » . . .

ولقد كان ضغط العسكريين الروسيين لا انذار بورتاليس هو السبب فى الغالب فى أذاعة أمر التعبئة العامة ، وإذ ذاك غير القيصر رأيه .

إلغاء القيصر لامر التعبئة العامة

فى الساعة التاسعة والدقيقة الأربعين تلقى نيقولا الثانى فى بيترهوف برقية ثانية من الأمبراطور . وكان غليوم الثانى يصر فى هذه البرقية على أن « وعود صربيا » المحبرة على الورق لا يعتمد عليها بتاتاً . وقد أنذر القيصر باللهجة المؤثرة التى طالما كانت فى الماضى وسيلة ناجعة مع القيصر فقال :

انه من الممكن كل الامكان للروسيا أن تقف موقف المتفرج بأزاء النزاع النمسوى الصربى دون أن تجر أوربا الى أبشع حرب شهدتها الى الآن . وأظن أن التفاهم المباشر بين حكومتكم وفينا ممكن ومرغوب فيه وحكومتى كما أبرقت اليك جادة فى التشجيع عليه ؛ ومن المعلوم أن

الاجراءات العسكرية التى تتخذها الروسيا وتراها النمسا مهددة ستعجل بنكبة ، يرغب كلانا فى تجنبها ، وتحرج مركزى كوسيط . وهو ما قبلت أن أكونه بارتياح بعد إذ ناشدتنى الصداقة والمعونة .

والظاهر أن الأمبراطور كان يقدر تقديراً صحيحاً تأثير هـذه اللهجة فى « نيكى » الضعيف السريع التأثر ، لأن القيصر بعد انعام النظر فى الحالة أخذ يفكر فى أنه أخطأ بامضائه مرسوم التعبئة العامة وهكذا قرر فى الحال ومن تلقاء نفسه أن يلغى أمر التعبئة العامة وأن يستبدل بها التعبئة الجزئية التى هى فى الظاهر أقل خطراً .

لذلك طلب القيصر ايانوشكيفتش ودارت محادثة تليفونية ثلاثية بين القيصر وسوخوملينوف وايانوشيكيفتش حاول فى أثنائها الرجلان العسكريان اقناع القيصر بأنه يرتكب غلطة فظيعة وأنه ليس ما يضمن نجاح توسط الامبراطور لدى فينا ، وأنه واضح من مسلك ألمانيا والنمسا أن لا مفر من الحرب العامة ، وأن وقف التعبئة العامة يتيح للعدو فرصة لسبق الروسيا فى التعبئة . لكن القيصر ظل لهذه المرة ثابتاً ووجد ايانوشكيفتش نفسه مضطراً فى يأسه الى استدعاء دوبرورلسكى من مصلحة التلغرافات حيث كان على وشك أن يذيع أمر التعبئة العامة . فأذيع بدلا منها فى منتصف ليلة ٢٩ يوليه أمر التعبئة الجزئية .

ولقد أبلغ ايانوشيكيفتش سازونوف على الأثر تغيير القيصر لرأيه وإحلال التعبئة الجزئية محل التعبئة العامة . وكان سازونوف قد بعث أحد سكرتيريه وهو المسيو باسيلى الى باليلوج يبلغه أنه تقرر إصدار الأوامر فى نفس هذه الليلة بالتعبئة الجزئية على أن يبدأ سراً بالتعبة العامة . ويقول باليلوج أنه علم بهذا الخبر وانه قال: أليس ممكنا فى اللحظة الراهنة الاكتفاء بالتعبئة الجزئية ؟ قال باسيلى « لا . فالمسألة قد فرغت الآن سلطاتنا العسكرية العليا من درسها درساً تاماً » .

وارتأى باسيلي بعدئذ انه خير أن يشعر باليلوج حكومته بهذا الخبر السرى جداً ببرقية ترسل بالشفرة الروسية عن طريق وزارة الخارجية الروسية الى ايزفولسكى حتى يتفادى من امكان حل الألمان للشفرة الفرنسية فى برقية فرنسية. فقبل باليلوج هذا الرأى لكنه قبل أن توضع البرقية بالشفرة تلقى هو وباسيلي خبر تغيير القيصر لرأيه. وهكذا لم يحط باليلوج حكومته بالقرار الخطير الخاص بالتعبئة العامة والذى كانت الروسيا على وشك أن تأمر به. وكل ما فعله هو أنه اعاد حكاية الانذار الآتى من بورتاليس وقال ان اللهجة التى بلغ بها « حملت الحكومة الروسية فى الحال على الأمر بتعبئة ثلاثة عشر فيلقاً ينوى توجيهها ضد النمسا والمجر. »

وقد جرى لسازونوف بعد منتصف الليل حديث طويل مع بورتاليس تجدد فى خلاله الخلاف بين وجهتى نظر الروسيا وألمانيا بصورة أوضح من ذى قبل. فقد طلب سازونوف من ألمانيا أن تضغط على النمسا لتسقط من بلاغها النهائى المطالب التى تنتهك سيادة صربيا قائلا ان مصالح الروسيا الحيوية لا يمكن أن تسمح بأن تخفض صربيا إلى مرتبة الدولة التابعة للنمسا وأن « تصبح بخارى أخرى » بقبولها المطالب التى تنتهك حقوق سيادتها. وطلب بورتاليس من ناحيته أن ترضى الروسيا تصريح النمسا بأنها مستعدة لاحترام سلامة أراضى صربيا. فلم يقبل كلاهما أن يذعن للآخر. وقد نوه بورتاليس بأن ألمانيا ذهبت بعيداً فى الضغط على فينا، وأن الحالة الآن قد باتت أكثر تعقداً من ذى قبل بكثير من جراء تقرير الروسيا الأمر بالتعبئة بيد أن سازونوف أبى أن يرضى بمجرد تصريح من النمسا بأنها لا مطمع لها فى أراضى صربيا. وقد اتخذ اصرار سازونوف على مسألة السيادة الصربية مظهراً أشد قبل ظهر يوم ٣٠ يوليه عندما رجاه بورتاليس أخيراً أن يضع صيغة كتابية ترضى الروسيا ويكون هنالك على الأقل أمل فى أن تصبح حلا موفقاً فكتب سازونوف « الصيغة » الآتية :

إذا سلمت النمسا بأن المسألة النمسوية الصربية قد اتخذت صيغة المسألة التى تهم أوربا فأعلنت انها مستعدة لأن تستبعد من بلاغها النهائى النقط التى تنتهك حقوق السيادة الصربية فان النمســـا تتعهد بوقف استعداداتها العسكرية .

هذه « الصيغة » لم تدل مع ذلك على أى تساهل من جانب سازونوف اللهم إلا كونها لم تطلب وقف الاجراءات النمسوية المتخذة ضد صربيا عاجلا . كما أنه لم يكن ينتظر أن توافق عليها النمسا حتى بعد أن عدلت وفاقا لرأى السير ادوارد غراى كيما تنص على احتلال النمسا لبلغراد وعلى تدخل الدول العظمى . لكنه لا الصيغة الأصلية ولا الصيغة المعدلة كان يرجى لها شيء من النجاح بصفة جدية ، فقد اكتسحها مجرى الحوادث الناشئة من ضغط العسكريين وخاصة لأنه بعد أن وضع سازونوف صيغته ببضع ساعات كان القيصر قد غير رأيه ووافق نهائياً على التعبئة العامة .

الامر بالتعبئة الروسية العامة

لقد كان الذعر واليأس قد توليا رئيس هيئة أركان الحرب الروسية ووزير الحربية لما أن أرغمهما القيصر على الغاء أمر التعبئة العامة فى ليل ٢٩ يوليه . لكنهما صمما على ألا يهدءا حتى يحملاه على تغيير رأيه مرة أخرى والموافقة من جديد على التعبئة العامة التى كانا يعتبرانها مما لا غنى عنه . فى ٣٠ يوليه تباحثا مع سازونوف فألفياه متفقاً معهما كل الاتفاق . فطلبا القيصر إلى التليفون واجتهدا فى اقناعه بالرجوع الى قراره الذى اتخذه فى اليوم السابق وبالسماح بالبدء بالتعبئة العامة . فرفض القيصر طلبهما أولا فى عزم ثم أعلن أخيراً فى ايجاز أنه سيقطع الحديث . وكان أيانوشكيفتش ممسكا بالسماعة فلم يستطع إلا أن يخبره بأن سازونوف معهما أيضاً ورجا القيصر أن يسمح له بأن

يقول له كلمة . وتلا ذلك فترة صمت رضى القيصر بعدها بأن يصغى . فرجا سازونوف جلالته أن يأذن له بمقابلته فى الحال ليرفع اليه شيئاً لا يحتمل التأخير . وبعد برهة أخرى ساد فيها الصمت سأله القيصر : « أترى بأساً فى أن استقبلك فى وقت واحد مع تاتيشيف فى الساعة الثالثة لأنى لا أملك من وقتى اليوم دقيقة فراغ واحدة . » فشكر سازونوف القيصر وقال انه سيصل فى الموعد المضروب .

عندئذ ناشد ايانوشكيفتش سازونوف بأن يفرغ قصاراه فى الحصول على موافقة القيصر من جديد على التعبئة العامة . وكرر عليه حججه الفنية ثم ارتأى كوسيلة أخرى للضغط على القيصر أن يستخدم سازونوف معه حجة سياسية هى : أن فرنسا حليفة الروسيا ستستاء وتعتبر الروسيا غير قائمة بواجباتها التى تفرضها عليهـا المحالفة ، وأن الأمبراطور قد يستدرج فرنسا الى الوعد بالوقوف على الحياد وعندئذ ينقض على الروسيا بينما تكون هذه مرتبكة فى تعبئتها الجزئية . وأخيراً رجا سازونوف أن يبلغه النتيجة تليفونياً من بيترهوف فى اللحظة التى ينجح فيهـا فى اقناع القيصر ليستطيع اتخاذ الاجراءات اللازمة على عجل وليحول التعبئة الجزئية إلى تعبئة عامة قبل أن يفوت الآوان . ثم زاد رئيس هيئة أركان الحرب : « بعد ذلك سأختفى عن الأنظار وأحطم آلة التليفون واتخذ كل الاجراءات على وجه العموم حتى لا يهتدى إلىّ أحد ليحملنى على اعطاء أوامر مناقضة تتأجل بهـا التعبئة العامة من جديد . »

وقد وافق سازونوف على ذلك كل الموافقة وخاطب ايانوشكيفتش دوبرورولسكى تليفونياً بقوله : « إن ثمة املا فى تحسن الحالة فكن على استعداد للمجىء إلىّ ومعك كل الوثائق بمجرد ما أدعوك تليفونياً بعدالظهر »

وحادث سازونوف إذ ذاك بوكانان وباليلوج وحدثهما عن اجتماع له بيورتاليس « تولى الهم فيه السفير الألمانى لما ان رأى ان الحرب واقعة

لا محالة ، وناشد سازونوف ان يفتح الباب لآخر أمل ويقترح شيئاً يمكن لبورتاليس ان يبرق به الى حكومته . » على اثر ذلك وضع سازونوف « الصيغة » الآنفة الذكر . وقال سازونوف عندئذ للسفيرين ما معناه انه اذا رفضت النمسا هذا الاقتراح ستجرى الاستعدادات للتعبئة العامة وتصبح الحرب الأوربية لامفر منها . والروسيا لدواع خططية يصعب أن تؤجل تحويل التعبئة الجزئية الى تعبئة عامة خاصة وهى تعلم ان ألمانيا تستعد والهياج فى البلاد قد وصل الى حد لا نستطيع عنده الروسيا أن تتراجع إذا لم تتساهل النمسا .

والواضح ان بوكانان لم يبذل أى مجهود لمنع سازونوف من تحقيق مايرمى اليه من تحويل التعبئة الجزئية الى تعبئة عامة . وعدم قيامه بذلك لابد ان يكون قد شجع الوزير الروسى .

وكان باليلوج وقت هذا الحديث قد تلق من فيفيانى رسالة يعيد فيها ان فرنسا مستعدة لتأدية واجباتها التى تفرضها المحالفة لكنه يكلفه بأن ينصح لسازونوف بتجنب الاجراءات العسكريه التى يمكن أن تتيح لألمانيا حجة للتعبئة . وقد ابرق باليلوج يرد بأنه قام بما كلف به . . .

وتوجه سازونوف الى بيترهوف ومعه تاتيشيف فألفى القيصر ممتقع اللون عصبى المزاج شاعراً كل الشعور بخطورة المسئولية الملقاة على عاتقه وهى خطورة مخيفة . قال القيصر : « فكر فى التعبئة التى تنصح لى بتحملها ! فكر فى الآلاف المؤلفة من الرجال الذين سيوجهون الى حيث يلقون حتفهم » فرد سازونوف مجتهداً فى أن يثبت له انه لن يكون هنالك ما يؤنبه ضميره عليه اذا نشبت الحرب لأنها أصبحت لا مفر منها كما هو جلى واضح . أما السياسة فقد أدت مهمتها . والوقت الآن قد حان لأن يفكر جلالته فى سلامة أمبراطوريته فاذا لم يأمر بالتعبئة العامة تعطل نظام الروسيا العسكرى بأسره واستاء حلفاء الروسيا . قال « لم يبق الا أن نعمل كل ما هو ضرورى لمواجهة

الحرب تامى العدة وفى أكثر الظروف صلاحية لنا . لذلك كان خيراً أن نثير بلا خوف حرباً باستعداداتنا لها وبالمضى فى هذه الاستعدادات بعناية ، من أن نوجد سبباً للحرب بخوفنا فتأخذنا على غرة . . » .

وقد ظل القيصر نحو ساعة ورغبته الأكيدة فى تجنب الحرب مهما كلفه ذلك تنزع به الى التردد فى اتخاذ اجراءات مهما كانت لازمة من الوجهة العسكرية فقد كان يراد بها كما تبين ذلك ، التعجيل بالكارثة . وقد دل على شدة الحالة التى كانت ملمة بشعوره فى غضون تلك الفترة أشياء منها إنفعاله الذى لم يعتده حين نهر الجنرال تاتيشيف . فقد لاحظ هذا الأخير فى فترة سكوت وكان لم يأخذ فى الحديث بنصيب أن : « أجل أن من الصعب اتخاذ قرار . » فرد عليه القيصر بلهجة تدل على الحدة والاستياء « بلى ! سأقرر . » وكان قراره بالتعبئة العامة فى الحال . عندئذ هرول سازونوف الى التليفون الكائن بالطابق الأرضى بالقصر وأبلغ إيانوشكيفتش ما جرى وكان ينتظر بفارغ الصبر ثم قال له : « الآن حطم تليفونك ان شئت . اصدر أوامرك يا جنرال ثم — توار بقية النهار عن الانظار » .

ودعا إيانو شكيفتش دوبرورولسكى على الأثر . وجمع هذا الامضاءات الثلاث اللازمة من الوزراء الذين كانوا فى تلك اللحظة مجتمعين فى جلسة فوق العادة . وقد رتب الأمر القاضى بالتعبئة بحيث يكون أول يوم فى التعبئة العامة هو ٣١ يوليه .

فماذا كانت الأسباب التى حملت على اتخاذ هذا القرار المشئوم بالتعبئة العامة ؟ . لقـــد زعمت دول الوفاق سعياً وراء تسويغها والتماس العذر لها أسباباً مختلفة ليست على شيء من الحقيقة .

ومن هذه الحكايات أن القرار الروسى بالتعبئة اتخذ على أثر برقية من سفربيف السفير الروسى فى برلين يقول فيها : « ان أمر تعبئة الجيش والأسطول الألمانيين صدر ولما يكد . » وكان الذى حمله على هذا ما نشر فى هذا المعنى بعد الساعة الواحدة فى « ملحق » صحيفة لوكال انتسايجر البرلينيه . وقد قيل

إن الألمان قصدوا بهذا الى الخديعة ليعجلوا بالتعبئة العامة فى الروسيا وبذا يظهرونها بمظهر المعتدى . بيد أن وزارة الخارجية الألمانية كذبت هذا الخبر على الفور وصادرت « الملحق » ومن ثم بعث السفير الروسى على جناح السرعة برقية ثانية غير رمزية يلغى بها البرقية الأولى ثم قفاها بثالثة بالشفرة أوضح فيهما الظروف . وقد تقرر فى صورة جازمة أنه لم يصل من هذه البرقيات شىء الى بطرسبورغ الا بعد أن كان القيصر قد اتخذ قراره . وعلى ذلك لم يمكن أن يكون لها تأثير فى اتخاذه . وسازونوف أو أى من ولاة الأمور الروسيين فى ذلك الحين من يوليه ١٩١٤ لم يزعم أن قصة لوكال انتسايجر كانت عذراً من التعبئة الروسية العامة . فقد أختلق هذا الزعم فيما بعد واذاعه السير ادوارد غراى فى سنة ١٩١٦ .

وسبب آخر زعمه السفير الفرنسى فى سان بطرسبورغ فى مذكراته التى لا يوثق بها بعض الشىء هو أن القرار كان نتيجة برقية تهديدية من الأمبراطور الألمانى . وتروى هذه الأسطورة « أن سازونوف عندوصوله الى بيترهوف وجد أن القيصر كان قد تلق برقية أرسلت اليه فى الليلة السابقة بلهجة تكاد تكون تهديداً فوقعت من نفسه وقعاً سيئاً جداً . وكانت تفيد « أنه اذا عبأت الروسيا ضد النمسا فدور الوسيط الذى قبلته بناء على توسلاتك يصبح فى خطر ان لم يقض عليه . فخطورة القرار تقع على عاتقك الآن وعليك أن تتحمل تبعة السلم أو الحرب » فلما قرأ سازونوف هذه البرقية غيرمرة ظهرت عليه امارات اليأس والقنوط ومضى يحض القيصر على التعبئة العامة بدعوى أن الحرب باتت أمراً لا مفر منه وان ألمانيا انما تزعم أنها تتوسط لكسب الوقت حتى يتسنى لها اتمام استعداداتها فى السير للهجوم . قال باليلوج : وبعد تردد سلم القيصر كارها وأصدر قراره وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر » . بيد أن هذه البرقية لم يرسلها الأمبراطور الا فى منتصف الرابعة ولم تصل الى بيترهوف الا فى منتصف السابعة . فكان وصولها بعد مضي أكثر من

ساعتين على قرار القيصر وبعد أن أخذ دوبروروولسكى فعلا فى إرسال أمر التعبئة العـامة بالبرق بنصف ساعة فهى على ذلك لا يمكن أن تكون السبب فى تعبئة الروسيا العـامة أكثر مما كان « ملحق » لوكال انتسايجر . فأما أن يكون سازونوف قد حكى لباليلوج حكاية مقابلته للقيصر بمالا يطابق الواقع، وإما ، وهو الأرجح ، أن يكون السفير الفرنسى قد استعان فى ذلك بخياله الجنح .

وثمة سبب ثالث زعموه للتعبئة الروسية العامة وهو أن هذه التعبئة كانت من جراء التعبئة النمسوية العامة وبسبب اجراءات للتعبئة كانت ألمانيا قد اتخذتها ومضت فى اتخاذها فى خلال الستة الأيام الماضية . وقد ظلت هذه الخرافة ذائعة بالصيغة المزورة التى نشرت بهـا فى الكتاب الأصفر الفرنسى البرقية المتأخرة التى أبلغ فيها باليلوج حكومته أخيراً ما اتخذته الروسيا من قرارها المشئوم . والى القارئ الصيغتان الاصلية والمزورة جنباً الى جنب :

النص الاصلى	النص المزور فى الكتاب الفرنسى الأصفر صفحة ١١٨
قد صـدر الأمر بالتعبئة العامة للجيش الروسى	انه نتيجة للتعبئة النمسوية العـامة ولأجراءات التعبئة التى كانت ألمانيا تمضى فيها سراً فى خلال الستة الأيام الأخيرة ، قد صدر الأمر بالتعبئة العامة للجيش الروسى لأنه لا يسع الروسيا دون أن تتعرض لأعظم الأخطار ، أن تسمح لنفسها بأن تسبق أكثر ممـا سبقت . وفى الحق أنها تتخذ فقط الاجراءات

العسكرية المطابقة للاجراءات التى
اتخذتها ألمانيا .
والحكومة الروسية لأسباب
خططية قاهرة ولعلمها أن ألمانيا
كانت تتسلح لم تستطع ان تؤخر
اكثر من ذلك تحويل تعبئتها الجزئية
الى تعبئة عامة .

وتكاد لا تكون هنالك ضرورة — بعد أن سلمت السلطات الفرنسية الآن بأن الجانب الأكبر من هذه الوثيقة الواردة فى الكتاب الفرنسى الأصفر كان محض اختلاق — نقول تكاد أن لا تكون هنالك ضرورة بعد هذا لأن نورد أن التعبئة النمسوية العامة لم يؤمر بها إلا بعد التعبئة الروسية العامة بثمانى عشرة ساعة وأنه لاصحة للقول بأن ألمانيا كانت تتخذ الاجراءات للتعبئة سراً فى خلال ستة أيام . وكون موظفى وزارة الخارجية الفرنسية الذين أنشأوا الكتاب الأصفر فى سنة ١٩١٤ قد رأو أن الضرورة تقضى بالالتجاء الى مثل التشويه المتعمد للحقيقة ، يُرى أنهم كانوا شاعرين بشؤم ما أقدمت عليه الروسيا ويدل على مبلغ التبعة الكبيرة الملقاة على عاتق باليلوج وفرنسا عنه ولذا سعوا الى التماس العذر له وتبريره بتزوير الوثائق . والآن نتساءل:

هل قوى من تصميم سازونوف على اقناع القيصر بأصدار أمر التعبئة العامة ما جرى له قبيل ذهابه الى بيترهوف من حديث مع بوكانان وباليلوج وما تلقاه من برقية ايزفولسكى ؟ أو أن هذا الحديث وتلك البرقية كما يرى المسيو رينوفان فى حنق حملاه فقط عند عودته من بيترهوف بعد حصوله على أمر التعبئة العامة على إبلاغ باليلوج وهو يقتضب الحقيقة اقتضابا يكاد لا يتفق والمألوف من حليف حيال حليفه ، أن الحكومة الروسية مصممة على البدء سراً بالاجراءات الأولية للتعبئة العامة . وليس يسع أحداً أن

يعلم من هذه الجملة الغامضة علم اليقين أن الحكومة الروسية أمرت فعلا بالتعبئة الكاملة . وما يزعمه رينوفان وبوانكاريه هو أن الوزارة فى باريس لم تكن تعلم بالتعبئة الروسية العامة على قدر ما اتصل بها من باليلوج إلا بعد مرور أكثر من يوم كامل على صدور الأمر بها ، وبعبارة أخرى إلا بعد وصول البرقية التى بعث بها باليلوج فى الساعة العاشرة والدقيقة ٤٣ من صباح ٣١ يوليه عن طريق برجن ووصلت فى منتصف الساعة التاسعة مساء .

واذا كان رينوفان وبوانكاريه على حق فأن برقية باليلوج تكون هى التى خدعت حكومته . فمن المسئول عن هذه الخديعة ؟ هل ضلل سازونوف باليلوج فنقل هـذا ذلك التضليل الى باريس فى بساطة ؟ أو كان باليلوج يعلم الحقيقة من سازونوف أو غيره فأخفى عن باريس الواقعة الظاهرة فى أن أمر التعبئة العامة أرسل بالبرق قبل أن يرسل هو رسالته الغامضة بثلاث ساعات ؟ إنه لا يسع أحداً أن يجزم فى هـذا الأمر بشىء ، فالمسيو رينوفان ينسب هذه الخديعة الى سازونوف . بيد أن إحدى برقيات بوكانان تحمل المرء على الظن بأن الذى خدع قد يكون باليلوج ؛ أى أن السفير الفرنسى كان يلم بمعلومات هامة أخفاها عن حكومته . فأن الظاهر أن بوكانان أبرق فى الساعة السادسة والدقيقة ٤٠ من مساء يوم ٣٠ يوليه بما يطابق الواقع ولا يحتمل الابهام يقول : « إنه تقرر إصدار الأوامر بالتعبئة العامة . » ولما كان بوكانان وباليلوج على اتصال وثيق دائم أحدهما بالآخر أفليس من المحتمل جداً ان باليلوج كان كبوكانان يعلم عقيب الساعة السادسة من مساء يوم ٣٠ يوليه ان التعبئة العامة تقررت ؟ واذا كان هذا هكذا أفما كان ينبغى ان يبعث بهذا المعنى رسالة واضحة لا ابهام فيها بدلا من رسالته التى ضللت حكومته فى باريس . ان الدور الذى لعبه باليلوج خلال أزمة يوليه مسألة من المسائل التى هى أحوج ما تكون الى الجلاء بنشر الوثائق الفرنسية نشراً كاملا يدعو الى الارتياح .

وأذن ڤليس « ملحق » اللوكال انتسايجر ولا برقية الامبراطور ولا التعبئة النمسوية بالذى يمكن ان يفسر أو يسوغ التعبئة الروسية العامة . ومبلغ ما كان لبوكاثان وباليلوج على سازونوف فى يوم ٣٠ يوليه من تأثير ليس موقنا به . وقد سبب التعبئة الروسية العامة ان سازونوف والضباط العسكريين كانوا فى ٣٠ يوليه يرون نفس ما كانوا يرونه فى مساء ٢٩ يوليه يوم كانوا سيذيعون أمر التعبئة العامة لولم يغير القيصر رأيه . ولم تكن الحالة قد تغيرت تغيرا جوهرياً فى تلك الاثناء خلا ان التعبئة الجزئية التى كانت قد سبق أن صدر الأمر بها فى ليل ٢٩ يوليه جعلت السلطات العسكرية تطالب بأشد من إلحاحها السابق بالتعبئة العامة عاجلا لأن اعتبارات فنية عسكرية تقتضيها .

الفصل الحادى عشر

التعبئة وإعلان الحرب من نواح أخرى

لقد أغفلنا ذكر الحوادث التى وقعت فى عواصم أوربا الأخرى ونحن نتتبع الاجراءات الديبلوماتيكية والعسكرية التى اتخذت فى الروسيا الى حين صدور الأمر بالتعبئة العامة بعد ظهر يوم ٣٠ يوليه . فقد كان الأمل فى السلم والخوف من الحرب الوشيكة الوقوع قد وقفا السياسيين وولاة الأمور العسكريين فى باريس ولندن وبرلين أيضاً وجها لوجه : هؤلاء بنشاطهم يقفون من أولئك بضغطهم موقف المعارضة . الاولون دائبون على العمل لانقاذ الموقف او على الاقل ، اذا تعذر ذلك ، لأظهار أنفسهم وحلفائهم بمظهر الذين لا يحملون التعبئة عن الكارثة المنتظرة ، والآخرون يلحون فى المطالبة باجراءات عسكرية يرون ألاّ محيص عنها للاستفادة من الوجهة الخططية فى الحرب التى كانوا يزدادون على مر الأيام اقتناعا بانها واقعة لا محالة .

فرنسا والأنسحاب عشرة كيلومترات

وصل الرئيس بوانكاريه والمسيو فيفيانى الى باريس عند الظهر بعد نزولهما فى دنكرك فى صباح ٢٩ يوليه . فأبلغا على عجل ما اتخذ من الاجراءات العسكرية على سبيل الاحتياط وتوقعاً للحرب . وهى احتياطات كانت الوزارة والمسيو مسيمى وزير الحربية يتخذانها فى غيبتهما منذ مساء ٢٥ يوليه . وكانت هذه الاجراءات تشتمل على عودة الجنود من تمريناتها الى معسكراتها الدائمة واستدعاء الضباط من اجازاتهم والعمل على نقل ما يمكن نقله من الجنود

الموجودة فى مراكش. فصادق الرئيس والمسيو فيفيانى على كل هذه الاجراءات. وقد علما أيضاً باضراق النمسا على موقفها المنطوى على العناد وبأعلانها الحرب، وما كان يبدو من تأييد ألمانيا للنمسا كل التأييد، والزيارات المختلفة التي أداها السفير الألمانى لوزارة الخارجية الفرنسية فلم تبعث على الثقة برغبة ألمانيا فى السلام؛ علماً بكراهة السير ادوارد غراى لأن يورط نفسه بصورة معينة فيما يتعلق بمسلك انجلترا فى المستقبل، وباعلان سازونوف أن الروسيا على وشك أن تأمر بالتعبئة الجزئية. ويقول بوانكاريه إنه فى اجتماع للوزارة بعد الظهر ألفى الوزراء جميعاً متحدين عاقدين الخناصر على أن يفعلوا المستحيل لتجنب الحرب وألا يهملوا أيضاً أى استعداد للدفاع .

فى ساعة متأخرة من الليل أو بالحرى بين الثانية والثالثة من صباح ٣٠ يوليه أبلغ ايزفولسكى وزير الخارجية الفرنسية ووزير الحربية برقية على أعظم جانب من الأهمية تدل على قرب وقوع الحرب وكان قد تلقاها من سان بطرسبورغ ولما يكد. وفيها يقول سازونوف: «لما كنا لا يسعنا أن نجيب ألمانيا الى رغبتها (وهى أن تكف الروسيا عن استعداداتها العسكرية) فليس أمامنا الا أن نعجل بتسلحنا وأن نعتبر الحرب وشيكة الوقوع» وبعد ان أعرب عن امتنانه من تصريح باليلوج بتأييد فرنسا التام «وهو الذى له قيمة خاصة لنا فى الظروف الحاضرة». قال: «ومن المرغوب فيه جداً أن تنضم انجلترة أيضاً دون اضاعة الوقت الى فرنسا والروسيا لأنه بهذه الطريقة وحدها يسعها أن تحول دون اختلال التوازن الأوربى الأول بصورة خطرة».

وقد اجتمع فيفيانى ومسيمى على الأثر بيوانكاريه فى قصر الأليزة وكان قد آوى الى فراشه. وهناك صادقوا على برقية من فيفيانى الى باليلوج أبلغت فى الحال الى ايزفولسكى ووضعت بالرموز ثم أرسلت الى سان بطرسبورغ ولندن فى الساعة السابعة من صباح ٣٠ يوليه... وقد جاء فيها بعد الاشارة الى برقية فيفيانى التي أرسلها من الطرادة فرنسا فى ٢٧ يوليه:

ان فرنسا مصممة مع ذلك على القيام بواجبات المحالفة . لكنى أرى فى مصلحة السلام العام وللمحادثات القائمة بين الدول التى هى أقل من غيرها مصلحة أن من المناسب فيما يتعلق بالاحتياطات والاجراءات الدفاعية التى تعتقد الروسيا أن من الضرورى أن تتخذها ، أن لا تتخذ عاجلا اى إجراء يمكن أن تتذرع به ألمانيا لتعبئة قواها تعبئة تامة أو جزئية.

أما ما كانت الحكومة الفرنسية تضمره فكان أكثر وضوحا فى برقية أخرى بادر ايزفولسكى بأرسالها الى سازونوف :

لقد أخبرنى مارجرى الذى رأيته الساعة بأن الحكومة الفرنسية ، دون أن تكون لديها رغبة التدخل فى استعداداتنا العسكرية ترى أن من المرغوب فيه جداً بالنظر الى المفاوضات التى لا تزال قائمة من أجل السلام أن تجرى هذه الاستعدادات بأقل ما يمكن من العلانية والاستفزاز وقد أخبر وزير الحربية من جانبه ، وهو يعرب عن نفس الفكرة ، الكونت ايجناتييف [الملحق العسكرى الروسى فى باريس] ان فى استطاعتنا أن نعلن اننا فى مصلحه السلم العليا راغبون فى تخفيف اجراءتنا المتعلقة بالتعبئة بصفة مؤقتة وهو ما لا يمنعنا من المضى فى استعداداتنا العسكرية بل وتقويتها أيضاً بينما نتحاشى على قدر الامكان نقل جنودنا جماعات كبيرة.

من هاتين البرقيتين يلوح أن الحكومة الفرنسية كانت تتوق الى أن لا تعجل الروسيا بالحرب الأوروبيـــة بل أن تستمر على اتخاذ اجراءاتها استعداداً لها مادام قد بدا انه لا مفر منها. ولا بد أن بوانكاريه كان شاعراً بأن تجديده الوعد بالمساعدة التامة كان قميناً أن يشجع الروسيا على تحدى ألمانيا وأن يؤدى هذا الى الحرب ... ولما كان كما يظهر يعتقد أن الحرب واقعة لا محالة ويذكر غلطة فرنسا فى أنها كانت المعتدية رسمياً فى حرب السبعين فلم يكن ينتوى أن ترتكب فرنسا نفس الغلطة فى سنة ١٩١٤ فعلى الروسيا وفرنسا أن تنتظرا حتى تبدأ ألمانيا فتبوء على ذلك بعار المسئولية. وقد أثبتت الحوادث فطنته لأن بيتمان سرعان ما ارتكب باعلانه الحرب

الغلطة الرسمية التى ارتكبها أوليفييه فى سنة ١٨٧٠ . لذلك ينبغى على الروسيا فى الوقت الحاضر حيث لاتزال المفاوضات الديبلوماتيكية قائمة أن تخفى على قدر الاستطاعة « الاحتياطات والاجراءات الدفاعية التى ترى أن من الضرورى اتخاذها . »

ولو أن الرئيس بوانكاريه أبدى شيئاً من شدته المألوفة وجلائه المعهود — لو انه قال للروسيا بما لا سبيل فيه الى لبس « لا تأمرى بالتعبئة العامة فى الآونة الراهنة ما دامت المفاوضات الديبلوماتيكية جارية » — أجل لو أنه تكلم بمثل الشدة التى استعملها بيتمان فى مخاطبته لفينا ، لكان هنالك شىء من الاحتمال فى أن لا تقع الحرب . إن التعبئة الروسية العامة لم يكن صدر الأمر بها وبرقية فيفيانى وصلت الى باليلوج حوالى ظهر ٣٠ يوليه قبل أن يتوجه سازونوف الى بيترهوف للحصول على موافقة القيصر من جديد على التعبئة العامة . فلو أن بوانكاريه أنذر (الروسيا) بقوة وأعاد باليلوج هذا الانذار على مسمع سازونوف لكان لدى الوزير الروسى فسحة من الوقت للوصول الى تأجيل التعبئة الروسية العامة من جديد الى أن يكون اقتراح « الوقوف ببلغراد » أو أى نوع آخر من التوسط قد صد الدول عن الهاوية.

لكن بوانكاريه كان اذ ذاك أكثر عناية بالحصول على معاونة انجلتره واتخاذ الاحتياطات العسكرية فى فرنسا منــــه بكبح الروسيا . . . ففى ساعة مبكرة من صباح يوم ٣٠ يوليه أبلغ بول كمبون فى لندن برقية سازونوف الدالة على قرب وقوع الحرب كما أبلغ رد فرنسا عليها . وقد كلف كمبون بأن يخاطب غراى ويذكره بالرسائل التى تبودلت فى سنة ١٩١٢ واتفق الفريقان فيها على ان يباحث كل منهما الآخر فى الحال ، إذا تعرض السلم للخطر ، فى هل ينبغى ان تتعاون الحكومتان، فاذا كان هذا هكذا فأية اجراءات يجب ان تعد لتتخذ معاً . وقد كلف كمبون ايضاً بأن يزود غراى بقائمة طويلة أثبتت فيها الاستعدادات العسكرية التى زعموا أن ألمانيا قداتخذتها ،« ليدله على

أن ألمانيا باستعداداتها العسكرية قد تقدمت فرنسا فى كل مافعلته وأصبحت أسبق منها الى الهجوم . » وحتى يرى غراى « ان فرنسا على رغم تصميمها ليست هى التى تتخذ اجراءات عدوانية »

على أنه لما ذكر المسيو كمبون السير ادوارد غراى بالرسائل المتبادلة فى ١٩١٢ « وقال إن سلم أوربا لم يهدد يوماً هذا التهديد الخطير الذى يتعرض له الآن ، لقى ما خيب ظنه فانه مع محاذرته الشديدة وترفقه المتناهى فى أنه لم يسأل غراى أن يقول له رأساً إن انجلتره ستتدخل بل سأله ما ذا يفعل فى ظروف بعينها كاعتداء ألمانيا على فرنسا ، كان كل ما قاله السير ادوارد غراى له انه سيراه فى اليوم التالى بعد أن تكون الوزارة قد اجتمعت . وقد تحدث كمبون مع السير أرثر نيكولصن أيضاً لكنه لم يلق تشجيعاً كثيراً اذ قال له نيكولصن إن الرأى العام الانجليزى لا يكترث لتنافس النمسا والروسيا فى البلقان وأن الوقت لم يحن بعد للنظر فى تدخل بريطانيا فأن مصالح ألمانيا المالية ذات تأثير فى « الستى » وعلى بعض أعضاء الوزارة. وأسكويث لم يكن يجرأ فى تلك الآونة على اتخاذ موقف يدل على التصميم بيد أن نيكولصن نفسه كان « يوافق شخصياً على التدخل » .

وفى مساء ٣٠ يوليه خاطب بوانكاريه نفسه السير فرانسيس برتى سفير انجلتره فى باريس بلهجة أكثر خشونة والحافا فجادله فى الحاح شديد قائلا إنه اذا بادرت انجلتره فأعلنت عزمها على تأييد فرنسا « فلن يكون ثمة حرب لأن ألمانيا تعدل فى الحال موقفها . . . وحتى اذا لم تمتنع الحرب فأن مساعدة بريطانيا لفرنسا عند نشوب القتال مما يساعد على الاحتفاظ بالتوازن الدولى فى أوربا . أما المساعدة التى تأتى بعد ذلك فقد تأتى بعد فوات الأوان واذا لزمت انجلتره الحياد وباتت ألمانيا فى القارة هى كل شىء فمركز انجلترا خليق أن يتحول لغير مصلحتها كدولة عظمى » فرد برتى بقوله ان ما يحوط موقف مجلس العموم من الشكوك يجعل من المتعذر الافضاء بتصريح كهذا وان الأوامر التى صدرت بأن لا يتفرق الأسطول البريطانى لابد على كل حال

أن تدل ألمانيا دلالة بينة على موقف انجلتره . بيد أن برتى فى تعليقه الخاص لغراى يقول « ان الفرنسيين بدلا من أن يضغطوا على الحكومة الروسية لتخفف من غلوائها ينتظرون منا أن نفهم الألمان اننا نريد القتال اذا نشبت الحرب . ونحن اذا أكدنا لفرنسا والروسيا الآن اننا سنساعدهما بالسلاح غلت الروسيا فى تطرفها وسارت فرنسا فى أثرها . »

ولما كانت برقية سازونوف قد أفادت انه يحتث الاجراءات العسكرية الروسية ويرى أن الحرب واقعة فقد اتجهت رغبة بوانكاريه ووزير حربية فرنسا على الأخص الى اتخاذ الاجراءات لزيادة عدد الجنود على الحدود واستكمالها بأسرع ما يستطاع على ان يتجنب مع ذلك الظهور بمظهر الذى يقوم باستعدادات عسكرية وهو ما قد يفضى الى مصادمات على الحدود او ما قد يقع فى انجلتره وقعاً سيئاً . فهذا التنازع بين ما يبذل من مجهودات تقتضيها الخطط الحربية واخرى تستلزمها المصالح الديلوماتيكية هو أصل « انسحاب عشرة الكيلو مترات » المشهور .

فانه فى اجتماع الوزارة الفرنسية فى صباح يوم ٣٠ يوليه عقب وصول برقية سازونوف حض وزير الحربية الفرنسية على وجوب القيام « بالتغطية » فى الحال . ومعنى هذا أن تشغل الجنود مراكزها على الحدود وأن تعبأ خمسة فيالق ويعبأ كافة الفرسان الفرنسيين . فاعتُرض على هذا من الوجهة الديلوماتيكية بأنه قد يظهر فرنسا بمظهر المعتدية ويقضى على الأمل فى مساعدة بريطانيا وحيدة ايطاليا . وللتوفيق بين مصالح الاستراتيجى والديلوماسى المتنافرة تقرر مبدئياً أن يتراضى على أمر وسط فتم التغطية ولكن مع بعض القيود ، إذ يتحرك الجنود الذين يتولونها نحو الحدود سيراً على الأقدام أو على ظهور الجياد على قدر المستطاع ، ولا يستدعى احتياطى وتشترى الخيول بدلا من الاستيلاء عليها ، وترابط الجنود على مسافة قصيرة من الحدود الفعلية . فأن هذا من شأنه أن يقلل خطر الحوادث السيئة التى قد

يبالغ فى تأويلها فى هذا الوقت البادى الانفعال والريبة فتفسر بأنها « اعتداءات » « وأعمال حربية » كما قال فيفيانى فى مجلس النواب فى سنة ١٩١٩ ردأ على منتقديه الذين اتهموا بأن أمر « عشرة الكيلومترات » مكن ألمانيا من السبق والاستيلاء على الأقاليم الفرنسية التى تخرج الحديد، إذ أعلن : « لقد كنا ندرك ان كل شيء قد يقع من حادث تسوقه محض الصدفة . فقد يضل العسس الطريق فيصطدم بعسس العدو؛ أو يأتى جاويش أو أومباشى عملا أخرق ؛ أو يظن جندى نفسه فى خطر فيطلق بندقيته »

وقد جاء فى الكتاب الفرنسى الأصفر أن فيفانى أبرق فى ٣٠ يوليه الى بول كمبون يقول « اننا حجزنا جنودنا على بعد ١٠ كيلو مترات من الحدود ومنعناهم من التقدم نحوها . . . وبذا عرضنا خطاً من الأرض خلواً من الدفاع لاعتداء العدو المباغت فحكومة الجمهورية تأمل ان تقيم الدليل على انه لا فرنسا ولا الروسيا تحمل مسئولية الاعتداء » . والواقع مع ذلك ان حداً مقداره عشرة كيلومترات بالضبط لم يعين بحال من الاحوال ، وانه لا البرقية التى أرسلها بول كمبون حقيقة فى ٣٠ يوليه ولا الأمر الذى اصدره ميسيمى الى قواد الفيالق الخمسة فى الساعة ٤,٤٥ مساء يذكر شيئاً عن « عشرة الكيلومترات » وبرقية فيفيانى الى بول كمبون تكلفه بتوجيه التفات السير ادوارد غراى الى الاستعدادات العسكرية الألمانية « لترى انجلتره منها ان فرنسا وان كانت مصممة ليست هى التى تتخذ الاجراءات العدوانية . . . فمع أن المانيا قد غطت مراكزها على بعد بضع مئات أو آلاف الامتار من الحدود كلها ابتداء من لوكسمبرج الى الفوج ووضعت جنودها التى تقوم بهذه المهمة (مهمة تغطية الحدود او حراستها) فى المراكز التى تشغلها فى حالة الحرب ، فاننا لم نفعل ذلك . . . وبذا تركنا خطاً من أراضينا دون دفاع وعرضة للاعتداء المباغت . ونحن لم نفعل هذا الا لنرى الحكومة البريطانية والرأى العام ان فرنسا كالروسيا لن تكون أول من يطلق النار » ويلى ذلك

قائمة بالاستعدادات العسكرية الألمانية فيما يتعلق بالحدود وغيرها . وأمر ميسيمى الى قواد الفيالق يعيد تكليفهم بتنفيذ أمر سنة ١٩٠٩ المتعلق بتعبئة جنود الحدود ... ومن ثم لم يكن هنالك خط مرسوم يبعد فى كل مكان عن الحدود عشرة كيلو مترات بالضبط ، فقد كان فى عدة مواضع يبعد فقط اربعة او خمسة كيلو مترات عن الحدود كما قال ميسمى امام لجنة بريي سنة ١٩٢٠ .. ومع هذا فأن كون الحكومة الفرنسية قد حجزت جنود التغطية على بعد بضعة كيلو مترات من الحدود كان منها اجراء حكيما ، فقد كان من شأنه أن يحول دون وقوع « حوادث » أسيفة كان يمكن أن تعجل بالحرب . لكننا نخطئ اذا عددناه دليلا على تعلق بوانكاريه بالسلام . فأدنى من هذا الى الواقع انه اجراء أريد به بادئ الرأى الحصول على تصديق بريطانيا وتأييدها العسكرى واخفاء الحقيقة فى أن فرنسا كانت تتخذ اجراء عسكرياً هاماً تمهيداً للحرب .

الاسطول البريطانى وإنذار ألمانيا

لم تكن المسألة الاستراتيجية فى انجلتره تشبه مثيلتها لدى السلطات العسكرية فى القارة . فأن التدابير التى كانت انجلتره قد اتخذتها قبل ذلك الحين بعدة أسابيع كانت لحسن حظها سبباً لأن يقف أسطولها محتشداً فى أعظم قوة بحرية أتيح للعالم أن يشهدها . فلم يكن الأمر يستدعى إذن أن يعمل على عجل وبأقصى سرعة ممكنة لأعداده لملاقاة العدو . وانما كان كل ما هنالك من مسألة هو أن تعطى الأوامر لأبقائه محتشداً بدلا من السماح له بالتفرق ثانية والعودة الى مراكزه المعتادة فى وقت السلم .

ففى يوم السبت ٢٥ يوليه علم غراى ومستشاروه من بوكانان أن سازونوف قد رأى أن لا بد للروسيا على كل حال من التعبئة « وان زيارة بوانكاريه قد أوجدت بين فرنسا والروسيا اشتراكا تاماً فى الرأى وتأكيداً خطيراً

للواجبات التى تفرضها المحالفة ، فعلق السير أريك كرو على ذلك بقوله « يجب أن نقرر الآن تعبئة الأسطول بمجرد ما تعبئ أية دولة عظمى أخرى ويجب أن نعلن هذا القرار دون ابطاء الى الحكومتين الفرنسية والروسية » .. ثم أبدى أن تعبئة الأسطول قد تصلح أيضاً لأن تكون انذاراً لألمانيا . بيد أن السير ادوارد غراى الذى كان وزير البحرية ونستون تشرشل قد أخبره ولما يكد بأنه يمكن تعبئة الأسطول فى أربع وعشرين ساعة رأى أن ابداء أى تصريح يعد الى ذلك الحين سابقاً لأوانه . فقد كان لا يزال يؤثر أن لا يتخذ موقفاً مورطاً فلا يشجع الروسيين والفرنسيين ولا يهدد الألمان .

لكنه فى اليوم التالى عقب وصول أنباء من النمسا وصربيا أبعث على القلق من غيرها قرر ونستون تشرشل والأميرال الأول عن نفسيهما أن لا يتفرق الأسطول . وصادق غراى على قرارهما ، وظهر فى الصحف الانجليزية فى صباح يوم ٢٧ يوليه منشور يفيد أن الأسطول سيبقى محتشداً . وكان غراى يريد بهذا أن يكون بمثابة إنذار لتبديد ما هو ذائع فى ألمانيا والنمسا من أن انجلترا ستقف على الحياد . بيد أن هذا المنشور ساعد على تبديد مخاوف السفير الروسى الكونت بنكندورف وقوبل من زميله بول كمبون « بارتياح عظيم » . أما فى النمسا وألمانيا فلم يكن له التأثير الذى كانت وزارة الخارجية البريطانية تتوقعه فيما يلوح . وغراى حين ذكره للسفير النمسوى قلل نفسه من شأنه بقوله : «لقد أثبت أننا ما كنا لنفكر فى دعوة الاحتياطى أو اتخاذ أى اجراء ذى صبغة تنطوى على التهديد لكننا وقوتنا البحرية مجتمعة للمناورات لم يسعنا وهناك احتمال أن تنشب حرب أوربية أن نختار هذه اللحظة لتسريحها . » وفى ألمانيا لم يعلق على هذا المنشور بادىء الرأى من الأهمية ما علق على التأكيد الذى كان البرنس هنرى اوف بروسيا قد حصل عليه من الملك جورج وهو أن انجلترا ستلتزم الحياد .

وفى ٢٨ يوليه زاد الشعور بالتشاؤم فى وزارة الخارجية البريطانية . وكان

قد أشكل على موظفيها تلك المقترحات الجديدة التى لبث سازونوف يقدمها كل يوم تقريباً . ومقترحات السير ادوارد غراى التى ارتآها هو للتوسط « وللمحادثات المباشرة » بين فينا وسان بطرسبورغ وهو ما قبل أن يكون بديلا من التوسط — نقول ان هذه المقترحات كان يبدو أنها لا تلقى توفيقا بالنظر الى النظرية النمسوية الألمانية القائلة بجعل النزاع الصربى « محلياً » . وقد أجمل السير أرثر نيكولصن الحالة فى خطاب الى بوكانان قال فيه : « انى أفهم كل الفهم أن لا يسع الروسيا السماح بسحق صربيا . وأرى أن الكلام عن جعل الحرب محلية معناه أن تقف جميع الدول موقف المتفرج بينما النمسا تورد صربيا مورد الهلاك . وهذا مما لا يقبله عقل ان لم أقل عنه أنه جائر . فلست أفهم بعد الكيفية المرضية جداً التى اجابت بها صربيا النمسا الى مطالبها . بأى مبرر يمكن النمسا ان تأخذ فى اجراءات عدائية نحوها . فاذا كانت تتعمد اثارة الحرب مع صربيا . . . فيجب ان تعلم جيداً أن عملا كهذا من جانبها يرجح كل الرجحان ان يفضى الى حرب اوربية عامة بكل ما يترتب عليها من عواقب غاية فى الوخامة . ان المانيا لم تلعب فى هذه المسألة دورا مستقيما جد الاستقامة وعلى الأقل فيما يتعلق بنا . » ثم أشار مع الارتياح الى الأوامر الصادرة بابقاء الأسطول البريطانى محتشدا والى تبدل لهجة الصحف الانجليزية التى كانت فى مبدأ الأمر وعلى اثر حادثة سيراجيفو تعطف على النمسا ، وأبدى أن هاتين الحقيقتين الواقعتين قد أبانتا لألمانيا والنمسا كل الأبانة أن لا تعتمدا فى شىء من اليقين على وقوف انجلتره على الحياد .

وأخيراً فى ٢٩ يوليه جعل الموظفون العليمون فى انجلتره بحقائق الأمور يعتبرون الحرب الأوربية لا مفر منها بعد أن جاءهم نبأ إعلان النمسا الحرب على صربيا — ذلك النبأ الذى جعل سازونوف يرى المحادثات لا طائل تحتها ويقول ان التعبئة الجزئية ستقع قريباً فى الروسيا . . . فقد صرح المستر اسكويث فى مجلس العموم بأن الحالة « فى نهاية الخطورة » .

وفى الواقع أنه فى الساعة الخامسة من مساء اليوم السابق ٢٨ يوليه كان ونستون تشرشل قد أمر بأن يبرح الأسطول بورتلند ليلا مطفأ الأنوار وبأقصى سرعته الى قاعدة قتاله فى سكابافلو مخترقاً مضايق دوفر. ولم يعلم المستر تشرشل بذلك غير المستر اسكويث — الذى صادق عليه فى الحال — خشية أن يعرض الأمر على الوزارة فيعتبر عملا مثيراً خليقاً أن يقضى على كل أمل فى السلام. وفى ٢٩ يوليه أرسلت إمارة البحر « برقية الانذار » الرسمية اذ كان الأسطول الآن مستعداً لملاقاة الحالة والسيطرة عليها مهما حدث.

وفى صباح ٢٩ يوليه قرر السير ادوارد غراى أخيراً أن يوجه الى ألمانيا انذارا أكثر وضوحا وفاقا لما كانت الروسيا وفرنسا تلحان به على الدوام. ومن الغريب أنه أخبر كمبون أولا بما كان سيقوله لليشنوفسكى لكنه فى نفس الوقت أعاد عليه أن انذاره لألمانيا لا يعنى أن انجلتره قد صممت على ما تفعله فى حالة دخول فرنسا وألمانيا الحرب، فأن انجلتره طليقة من كل ارتباط وسوف تقرر ما تقتضيه المصالح البريطانية. ثم كرر غراى لليشنوفسكى ماصرح به سازونوف من أن الروسيا لن يسعها بعد إعلان النمسا الحرب على صربيا أن تتفاوض مع النمسا رأساً وأنها ترغب فى العودة الى الاقتراحات البريطانية الخاصة بالتوسط. ولذلك يرى غراى أنه « لتكونن قاعدة ملائمة للتوسط أن تعلن النمسا شروطها بعد أن تحتل بلغراد مثلا أو غيرها من الأماكن »

ثم أبلغ غراى ليشنوفسكى فى صورة ودية خاصة إنذاره الذى قال فيه أنه مادام النزاع محصورا بين النمسا والروسيا ففى استطاعة انجلترة أن تقف على الحياد لكنه اذا دخلت فيه ألمانيا وفرنسا فأن الحالة تتغير على الأثر وتضطر الحكومة البريطانية عندئذ الى اتخاذ قرارات سريعة. »

لكنه قبل أن تحل رموز الانذار الذى وجهه غراى ويعرف فى برلين كان بيتمان قد أقدم على خطوة جعلت وزارة الخارجية البريطانية تعتقد أن ألمانيا صممت عملياً على الدخول فى الحرب وعلى اختراق بلجيكا وسحق فرنسا

بيتمان ومولتكه

كان المركز فى يوم الأربعاء ٢٩ يوليه يعتبر فى برلين ، كما كانت الحال فى باريس ولندن ، حرجا جداً . وكان بيتمان قد حث النمسا على قبول التوسط على قاعدة الوقوف ببلغراد ، لكنه لم يكن تنق رداً من فينا . . . أضف الى ذلك أن السلطات العسكرية الألمانية كهيئات الحرب فى كل مكان ، كانت تلح بالمبادرة الى اتخاذ اجراءات عسكرية تضمن سلامة بلادهم ونجاح خططهم الاستراتيجيكية فى حالة عجز الساسة عن المحافظة على السلام ،

وكان هليموت فون مولتكه إذ ذاك رئيساً لهيئة أركان الحرب فكان يقول إن الروسيا تقوم باستعدادات عسكرية على الحدود ضد ألمانيا وضد النمسا على السواء مما سيجعلها قادرة على تسيير جيوشها فى بضعة أيام قلائل اذا هى أصدرت أوامرها بالتعبئة فعلا . وفرنسا أيضاً ، بناء على ما اتصل به ، يلوح عليها أنها تتخذ الاجراءات استعدادا للتعبئة العامة. فالمركز والحالة هذه يزداد كل يوم سوءاً بالنسبة لألمانيا وقد يفضى الى عواقب وخيمة اذا اضطرت ألمانيا بتصادم يقع بين النمسا والروسيا الى التعبئة والقتال فى ميدانين. لذلك « من الأهمية بأعظم مكان أن يستوثق بأسرع ما يمكن مما اذا كانت الروسيا وفرنسا تنويان أن تحدثا حربا مع ألمانيا » فعارض بيتمان بشدة فى اتخاذ أية اجراءات عسكرية حاسمة يمكن أن تقضى على جهوده السياسية . . . وسرد اعتراضاته للأمبراطور فى بوتسدام بعد ظهر يوم ٢٩ يوليه وفى ساعة مبكرة من مساء ذلك اليوم . وقد نجح بيتمان فى صد التيار العسكرى كما يرى من ملخص للحالة فى مجلس الوزراء ظهر اليوم التالى : « لقد أعربت السلطات العسكرية عن الرغبة فى إعلان « حالة الخطر من الحرب » لكنه دافع أمام جلالته عن الاعتراضات الموجهة الى ذلك بنجاح ، فأن مثل هذا الاعلان معناه التعبئة والتعبئة معناها الحرب ، وقد اقترح على فينا التوسط فى عدة

اقتراحات يجب انتظار الرد عليها قبل أن يقطع الأمل وتهمل المساعى من أجل السلام . فأنه لا قبل للمرء بأن يقوم فى وقت واحد وفى صورة مرضية بأعمال عسكرية وأخرى سياسية . » ومن ثم « وافق جلالته على أنه يجب الانتهاء اولا من المسعى لدى فينا قبل اتخاذ أية قرارات اخرى » . وقد كان كل ما اتخذ على سبيل الاحتياط من اجراءات عسكرية فى مساء ٢٩ يوليه هو حماية السكك الحديدية والدور القيمة واستدعاء الضباط والجنود من اجازاتهم وإمداد القلاع القائمة على الحدود واجراءات اخرى ثانوية مماثلة لتلك الاجراءات التى كانت جارية فى الروسيا منذ ٢٦ يوليه والتى كانت قد أمر بها فى فرنسا ولكنها كانت أضيق منها دائرة .

وبينا كان بيتمان يوفق على هذا المنوال فى صد السلطات العسكرية عن اتخاذ اى اجراء حاسم لا يمكن إصلاحه كان يقوم بعدة مساع ديبلوماتيكية هامة فى ٢٩ يوليه . . . سبق لنا تناول بعضها فى الفصل السابق . . .

وقد بعث فى طلب السفير الانجليزى ليستوثق من مسألة بحثت طويلا فى بوتسدام وكانت أعظم ما يهم ألمانيا فى حالة إمكان وقوع حرب أوربية وهى حياد انجلتره . وكانت الساعة منتصف العاشرة حين بعث بيتمان فى طلب جوشن وطلب اليه حياد انجلتره فى حالة وقوع الحرب بتلك الصورة القوية التالية وهى : أن ألمانيا مستعده فى حالة التزام بريطانيا الحيدة لأن تعطى كل تأكيد بأنها لا ترمى الى الاستيلاء على أراض أوربية على حساب فرنسا وان كانت لا تستطيع أن تعطى تأكيداً كهذا فيما يتعلق بالمستعمرات الفرنسية . وستحترم ألمانيا حياد هولنده لكنه فيما يتعلق ببلجيكا « لا يستطيع بيتمان أن يقول أى العمليات العسكرية ستضطر فرنسا ألمانيا الى اتخاذها بما يصدر عنها لكنه فى وسعه أن يصرح بأن سلامة أراضى بلجيكا ستحترم عند انتهاء الحرب على شريطة أن لا تنضم الى أعداء ألمانيا » على أنه واثق بأن حياد انجلتره فى حرب لا يعدو أن تنشب من النزاع الحالى يصح أن يكون قاعدة لاتفاق

حياد يعقد فى المسقبل بين انجلتره وألمانيا وهو غرض يسعى اليه بسياسته منذ أن تولى منصب المستشار »

لقد كان طلب بيتمان أن تقف انجلتره على الحياد غلطة تعسة تدل على الغباء . فقد ترك فى لندن أسوء أثر ممكن ... وقد رد السير ادوارد غراى بموافقة المستر اسكويث ولكن دون أن ينتظر عرض هذا الرد على مجلس الوزراء — نقول رد على جوشن يقول ان مقترحات المستشار « لا يمكن أن تحدونا لحظة واحدة . فان مصالح انجلتره المادية تجعل من المحال أن نسمح بسحق فرنسا الى درجة أن تفقد مركزها كدولة عظمى ، حتى ولو لم تأخذ ألمانيا شيئاً من أراضى فرنسا ، وكما هو ظاهر من مستعمراتها » . . كذلك لا يسع انجلتره أن تساوم على واجباتها ومصلحتها فيما يتعلق بحياد بلجيكا . فانجلتره يجب أن تحتفظ بكامل حريتها فى العمل حسبما تقتضى الظروف .. » وفى اليوم ذاته طلب من الحكومتين الفرنسية والألمانية أن تعطيا تأكيداً باحترام حياد بلجيكا مادام أن دولة أخرى لا تنتهكه . وقد أسف بيتمان أسفاً عظيماً لما طلبه من حياد بريطانيا . وانه ما كان ليقول ما قاله لو أنه علم قبل ذلك بانذار غراى لليشنوفسكى — ذلك الانذار الذى وصل إلى برلين فى الساعة التاسعة والدقيقة ١٢ مساء والذى لم تفك رموزه أو يسلم إلى المستشار قبل محادثته مع جوشن فيما يظهر

وإجراء آخر اتخذ فى ٢٩ يوليه نتيجة لاجتماعات بوتسدام فى الراجح ، هو إرسال ياجو رسالة إلى وزير ألمانيا المفوض فى بروكسل داخل غلاف مختوم . وقد حملها رسول بدل أن يبرق بها بالرموز لأنه لم يكن ثمت مايدعو إلى العجلة ولأنه لم يكن مرغوباً فى أن يطلع الوزير المفوض نفسه على طلب موجه الى بلجيكا قد لا تكون هنالك ضرورة بعد كل شىء الى توجيهه . فلما فض الوزير الغلاف لم يجد سوى تعليمات بأن يبقى فى حرز أمين غلافاً مختوماً آخر موجوداً فى طى الغلاف الأول على أن لا يفضه إلا إذا كلفه

بذلك ببرقية من برلين . وكان الغلاف الداخلي يشتمل على بلاغ نهائي موجه الى بلجيكا ومكتوب بناء على مسودة كتبها مولتكه بخط يده فى ٢٦ يوليه . وفيه أن ألمانيا تنوى أن تزحف داخل بلجيكا بموافقتها الحبية اذا أمكن . لكنه اذا عارضت بلجيكا ، فألمانيا تضطر على الرغم منها الى اعتبار المملكة (البلجيكية) عدوة لها . »

هذان الاجراءان — طلب حياد بريطانيا وتقديم البلاغ النهائي المختوم الى بروكسل يدلان كيف كانت السلطات الألمانية تنظر بعين الجد الى رجحان وقوع الحرب . . . لكنهما لا يدلان على أن بيتمان كان مسلماً بأن الحرب واقعة لا محالة أو أن أى قرار اتخذ فى مصلحة الحرب . فان المستشار على النقيض من ذلك ضاعف جهوده للمحافظة على السلام بزيادة الضغط على فينا . . . فانه بعث اليها بزبدة تلغرافين (تلقاهما من ليشنوفسكى عن موافقة غراى على اقتراح لايطاليا بالتوسط ومن بورتاليس عن استياء سازونوف من رفض النمسا مفاوضة الروسيا مباشرة) كما بعث اليها بالبرقيات التى تبودلت بين الأمبراطور والقيصر وحثها من جديد على قبول « خطة الرهينـــة » « بالوقوف فى بلغراد » وفتح باب المحادثات المباشرة والمضى فيها بين فينـا وسان بطرسبورغ ارضاء لسازونوف .

وفى تلك الأثناء فكت رموز برقية ليشنوفسكى التى تنبىء بما يرتئيه غراى من التوسط على قاعدة احتلال بلغراد وبما ينذر به بصفة خاصة ودية من أن انجلتره قد يستحيل عليها الوقوف على الحياد . . فرحب بيتمان باقتراح غراى وبعث به الى فينا . وقد علق عليه فأشار بعبارة قوية الى الخطر الذى ينجم من رفض النمسا كل مفاوضة . ثم زاد على ذلك قوله : « إننا فى هذه الظروف يجب أن نحث وزارة فينا ونلح عليها فى قبول التوسط وفاقاً للشروط الشريفة الآنف ذكرها »

وأخيراً قبل أن يهجع قليلا أبرق الى سان بطرسبورغ ولندن بما أمل

أن يساعد على درء الحرب وتحقيق التوسط . فأبرق الى بورتاليس يرجوه « أن يبلغ سازونوف أننا ماضون فى التوسط لكن على شريطة أن تقف فى الآونة الراهنة كل الأعمال العدائية الموجهة ضد النمسا من جانب الروسيا . » وأبرق الى ليشنوفسكى يكلفه بشكر السير ادوارد غراى على ايضاحه الصريح وأن يخبره بأننا ماضون فى التوسط لدى فينا واننا نلح عليها فى قبول مقترحه»

وفى صباح ٣٠ يوليه تلقى بيتمان أخيراً رداً من فينا على خطة التوسط القاضية « بالوقوف ببلغراد » لكنه كان رداً غير مرض على الاطلاق وينطوى على التخلص فى نقطة من نقطه الجوهرية . فقد أبدى برشتولد استعداده لأن يعيد تصريحه بأنه لا مصلحة للنمسا فى أراض ما « لكن الكونت برشتولد يقول عما يتناول الاجراءات العسكرية من تصريحات أخرى انه لا يستطيع أن يعطينى رداً فى الحال . وقد لبثت إلى مساء اليوم دون أن ألتقى تبليغاً جديداً على الرغم مما أبديته من أن الأمر يتطلب السرعة . »

وقد أجمل بيتمان الحالة لوزارة الخارجية البروسية حوالى الظهر فسرد بناء على ذلك ما بذل من مجهود لايجاد تفاهم بين فينا وسان بطرسبورغ مستمداً التأييد من الاقتراح الذى ارتآه غراى للتوسط على قاعدة احتلال النمسا لبلغراد لكنه كان مضطراً لأن يسلم بأن نتيجة مساعيه لا تزال غير مضمونة . وقد وافق الامبراطور مع ذلك على أن لا تتخذ اجراءات حاسمة فى سبيل التعبئة الا بعد أن ينتهى المسعى لدى فينا . فضلا عن أنه نفسه ما كان ليقطع الرجاء أو يعدل عن مساعيه لحفظ السلام ما دامت هذه المساعى لم ترد

وقد علم بعد الظهر أن برشتولد رفض ما ارتأته ايطاليا من أن صربيا قد ترغب فى آخر الأمر فى قبول البندين الخامس والسادس من بنود البلاغ النهائى ، مبدياً أن هذا القبول كان يمكن أن يكفى لو انها أبدت هذا الاستعداد من قبل « أما الآن وقد قامت الحرب فأن شروط النمسا تختلف بطبيعة الحال عن ذى قبل » . . .

ولكى تهتدى وزارة الخارجية فى برلين الى ماعقدت فينا نيتها عليه لجأت إلى التليفون لكنها علمت من إجابة تشيرشكى انه لا ينتظر أن يرضخ برشتولد لاقتراحات التوسط التى ماقتىء بيتمان يحضه عليها . . .

وعيل صبر الأمبراطور أيضاً فى تلك الأثناء فخاطب فرنسوا جوزيف شخصياً بالتليفون أخيراً قائلا له « انى لأكون شاكراً حقيقة اذا تكرمت علىّ بقرارك بأقرب فرصة ممكنة »

على انه بينما كان بيتمان يحاول عبثاً على هذا المنوال أن يحمل فينا على الرد عليه كان مولتكه قد أخذ قلقه يزداد من ناحية الحالة . بعد أن كان فى صباح ٣٠ يوليه لا يزال راغباً فى التزام القرار الذى اتخذه بيتمان والامبراطور بأن التعبئة الروسية الجزئية لا تستلزم التعبئة من جانب ألمانيا

والظاهر أن مولتكه كان مقتنعاً بأن الروسيا تدفع بأوربا الى الحرب وكان يرى — ليظهر أن الروسيا هى المعتدية — أن لا تكون النمسا أو ألمانيا بل الروسيا هى البادئة باعلان الحرب وهو رأى يشبه وجهة نظر بوانكاريه وباليلوج وجول كمبون كل الشبه إذ كانوا مقتنعين بأن ألمانيا تدفع بأوربا إلى الحرب وان وزر البدء بالاعتداء يجب أن يدخر لها .

لكنه بعد ظهر ذلك اليوم بعد أن سمع ان سازونوف قال إن من المحال أن يقف التعبئة الروسية ، وان القيصر سلم بأن الاستعدادات كانت جارية منذ خمسة أيام ازداد قلق مولتكه واعتقد أن الخطر على ألمانيا والنمسا شديد ، فتحدث الى بينرت الملحق العسكرى النمسوى بما أبرق به هذا الى كونراد :

« لقد قال مولتكه انه يعتبر الحالة عصيبة اذا لم تعبىء النمسا والمجر حالا ضد الروسيا . فان ما أعلنته الروسيا عن التعبئة التى أمرت بها يستلزم أن تتخذ النمسا والمجر اجراءات مقابلة ويجب أن يشار اليه فى بيان علنى . وبذا تنشأ بالنسبة لألمانيا Casus foederis . أعقدوا مع ايطاليا أى اتفاق شريف تعدونها فيه بتعويضات وذلك لكى تبقى عضواً

عاملا فى المحالفة الثلاثية ، فلا تتركوا فى الواقع رجلا واحداً على الحدود الايطالية . ارفضوا ما تتقدم به انجلترة من آن لآن للمحافظة على السلام فالثبات الى النهاية فى حرب أوربية هو آخر فرصة لانقاذ النمسا والمجر . وستمضى معها ألمانيا بلا قيد ولا شرط . »

وقد تجاوز مولتكه بكلامه هذا حدود سلطته وأسدى فى صورة غير مناسبة بنصيحة سياسية هى من اختصاص المستشار وحده . وقد كان بمسلكه هذا يعبر عن شر من شرور العسكرية الكبرى ويدل على خطر تدخل الموظفين العسكريين فى الشئون المدنية وقت الضائقة فلم يكن من سلطته أن يفسر المحالفة أو يقول إن التعبئة الروسية توجد Casus foederis بالنسبة لألمانيا انما كان من اختصاص المستشار وحده أن يفسر الواجبات التى تفرضها المعاهدات على ألمانيا . ومع ذلك فأنه فى نفس الليلة السابقة كان بيتمان قد أخبر مولتكه وفالكنهاين وزير حربية بروسيا أن التعبئة الروسية الجزئية لا توجد حالة التحالف وأن المناسبة لم تخلق بعد للتعبئة الألمانية . وقد عارض مولتكه فى هذا معارضة ، فاترة جداً . . . . وقد كان ما اقترحه على النمسا من رفض المقترح البريطانى المتعلق بالسلام يناقض على خط مستقيم ما كان بيتمان يسعى اليه بالذات . ولعله من قبيل التماس العذر لمولتكه مما أبداه أنه كان يعرب للملحق العسكرى النمسوى عن آرائه الشخصية أكثر مما كان يقدم للنمسا النصح بطريقة رسمية لأنه لم يرد شىء عن Casus foederis أو رفض المقترح البريطانى فى تقرير السفير النمسوى عن ملاحظات مولتكه . . .

. . . وقد بعث المستشار ببرقية مستعجلة رقم ٢٠٠ الى تشيرشكى فى فينا يذكره بمقترح غراى الذى نقل اليه أن النمسا ينتظر أن ترفضه ويحيطه بما وعد به غراى من العمل فى سبيل السلام لدى باريس وسان بطرسبورغ ثم زاد على ذلك إنذاراً ونصيحة قوية قال :

أنه اذا نجحت مساعى انجلتره بينما ترفض فينا كل شيء فأن فينا تكون قد أقامت الدليل على أنها تريد على كل حال حرباً سنجر اليها بينما تظل الروسيا خلوا من المسئولية. وهذا يضعنا فى أعين شعبنا فى مركز سيء لذلك لا يسعنا إلا أن ننصح للنمسا بالحاح بأن تقبل اقتراح غراى، الذى يحفظ لها مركزها على كل حال.

ثم اجتمع به مولتكه فلما سمع بيتمان ما أدلى به هذا اليه أبرق ثانية الى تشيرشكى فى الساعة ١١ والدقيقة ٢٠ مساء يقول له «أرجوك أن لا تنفذ التعليمات الواردة فى البرقية رقم ٢٠٠ فى الآونة الراهنة.» والسبب الذى من أجله فعل ذلك وارد فى برقية كتب نصها لكنه لم يبعث بها الى تشيرشكى بل أرسل أخرى بدلا منها. وقد قال فى البرقية التى لم ترسل: «لقد ألغيت التعليمات الواردة فى رقم ٢٠٠ لأن هيئة أركان الحرب أبلغتنى الساعة أن استعدادات جيراننا العسكرية وخاصة فى الشرق سترغمنا على اتخاذ قرار سريع اذا كنا لا نرغب فى أن نعرض أنفسنا لخطر المفاجأة.» وهذا يدل كما لو كان بيتمان قد رضخ أخيراً لمولتكه لكن هذه البرقية لم تكد توضع حتى علم المستشار بالبرقية الآتية التى بعث بها ملك انجلتره الى البرنس هنرى أوف بروسيا:

لقد سرنى ما سمعت عن مساعى غليوم فى سبيل الاتفاق مع نيكى للمحافظة على السلام... وحكومتى تفرغ قصاراها لحمل الروسيا وفرنسا على وقف استعدادات عسكرية أخرى اذا قنعت النمسا باحتلال بلغراد والأرض الصربية المجاورة كرهينة لتسوية مطالبها تسوية مرضية وفى تلك الأثناء تقف دول أخرى إستعداداتها الحربية. إنى واثق من أن غليوم سيستخدم نفوذه العظيم لحمل النمسا على قبول هذا الاقتراح فيثبت بذلك أن ألمانيا وانجلتره تعملان معاً لمنع ما يمكن أن يكون كارثة دولية. أرجو أن تؤكد لغليوم أنى أعمل وسأستمر على أن أعمل ما فى وسعى للمحافظة على سلام أوربا».

هذه البرقية أحيت فى بيتمان ميت الرجاء فبدلا من أن يبعث بالبرقية التى وضع نصها وضمنها أخبار مولتكه المزعجة التى كانت خليقة أن تحمل النمسا على تقرير التعبئة العامة ، نقول بدلا من أن يفعل ذلك بعث الى فينا برسالة الملك جورج الودية . . . فكلف تشيرشكى بأن يبلغ برشتولد برقية الملك جورج « دون ابطاء » وأضاف من جديد أن الرغبة ملحة فى أن تتخذ فينا قرارا معيناً فى أثناء النهار .

وظاهر ان هذه البرقيات تدل على ان بيتمان تردد وقطع الأمل لحظة وجيزة لكنها لا تدل كما زعموا أحيانا ، على انه غير موقفه تغييراً تاماً نهائياً ولان لضغط مولتكه وقرر ان يرسل بلاغا نهائياً الى الروسيا قبل ان يعلم بالتعبئة الروسية العامة بعدة ساعات . فأنه على النقيض من ذلك قدم ثانية الى فينا بعد إبطاء وجيز مقترح بريطانيا فى صورة البرقية التى بعث بها الملك جورج وان لم يجدد انذاره القوى الوارد فى البرقية الرقيمة ٢٠٠ . وقد كان تردده الذى لم يدم طويلا راجعاً الى الخبر الذى نقله اليه مولتكه عن استعدادات الروسيا العسكرية . لكنه لما لم يكن هذا معينا ظل يرفض ان ترسل ألمانيا الى الروسيا بلاغا نهائياً او تأمر باعلان حالة « الخطر المهدد بالحرب » — ذلك الاعلان الذى يعد الخطوة المبدئية فى التعبئة الألمانية : وقد كان مصمما على ان ينتظر اطول من ذلك الى ان يتلقى من فينا رداً على اقتراح الوقوف فى بلغراد والى ان يثبت لديه نبأ التعبئة الروسية العامة نهائياً كما ثبت فى رسالة من بورتاليس وصلت فى الساعة ١١ والدقيقة ٤٠ من صباح اليوم التالى . فقد كان يأمل ان يتأكد من هاتين النقطتين قريبا . ولما كان مولتكه وفالكنهاين يلحان فى وجوب اتخاذ قرار عاجل فقد وافق بيتمان على ان يكون هذا القرار ظهر اليوم التالى ٣١ يوليه . ومن ثم لم يتخذ قرار ليل ٣٠ يوليه . وقد قال مولتكه لهفتن بلهجة تدل على التشاؤم الشديد وعقب حديثه مع بيتمان بأمد وجيز ، انه لا يعلم كيف تكون خاتمة هذا كله « وسيصدر ظهر

الغد قرار اما بالسلم أو بالحرب فسنقابل المستشار ووزير الحربية وأنا جلالة الأمبراطور . » وعلى أن مولتكه كان قد تلقى تقريرين يعتمد عليهما عن التعبئة الروسية العامة فقد أضاف : « إننى قبل أن أشير على جلالته بالتعبئة ، أحب أن أنتظر تأكيداً ثالثاً لنبأ التعبئة الروسية . »

وفى الساعة السابعة من صباح ٣١ يوليه تلقى مولتكه رسالة تليفونية من ضابط مقيم فى ألنشتاين من أعمال بروسيا الشرقية ينتمى الى هيئة أركان الحرب ، يقول فيها أن الروسيين أوصدوا الحدود تماماً وأن اعلانات حمراء تتضمن أمر التعبئة قد ألصقت . فرد مولتكه يقول : « من الضرورى أن تحصل على إعلان من هذه الاعلانات الملصقة فأنى يجب أن أتأكد مما اذا كانوا حقيقة يعبئون ضدنا . وقبل أن أتأكد من ذلك لا أستطيع أن أستصدر أمراً بالتعبئة » وبعبارة أخرى فأن مولتكه نفسه يسلم بأن بيتمان كان يكره أن يوافق على قرار إلا اذا قام لدى ألمانيا الدليل النهائى المطلق على التعبئة الروسية العامة التى كان يشتبه فيها والتى كان قد صدر الأمر بها فى الواقع من اثنتى عشرة ساعة . وأخيراً جاء هذا الدليل فى برقية من بورتاليس فى الساعة ١١ والدقيقة ٤٠ صباحا فلو أن بيتمان لم يتلق هذا الدليل — لو ان القيصر لم يرضخ لسازونوف وللعسكريين الروسيين — لكان من الراجح أن يظل بيتمان صامداً لمولتكه وفالكنهاين . . .

ومع ذلك فأن الذى حمل ألمانيا على اتخاذ قرار بأعلان حالة « الخطر المهدد بالحرب » فأرسال بلاغاتها النهائية وتقرير التعبئة كان التعبئة الروسية العامة المنطوية على الطيش لا « اتفاقا عسكرياً » بين مولتكه وكونراد كما خيل الى الدكتور كانر . وقد فعلت ألمانيا ما فعلت وهى ترى الحرب الأوربية وشيكة وهى حرب تبين حتى لبيتمان أنها باتت بما أقدمت عليه الروسيا لا مفر منها .

التعبئة النمسوية العامة فى ٣١ يوليه

لم يكن برشتولد وكونراد فى فينا يحدوهما الخوف من الحرب مع الروسيا بقدر ما كان التصميم على محاربة صربيا يحدوهما . ومن ثم بلاغ النمسا النهائى والتعبئة الجزئية ضد صربيا وحدها مع العناية بتجنب الاجراءات المثيرة فى غاليسيا ، ثم إعلان الحرب على صربيا وهو ما أتينا على وصفه كله .

وحتى بعد الزحف على صربيا وضرب بلغراد بالقنابل كان كونراد لايزال يفرض أن الروسيا لن تلجأ الى التدخل المسلح ولذا لم يرسل جنودا الى الميدان الغاليسى . لكنه لما أعلن سازونوف أن الروسيا ستعبىء جنودها فى الأقاليم الجنوبية اذا اجتازت النمسا حدود صربيا أخذ كونراد يدرك أن ميدان غاليسيا فى خطر واعتبر تأكيد سازونوف بأن الجنود الروسية اذا هى عبئت ستقف على الحدود بلا حراك وسلاحها بأيديها — نقول اعتبر هذا التأكيد مضحكا ولذا صمم فى الحال على أن تعبىء النمسا لتكون التعبئة من ناحية اجراء دفاعياً تقتضيه سلامة النمسا حيال القوى الروسية المتفوقة ، ومن ناحية أخرى خدعة تقابل خدعة الروسيا ظن كونراد فيما يبدو انها تخيف الروسيا فكان ظنه هذا بعيداً عن المنطق . وقد أثبت السفير الألمانى فى فينا فى طليعة يوم ٣٠ يوليه : « أنهم هنا مصممون على التعبئة بمجرد موافقة ألمانيا ، مصممون تصميما ثابتا على ألا يسمحوا للروسيا بالتعبئة أكثر من ذلك . واقتراحهم : أن تقولوا لسان بطرسبورغ ثم لباريس أنه اذا استمرت التعبئه ستبدأ التعبئة العامة فى النمسا وألمانيا » .

ومعنى هذا ان بروشتولد وكونراد ارتأيا ان يلوحا بالسيف الألمانى بجعل بيتمان يهدد الروسيا وفرنسا بأن دولتى الوسط ستلجآن الى التعبئة العامة إلا اذا كفت الروسيا عن اجراءات التعبئة .

بيد أنه لما حاول السفير النمسوى فى برلين أن يقنع ألمانيا باتخاذ مثل هذا الأجراء رفضت ألمانيا . . ونصحت للنمسا بأن تقدم اعتراضاتها إلى

سان بطرسبورغ بنفسها . لكن كونراد لم ينتظر وصول هذا الجواب المثبط ، ولم يكن لا هو ولا برشتولد يكترثان إكتراثاً جدياً لالحاح بيتمان المتواصل ونصحه على الدوام بقبول اقتراح غراى للمحافظة على السلام ، وهو اقتراح يقول تشيرشكى انه قدمه فى ٣٠ يوليه بعد الغداء « بصورة بالغة التأثير » وقد أصغى اليه برشتولد « ممتقع اللون صامتاً » لكنه لم يقل سوى انه سيرفع الأمر إلى الأمبراطور فى الحال . . .

على أن برشتولد وكونراد برغم نصيحة بيتمان التى كان تشيرشكى قد حث عليها ولما يكد أقنعا الأمبراطور الشيخ أثناء مقابلتهما لفرنسوا جوزيف بعد الظهر بأن يصادق على القرارات الآتية ، وهى : متابعة الحرب ضد النمسا ؛ الرد على اقتراح غراى فى أدب كثير دون قبوله فى جوهره ؛ أن يصدر الأمر بالتعبئة العامة فى النمسا فى أول أغسطس على أن يكون الرابع من شهر أغسطس هو اليوم الأول للتعبئة وهذه مسألة يبحث فيها فى اليوم التالى . . .

لم تكن التعبئة النمسوية العامة عاملا حاسما فى السلسلة الأخيرة للحوادث التى سببت الحرب فان الأمر بهـا لم يصدر إلا بعد أن صدر أمر التعبئة الروسية العامة بثمانى عشرة ساعة فضلا عن انها لم تساعد على الاجراءات التى اتخذتها ألمانيا رداً على التعبئة الروسية .

وقد خدع برشتولد أوربا إذ ذاك بعد أن حصل على موافقة فرنسوا جوزيف النهائية على التعبئة النمسوية العامة — نقول خدعها برشتولد بتظاهره بالوقوف موقفاً أكثر انطواء على المسالمة تناقضه نياته الحقيقية التى كشفت عنها تفاصيل المجلس الوزارى السرى الذى عقد عند الظهر . فقد تحدث إلى السفير الروسى فى فينا حديثاً غاية فى الود ، وزعم للدول جميعاً أن النمسا مستعدة لأن تقترب من اقتراح غراى . وجعل السفير البريطانى يعتقد ، كما كتب إلى غراى بعد ذلك ، ان النمسا فى الواقع قد لانت أخيراً . . .

والذى يكشف الآن مع ذلك عن مبلغ ابتعاد برشتولد عن أقل نية فى

الرضوخ رضوخاً حقيقياً شريفاً للتوسط والرضا بوقف الزحف النمسوى فى صربيا هو المحضر الذى يثبت ما دار فى الاجتماع الوزارى . فان برشتولد بعد أن تلا اقتراح غراى الأخير وأبان أن يتمان يحض على قبوله حضاً قوياً ، أشار إلى أن التجربة قد دلت على أن الدول المتوسطة تحاول دائماً الوصول إلى التوفيق بارغام فريق واحد من الدول على النزول عن شىء من شروطه :

والراجح انهم سيحاولون هذا الآن حيث تمثل فرنسا وانجلترا وايطاليا أيضاً وجهة النظر الروسية فى الظرف الراهن . أما نحن (النمسا) فتأييد السفير الألمانى فى لندن لنا فى الوقت الحاضر مشكوك فيه جداً . فكل شىء ينتظر من البرنس ليشنوفسكى إلا أن يدافع عن مصالحنا بهمة . وإذا كانت حركتنا ستنتهى الآن بازدياد مكانتنا فقط فعبثاً فى رأبى كل ماشرعنا فيه . فان مجرد احتلال بلغراد لن نجنى منه شيئاً مطلقاً حتى ولو وافقت الروسيا عليه . إذ هذا كله سيكون مجرد زخرف باطل فالروسيا ستظهر فى مظهر المنقذ لصربيا وخاصة الجيش الصربى الذى يظل سليما وبعد سنتين أو ثلاث نتوقع اعتداء صربيا حيث تكون الظروف أسوء مما هى الآن بكثير .

لذلك قابل فرنسوا جوزيف فصرح جلالته فى الحال بأنه لا سبيل إلى اعتياق العمليات العسكرية لكنه قبل الخطة القاضية « بأن نعنى بتجنب قبول الاقتراح الانجليزى فى جوهره لكنا فى صيغة جوابنا يجب أن نتظاهر بالاستعداد لقبوله . . . »

وقد وافقه زملاؤه ، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك فلم يعارض تيزا الذى غير موقفه الآن كل التغيير . وأبدى ستيرج « ان مجرد فكرة عقد مؤتمر للتوسط بغيضة الى درجة انه يؤثر أن يتحاشى حتى التظاهر بقبولها . » وكان بيلنسكى معادياً أيضاً لفكرة المؤتمر لأن « مجرى مؤتمر لندن لا تزال ذكراه مرعبة الى درجة أن الرأى العام كله سوف يرفض تكرار منظر كنظره . »

من هذا يتضح انه لا صحة لما كان ذائعاً بين دول الوفاق من أن النمسا كانت أخيراً مستعدة لأن تلين لو لا أن تدخلت ألمانيا ببلاغها النهائى واعلنت الحرب فعجلت بالحرب الأوربية العامة . فان ألمانيا لم تتدخل الا بسبب التعبئة الروسية العامة .

« الخطر المهدد بالحرب » فى ألمانيا فى ٣١ يوليه

كان الامبراطور يتوقع تسوية الأمور تسوية سلمية فأعد بخط يده فى صباح ٣١ يوليه بياناً مستفيضاً لهيئة أركان حرب الأمير اليه أجمل فيه البرقيات التى تبودلت مع القيصر وضمنه البرقية التى بعث بها جورج الخامس الى البرنس هنرى قائلا : « ان مقترحاته تشبه مقترحاتى التى أبديتها لوزارة فينا فتركتنا ستة أيام بلا رد . . . لقد بدأت المباحثات الديبلوماسية أخيراً بين فينا وبيترهوف ورجت بيترهوف أيضاً لندن أن تتدخل . » وبينا الأمبراطور فى هذا تلقى من برلين رسالة تليفونية تعلن بما لا يترك مجالا لظل من الشك ، ان التعبئة العامة قائمة فى الروسيا . فأبرق الى الملك جورج دون أن ينتظر حتى يستشير وزارة خارجيته يقول :

أشكر لك كثيرا برقيتك الرقيقة . ان مقترحاتك تتفق وافكارى وتطابق البيانات التى تلقيتها الليلة من فينا وبعثت بها الى لندن . وقد تلقيت الساعة نبأ من المستشار بأنه تلقى إشعارا رسمياً يفيد أن نيكى أمر الليلة بتعبئة جيشه وأسطوله بأكملهما . فهو حتى لم ينتظر نتائج ما أقوم به من التوسط وتركنى دون نبأ ما . وأنا قائم الى برلين لأتخذ من الاجراءات ما يضمن سلامة حدودى الشرقية حيث ترابط الجنود الروسية فعلا .

لم يبلغ برلين نبأ التعبئة الروسية العامة التى صدر الأمر بها فى الساعة السادسة من مساء ٣٠ يوليه إلا متأخرا . وهـذا يدعو الى الدهشة فأنه

لا بورتاليس ولا الملحق العسكرى الألمانى ايجلنج كانا فى سان بطرسبورغ يعلمان شيئاً عن نبأ التعبئة النهائى حتى صباح ٣١ يوليه بعد أن كان النبأ قد طبع فى الصحف والصقت به الاعلانات فى الشوارع بساعات . فما أن علم ايجلنج به حتى هرول الى بورتاليس فأبرق به هذا فى الساعة ١٠ والدقيقة ٢٠ صباحا يقول :

صدر الأمر بتعبئة الجيش والأسطول تعبئة عامة . واليوم الأول للتعبئة هو ٣١ يوليه .

وأبلغ بيتمان الخبر الى بوتسدام فاستقل الأمبراطور سيارة الى برلين فى الحال وعقد اجتماعاً حضره بيتمان ومولتكه وموظفون آخرون . وفى الساعة الواحده بعد الظهر تقرر اعلان حالة « الخطر المهدد بالحرب » وقد ترتب على هذا الأعلان اتخاذ طائفة من الاحتياطات تمهيداً للتعبئة الفعلية وكانت هذه الاحتياطات من قبيل « الفترة المعدة للحرب » التى اصطلحت عليها الروسيا ولم يكن من الضرورى أو المحتم أن يستلزم هذا التعبئة . لكن معناه أن الحكومة الألمانية كانت تتوقع أن تتلوه التعبئة فى خلال ثمان وأربعين ساعة على الأقل ، والتعبئة معناها الحرب .

لقد قيل كثيراً أنه لو كانت الحكومة الألمانية أرادت السلم حقيقة حتى بعد أن علمت بالتعبئة الروسية لكانت قنعت باعلان التعبئة الألمانية ثم وقفت موقف الدفاع ولكان سازونوف وفى بما وعد به من أن الجيش الروسى لن يهاجم بل سيقف وسلاحه بيده ، ثم لكان هذا أتاح للسياسيين فرصة جديدة لأيجاد حل سلمى . وعلى الجملة قيل إن الرد الملائم على التعبئة هو هو التعبئة لا الحرب . ويغفل أصحاب هذا القول بجدلهم هذا حقيقة واقعة هى أن سان بطرسبورغ وباريس وكذلك برلين كانت قد أخذ رجالها العسكريون من أمد طويل بالمبدأ القائل بأن التعبئة معناها الحرب . وهذا

راى شاطر العسكريين فيه أسمى السلطات السياسية (كالقيصر اسكندر الثالث)

كذلك أغفل هذا الجدل حقيقة أخرى هى أن التعبئة فى تدابير هيئات أركان الحرب العامة فى كافة نواحى القارة مرتبطة كل الارتباط « بالخطة الحربية » التى لا تنص على الزحف الى الحدود فحسب بل تنص فى أغلب الحالات أيضاً على اجتياز الحدود لاكتساب مزية الهجوم وادارة رحى الحرب فى بلاد العدو . وفضلا عن ذلك فأن أصحاب هذا القول يتجاهلون أنه متى وقعت التعبئة تأخذ « الضرورة العسكرية » فى الرجحان على الاعتبارات المدنية والسياسية . وهذا صحيح فى ألمانيا بنوع خاص فأنه كان مسلما كل التسليم فى سان بطرسبورغ وباريس كما كان مسلما فى برلين أنه لما كان على ألمانيا أن تحارب فى ميدانين وكانت مهددة بما يمكن أن تسوقه عليها الروسيا وفرنسا من جيوش تفوق جيوشها فى العدد ، كان من الحتم أن توجه ضربتها الكبرى الى هذا الخصم أولا ثم الى الآخر بعده . فهى لم يكن يسعها أن تجزىء قواها الأساسية وتواجه كلا الميدانين فى الحال ولكى تستفيد من الحقيقة الواقعة فى أنها تستطيع أن تعبىء بأسرع مما تستطيع الروسيا كان عليها ان تبدأ بالهجوم على فرنسا فى الغرب بينما تكون القوى الروسية لا تزال تحتشد فى الشرق ببطء . وكان يجب أن تستعيض من تأخرها فى العدد بتفوق أداتها العسكرية فى السرعة . ولو كانت ألمانيا قابلت التعبئة بتعبئة مثلها ووقفت موقف الدفاع أثناء مفاوضات ديبلوماسيه (مرجح فشلها) لكان معنى هذا أن تضيع كل تفوق لها فى السرعة ولكان الوقت أتسع لأن تعبأ الجيوش الروسية وتحتشد تدريجاً على حدود بروسيا الشرقية فى جموع هائلة فتضطر المانيا بذلك إما الى تقسيم قواها ومواجهة قوى تفوقها فى العدد فى الشرق والغرب معاً ، وإما الى تعريض أراضيها الشرقية لغزو الروسيا وتوجيه مجهودها الأكبر ضد فرنسا فى الغرب . وإذن فلم تكن كراهية ألمانيا للسلام بل « الخطة الحربية » التى تستلزمها القلة فى العدد وحدودها المزدوجة هى

التى أرغمتها عقب إعلان حالة « الخطر المهدد بالحرب » ومجىء التعبئة على أثر هذا الاعلان على الزحف فى الحال الى ماوراء حدودها .

وكان مما ترسمه خطة ألمانيا الحربية أيضاً اختراق الأرض البلجيكية المنبسطة نسبياً والتى كانت أقل من غيرها مناعة من حيث تحصينها متحدية بذلك القانون الدولى وما تعهدت به من ضمان حياد البلجيك . . . ذلك أن الوصول الى الجيوش الفرنسية بالضرب رأساً نحو الغرب ودون مساس بأراضى لوكسمبرج وبلجيكا المفروض حيادها يستغرق أشهرا نظرا للأرض الجبلية والمرتفعات الشاهقة وخطوط الدفاع القوية التى قامت عليها حصون جعلت فرنسا تنشئها منذ سنة ١٨٧٠

وقد أرادت لبيتمان تربيته الحقوقية ونصيحة أحد الأخصائيين القانونيين بوزارة الخارجية أن يلتزم مقتضيات اتفاقية لاهاى لسنة ١٩٠٧ وكانت تنص على أن لا تبدأ الأعمال العدائية دون انذار سابق إما فى صورة إعلان حرب مسبب أو بلاغ نهائى يكون إعلان الحرب من شروطه . فلما اضطر الى قبول خطة ألمانيا الحربية التى كانت تنص على إرسال بلاغ نهائى الى بلجيكا بطلب المرور فى أراضيها رغب فى تسويغ هذا البلاغ باعلان سابق لحالة الحرب بين ألمانيا والروسيا إذا لم تذعن الروسيا لبلاغ نهائى تطالب فيه بتسريح جيوشها فى الحال . وقد عارض فالكنهاين وخاصة تربتس فى إعلان الحرب على الروسيا بهذه الكيفية واعتبرا مثل هذا الاعلان غلطة فى الفن الديبلوماتيكى لا داعى لها فضلا عن أنها ثقيلة بادية الخرق ، تخلف فى الرأى العام وقعاً غير ميمون وتصم ألمانيا أمام العالم بوصمة المعتدى . وكان بورتاليس أيضاً من هذا الرأى ، وقد دل مجرى الحوادث على أنه كان محقاً . لكن بيتمان وياجو كان يلوح فى تلك اللحظة أنهما يعتقدان أن خرق حياد بلجيكا قبل أن تصبح ألمانيا رسمياً فى حرب مع الروسيا يمكن أن يؤثر فى الرأى العام العالمى أسوأ من التأثير الذى يتركه مبادءة ألمانيا بأعلان الحرب

وبذا قرر بيتمان فى الحال أن يرسل الى الروسيا بلاغاً نهائياً ويبعث الى خليفتها ببلاغ نهائى آخر

وهكذا أبلغ بورتاليس ان تعبئة الروسيا لجيشها واسطولها بأكملها بينما المفاوضات لا تزال قائمة وبينا ألمانيا لم تتخذ أى اجراء فى سبيل التعبئة قد أضطر ألمانيا الى اعلان حالة «الخطر المهدد بالحرب» «ولا بد أن تتلو التعبئة ذلك اذا لم تقف الروسيا كل اجراء حربى ضد النمسا والمجر وضدنا فى خلال اثنتى عشرة ساعة وتعان الينا بهذا المعنى تصريحاً واضحاً. فنرجوكم ابلاغ سازونوف ذلك وأحاطتنا تلغرافياً بساعة تبليغكم»

تلقى بورتاليس هذه الرسالة عقب الساعة الحادية عشرة بقليل ففك رموزها وسلمها الى سازونوف فى منتصف الليل. وقد أجابه سازونوف كما فعل القيصر بأن من المحال وقف اجراءات التعبئة.

ولما كانت المهلة المحددة لجواب الروسيا النهائى لا تنتهى قبل ظهر أول أغسطس فقد بذل بورتاليس مسعى فى جهة أخرى. إذ أراد أن يستفيد من صداقته الشخصية بالكونت فريدريكس وزير خاصة القيصر فبعث اليه بكتاب يناشده أن يستخدم نفوذه مع القيصر ليحول دون وقوع كارثة الحرب قبل فوات الآوان. فقابل الكونت القيصر لكن نيقولا الثانى لم يستطع أن يفعل سوى أن يؤكد له كما أكد للامبراطور أن التعبئة الروسية ليس معناها الحرب وأنه يأمل أن لا يكون معنى التعبئة الألمانية الحرب كذلك.

وفى البلاغ النهائى المرسل الى باريس كلف البارون شون أن يحيط فرنسا علما بالمطالب الموجهة الى سان بطرسبورغ وأن يقول إن التعبئة الألمانية لا بد أن يكون معناها الحرب. ثم طلب اليه أن يسأل الحكومة الفرنسية «أناوية هى أن تلتزم الحياد فى حرب روسية ألمانية؟ ويجب أن يكون الرد فى خلال ثمانى عشرة ساعة.» فاذا أعلنت فرنسا على غير المنتظر أنها عازمة على البقاء على الحياد طلب اليها السفير تسليم قلعتى تول وفردان ليكونا رهينة

لبقائها على الحياد على أن تردا اليها بعد إنهاء الحرب مع الروسيا .

فلما ذهب البارون شون فى الساعة السابعة مساء الى كى درسى لينفذ تعليماته كانت الحكومة الفرنسية قد اتصل بها من سفير فرنسا فى برلين أن ألمانيا قد أعلنت « حالة الخطر المهدد بالحرب » عقب التعبئة الروسية العامة وأن شون على وشك أن يستفسر فرنسا عن موقفها . وبذا كان لدى فيفيانى متسع من الوقت لأن يتشاور مع بوانكاريه فى كيفية تجنب الرد المباشر . فلما سأله شون أجابه ببساطه : « دعنى آمل أن يكون فى الامكان تجنب القرارات المتطرفة واسمح لى بالوقت للتفكير » ثم وعد بأن يرد عند انتهاء الثمانى عشرة الساعة أى فى الساعة الواحده بعد ظهر يوم السبت أول أغسطس .

فلما جاء شون فى اليوم التالى قبل انتهاء الثمانى عشرة الساعة ليعيد سؤاله عما اذا كانت فرنسا ستلتزم الحياد أجابه فيفيانى بقوله : « إن فرنسا ستعمل ما يتفق ومصالحها . » وإذ كان بذلك لا يعد بالوقوف على الحياد لم يقل شون بطبيعة الحال شيئاً عن تعليماته السرية الخاصة بالمطالبة بقلعتى تول وفردان . ولم يعلم الفرنسيون بنية الألمان هذه إلا بعد أن نجحوا أثناء الحرب فى فك رموز البرقيات الألمانية التى تبودلت فى يوليه ١٩١٤ . . .

التعبئة فى فرنسا وألمانيا فى أول أغسطس

بعد أن قدم شون تبليغه الأول عن التعبئة الروسية والاجراءات التى اضطرت ألمانيا الى اتخاذها من جراء ذلك — نقول بعد أن قدم شون هذا التبليغ بقليل تلقت الحكومة الفرنسية برقية باليلوج المتأخرة التى تعلن ذلك نهائياً وكان وصولها فى منتصف التاسعة من مساء ٣١ يوليه فلم يترك هذا شكا فى أن نبأ التعبئة الروسية الذى جاء من مصادر ألمانية بواسطة جول كامبون وشون كما أذاعته إحدى الشركات التلغرافية كان نبأ صحيحاً . وكان من شأن

هذا النبأ مع ما أبلغ الوزارة الفرنسية كامبون إياه من نبأ اعلان ألمانيا حالة « الخطر المهدد بالحرب » أن قضى على كل شك خامرها فى أن الحرب واقعة لا محالة . فطلب الجنرال جوفر تعبئة الجيش الشرقى بأكمله ولذا قررت الوزارة فى الساعة الخامسة مساء قبل أن يأتى شون ليسأل فيفيانى عن حياد فرنسا أن تأمر بأن « التغطية » التى كان قد صدر الأمر بها من قبل مع شيء من التحديد فى ٣٠ يوليه فيما يتعلق « بانسحاب عشرة الكيلو مترات » يجب الآن أن تنفذ بأكملها .

بعد ذلك أبلغ الملحق العسكرى الروسى فى باريس سان بطرسبورغ فى الساعة الواحدة صباحا ما يلى :

> لقد صرح لى وزير حربية فرنسا فى لهجة تدل على الحماسة القلبية بعزم الحكومة الثابت على الحرب ، ورجانى أن أثبت ما يحدو هيئة أركان الحرب الفرنسية العامة من الأمل فى أن نوجه كافة جهودنا ضد ألمانيا وأن نعامل النمسا ككم مهمل .

وفى المساء وقع ذلك الحادث المحزن الا وهو اغتيال جان جوريه الزعيم الاشتراكى المحنك الذى طالما ناهض سياسة بوانكاريه وكان يخشى أن تؤدى ببلاده يوماً إلى الحرب . وفى نفس المساء جاء من رومه تأكيد سرى بأن الحكومة الايطالية تعتبر نفسها فى حل من ارتباطات المحالفة الثلاثية بسبب المسلك الذى سلكته النمسا . لكن السير ادوارد غراى كان لايزال ماضياً فى خطته ، واقفاً موقف من لا يريد التورط ، فكان بموقفه يكرب بول كامبون فى لندن والوزارة الفرنسية فى باريس أشد الكرب .

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى السبت أول أغسطس أعلن الجنرال جوفر انه لا يسعه بعد الآن أن ينهض بتبعة القيادة ما لم تأمر فرنسا بالتعبئة العامة . ذلك أنه كان يتوهم أن ألمانيا ماضية فى التعبئة العامة تحت ستار حالة « الخطر المهدد بالحرب » ، وعندئذ فوضت الوزارة إلى وزير الحربية

ان يأمر بالتعبئة العامة قبل الساعة الرابعة بعد الظهر . وقد كان يلوح مؤكداً بالنظر الى تبليغ شون ورد فيفانى عليه وبالنظر الى برقية واردة من باليلوج بأن ألمانيا أرسلت إلى الروسيا بلاغا نهائياً أن ألمانيا ستعبىء قريباً ان لم تكن قد أخذت فى التعبئة كما توهم جوفر ..

وقد تلقت برلين فى منتصف الساعة الواحدة من صباح يوم أول أغسطس برقية بورتاليس التى ينبىء فيها بأن سازونوف أجاب بأن وقف التعبئة الروسية مستحيل لأسباب فنيـة . وكانت المهلة المحددة لأى جواب آخر تنتهى عند الظهر . وبرقية شون التى تحتوى رد فيفيانى النهائى وهو « ان فرنسا ستعمل وفاقا لمصالحها » لم تصل برلين الا فى الساعة السادسة والدقيقة ١٠ مساء لكن برقياته التى بعث بهـــا قبل ذلك جعلت من المؤكد تقريباً ، كما كانت ألمانيا تتوقع ، ان فرنسا لن تلتزم الحياد ولن تسلم بالتأكيد تول وفردان ليحتلهما الألمان ولذا أمرت ألمانيا بالتعبئة فى الساعة الخامسة من مساء أول أغسطس اى بعد ساعة من صدور الأمر بهـا فى فرنسا فألمانيا كانت آخر دولة من الدول العظمى اتخذت هذا الاجراء العسكرى النهائى .

ولمـا كان بيتمان يتوقع أن يصر سازونوف على رأيه فى عدم استطاعة الروسيا وقف التعبئة وأن لا يذعن للبلاغ النهائى فقد بعث الى بورتاليس باعلان الحرب وتلقاه السفير فى الساعة السادسة مساء وذهب به فى الحال الى سازونوف وقد سأله ثلاث مرات وإمارات التأثر بادية عليـه لقيامه بهذا الواجب الأليم — ثلاث مرات يسأل وزير الخارجية الروسية ألا يستطيع أن يجيبه جواباً صالحاً عن طلبه الذى تقدم اليه به فى اليوم السابق فيجيبه سازونوف ثلاث مرات بالنفى. عندئذ أخرج بورتاليس من جيبه ورقة مطبقة وهو يقول « سيدى . أما والحال هكذا فأنى مكلف أن أسلمك هذه المذكرة » وناوله اعلان الحرب . ولم يستطع السفير ضبط عواطفه فخطا الى النـافذة باكياً يقول « لم أكن أعتقد أبداً أنى أغادر سان بطرسبورغ فى مثل هـــذه

الأحوال ، ثم عانق سازونوف وانصرف وهو يرجو أن يبلغ فى السفارة ما يتعلق بجوازاته والتدابير الخاصة بسفره لأنه عاجز فى تلك اللحظة عن الكلام فى شىء ما .

أما اعلان ألمانيا الحرب على فرنسا فلم يقع إلا فى الساعة السادسة والدقيقه ١٥ من مساء ٣ أغسطس . وكان هذا الاعلان ينسب الى فرنسا عدة أعمال عدائية : « أن الجنود الفرنسية اجتازت الحدود عند الفوج » . « أن طياراً فرنسياً لابد أن يكون طار عبر الأرض البلجيكية قتل أمس رمياً بالرصاص وهو يحاول تخريب السكك الحديدية فى فيزل . . . وأمس رمى بعض الطيارين الفرنسيين القنابل على السكك الحديدية على مقربة من كارلسروه ونورمبرج . وبذا أرغمتنا فرنسا على الحرب » . من ثم كلف شون أن يبلغ الحكومة الفرنسية ماسلف ذكره وأن يطلب جوازات سفره ويعهد الى السفير الأمريكى بالسفارة الألمانية .

وقد كانت هذه الأعمال العدائية المزعومة قائمة على معلومات كاذبة لم تعن الحكومة الألمانية فى عجلتها بالتثبت منها .

انجلترا وبلجيكا

كان وزير الخارجية البريطانية لايزال ممتنعاً عن أن يتعهد بشىء لفرنسا على الرغم من مناشدة بول كامبون لغراى فى ٣٠ يوليه وتذكيره إياه بالمذكرات التى تبودلت فى سنة ١٩١٢ وعلى الرغم من توسل المسيو بوانكاريه شخصياً الى الملك جورج برسالة حملها اليه رسول خاص بعد ظهر يوم ٣١ يوليه . فقد قال غراى فيما بعث به الى السفير البريطانى فى باريس :

لقد مضيت أقول للمسيو كامبون إننا لا يسعنا أن نربط البرلمان سلفا وأن كنا سنعرض سياستنا عليه . والى اللحظة الراهنة لم نشعر ولم يشعر الرأى العام بأن أية معاهدات أو ارتباطات لهذه البلاد داخلة

فى الموضوع وقد تغير تطورات أخرى هذه الحالة وتحمل الحكومة والبرلمان على أن يريا أن ثمت ما يبرر التدخل . وقد تكون المحافظة على حياد بلجيكا عاملا مهما ولا أقول حاسما فى تقرير موقفنا . . .

وقد أعرب المسيو كامبون عن خيبة أمله بردى خيبة عظيمة وكرر السؤال عما اذا كنا سنساعد فرنسا إذا اعتدت عليها ألمانيا . فقلت إنى لايسعنى إلا أن ألتزم جوابى وهوأن مدى الحوادث فى الوقت الحاضر لا يجعلنا نرتبط بشىء . وآخر الأنباء هوأن الروسيا أمرت بالتعبئة التامة لأسطولها وجيشها . وهذا فيما يبدو لى سيعجل بأزمة ويظهر أن التعبئة الألمانية سببتها الروسيا .

لقد كان السير ادوارد غراى يعلم أن الوزارة كانت لا تزال منقسمة على مسألة اشتراك بريطانيا فى حرب أوربية ولذا كان معنياً بأن يحاذر كل المحاذرة فى تجنب ما من شأنه أن يورطه مع فرنسا الى أن تميل الوزارة والبرلمان الى جانب فرنسا بصورة حاسمة وبحادث جديد كبلاغ نهائى ترسله ألمانيا الى فرنسا أو أن ترفض ألمانيا احترام حياد البلجيك . وهذا الاحتمال الأخير قد بدا له من طلب بيتمان وقوف بريطانيا على الحياد فكان « كنور كشاف » دل على مظهر جديد فى الحالة .

ففى يوم الجمعة ٣١ يوليه وهو اليوم التالى لتلقيه « طلب » بيتمان قرر غراى أن يجلو المسألة البلجيكية بمطالبة الحكومتين الفرنسية والألمانية بأن تؤكدا احترام حياد بلجيكا ما دامت لا تنتهكه دولة أخرى . كذلك أبلغ حكومة بروكسل هذ المسعى ، وزاد على ذلك قوله : « انى أفترض أن بلجيكا ستحافظ على حيادها بقدر استطاعتها وأنها ترغب وتنتظر من الدول الأخرى أن تراعيه وتصونه . »

فأما فرنسا فأعطت فى الحال تأكيداً بالايجاب ، وأما ياجو فأبلغ السفير الانجليزي فى برلين أنه لا يسعه الرد قبل أن يشاور بيتمان والأمبراطور . « وكان أميل الى الشك فى امكانهم الرد على الاطلاق لأن أى رد يعطونه

يمكن فى حالة الحرب أن يكون له أثر لا يرغب فيه وهو اذاعة جزء من خطتهم الحربية الى حد ما . »

على أن السير ادوارد غراى كان فى يوم الجمعة نفسه وقبل أن يسمع رد ألمانيا فيما يتعلق بيلجيكا — ذلك الرد المريب ، قد صمم فى نفسه واتفق مع نيكولصن وكرو على أن واجب الشرف نحو فرنسا ومصالح انجلتره المادية تحتم عليها التدخل لمصلحة فرنسا والروسيا . فكان فى الصباح قد أخبر السفير الألمانى أنه اذا أمكن ألمانيا أن تقدم اقتراحا معقولا يظهر أن ألمانيا والنمسا تسعيان للمحافظة على السلام الأوربى فأنه يؤيده ويذهب الى حد القول بأنه اذا لم تقبله فرنسا والروسيا لن يكون له شأن بالعواقب . « لكنه مع ذلك » أنذر ليشنوفسكى « بأنه اذا دخلت فرنسا فى النزاع فسينجر اليه » ، وقد أخبر كامبون بهذا البيان بصفة سرية لكنه عنى بأن يوضح له أن هذا التصريح « ليس فى مرتبة الارتباط مع فرنسا بشىء » ، وأنه لا يستطيع أن يربط البرلمان مقدماً . ولكامبون أن يبلغ باريس فقط أن غراى « الذى هو من أنصار التدخل عاجلا » ، سيبحث الموضوع مع الوزارة فى صباح اليوم التالى .

وفى أول أغسطس جدد كامبون رجاءه ومناشدته لغراى وكان يعلم ببلاغات ألمانيا النهائية وبعزم فرنسا على إصدار الأمر بالتعبئة فأبان بقوة أن واجب بريطانيا يقضى بمساعدة فرنسا بسبب انسحاب الأسطول الفرنسى الى البحر الأبيض المتوسط تاركا الشاطىء بلا دفاع إلا ما يمكن أن تقدمه بريطانيا من المساعدة لمصلحة بريطانيا أيضاً . قال كامبون « فاذا كان الانجليز لا يساعدون فرنسا ضاع الوفاق » ، وسواء كان النصر لألمانيا أو لفرنسا والروسيا فسوف يكون مركز الانجليز فى النهاية متعباً جداً . » بيد أن غراى أجاب بأنه ليس ثمة ارتباط ، وأنه اذا أرغمت فرنسا على الدخول فى حرب ضد ارادتها فيكون ذلك لتحالفها مع الروسيا . وانجلتره قصدت أن تبتعد عن المحالفات حتى لا تتورط بهذه الطريقة . « وليس معنى هذا أننا لن نساعد فرنسا كائنة

ما كانت الظروف ولكن معناه أن فرنسا تتخذ القرار الذى تراه دون أن تعتمد على مساعدة ليس فى استطاعتنا الآن الوعد بها. فأجاب كامبون قانطا إنه لا يستطيع أن ينقل هذا الرد الى حكومته وطلب أن يخول الاجابة بأن الوزارة البريطانية لم تتخذ قراراً بعد. فقال غراى عندئذ ليخفف من يأس كامبون إن ظهور أسطول ألمانى فى بحر المانش واعتدائه على الشواطىء الفرنسية أو خرق حياد بلجيكا يمكن أن يغير الرأى العام فى انجلتره وإنه سيعرض هذه المسائل على الوزارة فى صباح اليوم التالى. وفى تلك الاثناء لكامبون أن يبلغ حكومته أنه لم يتخذ قرار.

وكان ٢ أغسطس «أحد التصميم» لانجلتره؛ فقد لبثت الوزارة منعقدة طيلة النهار تقريباً فكانت فى الصباح لاتزال من عدم الوثوق بالرأى العام البريطانى ومن الانقسام على نفسها بحيث لا يسعها اتخاذ قرار. وقد ظلت الى وقت الغداء والخطر من استقالة أقلية كبيرة من الوزارة مما يفضى الى إضعاف مركز الحكومة فى هذه الآونة العصيبة إضعافاً شديداً، يحمل الأغلبية على التردد برغم ما اتصل بالوزارة من أن الجنود الألمانية قد دخلت لوكسمبورج وقد قال غراى لكامبون بعد الظهر أن حياد بلجيكا أهم بكثير من حياد لوكسمبورج ولذا لم يكن خرق حياد الأخيرة فى ذاته سبباً لتغيير حاسم فى موقف الوزارة؛ فالواقعة الحاسمة هى أن كتاباً وصل عند الظهر من المستر بونارلو زعيم حزب المحافظين يضمن للوزارة تأييد أنصاره فى البرلمان وكان الكتاب كما يلى.

«عزيزى المستر أسكويث — أشعر ومعى اللورد لانسدون أن من واجبنا ابلاغكم أنه من رأينا ورأى جميع الزملاء الذين أمكننا مشاورتهم أنه ليكونن من أضر الأشياء بشرفنا وأمن المملكة المتحدة أن تردد فى تأييد فرنسا والروسيا فى الظرف الراهن. ونحن نقدم بلا تردد تأييدنا للحكومة فى كل ما يمكن أن تراه ضرورياً من الاجراءات لهذا الغرض»....

تحريراً فى ٢ أغسطس ١٩١٤

فعلى أثر تلقى هذا الوعد بالتأييد صمم غراى وصممت معه الوزارة على اعطاء كامبون التأكيد الذى طلبه فى اليوم السابق خاصا بشاطىء فرنسا الشمالى. وهكذا أبلغ غراى السفير الفرنسى فى الساعة الثالثة بعد الظهر انه « اذا قدم الأسطول الألمانى الى بحر المانش أو اخترق بحر الشمال ليقوم بعمليات عدائية ضد شواطىء فرنسا أو سفنها فان الاسطول البريطانى سيقدم كل ما يسعه من الحماية . » وقد أضاف غراى الى هذا التأكيد قوله إنه لا بد من تصديق البرلمان عليه وانه ليس معناه أن ترسل انجلتره جنودا الى فرنسا . وقد كان هذا مجرد وعد بمحاربة ألمانيا يتوقف على قيام الأسطول الألمانى بعمل يفترض وقوعه. لكنه مع ذلك كان يلوح بمثابة الحرب ولذا أفضى الى استقالة اللورد مورلى والمستر جون بيرنز من الوزارة . ولقد روح أيضاً عن الفرنسيين كثيراً وان لم يكن كل ما أملوه . وكان إعطاء هذا التأكيد قبل أن تقدم ألمانيا بلاغها النهائى الى بلجيكا - وهو البلاغ الذى لم يصل خبره الى لندن الا فى صباح ٣ أغسطس .

فأنه فى الساعة السابعة من مساء ٢ أغسطس قدم وزير ألمانيا المفوض فى بروكسل الى المسيو دافنيون وزير خارجية بلجيكا طالب ألمانيا التى وضعها مولتكه فى ٢٦ يوليه وأرسلت من برلين فى ٢٩ يوليه داخل غلاف مختوم فى طى غلاف مختوم . وقد جاء فيها « أن لدى ألمانيا معلومات موثوقاً بها تتعلق بما يرتأى من زحف بعض القوى الفرنسية المسلحة على امتداد الموز ، خط جيفه - نامور . فهم لا يداخلهم شك فى عزم فرنسا على الزحف على ألمانيا من الاراضى البلجيكية . » ولما كان يخشى أن لا تستطيع بلجيكا مقاومة زحف الفرنسيين دون مساعدة « فأن المحافظة على الذات تحتم على ألمانيا توقع الاعتداء » وإن ألمانيا لتأسف لانها ستضطر الى الدخول الى أرض بلجيكية دون أن تحدوها أى فكرة فى القيام بأعمال عدائية ضد بلجيكا . فاذا اتخذت المملكة « نحو ألمانيا موقف الحياد المشرب بالعطف » فأن الحكومة الالمانية

تعد بأن تضمن عند عقد الصلح حقوق سيادة بلجيكا واستقلالها وأن تجلو عن أراضيها وتشترى بالنقد كل الحاجيات التى تتطلبها جيوشها وأن تصلح ما يمكن أن يحدثه جنودها من الضرر . لكنه اذا عارضت بلجيكا الجنود الألمان أو أتلفت السكك الحديدية والانفاق ، فستضطر ألمانيا مع الأسف الى اعتبار المملكة عدوة لها » . وقد طلب الرد النهائى فى خلال اثنتى عشرة ساعة .

وقد أبلغ المسيو دافينيون الملك البرت هذا الانذار فى الحال ودعيت الوزارة الى الانعقاد وظل مجلسها منعقداً الى ما بعد منتصف الليل . وقد أجمعت على أن شرف بلجيكا ومصالحها تتطلب رفض المطالب الألمانية . . . لانه ما من « مصلحة ستراتيجيكيه » ألمانية يمكن أن تبرر « خرق القانون الدولى » ، وأن الحكومة البلجيكيه لو قبلت المقترحات المعروضة عليها لضحت فى سبيل ذلك بشرف الأمة ولخانت فى الوقت نفسه واجبها نحو أوربا ، فهى لذلك « مصممة كل التصميم على أن ترد بكل قواها كل اعتداء على حقوقها » هذا هو الجواب الجرىء الذى اعطته المملكة الصغيرة الى وزير ألمانيا المفوض فى الساعة السابعة من صباح ٣ أغسطس .

وفى صباح يوم ٣ اغسطس أحاط المسيو دافينيون الدول فى الحال ببلاغ ألمانيا ورفضه . لكنه لم يطلب الى الدول الضامنة لحياد بلجيكا مساعدتها على الاثر . فأنه لم يكن بادىء الرأى مقتنعاً ـ كما روى وزير انجلترا المفوض ـ بأن هنالك خطراً حقيقياً من ناحية ألمانيا وكان يرغب فى حالة وقوع اعتداء ان يظهر ان البلجيكيين قادرون على الدفاع عن انفسهم . وعلى ذلك لم يفعل الملك البرت فى ٣ اغسطس سوى ان ناشد الملك جورج « التدخل الديبلوماتيكى » لصيانة حياد البلجيك .

وقد اتصل بالسير ادوارد غراى نبأ البلاغ النهائى الألمانى لبلجيكا ورفضه البات حوالى ظهر يوم الاثنين ٣ أغسطس وقبل أن يلقى فى البرلمان خطبته

التى كان مقرراً أن يعلن فيها ما اعتزمته بريطانيا من أن تقاوم بالقوة كل اعتداء من جانب ألمانيا على شاطىء فرنسا الشمالى ، فمكنه هذا النبأ من طرح مسألة حياد بلجيكا بصورة فعالة ولم يكن لديه من الوقت ما يسمح له . . . بوضع خطبة رسمية . لكن ما قاله فى مجلس العموم بعد ظهر يوم ٣ أغسطس بليغ فى بساطته وفى خطورة موضوعه خطورة محزنة . . . قال « فلو فقدت بلجيكا استقلالها لفقدت هولندة ودانيماركا استقلالهما ، ولو هزمت فرنسا وأضاعت مركزها كدولة عظمى لوقفت انجلترة أمام « توسع ألمانيا الذى لا يحد وجهاً لوجه . . . » ثم تناول ما يمكن أن يدلى به من أنه يسع انجلترة أن تقف بعيدة وتدخر قوتها ثم تتدخل فى النهاية لحماية مصالحها فقال . . . . « انى لا أعتقد لحظة واحدة أننا فى نهاية الحرب ، حتى لو وقفنا بعيداً ، وبقينا بعيداً ، نكون فى مركز ، مركز مادى ، يمكننا من استخدام قوتنا بشكل حاسم فى نقض ما يكون قد حدث فى خلال الحرب وفى منع غرب أوربا بأكمله وهو يقابلنا . . . من الوقوع تحت حكم دولة واحدة ، وإنى واثق كل الثقة بأن مركزنا الأدبى سيكون حينئذ قد أفقدنا كل احترام . . »

وقد قوبلت خطبته بهتاف لم يدع مجالا للشك فى أن البرلمان سيؤيده . وأسر غراى بعد القاء خطبته واجتماع الوزارة فى المساء — تقول أسر الى كامبون أن الوزارة قررت فى صباح اليوم التالى أن ترسل التعليمات الى السفير البريطانى فى برلين بمطالبة ألمانيا بسحب انذارها النهائى الموجه الى بلجيكا قال غراى « فأذا رفضوا فالحرب » .

وقوى مركز الوزارة فى اليوم التالى الموافق ٤ أغسطس بما جاء من أن الألمان اعتدوا على الأرض البلجيكية فعلا . فأرسل السير ادوارد غراى الانذار النهائى فى الساعة الثانية بعد الظهر الى برلين وذكر بلاغ ألمانيا النهائى الموجه الى بلجيكا والخبر القائل بأن « الأرض البلجيكية قد اعتدى اليها عند جيمنيش » فأعاد « ازاء هذه الظروف وبالنظر الى أن ألمانيا رفضت أن تعطى فيما يتعلق

بلجيكا نفس التأكيد الذى اعطته فرنسا فى الأسبوع الماضى ردا على طلبنا ، ما طلبه واقتضى أن يتلقى عليه فى لندن والى منتصف الليل رداً مرضياً وإلا طلب السير ادوارد جوشن جوازات سفره وعهد الى السفير الأمريكى بالسفارة البريطانية .

وذهب السير ادوارد جوشن بالبلاغ النهائى الى وزارة الخارجية الألمانية فى السابعة مساء فأخبره ياجو بأنه ليس بالاستطاعة اعطاء تأكيد كالتأكيد المطلوب وأنه سبق أن أوضح له فى نفس اليوم أن ألمانيا اضطرت لضرورة خططية أن تخترق بلجيكا لتبلغ فرنسا من أسرع طريق وأسهله . وأن المسألة لألمانيا مسألة حياة أو موت . عندئذ قال جوشن إنه يجب أن يذهب لمقابلة المستشار فقد تكون هذه آخر فرصة له . واليك ما يقول جوشن .

لقد وجدت المستشار متهيجاً جداً — فما أن رآنى سعادته حتى وجه الى خطابا استغرق ٢٠ دقيقة . قال : إن هـذه الخطوة التى خطتها حكومة جلالة الملك مخيفة الى درجة ما . أمن أجل كلمة « حياد » طالما أهملت فى زمن الحرب ، أمن أجل قصاصة ورق تريد بريطانيا العظمى أن تعلن الحرب على أمة قريبة لم ترغب فى شيء رغبتها فى أن تكون صديقة لها . أن مساعيه فى هذا الباب قد ذهبت كلها سدى بفضل هذا العمل المرعب الأخير . والسياسة التى كرس نفسه لها مذ تولى منصبه قد انهارت كما ينهار البيت من الورق . . . قلت إنه بنفس الطريقة التى يريد هو والهرفون ياجو أن يفهمانى بها أن مسألة الزحف فى أراضى بلجيكا وخرق حيادها هى لأسباب ستراتيجيكية مسألة حياة أو موت ، أحب أنا أيضاً أن يفهم أنها مسألة « حياة أو موت » بالنسبة لشرف بريطانيا العظمى أن توفى بعهدها الخطير الذى قطعته بأن تفرغ قصاراها فى الدفاع عن حياد بلجيكا إذا اعتدى عليه . فهذا الميثاق الخطير يجب ان يلتزم وإلا فأية ثقة يمكن أن تكون بأى تعهد تقطعه بريطانيا العظمى فى المستقبل ؟ فقال المستشار « ولكن بأى ثمن سيحفظ هـذا الميثاق . أفكرت الحكومة البريطانية فى ذلك ؟ » فلمحت لسعادته بأصرح ما

استطعت الى أن الخوف من العواقب يكاد ان لا يكون مبرراً للنكث بالعهود . لكن سعادته كان متهيجاً يستحوذ عليه نبأ ما اقدمنا عليه استحواذا ظاهرا ، كان قليل الميل الى الاصغاء الى صوت العقل بحيث أمسكت عن ان ازيد النار لهيباً بالمضى فى محاورته . فلما هممت بالانصراف قال لى ان الضربة التى وجهتها بريطانيا العظمى بأنضمامها الى اعداء المانيا يزيد وقعها سوءاً انه وحكومته لبثا الى آخر لحظة تقريباً يعملان معنا ويؤيدان جهودنا فى سبيل المحافظة على السلام بين النمسا والروسيا . فسلمت بأن هذا هو الواقع وقلت ان هذا جزء من المأساة التى شهدت الأمتين تنقسمان فى نفس اللحظة التى باتت فيها علاقاتهما اكثر ودادا واخلاصاً مما كانت عليه عدة سنين .

فلما انتصف الليل ولم تقدم المانيا الى جوشن جواباً مرضياً اصبحت المانيا وانجلتره فى حرب . وهكذا أشعلت شرارة سيراجيفو النار فاندلعت السنتها تحرق اوربا ، وزجت صربيا والدول العظمى فى عراك هو الحياة أو الموت ،

الفصل الثاني عشر

الختـــام

ليس فى الدول واحدة أرادت حرباً أوربية . فسادتهـــا الحاكمون ووزراؤها ماخلا بضعة قليلة جداً تنبأوا جميعهم بأنها لتكونن حرباً مرعبة لا تعرف نتائجها السياسية على التحقيق وإن كانت الخسارة فى الأرواح ، والآلام ، والعواقب الاقتصادية سوف تكون مفزعة . وهذا حق عن باشتش وبرشتولد وبيتمان وسازونوف وبوانكاريه وسان جوليانو والسير ادوارد غراى وإن تفاوتت درجة الحقيقة فيه بالنسبة لهم . لكن أحداً منهم حتى السير ادوارد غراى ما كان يستطيع بأن يتنبأ أن النتائج السياسية ستكون بهذه الجسامة وأن العواقب الأخرى ستكون بهذا الشكل المرعب .

لا ريب أن الكثير من الدول كان يرى فى الحرب الأوربية احتمال تحقيق بعض المنافع المختلفة التى كان يرغب فى تحقيقها . فلصربيا تحقيق الوحدة القومية لكافة الصرب ، وللنمسا انعاش مكانتها المتداعية كدولة عظمى وكبح النزعات القومية التى كانت تهدد كيانها ذاته ، وللروسيا تأدية رسالتها التاريخية فى السيطرة على الآستانة والمضايق ، ولألمانيا منافع اقتصادية جديدة ورد التوازن الدولى الى ما كان عليـه بعد إذ اضطرب بضعف المحالفة الثلاثية وتوثق الوفاق الثلاثى ، ولفرنسا استرداد الألزاس واللورين والخلاص من الخطر الألمـانى ، ولانجلتره القضاء على الخطر البحرى الألمـانى والعسكرية البروسية . كل هذه المنافع وكثير غيرها كان يسعى اليه فى حرارة المحموم وتدس الدسائس من أجله من كل جانب فى اللحظة التى نشبت فيها الحرب بالفعل لكن هذا لا ينهض دليلا مقنعاً على أن أحداً من الساسة الذين أسلفنا

ذكرهم قد رمى عمداً إلى احداث الحرب لتحقيق هذه المنافع . ولا يمكن الحكم على البواعث التى حدت رجالا قبل الحرب بما فعله هؤلاء الرجال فى حالة جديدة بالمرة نشأت بمجرد ما دهمتهم حرب سعوا فى درئها . وفى الواقع انه فيما يتعلق بالدولتين اللتين نشــأ بينهما النزاع العاجل كان تأجيل الحرب الأوربية أو تجنبها خليقاً ان يسهل تحقيق المنافع النهائية التى رمتا اليها . فقد كان باشتش يعلم أن هنالك فرصاً أكثر لتحقيق الوحدة الصربية القومية عندما يثبت لصربيا ماجنته من حروب البلقان وتتم تسليحات الروسيا الحربية والبحرية فى سنة ١٩١٧ ، وبرشتولد أيضـاً كان يعلم أن لديه فرصاً أكثر للقضاء على خطر صربيا الكبرى وتقوية النمسا لو استطاع أن يدفع تدخل الروسيا ويدرء الحرب الأوربية العامة .

كذلك حق أن اللحظة التى أعلنت فيها الحرب قوبلت بمظاهر مختلفة من الحماسة من جانب الشعوب فى كل الدول فكانت هذه الحماسة قوية فى صربيا والنمسا والروسيا وألمانيا وكانت أخف فى فرنسا ؛ أما فى انجلتره فكادت ألا تكون هناك مظاهر حماسية . لكن هذا لا يعنى أن الشعوب أرادت الحرب أو كان لها تأثير حاسم فى إحداثها . وانها لظاهرة نفسية غريبة أن تنشأ أو تخلق بين الجماهير سورة من الانفعال الوطنى لم تكن من دلائل أمانيها قبل الحرب وذلك بمجرد ما تشتبك دولة فيها . وفى البلاد التى كانت فيها مظاهر الحماسة على أشدها كان نفوذ الشعب على الحكومة أقل .

ومهما يكن من أمر فقد نشبت حرب أوربية . فلماذا ؟ لأن الزعماء السياسيين والعسكريين فى كل بلد فعلوا أشـــياء بعينها أفضت إلى تعبئات واعلانات حرب ، أو قصروا فى أداء أشياء بعينها كان يمكن أن تحول دون هذه التعبئات واعلانات الحرب . بهذا المعنى كانت كل البلدان الأوربيـة مسئولة عظمت هذه المسئولية أو ضؤلت . وبذا وجب أن نعدل عن الحكم الذي أصدرته معاهدة فرساي بأن ألمانيا وحلفاءها هم وحدهم المسئولون عن الحرب

فقد كان حكما انتزعه الغالب من المغلوب تحت تأثير العمى، والجهل والبغضاء ودعاية الحرب القائمة على سوء الفهم وقلة الأدراك . كان هذا الحكم قائماً على أدلة ناقصة لم تكن شافية دواماً . وقد أدرك صفوة المؤرخين فى كافة البلدان على وجه عام ان هذا الحكم ليس بما يقف على قدميه بعد الآن أو يمكن الدفاع عنه، واتفقوا على أن تبعة الحرب موزعة . لكنهم لايزالون على اختلاف كثير فيما يتعلق بنصيب كل بلد من هذه المسئولية ونسبة مايقع منها على كل فرد من الزعماء السياسيين والقادة العسكريين .

وان بعض الكتاب ليحبون أن يحددوا المسئولية عن الحرب بالضبط تحديداً ايجابياً فيلجأون الى عملية حسابية دقيقة . وهذا مافعله على أحد الوجوه واضعو المادة ٢٣١ من معاهدة فرســـاى . وغيرهم فعل ذلك على أوجه أخرى فوزعوا المسئولية توزيعاً نسبياً فاختصوا على سبيل المثال النمسا بالنصيب الأوفر ثم تليها الروسيا ففرنسا فألمانيا فانجلتره . بيد أن كاتب هذه السطور يعيذ مثل مجهوداته أن يكون الغرض منها تقييد هذه المسألة المعقدة جداً بصيغة دقيقة ؛ إذ كانت بعد كل شىء أدنى إلى أن تكون مسألة تظليل دقيق منها الى شىء يتبين فيه الأسود من الأبيض بشكل حاسم . والمبالغة فى تبسيط الأشياء أمر ينافى الدقة كما قال نابليون مرة عند وضعه قانونه . هذا إلى أنه إذا فرضنا أن فى الأمكان الوصول الى رأى متفق عليه على وجه عام فيما يتعلق بالمسئولية النسبية لأى بلد او رجل عن الأسباب المباشرة لأزمة يوليه ١٩١٤ فليس من المحتم بحـــال من الأحوال ان نفس هذه المسئولية النسبية تكون صحيحة بالنسبة للأسباب غير المباشرة التى ظلت سنين تعمل على إحداث حالة خطرة .

مع ذلك يصح أن نلخص فى إيجاز كثير أهم الوقائع البارزة فيما يتعلق بكل دولة . كانت صربيا تحس دافعاً طبيعياً جائزاً إلى أن تفعل ما فعلته بلدان كثيرة فى القرن التاسع عشر وهو ان تلم شمل الشعب الصربى

المتذمر تحت إشراف حكومة قومية . وقد حررت أولئك الذين كانوا تحت حكم الأتراك فكانت الخطوة التالية أن تحرر من هم تحت حكم هابسبورغ . وقد كانت تتطلع إلى الروسيا لمساعدتها وكانت تشجع على انتظار هذه المساعدة . فلما وقع حادث الاغتيال لم يتخذ المسيو باشتش اجراء ما للاستدلال فى بلغراد على الصربيين المشتركين فى المؤامرة وتقديمهم إلى المحاكمة . بل لقد أعين أحدهم وهو سيجانوفتش على الاختفاء . وقد انتظر المسيو باشتش ليرى ما يمكن أن تأتى به السلطات النمسوية من أدلة ، فلما طلبت النمسا أن يقوم بعض الموظفين النمسويين بمعاونة السلطات الصربية على اكتشاف الصربيين الضالعين فى المؤامرة لا محاكمتهم ردت عليها الحكومة الصربية بالرفض وإن كان بلهجة مسالمة جداً . وكانت هذه الحكومة تتوقع أن لا يقبل ردها فأمرت ، حتى قبل أن تعطى ردها ، بتعبئة الجيش الصربى . لم تكن صربيا تريد الحرب لكنها كانت تعتقد أنها سترغم عليها . ومن الحقائق الواقعة التى كانت النمسا تجهلها فى يوليه ١٩١٤ أن المسيو باشتش كان يعلم بالمؤامرة قبل تنفيذها بثلاثة أسابيع وأنه لم يتخذ إجراءات فعالة لمنع القتلة من اجتياز الحدود الصربية إلى البوسنة ، ولم يحذر النمسا أو يبلغها شيئاً ما كان يمكن أن يحول دون وقوع الجريمة المشئومة . وهذه الحقائق مما لا يبرر بحال من الأحوال مسلك النمسا لكنها تكون جانبا من مسئولية صربيا ؛ وجانبا خطيرا جداً .

والنمسا أكثر من أية دولة أخرى مسئولية عن السبب المباشر للحرب . ومع ذلك فقد فعلت ما فعلت دفاعا كما تقول عن النفس ، لا من اعتداء عسكرى مباشر وإنما من حملة تهييج لمصلحة صربيا الكبرى ويوجوسلافيا كانت تنخر جسمها ويعتقد قادتها انها تهدد كيانها . ولا يمكن أن ينتظر من دولة أن تقف مكتوفة اليدين تترقب تقسيمها على أيدى جيرانها . وقد كان يعتقد أن الروسيا تدس للمملكة الثنائية مع صربيا ورومانيا ؛ واغتيال وريث

العرش بمؤامرة دبرت فى بلغراد كان يتطلب عقاباً صارماً والا عدت النمسا عاجزة فتقل هيبتها وهى التى ينخر فى جسمها السوس على قول الصحف الروسية ويعجل بسقوطها. ولكى يحول برشتولد دون هذا صمم على سحق صربيا فى حرب ، فتعمد أن يصوغ البلاغ النهائى صيغة أمل معها وتوقع رفض هذا البلاغ ، وعجل باعلان الحرب على صربيا ليقطع الطريق على كل مسعى للتوسط . بل لقد أبى حتى أن يرد على توسلات حليفته بوجوب التفاهم مع الروسيا على قاعدة احتلال بلغراد عسكريا والاحتفاظ بها رهينة على انجاز صربيا ما وعدت فى ردها على البلاغ النهائى . وكان برشتولد يقامر معتمدا على حصر الحرب مع صربيا وحدها معتقداً أنه يستطيع أن يهدد بسيف ألمانيا ، وكان فى استمساكه بمحاربة صربيا لايحفل أن يجر بقية أوروبا إلى الحرب .

من المشكوك فيه جداً أن إصرار برشتولد وتصميمه على انتقاص صربيا والقضاء عليها باعتبارها ذات شأن فى البلقان — نقول من المشكوك فيه جداً أن هذا كان الطريق الأمثل حتى لو كان وفق إلى جعل الحرب محلية ونجح فى تقوية المملكة الثنائية مؤقتاً . فانه لو فرضنا أن الروسيا أطاقت فى سنة ١٩١٤ تنفيذ مشاريع برشتولد لعدم استعدادها من الوجهة العسكرية أو لحاجتها إلى التأييد فمن المؤكد كل التأكيد أنها كانت تسعى فى خلال السنتين أو الثلاث التالية إلى غسل هذه المذلة الثانية التى كانت خليقة أن تنال من هيبتها أكثر مما نالت مذلة سنة ١٩٠٨ — ١٩٠٩ . وفى سنتين أو ثلاث لم يكن ليعييها عند ما يكمل نهائياً برنامجها الكبير الخاص بالاصلاح العسكرى أن تجد بالتأكيد حجة تتذرع بها لتحويل التوازن فى البلقان لمصلحتها ثانية . ونتيجة أخرى لسياسة برشتولد فيما لو كانت نجحت هى أن يزداد الوفاق الثلاثى تماسكا مع احتمال انضمام إيطاليا اليه . وأخيراً فان صربيا التى تكون قد اقتطع منها بعض أراضيها تصبح اعظم مما كانت مصدراً للقلق والخطر على سلام اوربا ، وتمسى القومية الصربية كالقومية البولونية أشد وأقوى مما

كانت بما يكون قد نالها من التقسيم . اما قوة النمسا وهيبتها فلم يكن لينتظر ان تزيدا زيادة تمكنها من مواجهة هذين الخطرين . فخطة برشتولد كانت على ذلك مجرد تحسين مؤقت لا تسوية نهائية لخصومة النمسا وصربيا . وقد كان فرانتس فرديناند وكثيرون غيره يدركون هذا فلم يتخذ فى حياته إجراء مافى هذه السبيل المشئومة . والمحزن فى مصير النمسا أن الرجل الوحيد الذى كان يمكن أن تكون لديه السلطة والقدرة على تنشئة النمسا على أساس سليم هو الذى ذهب ضحية بريئة للجريمة التى سببت الحرب العظمى وأفضت بذلك إلى تمزيق النمسا تمزيقا نهائياً .

ولم تدبر ألمانيا الحرب الأوربية ولم تردها بل هى قد بذلت جهوداً أكيدة وإن كانت متأخرة لدفعها . وقد ذهبت ضحية تحالفها مع النمسا وجهالتها . وكانت النمسا حليفتها الوحيدة التى تعتمد عليها بعد أن أصبحت إيطاليا ورومانيا حليفتين بالاسم فقط فلم يكن يسعها أن تتركها وشأنها لأنها إذ ذاك تصبح فى عزلة بين الروسيا حيث الجامعة السلافية والتسلح يقويان على الدوام عاما فعاما ، وفرنسا حيث الالزاس واللورين وسقوط دلكاسيه وأغادير لم يبرح كله من الأذهان . ومن ثم أحس بيتمان أنه ملزم بأن يجيب برشتولد إلى ما سأله من تأييد فأطلق له حرية العمل فى مناقشة صربيا الحساب . وكان يأمل ويتوقع أيضاً أن يبقى النزاع محصوراً بين النمسا وصربيا . ثم جعلت ألمانيا دول الوفاق تسترىب فى خلوص نياتها السلمية بما نفته من سابق العلم بالبلاغ النهائى وبتأييدها له وتبريرها إياه بعد أن نشر ، وبرفضها اقتراح السير ادوارد غراى المتعلق بالمؤتمر . ومع ذلك فان ألمانيا لم يكن لها على النمسا هذا النفوذ الذى تصورته دول الوفاق وزعمه كثير من الكتاب . صحيح ان برشتولد كان يصعب أن يقدم على سياسة المقامرة التى أقدم عليها لو لم يكن متأكداً من أن ألمانيا ستقوم بالواجبات التى تفرضها عليها المحالفة ، وإلى هذا المدى يجب أن تشاطر ألمانيا النمسا مسئوليتها العظيمة .

بيد أنه لما تحقق بيتمان أن من المنتظر أن تتدخل الروسيا ، وأن انجلتره قد لا تلتزم الحياد ، وأن ثمت خطراً من نشوب حرب أوربية تظهر فيها ألمانيا والنمسا بمظهر المحرضتين عليها اجتهد فى وقف النمسا ولكن بعد فوات الأوان ، فكان يلح على فينا باقتراحات التوسط فلا يعبأ برشتولد بهذا الالحاح ولا يلين للضغط ؛ فضلا عن أن دول الوفاق لم تكن تؤمن بأن ألمانيا مخلصة فى هذا الضغط خاصة وهو لم يثمر ولم يسفر عن نتيجة .

وقد كان من شأن مركز ألمانيا الجغرافى ووقوعها بين فرنسا والروسيا وكون جيشها دون جيوشهما عدداً أن جعل خطة سحق الجيش الفرنسى أولا وبسرعة ثم التحول بعد ذلك ضد الروسيا أمراً ضرورياً . وقد كان هذا فى رأى واضعى خططها العسكرية ممكناً فقط باختراق بلجيكا كما كان العسكريون يتوقعون على وجه عام أن تفعله ألمانيا فى حالة نشوب حرب أوربية . . . وفى الواقع أن بيتمان كان آخر من قطع الرجاء فى السلم من الساسة وآخر من وافق على تعبئة الجيش فى بلاده . وقد جرت التعبئة العامة لجيوش القارة على الترتيب الآتى : صربيا ، فالروسيا ، فالنمسا ، ففرنسا ، فالمانيا . والتعبئة العامة متى قامت بها دولة عظمى كان معناها أن البلاد على وشك أن تحارب وأن الأداة العسكرية أخذت تتحرك ، ومتى تحركت فلن تقف . هذا ما كان يراه الرجال العسكريون فى كل بلد على وجه عام وان كان السير ادوارد غراى والقيصر وبعض الموظفين المدنيين ربما لم يكونوا على هذا الرأى . ومن هنا أرسلت ألمانيا بلاغيها النهائيين الى سان بطرسبورغ وباريس ... لما علمت بالتعبئة الروسية العامة ، فلما لم تتلق جواباً مرضياً عبأت وأعلنت الحرب . وقد كانت تلك التعبئة الروسية المتسرعة التى ووفق عليها فى ٢٩ يوليه وأمر بها فى ٣٠ يوليه بينما ألمانيا لاتزال تجتهد فى حمل النمسا على قبول اقتراحات التوسط هى التى جعلت الحرب الأوربية أمراً لا مناص منه .

وتنهض الروسيا بجانب من المسئولية عن النزاع النمسوى الصربى لتشجيعها

المتواصل لبلغراد وتمنيتها إياها بأن الوحدة القومية الصربية ستحقق فى النهاية بمساعدة الروسيا وعلى حساب النمسا . وهذا ماحدا بالوزارة الصربية الى الأمل فى معونة الروسيا فى حالة وقوع حرب مع النمسا . ولم يكن هذا الأمل فى غير موضعه كما ثبت فى يوليه ١٩١٤ . وقبل هذا التاريخ كانت الروسيا أثناء أزمة البوسنه وخلال حروب البلقان تكبح حركة صربيا لأنها — أى الروسيا — لم تكن ، وهى المنهوكة القوى من تأثير الحرب الروسية اليابانية ، قد استعدت بعد لصراع أوروبى مع الدولتين التيوتونيتين . لكنها فى سنة ١٩١٤ كانت قد تقدمت فى تسلحها — مع أنه لم يكن قد تم بعد — الى درجة أن رجالها العسكريين كانوا واثقين بالنجاح اذا ساعدتهم فرنسا وبريطانيا . وقد نشر سوخوملينوف وزير الحربية فى ربيع سنة ١٩١٤ مقالا فى إحدى الصحف الروسية لم يوقعه باسمه جاء فيه « أن الروسيا مستعدة فيجب أن تكون فرنسا مستعدة كذلك » . وكانت النمسا مقتنعة بأن الروسيا ستساعد صربيا فى النهاية إذا لم يعالج الخطر الصربى بهمة عقب مقتل الغراندوق . كانت تعلم أن الروسيا تزداد قوة سنة عن سنة لكنها كانت تشك فى أن تكون تسليحات القيصر قد بلغت النقطة التى تجرأ عندها الروسيا على التدخل . ولذا فقد كانت ترى أنها اذا تذرعت بمقتل الغراندوق لأضعاف صربيا تصبح أقل تعرضاً لخطر تدخل الروسيا والحرب الأوربية مما لو أجلت العمل الى المستقبل .

والروسيا مسئولة أيضاً بما كانت تتخذه من الاجراءات العسكرية التمهيدية سراً فى الوقت الذى كانت تقوم فيه بمفاوضات ديبلوماتيكية فأن هذه الاستعدادات أزعجت ألمانيا والنمسا وان كانت التعبئة الروسية العامة التى جرت بينما ألمانيا تحاول حمل النمسا على الوصول الى تسوية هى أول ما عجل بالكارثة الختامية إذ حملت ألمانيا على التعبئة وإعلان الحرب .

أما الدور الذى قامت به فرنسا فأقل جلاء من أدوار بقية الدول العظمى نظراً لأنها لم تنشر وثائقها كلها بعد . ومن المؤكد أن المسيو بوانكاريه أورد

فى الجزء الرابع من مذكراته للتدليل على « براءة فرنسا » حجة متقنة تنطوى على المهارة لكنها ليست مقنعة . فأن من الجلى كل الجلاء أنه أثناء زيارته للروسيا أكد لحكومة القيصر أن فرنسا ستعضدها كحليفة فى منع النمسا من إذلال صربيا أو سحقها . وقد جدد باليلوج هذه التأكيدات فى صورة تشجع الروسيا على الثبات فلم يحاول صد الروسيا عن اتخاذ الاجراءات العسكرية التى كان يعلم أنها ستدفع ألمانيا الى مقابلتها بالمثل وتحدث الحرب . ولم يبلغ حكومته فى الحال ما كان يتخذ فى سان بطرسبورغ من الاجراءات العسكرية ولم يحطها بها احاطة تامة . وقد بذل الرئيس بوانكاريه عقب عودته الى فرنسا جهودا فى سبيل السلام لكن أهم ما كان يشغله هو التخفيض من شأن الاستعدادات الفرنسية والروسية وتوكيد استعدادات ألمانيا ليستوثق من تأييد بريطانيا فى عراك كان يعتبر إذ ذاك ألا مفر منه .

وكان السير ادوارد غراى مخلصاً فيما قدمه من افتراحات كثيرة للمحافظة على السلام . وقد فشلت كلها وكان بعض فشلها لا كله يرجع الى موقف ألمانيا . وقد كان فى وسع السير ادوارد فى الراجح أن يدرء الحرب لو أنه فعل شيئاً من اثنين : لو أنه والأزمة فى بدايتها رضخ لألحاح فرنسا والروسيا فأنذر ألمانيا إنذاراً شديداً بأنه اذا وقعت حرب أوربية فستنحاز انجلتره الى جانب المحالفة الفرنسية الروسية ، لكان من الراجح أن يؤدى هذا بيتمان الى التبكير بالضغط على النمسا ضغطا أكثر تأثيراً . ولكان هذا ربما حال دون إعلان النمسا الحرب على صربيا وأدى بالمحادثات المباشرة بين فينا وسان بطرسبورغ الى نتيجة موفقة . أو لو أن السير ادوارد غراى أصغى الى حض ألمانيا وأنذر فرنسا والروسيا فى بداية الأزمة بأنهما إذا دخلا حرباً التزمت انجلتره الحياد لكان من المرجح أن تتردد الروسيا فى التعبئة ولكان مرجحاً أيضاً أن تؤثر فرنسا فى سان بطرسبورغ تأثيراً يصدها عما كانت ماضية فيه . لكن السير ادوارد غراى لم يكن يستطيع أن يقول إن انجلتره ستنحاز الى صف فرنسا

والروسيا لأن وزارته كانت منقسمة تقريباً الى فريقين متساويين ولم يكن واثقا فى بداية الأزمة من أن الرأى العام فى انجلتره يؤازره فى حرب ضد ألمانيا . . . لذلك أبى برغم توسلات الفرنسيين أن يعطيهم تأكيدات باتة حتى بدا من جانب ألمانيا تصميمها الراجح على اختراق بلجيكا فظهر له أن الوزارة والبرلمان والرأى العام البريطانى سوف يظاهرونه فى حرب ضد ألمانيا . ومن جهة أخرى فقد كان يكره أن يصغى الى توسلات ألمانيا بأن يضغط على باريس وسان بطرسبورغ لأنه لم يكن يرغب فى أن يعرض الوفاق الانجليزى الروسى للخطر ويزلزل الوفاق الثلاثى . ذلك بأنه كان يحس أن عليه واجباً أدبياً نحو فرنسا ناشئاً من المحادثات الحربية البحرية التى دارت فى السنوات الماضية بين انجلتره وفرنسا . ولأنه كان يشتبه فى أن ألمانيا تؤازر النمسا على مسلك ليس ما يبرره وأن العسكريين البروسيين انتزعوا من أيدى الهرفون بيتمان هولفيج والسلطات المدنية إدارة الشئون فى برلين .

وايطاليا لم يكن لها تأثير يذكر فى الأزمة سواء فى هذه الناحية أو تلك .

وبلجيكا لم تفعل شيئاً من شأنه أن يبرر ما طلبته ألمانيا منها . وقد كانت الضحية البريئة للضرورة العسكرية الألمانية . ومع أن استباحة ألمانيا للبلجيك كانت ذات تأثير هائل فى تكون رأى عام فيما يتعلق بتبعة الحرب بعد أن بدأ القتال ، فأن هذه الاستباحة لم تكن سبباً من أسباب الحرب اللهم إلا كونها قد سهلت على السير ادوارد غراى إدخال انجلتره فيها .

* * *

فى خلال الأربعين السنة التى تلت الحرب الفرنسية البروسية تطور ، كما رأينا ، نظام للمحالفات شطر اوربا فريقين متعاديين اشتدت عداوتهما بازدياد التسلح والتنافس الاقتصادى وتفاقمت بالمطامع والخصومات القومية وتحريض الصحف . لكنه من المشكوك فيه جداً ان تكون كل هـــذه النزعات الخطرة مؤدية الى الحرب لو ان فرانتس فرديناند لم يقتل فأن اغتياله

كان العامل الذى شد بين عوامل العداوة واطلق سلسلة الحوادث السريعة المعقدة التى ختمت بالحرب العالمية . والمسئولة عن هـــذا العامل أولا هى الحركة الوطنية المصرية .

بيد أن حكم معاهدة فرساى بأن ألمانيا وحلفاءها هم المسئولون عن الحرب حكم فاسد من الوجهة التاريخية ولما هو ميسور الآن من الأدلة . ومن ثم وجب تعديله . على أنه من المشكوك فيه أن يكون عمليا تعديل هذا الحكم الآن تعديلا رسميا قانونيا وذلك بالنظر الى الشعور الشعبى الشائع فى بعض بلدان « الوفاق » . فيجب أولا ان يقوم المؤرخون بهذا التعديل ليتعدل به الرأى العام .

انتهى


Bibliotheca Alexandrina
0413469